

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
الدراسات العليا العربية

مراتبُ إقبال الذِّكر الحكيم على أولي العزم ومقاماتُها عند الحرالِّيِّ بين الاقتضاء وطرائق التعبير

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في اللُّغة العربية وآدابها تخصص (البلاغة والنقد)

إشراف: أ. د. محمود توفيق محمد سعد
أستاذ البلاغة والنقد في كلية اللُّغة العربية – جامعة أم القرى

إعداد الطالبة: سهير بنت عيسى مرعي القحطاني
الرقم الجامعي: (٤٣٠٧٠٠٧٥)



١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م




بسم الله الرحمن الرحيم



ملخص البحث باللغة العربية

قدمت هذه الرسالة التي هي بعنوان: "**مراتبُ إقبال الذِّكر الحكيم على أولي العزم ومقاماتُهاعند الحرالِّيِّ بين الاقتضاء وطرائق التعبير**" إلى كلية اللُّغة العربية بجامعة أم القرى، من الباحثة: سهير بنت عيسى مرعي القحطاني؛ لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد.

وفكرة موضوعها تقوم على: بيان مراتب الإقبال على أولي العزم من الرسل بين تقعيد الحرالِّيِّ ونظم القرآن، ويدور موضوعها حول بلاغة القرآن في التعبير عن الإقبال على أولي العزم من الرسل تقعيدًا وتحليلًا.

كما يهدف البحث إلى الإجابة عن تساؤلات عدة منها:

- الكشف عن منازع فكر الحرالِّيِّ، وتتوقه في مراتب الإقبال.
- العمل على بيان أسباب تعدُّد مراتب الإقبال، واختلافها بين أسلوب القرآن وضوابط الحرالِّيِّ.
- وضع مقامات، وأساليب إقبال الذكر الحكيم- باختلاف مراتبه - في أطر عامة تكون قاعدة يطرد تحتها ما يماثلها مقامًا وأسلوبًا.

والرسالة تقع في فصلين رئيسين، تسبقهما مقدمة وتمهيد، وتقفوهما خاتمة، وفهارس تفصيلية:

الفصل الأول: مرتبة صفاء الإقبال.

الفصل الثاني: مرتبة شوب الإقبال.

ومن أهم نتائج البحث:

- نزوع فكر الحرالِّيِّ للنظرة الكلِّية للأساليب العالية، ووجه بيانها.
- اطراد أساليب القرآن في بيان الإقبال على الأنبياء من أولي العزم اطرادًا متناسبًا.

ويوصي البحث بتوصيات عدة منها: متابعة العمل؛ لإخراج مشروع بحثي متكامل يكشف عن بلاغة موازية لبلاغة الخطيب؛ لوضع ضوابط محددة في إعجاز القرآن، والعمل على دراسة بقية أبواب رسالة الحرالِّيِّ؛ لاستكمال الجزئيات والكليات.

ABSTRACT

This study, which is entitled: "Marateb Iqbal Al-dhekr Al-hakeem ala oly Al-azm wa Maqamataha end Al-Harali bain Al-iqtedhaa wa Tara'q Al-ta'beer" submitted to the Faculty of Arabic Language in Umm Al-Qura University by the researcher Suheir bint Isa Marei al-Qahtani in fulfillment of the requirement for the degree of Doctor of rhetoric and criticism.

The idea of the dissertation is based on the ranks clarification of the honoring of Oly Al-azm min Al-rosol between Al-Harali rules and the Qur'anic systems. The theme revolves around the eloquence of the Qur'an in the expression of the honoring of oly Al-azm min Al-rosol in rules and analysis.

The research deals with several ideas, including:

- Detection of Al-Harali' ideas and his taste of honoring ranks.
- The reasons of multiple honoring ranks, and the difference between the Qur'anic systems and Al-Harali's rules .
- Develop a framework of the different Qur'anic honoring systems in order to discover a rule.

The research lies in two main chapters preceded by an introduction and followed by a conclusion and appendixes.

Chapter I: The rank of pure honoring.

Chapter II: The rank of impure honoring.

The most important results are:

- The tendency of Al-Harali to the overall look of the high techniques.
- The regularity of the Qur'anic system in declaring the honoring on the apostles of oly Al-azm.

The research suggests several recommendations, including: follow-up the work to take out an integrated research project reveals parallel eloquence to Khatib's eloquence; to establish specific controls in the miracle of the Holy Qur'an, and to study the rest of the chapters of Al-Harali's thesis to complete the micro and macro structures.

المقدّمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة للعالمين محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين .

أما بعد: فما من علم إلا له ضوابط وأسس كلّية حاكمة له، في جانبيه النظري والتطبيقي، وإذا كان السكاكي قد قام بتقعيد الجانب النظري من علم البلاغة، وفق ضوابط محكمة وقواعد متقنة، فقد بقي الجانب التطبيقي رحبًا متسعًا لوضع قواعدَ ضابطة لمجال القول في بيانه العالي.

وقد كان للحرالّيّ اجتهادات خاصة في تأسيس ووضع قوانين علم جديد لفهم بلاغة القرآن، مثل القوانين التي وضعها أبو الأسود الدؤلي لعلم النحو، والإمام الشافعي لعلم أصول الفقه.

وقد صرح الحرالّيّ بذلك ونسب الأمر إلى شيخه أبي عبدالله القرطبيّ في قوله: "كان يفيد قوانين في التطرق إلى الفهم، تنزّل في فهم القرآن منزلة أصول الفقه في تفهم الأحكام"[1].

وقد جعل هذه القوانين في فهم القرآن موضوع رسالته الأولى التي سماها: "**مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل**" والحرالّيّ يحاول فيها أن يُعين على فهم القرآن بطريق التّعامل مع النّصّ، بالولوج إلى اللبّ والمقصد والجوهر المتعلق بالإنسان وتَرقّيه في السلوك والأخلاق.

ولعل ما كتبه الحرالّيّ يمثل خطًا غائبًا في درس البلاغة القرآنية ولاسيما في عصرنا، وتنبع أهميته من البعد التأسيسي، ومحاولة التقعيد لنمط من الفهم الذوقي العميق لبلاغة القرآن من رؤيته الكلية له لا في ذاته فحسب، بل -أيضًا- في ضوء الصلة بين الله والإنسان[2].

---

(١) "مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل" ضمن كتاب "تراث أبي الحسن الحرالّيّ المراكشي في التفسير"، على ابن أحمد الحرالّيّ، ط١، مطبعة النجاح، الدار البيضاء ١٤١٨هـ ١٩٩٧م: ٢٨.

(٢) انظر: "رسائل أبي الحسن الحرالّيّ في قوانين فهم القرآن" د.عبدالرحمن الشهري موقع ملتقى أهل الحديث الإلكتروني، ١٩/٣/١٤٣١هـ.

ومن ثم اخترت باب الإقبال على أولي العزم[1] من الرسل خاصة لدراسة الأصول الكلية لنظم القرآن على نحو من فكر الحرالّيّ، تطبيقًا على القرآن الكريم، ومن هنا كان عنوان الدراسة: "**مراتبُ إقبال الذِّكر الحكيم على أولي العزم ومقاماتها عند الحرالّيّ بين الاقتضاء وطرائق التعبير**" محاولة لتتبع ما ورد في الباب الثامن من رسالة: "**مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل**" في وجوه الإقبال والإعراض والكشف عن الأصول والقواعد التي ذكرها لرتب الإقبال؛ لتأخذ مكانتها التأسيسية والإبداعية، التي يمكن أن تثري الدرس البلاغيّ المعاصر للبيان القرآني المعجز، انطلاقًا من كلام الحرالّيّ واحتكامًا بنظم الذِّكر الحكيم في بيان صوابها وانضباطها.

سائلة المولى -جلَّ وعلا- التوفيق والسداد.

(١) اختلفت آراء العلماء في تعداد أولي العزم من الرسل على أقوال: وأشهرها أنهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد -صلوات الله عليهم وسلامه"- انظر: "شرح العقيدة الطحاوية" علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي. ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م: ٦/٧. و كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة" نخبة من العلماء، ط١، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤٢١هـ: ٢٧٧.

مجالات البحث وتساؤلاته:

١) الكشف عن منازع فكر الحرالّيّ وتذوقه في مراتب الإقبال.

٢) العمل على بيان أسباب تعدُّد مراتب الإقبال واختلافها بين أسلوب القرآن وضوابط الحرالّيّ.

٣) الكشف عن مثير الفروق بين المراتب، ووجوهها في الإقبال على أولي العزم.

٤) وضع مقامات وأساليب إقبال الذكر الحكيم – باختلاف مراتبه – في أطر عامة تكون قاعدة يطرد تحتها ما يماثلها مقامًا وأسلوبًا.

٥) التعمق في بيان الفروق بين رُتب الإقبال على أولي العزم الخمسة: (نوح – إبراهيم – موسى – عيسى – محمد) عليهم الصلاة والسلام في نظم الذِّكر الحكيم، التي تدل على دقة وبلاغة القرآن الكريم في خطابه من جهة، وعلى تفاوت رتب هذا الخطاب بحسب إقبال الإنسان على ربه وصلته به من جهة أخرى.

٦) دقة النظر في حال المخاطب والمقام الذي ورد فيه الإقبال؛ لمعرفة رتب الإقبال، ولا يتوقف النظر عند ذلك، بل لابدَّ من النظر إلى الدقة المتناهية في اختيار أسلوب الإقبال، وبلاغة انتظام عبارا ته، وتلاؤمها الشديد مع مكانة المقبل عليه سواء كان الإقبال صريحًا أو مشوبًا بإعراض، أوعلى خلاف الظاهر.

٧) بيان تفرد الرسول –ﷺ– بأسلوب العدول في الإقبال عند الحرالّيّ.

٨) بيان مناط اختلاف فهم الحرالّيّ للعدول في الإقبال عن فهم جمهور العلماء.

وكل ذلك يفتح أمام الدارس تساؤلات متعددة بتعدد أقسام البحث منها:

١) مايختص بالحرالّيّ وفكره:

– ما منازع فكره التي غايرته عن فهم الجمهور؟

– كيف فهم مراتب الإقبال؟

٢) ومنها ما يختص بمراتب الإقبال:

– ما سر مجيئ الإقبال صريحًا تارة، ومشوبًا بالإعراض ثانية، وعلى خلاف الظاهر ثالثة؟

– ما مثير الفروق بين المراتب؟ وما وجوهها في الإقبال على أولي العزم؟

– هل لتعدد المراتب ضابط؟

– هل للمخاطب أثر في اختلاف الرتبة؟

– هل تتفاوت الرتب مع المخاطب الواحد؟

– هل للمقام أثر في اختلاف الرتبة؟

- أيلزم الإقبال مقامات موحدة في كل الرتب، أم لكل رتبة مقام تقتضيه؟
- هل لطرائق التعبير أثر في بيان رتب الإقبال؟
- هل هناك تعاضد بين النسق اللفظيّ والنسق المعنويّ [1] لبيان رتب الإقبال.

٣) ومنها ما يتصل بأولي العزم –صلوات الله عليهم– والأساليب المستعملة مع كل منهم:

- هل لكل نبي من أولي العزم – صلوات الله عليهم– خصوصية تميّزه عن غيره في الإقبال معنى ومبنى؟
- هل هناك أساليب مطردة تدور مع كل رتبة وكل مخاطب تكاد لا تجاوزه؟
- ما أساليب الإقبال التي اختص بها النبي محمد– ﷺ–؟

٤) ومنها ما هو خاص بفهم الحرالّيّ المتفرد لمرتبة العدول في الإقبال :

- هل ورد العدول في الإقبال مع كل الأنبياء من أولي العزم؟
- ما ضابط الحرالّيّ في هذه الرتبة؟
- ما المقامات التي وردت فيها هذه الرتبة؟

دواعي البحث وبواعثه:

لهذه الدراسة دواع وبواعث عدة، أذكر منها:

١) الرغبة في جعل هذه الدراسة فاتحة لدراسات أخرى تعمل على إخراج الأسس والضوابط التي وضعها الحرالّيّ، لاسيما أنّه لم يتعرض أحدٌ من الباحثين – فيما أعلم– للفكر البلاغيّ عند الحرالّيّ جملةً أو تفصيلًا.

٢) الكشف عن ضوابط جديدة؛ لفهم بلاغة خطاب إقبال القرآن على أولي العزم .

٣) بيان أثر التناسق بين النسق المعنوي والنسق اللفظي في بيان رتب الإقبال.

٤) إبراز بلاغة الذّكر الحكيم في استعمال أسلوب العدول في الإقبال.

٥) إبراز بلاغة انتظام خطاب الإقبال بالإعراض في الذّكر الحكيم.

٦) الكشف عن اطراد الأساليب المستعملة في كل رتبة تبعًا للمخاطب والمقام.

٧) المقارنة بين تفاوت مراتب الإقبال، سواء عند المخاطب الواحد، أوعند مخاطبين مختلفين.

٨) وضع قواعد كلّية لأسلوب الإقبال على أولي العزم من الرسل–عليهم صلوات الله وسلامه–

---

(١) النسق اللفظي والمعنوي: مايقابل السياقين: اللغوي– النظم والتركيب– والحالي– المقام.

منهج البحث:

آثرت اتباع المنهج البياني المعتمد على الاستقراء والتّحليل والتّعليل والمقارنة.

أما الاستقراء فسيكون شاملًا- بإذن الله- لكل ما يظهر لي أنّه موضع للإقبال على اختلاف مراتبه، وسيكون التّحليل مركزًا على موضع الإقبال في النظم وما عداه سيكون تحليله تبعًا لخدمته لهذا الإقبال.

وأداة التّحليل: البدءُ باللفظ المفرد ابتداءً بتحليل صوته، وانتهاءً بالتناسب اللفظي بينه وبين غيره، ثم المرور بتحليل اختيار مادة الكلمة، وبنائها منتهية بالجملة، وهكذا للوصول إلى طابع الإقبال في القرآن كلّه عن طريق الخطوات الآتية:

١) ترتيب المواضع في كل مقام تبعًا لكثرة ورودها، مع العناية بضم النظير إلى نظيره في المقام والأسلوب.

٢) وضع كليات للمواضع عند جمعها، والتصريح بذلك، وذلك أدعى لضبط القاعدة ومن ثم فهم المراتب.

٣) بيان التفاوت بين المراتب، ثم التعليل لها من خلال إظهار التناسب بين أسلوب الأداء وبين المقبل عليه واختلافها مع اختلاف المخاطب أو الحال، تبعًا للاختلاف القائم بين السياقات المتعددة سواء ما يتعلق بالسياق الكلّي للسورة، أو للنمط القرآني، أو للسياق الجزئي الخاص بموضع التحليل.

٤) المقارنة بين مواضع الإقبال انطلاقًا من الاقتضاء وطرائق التعبير.

وهذا هو أساس النظر البلاغي في كل بيان بليغ، وكل ذلك خدمة للمعنى كشفًا وتذوقًا، فجميع الدّراسات للبيان البليغ -على تنوع أجناسه- غايتها كشف المعنى، وتقريبه وتقريره في النفوس.

وسأعقد المقارنة - بإذن الله- بين الرُّتب على وجهين:

أولهما: بيان تفاوت الرُّتب عند المخاطب الواحد.

وآخرهما: بيان تفاوت الرُّتب بين أكثر من مخاطب.

ولم أقف عند حدود التحليل، وإنما علّلت لكل موضوع اختلف عن الآخر بما يتناسب مع جوانب النظم والأسلوب القرآني، وبما يتلاقى مع مرتبة المخاطب.

تأصيل المنهج:

ويتجلى هذا المنهج في طريقة فهم الإمام "عبدالقاهر" للنظم العالي في كتابيه: دلائل الإعجاز، وأسرارالبلاغة، فقد بيّن طريقته في تتبع خصائص التراكيب، فأصّل للمنهج البياني بقوله في الدلائل: "وإذا كان هذا هكذا علمت أنّه لا يكفي في علم الفصاحة أن تنصب لها قياساً ما، وأن تصفها وصفاً مجملاً، وتقول فيها قولاً مرسلاً، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصّل القول وتُحصّل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرضُ في نظم الكلم وتعدَّها واحدةً واحدة، وتسميها شيئاً شيئاً، وتكون معرفتك معرفة الصَّنع الحاذِق الذي يعلم عِلْمَ كل خيطٍ من الإبريسم الذي في الديباج، وكلّ قطعةٍ من القطع المَنجورة في الباب المقطَّع، وكل آجُرَّة من الآجُرّ الذي في البناء البديع".[1]

ويؤصّل لمنهج التعليل –الذي نهجته لبيان سبب علوّ مرتبة عن أخرى– ما نص عليه – من وجوب تعليل الاستحسان في الحكم أو الاستقباح، بعلّة تكون معقولة للناس معلومة لديهم– وذلك في قوله: "وجملة ما أردت أن أبيّنه لك: أنّه لا بدّ لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجيده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهةٌ معلومةٌ وعلّةٌ معقولةٌ، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل.

وهو باب من العلم إذا أنت فتحته اطّلعت منه على فوائد جليلة، ومعانٍ شريفة، ورأيت له أثراً في الدين عظيمًا، وفائدةً جسيمة، ووجدته سببًا إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل وإصلاح أنواع من الخلل فيما يتعلق بالتأويل، وإنّه ليُؤمنك من أن تغالط في دعواك، وتدافع عن مغزاك، ويربأ بك عن أن تستبين هدى، ثم لا تهتدي إليه، وتدلّ بعرفانٍ ثم لا تستطيع أن تدُلّ عليه وأن تكون عالمًا في ظاهر مقلِّد، ومستبيناً في صورة شاكٍّ، وأن يسألك السائلُ عن حُجّةٍ يلقى بها الخصمَ في آية من كتاب الله –تعالى– أو غير ذلك فلا ينصرف عنك بمقنع، وأن يكون غاية ما لصاحبك منك أن تحيله على نفسه، وتقول: قد نظرتُ فرأيت فضلاً ومزيّة، وصادفت لذلك أريحيّة، فانظر لتعرف كما عرفت، وراجع نفسك، واسبر، وذُق، لتجد مثل الذي وجدت، فإن عرفت فذاك، وإلا فبينكما التَّناكر، تنسبه إلى سوء التأمّل، وينسبك إلى فساد في التخيّل".[2]

كما نصّ على أن عمود النظم هو معرفة الفروق الدّقيقة بين الكلام المشتبه، وهذا ما نهجته في المقارنة بين أولي العزم في اختلاف رتب وأساليب الإقبال، حيث اشترك الجميع في الإقبال من المولى عليهم واختلفوا في المرتبة، ومن ثم اختلف أسلوب الإقبال عند كل منهم، وذلك في قوله: "وإذ قد عرفت أن مدار أمر "النظم" على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن

---

(١) دلائل الإعجاز" عبد القاهر الجرجاني، ت: محمود شاكر، ط١، ٢٠٠٤م، مكتبة الخانجي، القاهرة: ٣٧.
(٢) السابق: ٤١.

تكون فيه، فاعلم أنّ الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهايةٌ لا تجد لها ازدياداً بعدها، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يُوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض.

تفسير هذا: أنه ليس إذا راقك التنكير في "سؤدد" من قوله: "تنقّل في خلقي سؤدد"، وفي "دهر" من قوله: "فلو إذ نبا دهر" ، فإنه يجب أن يروقك أبداً وفي كل شيء، ولا إذا استحسنت لفظ ما لم يُسمَّ فاعله في قوله :"وأنكر صاحب"، فإنه ينبغي أن لا تراه في مكان إلا أعطيته مثل استحسانك هاهنا. بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع، وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤم، وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تُعمل منها الصور والنقوش، فكما أنك ترى الرجل قد تهدّى في الأصباغ التي عمل منها الصُّورة والنقش في ثوبه الذي نسج، إلى ضرب من التخيُّر والتدبُّر في أنفس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها، إلى ما لم يتهدَّ إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورتُه أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخّيهما معاني النحو، ووجوهه التي علمت أنها محصول النظم".[1]

وذكر في كتابه أسرار البلاغة أنّ معرفة كيفية اتفاق المعاني واختلافها هو جوهره الذي أراد بيانه وتحصيله، وهذا أصل رئيس اعتمدته لتوجيه اختلاف المراتب، وتلك قوله: "واعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته، والأساس الذي وضعته، أن أتوصّل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف وتتفق، ومن أين تجتمع وتفترق، وأفصّل أجناسها وأنواعها، وأتتبّع خاصّها ومُشاعها، وأبيّن أحوالها في كرم منصبها من العقل، وتمكنها في نصابه، وقرب رحمها منه، أو بعدها حين تُنسب عنه، وكونها كالحليف الجاري مجرى النّسب، أو الزّنيم الملصق بالقوم لا يقبلونه، ولا يمتعضون ولا يذبون دونه.

وإنّ من الكلام ما هو كما هو شريف في جوهره كالذهب الإبريز الذي تختلف عليه الصور وتتعاقب عليه الصناعات، وجُلُّ المعوّل في شرفه على ذاته، وإن كان التصوير قد يزيد في قيمته ويرفع من قدره، ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من موادَّ غير شريفة فلها – ما دامت الصورة محفوظةً عليها لم تنتقض، وأثر الصنعة باقيًا معها لم يبطل– قيمةٌ تغلو، ومنزلة تعلو، وللرغبة إليها انصبابٌ، وللنفوس بها إعجاب، حتى إذا خانت الأيام فيها أصحابها، وضامت الحادثاتُ أربابها، وفجعتهم فيها بما يسلبها حُسنها المكتسب بالصَّنعة، وجمالها المستفاد من طريق العرض، فلم يبق إلا المادّة العارية من التصوير، والطِّينة الخالية من التشكيل سقطت قيمتها،

(١) السابق: ٨٧، ٨٨.

وانحطت رتبتها، وعادت الرّغبات التي كانت فيها زُهدًا، وأوسعتها عيونٌ كانت تطمح إليها إعراضاً دونها وصدًّا، وصارت كمن أخطاه الجدُّ بغير فضلٍ كان يرجع إليه في نفسه، وقدّمه البخت من معنى يقضي بتقدّمه، ثم أفاق فيه الدهر عن رقدته، وتنبّه لغلطته، فأعاده إلى دقة أصله، وقلة فضله.

وهذا غرضٌ لا يُنال على وجهه، وطلبةٌ لا تدرك كما ينبغي، إلا بعد مقدمات تقدم، وأصول تمهّد، وأشياء هي حقُّها أن تُجمع ، وضروب من القول هي كالمسافات دونه، يجب أن يُسار فيها بالفكر وتقطع". (١)

الدراسات السابقة:

على طول بحث ومراجعة لم يتيسر لي العلم بدراسة علمية في الموضوع الذي أعمد إلى دراسته؛ "**مراتبُ إقبالِ الذِّكر الحكيم على أولي العزمِ ومقاماتُها عند الحرالِّيِّ بين الاقتضاء وطرائق التعبير**" من جانبيه الرئيسين سواء فيما يتصل بفكر الحرالِّيّ في الإقبال، أو بالمراتب على وجه العموم في الخطاب، فلا توجد دراسة – على حد علمي– عنيت بهذين الجانبين على القصد الرئيس.

أما رسالة "**خطاب الأنبياء في القرآن الكريم**" المقدمة من الباحث: عبد الصمد عبدالله محمد، للحصول على درجة الدكتوراه، كلّية اللغة – قسم الأدب والبلاغة والنقد بجامعة أم القرى لعام ١٤١٥هـ/١٩٩٥م التي تكونت من تمهيد وبابين؛

الأول: خطاب الأنبياء في القرآن الكريم.

والآخر: الخصائص التركيبية والصورة البيانية.

فإن كانت التقت مع دراستي في كونها في خطاب الأنبياء في القرآن إلا أنّ الدراستين مختلفتان في مادة البحث وطبيعته.

أولاً: الاختلاف في المادة:

اقتصرت الرسالة على خطاب الأنبياء لأقوامهم وجواب أقوامهم عليهم، ولم يأت في موضع منها خطاب الله للأنبياء، ومن ثم اختص مجالها بخطاب البشر للبشر المحكي في القرآن، وهذا مخالف تماما لمادة بحثي ومجاله؛ حيث يقوم أساسًا على خطاب الله للأنبياء إقبالًا عليهم

---

(١) أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني، ت: محمود شاكر، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٤م: ٣٦.

منه سبحانه، ومجاله دائر حول تفاوت رتب الإقبالات من الله عليهم تبعًا لعوامل متعددة، ومن ثم فلا وجه للشبه بين الدراستين البتة.

أما ثانيًا: طبيعة الدراستين مختلفة – أيضًا – فضلًا عن تفاوتهما في المادة حيث تقوم دراستي على أساسين:

أولهما: أنها في الإقبال في إطار فكر الحراليّ .

ثانيهما: تفاوت المراتب وأساليبها، وهذا مباين للرسالة السابقة حيث قامت على تحليل جزئي للآيات التي خاطب الأنبياء فيها أقوامهم، ثم تقعيد ذلك على أبواب البلاغة المعروفة من علم المعاني والبيان والبديع.

وأما صنيع السّيد محماديّ الخياطي المطبوع فيتمثل في تحقيق الرسائل الثلاث للحراليّ (المفتاح والعروة والتوفية والتوشية) ثم جمع نقول البقاعي لمقولات الحراليّ من تفسيره.

والمحماديُّ لم يعرض فيما نشر لشيء من منهاج الحراليّ عامة فضلا عن منهاجه في موضوع بحثنا.

وقد سبق السّيِّد محماديّ الخياطي إلى تحقيق رسائل الحراليّ الشيخ عبد الظاهرعبدالكريم حسين من علماء الأزهر الشريف، والمحقق لم يقم بدراسة الرسائل، ولا بيان منهاج الحراليّ فيها مكتفيًا بذكر شيء من ترجمة حياة أبي الحسن الحراليّ، وهذا مما يجعل دراستي في محل الخصوصية والتفرد في هذا الموضوع، والله هو المستعان على طاعته.

خطة البحث:

هذا وقد اقتضى موضوع البحث: "**مراتبُ إقبال الذِّكر الحكيم على أولي العزم ومقاماتُها عند الحراليِّ بين الاقتضاء وطرائق التعبير**" وأهدافه والمنهج المتبع في تناوله أن تمضي خطته في فصلين، تتقدمهما مقدمة وتمهيد للبحث في مبحثين، وتقفوهما خاتمة للبحث وفهارس.

المقدمة: تحوي مجالات البحث، وتساؤلاته، ودواعي دراسته، ومنهجه والدراسات السابقة.

التمهيد: وفيه مبحثان:

المبحث الأول: صورة موجزة عن الحراليِّ ومنازع فكره.

المبحث الثاني: مراتب الإقبال عند الحراليِّ بين أسس التعدد وتنوع الوجوه.

الفصل الأول: مرتبة صفاء الإقبال، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: صريح صفاء الإقبال.

المبحث الثاني: العدول في صفاء الإقبال.

الفصل الثاني : مرتبة شوب الإقبال، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: شوب الإقبال باعتبار حال المخاطب.

المبحث الثاني: شوب الإقبال باعتبار حال غير المخاطب.

- خاتمة البحث: وتتضمن أهم نتائج البحث وتوصيات الباحثة.
- الفهارس الفنيَّة.
- قائمة المصادر والمراجع .

وبعد:

فمن تمام المنَّة وكمال النعمة أنْ هيأ الله لي عالمًا جليلًا، وأستاذًا فاضلًا تعهد بحثي بالرعاية، وأولاني عناية علمية ألا وهو أستاذي الأستاذ الدكتور:(**محمود توفيق محمد سعد**) فبارك الله له في علمه وعمله.

ولايخفى أنَّ أيَّ عمل بشري يعتريه النقص، فما كان في بحثي من فضل فمن الله، وما كان فيه من نسيان أو تقصير فمن نفسي ومن الشيطان.

هذا والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد -ﷺ- وعلى آله وصحبه، ومن والاه بإحسان إلى يوم الدين.

التَمهيْد

التمهيد :

المبحث الأول: صورة موجزة عن الحرالّيّ ومنازع فكره

أولًا: اسمه ومولده:

هو أبو الحسن أحمد بن الحسن بن إبراهيم الحرالّيّ التجيبي، كان بدء أمره بمراكش، ثم رحل إلى المشرق [(١)].

ولم تشر المراجع إلى تاريخ ولادته الزمني، وقدره الدكتور محماديّ الخياطي بتتبع تاريخ شيوخه، بأنّه كان في أوائل النصف الثاني من المائة السادسة للهجرة[(٢)].

وقد استوفى ما هو متوفر بمراكش من العلوم، ثم ضرب الأرض غربًا وشرقًا لطلب العلم، وكان ثمرة من ثمرات الجنى الأندلسي الذي انتشر في بلاد العرب والمسلمين، وفي أنحاء الدنيا يقدم القطوف الأندلسية المطعمة بطعوم مغربية ومشرقية[(٣)].

وهذه الحياة المغربية والأندلسية أثّرت -ولاشك- في فكر الحرالّيّ، خاصة في منهجه في التفسير وإذا كان لها أثر بيّنٌ في التفسير من حيث النظرة الكلية، فإنّ لها أثرًا جليًا في تتبع الحرالّيّ لأسلوب القرآن وبلاغته تتبعًا يبين عن القواعد الكليّة التي بها امتاز أسلوب القرآن عن غيره.

كما أنّ لها أثرًا واضحًا في التلازم الفكري عند الحرالّيّ في تتبعه لأساليب القرآن؛ حيث نظر إليها نظرة كلية كما سنرى، ومن ثمّ امتاز فكر الحرالّيّ في رسالته: "**مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزّل**" بالخواص الكليّة والتسلسل اللزومي بين أجزائه نتيجة طبعية لمنازع فكره، وطبيعة حياته – على نحو نراه مفصلًا إن شاء الله- حيث تجلّى فيه فكره الكلّي المعتمد على القياس، والدليل، والتعبير عن ذلك بعبارة مركزة، وهذا من تأثير المنطق الذي تميزت به هذه البيئة.

وقد جمع إلى دقة فهمه علمه بالعربية الذي أثّر في تذوقه فجمع بين الفهم والذوق في تأليفه،

---

(١) ينظر : "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" أحمد بن أحمد الغبريني، ط٢، ت: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٩م: ١٤٣.عنوان الدراية فيما بعد.ينظر : "أبو الحسن الحرالّيّ المراكشي آثاره ومنهجه في التفسير" محمادي الخياطي، ط١، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م: ٥٧.

(٢) ينظر : أبو الحسن الحرالّيّ المراكشي آثاره ومنهجه في التفسير : ٥٧.

(٣) ينظر : مقالة: "أبوالحسن عليّ بن محمد الحرالّيّ الأندلسي شخصية اخترقت المكان إلى المكان والزمان إلى الزمان" محمد رضوان الدّاية ، مجلة "الأندلس" مجلة رقمية، مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، العدد الأول، ٢٠١١م : ١.

ثانيًا: شيوخه:

لقي الحرالّيّ جلّة العلماء ونقاية الفضلاء، ومن جملة من لقي بالمغرب أبو الحسن ابن خروف[1] وهو أبو الحسن علي بن محمد الحضرمي، عالم بالعربية، من أهل إشبيلية بالأندلس وله كتب منها: "شرح على جمل الزجاجي "و" شرح كتاب سيبويه "[2]وأخذ الحرالّيّ عنه العربية والآداب[3].

وأبو ذر الخشني: مصعب بن محمد بن مسعود الجياني النحوي اللغوي الفقيه المالكي، ويعرف أيضا بابن أبي ركب صاحب التصانيف وحامل لواء العربية بالأندلس. ولّيَ خطابة إشبيلية مدة وسارت الركبان بتصانيفه. توفي بفاس سنة خمس وستمائة وله سبعون سنة [4]. وقد أخذ عنه العربية والآداب بفاس[5].

وعنهما أخذ الحرالّيّ العربية في المغرب وبرع فيها؛ لذا ظهر علمه بها جليًّا في رسائله وكتبه.

ومن شيوخه ابن الكتاني: محمد بن علي بن عبدالكريم الفندلاوي[6]، تصدر للتدريس بفاس، ودرس علم أصول الكلام، وأصول الفقه، وعليه درس الحرالّيّ هذين الأصلين[7].

كما لقي أبا الحجاج ابن هوى: يوسف بن عبدالصمد بن نموي، وكان إمامًا في علم الكلام كشيخه الكتاني، وأخذ عنه الحرالّيّ هذين الأصلين زيادة على ما قد أخذ منه من علوم أخرى[8].

ومنهم أبو الحسن ابن القطان: الحافظ العلامة قاضي الجماعة أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالملك بن يحيى الحميري الفاسي الشهير بابن القطان، المتوفى سنة ٦٢٨هـ وصفه ابن

---

(١) ينظر : عنوان الدراية :١٤٣.

(٢) ينظر : "وفيات الأعيان" أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، ت:إحسان عباس، ط١، دار صادر ، بيروت، ١٩٧٤م:١/٣٤٣.

(٣) ينظر : أبو الحسن الحرالّيّ المراكشي آثاره ومنهجه في التفسير :٦٨.

(٤) ينظر : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبدالحي بن أحمد الدمشقي "ابن العماد الحنبلي" ط من دون، دار الكتب العلمية، بيروت: ٥ /١٣.

(٥) ينظر : أبو الحسن الحرالّي المراكشي آثاره ومنهجه في التفسير : ٦٥.

(٦) ينظر : "الأعلام" خير الدين الزركلي، ط٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م: ٧/١٦٨.

(٧) ينظر : أبوالحسن الحرالّي المراكشي آثاره ومنهجه في التفسير : ٦٥.

(٨) السابق: ٧٠.

الأبار بأنّه من أبصر الناس بصناعة الحديث، وأحفظهم لأسماء رجاله، وأشدهم عناية بالرواية.(١)

ومن لقي بالمشرق الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف القرطبي(٢)، إمام الحرم الشريف، وقد كان إمامًا، زاهدًا، متقنًا، بارعًا في عدة علوم، كالفقه، والقراءات، والعربية، طويل الباع في التفسير(٣).

والقرطبي أكثر الشيوخ تأثيرًا في الحرالّيّ، وعنه أخذ منهج اعتماد الكليات، وقد صرح بأخذه عنه بقوله: "فكان مما يسّر الله روايته والقراءة عليه، تفهمنا عليه الفاتحة في أربعة أشهر، وكان يفيد قوانين في التطرق إلى الفهم تنزل في فهم القرآن منزلة أصول الفقه في تفهم الأحكام"(٤).

ثم إنه فاق أستاذه في ذلك؛ إذ إنّ القرطبي "اكتفى حسبما يفهم من ترجمته في عدة مصادر، باستنباط قوانين فهم القرآن في دروسه شفويًا، دون أن يدونها في كتاب، بينما الحرالّيّ دونها وطبقها بصورة عملية"(٥).

وقد صرح هو بذلك في مقدمة رسالته: "مفتاح الباب المقفل" قال :" ثم منّ الله سبحانه ببركات ومواهب لا تحصى، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فاستخرنا الله سبحانه، في إفادة قوانين تختص بالتطرق إلى تفهم القرآن ..." (٦) .

واختلاف مشارب شيوخه وعلومهم تدلنا على بروعه في علوم مختلفة، كاللُّغة العربية التي أخذها عن ابن خروف وأبي الحجاج وأبي ذر الخشني، والحديث الذي أخذه عن القطان، والفقه الذي كان أشهر شيوخه فيه الفندلاوي.

ويستنتج المتتبع لتراجم شيوخ الحرالّيّ أنّهم في أغلبهم من الميالين إلى الدراسات ذات الصبغة العقلية، وأنّهم من الذين غلبت عليهم الدّراية أكثر من الرّواية(٧).

---

(١) ينظر: "سير أعلام النبلاء" لبن عبدالله الذهبي، ط من دون، دار الكتب، دمشق: ١٠/ ١٣٢.

(٢) ينظر: شذرات الذهب: ٥ /١٤٥. ليس هو القرطبي المفسر المشهور، بل هو صاحب (شرح مسلم المفهم، وكتاب الأعلام في شأن النصارى).

(٣) السابق: ٥ /١٤٥.

(٤) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل:٢٧، ٢٨.

(٥) ينظر: أبو الحسن الحرالّيّ المراكشي آثاره ومنهجه في التفسير: ٧٣.

(٦) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٢٨.

(٧) ينظر: أبو الحسن الحرالّيّ المراكشي آثاره ومنهجه في التفسير: ٧٥.

ثالثًا: تلاميذه:

لم يُنص في أي من كتب التراجم على أسماء تلاميذه الذين أخذوا عنه علمه، وقد ذكر صاحب عنوان الدراية أن من أخذ عنه كثير لكنه لم يسم أحدًا منهم، حيث أورد أسماء متفرقة حكت عنه دون النص على كونهم تلاميذ له[1].

وقد نص عليهم محماديّ الخياطيّ في كتابه: "أبو الحسن الحرالّيّ آثاره ومنهجه في التفسير" ومنهم:أبو محمد ابن مخلوف: عبدالعزيز بن عمر بن مخلوف ويعرف بابن كحيلا، وعليه اعتمد الغبريني – كثيرًا– في ترجمة الحرالّيّ، وعن طريقه وصلت أسماء كتبه[2].

ومنهم: أبو عبدالله محمد بن الحسن بن ميمون التميمي القلعي، وكانت دراسته على الحرالّيّ مركزة –أساسًا – على العربية وآدابها، وقد اكتشف الحرالّيّ مواهب تلميذه الأدبية فسماه بالأديب[3].
بالأديب[3].

ومنهم أبو محمد: عبد الإله السلاويّ؛ وعنه أخذ علوم القرآن[4].

ومن التلمذة على الشيخ تلمذة من غير التلقي بل بواسطة كتبه، كما في أخذ البقاعي عنه، وهو إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط الخرباوي، البقاعي، الشافعي، نزيل القاهرة ثم دمشق، عالم، أديب، مفسر، محدث، ومؤرخ [5].

ومن أهم مؤلفاته: "نظم الدرر في تناسب الآى والسور" في التفسير، وفيه صرح بأخذه عن الحرالّي وتتبع طريقه، قال: "وانتفعت في هذا الكتاب – كثيرًا – بتفسير على وجه كلّي، للإمام الرباني: أبي الحسن علي بن أحمد بن الحسن التجيبي الحرالّيّ ... سماه: "مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل" وكتاب: "العروة" لهذا المفتاح، يذكر فيه وجه إنزال الأحرف السبعة وما تحصل به قراءتها، وكتاب :"التوشية والتوفية" في فصول تتعلق بذلك ... وقد ذكرت أكثر هذا الكتاب في تضاعيف كتابي هذا..."[6].

---

(١) ينظر :مقالة" أبو الحسن عليّ بن محمد الحرالّيّ الأندلسي شخصية اخترقت المكان إلى المكان والزمان إلى الزمان:٦

(٢) ينظر : أبو الحسن الحرالّيّ المراكشي آثاره ومنهجه في التفسير : ٩٦.

(٣) السابق: ٩٦.

(٤) السابق: ٩٧.

(٥) ينظر : الأعلام: ٢/٦٠.

(٦) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" برهان الدين أبو الحسن إبراهيم البقاعي، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م: ١/٧.

رابعًا: مؤلفاته:

نص صاحب عنوان الدراية على أن الحرالّيّ كان ملمًا بكل علوم عصره، وكان الغاية في كل علم طرَقه، قال:" فإنّه قد جمع فنون العلم بجملتها واستولى على كليتها، أما علم الأصول كأصول الدين وأصول الفقه فهو أعلم الناس بها وقد صنف فيها، وأما معقولات الحكماء فهو أعلم الناس بالمنطق، وله تصنيف سماه بـ: "المعقولات الأول" وأما علم الطبيعات والإلهيات فكان أعلم الناس بها ... وأما علم التفسير فكان يورد الآي ويناسقها نسقًا بديعًا ويتكلم فيها بما لم يسبق إليه، وله تفسير على كتاب الله -تعالى- سلك فيه سبيل التحرير، وتكلم عليه لفظة لفظة وحرفا حرفا ... والشيخ - رحمه الله - سلك في تفسيره مسلك البيان والإيضاح على نحو ما يقتضيه علم العربية وعلم تنقيح المعقول، وما يبقى وراء هذا، سوى علم الأسباب التي عند النزول، وعند الحاجة إليها لابد من ذكرها "[1].

ومن كتبه ماهو مطبوع محقق، ومنها ماهو مخطوط لم يحقق، أويطبع، بيانها ما يلي:

أولًا: المحقق المطبوع من كتبه:

لم يطبع من كتب الحرالّيّ - فيما أعلم - إلا رسائله الثلاث: "مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل" ومنه باب الإقبال والإعراض التي قامت عليه الرسالة، و"العروة للمفتاح الفاتح للباب المقفل المفهم للقرآن المنزل" و "التوشية والتوفية"[2]

ثانيًا :المخطوط من كتبه:

١) الأقصى في شرح أسماء الله الحُسنى:

وهو من الكتب النفيسة في هذا الموضوع، على كثرة ما أُلّف فيه. وهو كتاب كبير ذكر فيه تسعةً وتسعين اسماً من أسماء الله الحُسنى، سالكًا مسلكًا مقاربًا في الكلام على كل اسم من أسمائه - جل جلاله -.

---

(١) ينظر : عنوان الدراية: ١٤٤، ١٤٦.

(٢) وقد حققت وطبعت مرتين: الأولى بتحقيق الشيخ عبد القاهر عبدالكريم حسين، طبعت في القاهرة عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م بعنوان: "**مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل**" والثانية بتحقيق محمادي الخياطي، طبعت في الدار البيضاء، عام ١٤١٨هـ-١٩٩٧م بعنوان:" **تراث أبي الحسن الحرالّيّ المراكشي في التفسير**" وقد اقتصرت الطبعة الأولى على إيراد الرسائل من دون تضمين ماورد عنه من تفسير في هذه النسخة، كما وقف المحقق على تحقيق الكتاب فقط دون التقديم للكتاب بترجمة للمؤلف، أو عرض لفكره في الرسائل الثلاث، أو التدخل برأي في فهم الحرالّيّ، في حين ضمنت الطبعة الثانية الكتاب ماورد من تفسيره ضمن كتاب:" **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**" للبقاعي، ومقدمة ترجم فيها المحقق للمؤلف، وذكر نبذة عن رسائله الثلاث وفكره فيها، وماذا تضمنت، وسيرد ذكرها مفصلةً لاحقا.

وهو كتاب يدل على معرفة المؤلف باللُّغة، وعلى ثقافته الإسلامية الواسعة، وهو مَعْرِضٌ لأسلوبه المتقن المعجب، ولفتاته ولمحاته وإشاراته واستنباطاته.

والمؤلف يكثر من ذكر الآيات الكريمة؛ إيضاحًا لمقاصده وهو يتحدث عن الأسماء الحُسنى عن خبرة وحفظ تام، وإدراك عالٍ جدّاً للمعاني والمقاصد[1].

٢) فُتيا صلاح العمل لانتظار الأجل:

موضوعه –كما يوحي عنوانه– إصلاح عمل المسلم الديني والدنيوي، استعدادًا لآخرته، وهو عبارة عن برنامج يوميٌّ تفصيليٌّ لما يجب أن يكون عليه حال المسلم من اتصال دائم بالمساجد، ومن محافظة على الصلوات في أوقاتها مع نوافلها، ومن استغفار واستذكار والتزام الأدعية الواردة عن النبي –ﷺ– في مختلف حالاته. ويمكن أن يعبر عنه بما يعرف بـ:(عمل اليوم والليلة) [2].

٣) اللمحة في معرفة الحروف و معانيها وأعدادها ورتبها في الكشف :

عرّف المؤلف بكتابه في المقدّمة بقوله: " لمحة في تنزيل معنى الحروف موضّحةً بنور الله وتعليمه لما استعجم من معانيها ورتب أعدادها ومراتب أحوال المكاشفات فيها، والإشارة إلى منال الرواة عنهم من الانتفاع بطرقٍ من تسبيبها على حكم أحكام العقود والنّيات إلا فهمًا يؤتيه الله في كتابه.." وهو كتاب يوضح منهج المؤلف في معالجة الحروف المذكورة في القرآن الكريم[3].

٤) تفهيم معاني الحروف التي هي مواد الكلم من ألسنة جميع الأمم:

وكتاب تفهيم معاني الحروف يُعدُّ– وبكل دقة– تلخيصًا لشرح الحروف التي وردت في فصل معاني الحروف من المطلع الأول لكتاب اللمحة، ولذلك فكل ماورد في هذا الكتاب جاء تكريرًا مختصرًا، وإعادةً موجزةً لتلك المعاني التي توسع فيها هناك[4].

---

(١) ينظر: مقالة: " أبو الحسن عليّ بن محمد الحرالّي الأندلسي شخصية اخترقت المكان إلى المكان والزمان إلى الزمان".

(٢) ينظر: أبو الحسن الحرالّي آثاره و منهجه في التفسير: ١٦١.

(٣) ينظر: مقالة: " أبو الحسن عليّ بن محمد الحرالّيّ الأندلسي شخصية اخترقت المكان إلى المكان والزمان إلى الزمان" وينظر تفصيل الأبواب في كتاب:"أبو الحسن الحرالّي آثاره و منهجه في التفسير" ٢٠٧ ومابعدها.

(٤) ينظر: أبو الحسن الحرالّي آثاره و منهجه في التفسير: ٢٤٠.

٥) دفتر سعد الواعي وأنس القاري:

ليس كتابًا مستقلًا بنفسه، بل هو جزء من كتاب، أو قد يكون مبتورًا من الأول فقط؛ لأنّه لا يشتمل على مقدمة، كما أنّ الحرالّيّ في آخر الكتاب أورد تسمية الكتاب، وما يفيد أنّه جزء من كتاب، فقال:" فهذا ما أجرى الله العلي الحكيم، في ذكر هذه الآية الحكيمة، وهو النضد الأول من هذا الدفتر، وقد وسم بدفتر: "سعد الواعي، وأنس القاري".

وموضوع هذا الكتاب، أو بالأحرى هذا الجزء، التعرض لبعض الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة: "حكمة" ويستنتج من هذه الآيات القرآنية، ويمكن أن نقول يستدل على أن الحكمة الإسلامية بوجه عام، الحكمة الربانية التي أساسها القرآن الكريم، والتي جاء بها سيدنا محمد -ﷺ- هي أعلى الحكم التي عرفها وتعب في الحصول عليها حكماء الأمم السابقة[1].

٦) كتاب في الإيمان التام بمحمد عليه الصلاة والسلام:

بدأ بالكلام على الإيمان، وقسمه أصنافًا: عامًّا، وخاصًّا، وأخصّ، ثم فصل في هذه الأصناف؛ وتحدث عن مراتب الإيمان وأعمال الجوارح. ثم تحدث عن نبوة رسول الله – ﷺ – آخر النبوات ورسالته آخر الرسالات في تفصيلات وترتيبات فيها أنفاس شخصية خاصّة[2].

٧) رسالة: نصح عام لمن قال ربي الله ثم استقام:

يتحدث الحرالّيّ فيه -أولًا- عن الاستقامة كسلوك عملي، ويبين أصول أصناف الأمة الأساس التي يقوم عليها بناء المجتمع، مع الإشارة إلى الأصناف المساعدة؛ لأنّ لهم -جميعًا- بوجه هذا النصح العام. ثم يحدد الأركان – الأسس– التي تتكون منها الاستقامة[3].

ومن كتبه التي وردت في كتب التراجم من دون أن تصل إلينا مخطوطة ما يلي:

- الإلمام بطرف من الانتفاع .
- توثيق عرى الإيمان .

(١) ينظر: أبو الحسن الحرالّيّ آثاره و منهجه في التفسير: ٢٥٣.
(٢) السابق: ١٣٩.
(٣) السابق: ١٧٩.

- شرح الشفا.
- شرح الموطأ.
- شمس مطالع القلوب وبدوّ طوالع الغيوب.
- كتابه: في الفرائض.
- لمعة الأنوار وبَرَكة الأعمار.
- المعقولات الأُول[1].

خامسًا: اعتماده الفكر الكلّي أساسًا لفهمه القرآن:

دلَّ الحرالّيُّ على أنّ قصده الرئيس هذا الفكر الكلّي بأمور كثر نصّ عليها: منها قوله في مقدمة كتابه: "فإنّ لله مواهب جعلها أصولاً للمكاسب فمن وهبه الله عقلاً يسَّر عليه السبيل .." فقوله: "أصولًا للمكاسب" دليل على أن منازع فكره كليّة، ولا يبحث عن جزئيات المسائل، بل بدأ البحث عن أصول العلوم.

وكذلك قوله: "فأما قوانين تفسيره ففي علم النحو والأدب، وأما قوانين التطرق إلى فهمه ففي قلوب عباد خصهم الله بالفهم وأثرهم بإحاطة من العلم ..".

ثم قال –حين تكلم عن القرطبي وإفادته منه حين قرأ عليه الفاتحة–: "وكان يفيد قوانين في التعرف إلى الفهم، تنزل في فهم القرآن منزلة أصول الفقه في تفهم الأحكام"[2].

ثم نصَّ على تفوقه على أستاذه: "ثم منّ الله – ﷻ– ببركات ومواهب لا تحصى مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاستخرنا الله – ﷻ– في إفادة قوانين تختص بالتطرق إلى تفهم القرآن ...."[3].

فيلاحظ أن كلامه وفكره متوجه إلى تحقيق وإفادة قوانين، وهذا دليل على نظره الكلّيّ .

وكما دلَّت مقدمته على الفكر الكلّي دلت عليه – أيضًا– فصول رسالته الأولى: "مفتاح الباب المقفل" حيث أسسها أولاً على مسلَّمة هي: "إن بلاغة البيان تعلو إلى علوّ قدر المبين، فعلوّ بيان الله على بيان خلقه بقدر علوّ الله على خلقه، وقد ثبت التقصير في بيان الخلق ..".

---

(1) السابق: ١٢١.

(2) ينظر: "تراث أبي الحسن الحرالّيّ المراكشي في التفسير" ت: محماديّ الخياطيّ، ط١، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م: ٢٧-٢٨.

(3) نفسه.

وكان مناط إدراك المعنى القرآني عند الحرالّيّ يرجع إلى أمرين؛

أولهما: مفهوم المعنى عنده، فالمعنى هو "مسلك العقل بالعلم فيما بين باب مدلول الاسم إلى غاية الحقيقة التي هي أقصى منال العقل"... بين مدلول الاسم (اللفظ) وغاية الحقيقة ينساب المعنى، والعقل ظاهر ولب يقتنص بعضًا منه المعنى[1].

آخرهما: طبيعة العلاقة بين المتلقي والقرآن؛ ولذلك يجعل الإمام الحرالّيّ أول شرائط الفهم التزكية تطهراً وتحققاً وتخلقاً ..."[2].

وقد كان له منهج منضبط مطرد الانضباط والتنظيم يدل على فكره الكلّي؛ حيث كان الفكر مكتملاً قبل كتابة الرسالة، ويدل على هذا معرفته بأي الأبواب يبدأ وبأيها يختم وماذا يتوسطهما...

ويتجلى منهجه في أمور استخلصتها من خلال أبواب رسالته، أذكرها فيما يلي:

أولاً: منهجه في تقرير القاعدة:

أ – التقرير المنطقي؛ حيث يجعل القاعدة قضيةً كلّيةً لها مقدمات و نتائج، كقوله: "فعلوّ بيان الله بقدر علو الله على خلقه ..." ذكرها قضية كلّية ومسلّمة وجعلها مقدمة لكل ما سيذكر بعدها في الباب نفسه، أوفي أبواب الرسالة الأخرى ؛ ولذا جعل كل جملة في الباب معطوفة بالفاء مترتبة على ما سبقها[3].

ب – يتّبع الإقناع العقلي عن طريق القياس، ويأتي هذا القياس عن طريق التضاد، مثل الخالق والمخلوق .. فكل صفة من صفات الخالق مضادة للإنسان المخلوق [4].

ج – البدء بأمر العلم مؤكّداً بـ: (أنّ) وهذا مطرد عنده في بدء كل باب حيث يبدؤه بـ "اعلم أنّ"[5].

هـ – مشاركة المتلقي في تقرير القاعدة، فلا يقررها والمتلقي غائب عنه، ومن ثم يكثر عنده ضمير الخطاب في تقرير قواعده.

د – مراعاة التمثيل، كما في تمثيل أسنان القلوب بمراحل عمر الإنسان [6].

---

(١) ينظر: "المنهج الدلالي: الأسس والمكونات قراءة في تفسير الحرالّيّ المراكشي" د. عبد الرحيم مرزوق، مجلة الإحياء، ع٢٨، بحث منشور، إصدار الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، ٢٠٠٨م: ٩.

(٢) ينظر: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٢٧.

(٣) السابق: ٢٩.

(٤) نفسه.

(٥) هذا مطرد في كل أبواب رسالته: "مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل".

(٦) ينظر: السابق: ٣٤ ومابعدها.

ثانيًا: منهجه في ترتيب الأبواب:

لمنهجه في ترتيب الأبواب وجوه متعددة يكاد يصرِّح بها:

فهو يقول – بعد نهاية الباب الأول مثلاً– :" ونذكر قانونه في الباب الثاني،.." وهكذا في بقية الأبواب، فهو يعلم الباب التالي مسبقًا؛ لأنَّه ينصُّ على العلاقة بينها، فترتيب الأبواب ومسمياتها كانت مرسومة في عقل الحرالّيّ.

ومن وجوه ترتيب الأبواب عنده:

أ – البدء بالأساس ليمكن الاستدلال به على غيره، ومن ذلك أنَّه بدأ أبوابه العشرة ببيان علو بيان الله، وهذا أساس ليتيقن المتلقي إعجاز القرآن، ومن ثم يتيقن بعد ذلك جزئيات هذا الإعجاز الواردة في الأبواب التالية[1].

ويؤكد هذا المنهج عنده ما ختم به الباب الثاني بقوله: "ولمَّا كان الجمع أصل الخلق .. " فهو يرد الكلام هنا إلى الباب الأول، وهذا يؤيد أنَّه جعله أساسًا وأصلًا استقى منه الفروع في الأبواب التالية[2].

ب – البدء بالعموم ثم الخصوص، ومن ذلك بدؤه بباب الإفصاح والإفهام فهما يشبهان الخبر والإنشاء في شمولهما لجميع الكلام، وما بعده يكون خصوصا بعد هذا العموم.

ج – السببية والمسببية، ومن ذلك أنَّه ينصُّ على جعل فهم الباب المتقدم سببًا لفهم الباب الذي يليه كما في العلاقة بين الباب الثالث والرابع.

د – علاقة الجزء بالكلّ، ومن ذلك العلاقة بين الباب السادس والسابع، حيث تكلم أولاً عن أسماء الله إجمالاً، ثم عن مجاري الإضافات فيها، وهذا جزء من كل.

وختم الحرالّيّ الأبواب بالباب العاشر – الذي ذكر فيه أم الكتاب وجعلها أصلًا لما بعدها، فالأم الأصل الذي يحتوي على كل القواعد الكلية في القرآن= دليل على وضوح الترتيب في ذهنه فكأن الحرالّي بدأ بالإجمال، ثم فصَّل حيث جعل الباب الأول أساسًا، ثم ذكر القواعد، ثم عاد إلى الإجمال مرة أخرى وفصله، فكأنه كرر ذكر محتوى الرسالة غير مرة.

ثالثًا: التناسب بين أجزاء الباب الواحد.

---

(١) السابق: ٢٩.

(٢) السابق: ٣١.

رابعاً: الموازنة بين الكثرة والقلة بين أساليب القرآن وأساليب غيره، يؤخذ هذا من قوله:" وأما ما يقع فيه الإلهام في متقابلات ظاهرة ... فربما وقع لآحاد من بلغاء العرب نظيره، وهو في القرآن كثير "[1].

خامسًا: جُمَلُه مركزة تحوي معاني جمّة، وهذا مطرد في رسالته كلّها.

سادسًا: التحفيز واستثارة المتلقي لإدراك أهمية الباب، وهذا مطرد عنده.

سابعًا: المحافظة على إبراز التفاوت بين أسلوب القرآن وأسلوب غيره، فالتشابه يكون في سلوك الطريقة العامة فقط، ويبقى التفاوت في دقة الأسلوب[2].

ثامنًا: النص على فرائد القرآن، ومن ذلك: الإضمار دون تقدم الذكر في سياق الموقن [3].

تاسعًا: بيان التفاوت في فهم القرآن باعتبار المتلقي للقرآن نفسه، فجعل للقرآن إفهامًا، وجعل للإفهام درجات بحسب حال المتلقي للقرآن، فجعل فهم القرآن عائدًا إلى أحوال داخلية ونفسية، وهذا منهج بدأ به كتابه، فكأن الحالات النفسية خط متوازٍ مع الأسلوب في استنباط الدلالة القرآنية[4].

عاشرًا: الاهتمام بالمراتب على الرغم من اهتمامه بالكليات، فمن ذلك ما ذكره عن مراتب البيان والتدرج في أسنان القلوب، وهذه العناية بالمراتب داخل القاعدة الكلية دالّة على تنظيم الفكر لديه؛ فكل مرتبة داخل القاعدة الكلية واضحة في ذهنه[5].

الحادي عشر: التدرج، حيث اطرد لديه التقديم لأبوابه، ثم التدرج في تقريب القاعدة حتى يدخل إليها دخول المأنوس إما من الإبهام إلى الوضوح، أو من العموم إلى الخصوص ... وهكذا.

ومن ذلك أنّه لما ذكر الرُّتب في الباب الرابع جعل ذلك من إحاطة علم الله بكلّ شيء، فيهيأ بذلك لأن يجعل لكل رتبة خطاباً يناسبها؛ لأنّه سبق علمه باستحقاقهم ما يخاطبون بها.

---

(١) نفسه.
(٢) السابق: ٣١.
(٣) السابق: ٣٩.
(٤) السابق: ٣١.
(٥) هذا مطرد في رسالته كلها.

كما أنّه اطرد في منهجه أن يتدرج من الأدنى إلى الأعلى، ومن ذلك أنّه لما ذكر رتب أسنان القلوب بدأ بالإنسان، وترقى حتى وصل إلى الإحسان، وما فوق ذلك. [1]
وكذلك في الباب الثامن في بيان الإقبال والإعراض، فبدأ ببيان الإعراض ثم ثنى ببيان الإقبال[2].

أما رسالته: "العروة للمفتاح الفاتح للباب المقفل المفهم للقرآن المنزل" فهي رسالة أخرى للحرالّيّ في علوم القرآن، جعلها في سبعة أبواب تناول فيها بأسلوبه ورؤيته وروايته موضوع الحروف السّبعة. والرسالة في بابين، وفي كل باب منهما سبعة فصول، وهي مرتبطة بالرسالة الأولى:**"مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل"** ارتباطاً وثيقًا تدلنا عليه الدّلالة المعجمية للتسمية؛ "فالعين والراء والحرف المعتل أصلانِ صحيحان متباينان، يدلُّ أحدُهما على ثباتٍ وملازمةٍ وغِشيان، والآخر يدلُّ على خلوّ ومفارقة".[3] ومعنى الثبات يدل على توثيق ما سبقه.

وقد صرح بدلالة التوثيق صاحب تاج العروس، حيث قال:" ومن المجاز العروة هي النَّفيسُ من المالِ، كالفَرَسِ الكَريمِ ونحوه، وهو في الأصْلِ لمَا يُوثَقُ بهِ ويُعَوَّلُ عليه... وأَصْلُ العُرْوَةِ من الشَّجَرِ: ما لهُ أَصْلٌ باقٍ في الأرْضِ، كالنَّصِيِّ والعَرْفَجِ وأَجْناسِ الخُلَّةِ والحَمْضِ، فإذا أَمْحَلَ النَّاسُ عَصَمَت العُرْوَةُ الماشِيَةَ؛ ضَرَبَها اللَّهُ مَثَلاً لمَا يُعْتَصَم بهِ مِن الدِّين في قوْلِه: ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ... وعُرْوَةُ الصَّعالِيكِ : عِمادُهُم"[4].

وقال صاحب المُغْرِب: "(العُرْوَة): عُروة القميص والكوز والدلو، وتُستعار لما يُوثق به ويُعوّل عليه، منها العُروة من الكلأ لبقيّة تبقى منه بعد يُبْس النبات"[5].
وقيل: إنّما سميت عروةً وعقدةً ؛ لأنها تكون للناس عصمة [6].

(١) السابق: ٣٤ ومابعدها.
(٢) السابق: ٤٣.
(٣) "معجم مقاييس اللغة" أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م: كتاب الصاد، باب ماجاء من كلام العرب على أكثر من ثلاثة أحرف أوله الصاد: ٢/٤٢.
(٤) " تاج العروس من جواهر القاموس" محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسيني، ط من دون، دار الهداية، بيروت: مادة: عرو :٣٩ /٢٦.
(٥) "المُغرب في ترتيب المعرب" أبو الفتح ناصر الدين بن عبدالسيد بن علي المطرزي ت: محمود فاخوري وعبدالحميد مختار، ط١، نشر مكتبه أسامه بن زيد، حلب، ١٩٧٩ : مادة: عرو: ٢/٥٧.
(٦) ينظر : "المخصص" أبو الحسن علي بن اسماعيل المعروف بابن سيده، ت: خليل إبراهيم جفال، ط١، دارأحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٧هـ -١٩٩٦م: باب في يبيس العشب:٣ /١٢٩.

وكل هذه الدلالات المعجمية ملائمة لما نصّ عليه الحرالّيُّ في علاقة العروة بالمفتاح؛ حيث قال: "وإنّه لمّا تقدم إملاء كتاب" مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل" أُعلّق به القول في الحروف السبعة، وفي شرط منال علمها وحالها وبيانها، في بابين وفصول، عروة توثّق إمساكه، وتشرب القلب بتأييد الله ملاكه، وتكفّل بحول الله، فائدته، وتيسر، على قرب تيسير الله، عائدته، ولتعلّق العروة بمفتاحها، ولتنتهي الأفهام في القرآن بما أسرج بتوفيق الله من مصباحها إلى ضحى صباحها ..." [1].

فكأنّ الحرالّيَّ لمّا فصّل في رسالته: "مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل " الأساليب المفهمة لبلاغة القرآن= ثنى بإجمال المعاني التي ترد فيها هذه الأساليب وكيف ترد، ووثّق ذلك بإعادته ذكر علاقة حال المخاطب في فهم هذه الأساليب وربطها بمعرفته للمعاني التي ترد فيها، ومن ثم بيّن الحال واللّقن الملائم لكل حرف من حروف القرآن وأيّ رتبة هي الأنسب للتعامل معه.

أما رسالة: "التّوشية والتوفية" فهي -كما نصّ الحرالّيُّ-: "فصول تشتمل بحول الله على: "توفية وتوشية" لما تقدم إبانته من كتاب العروة ومفتاحها، توشية له وتوفية لتحبير نصاحها، تتم بعون الله مقصد التأييد في فهم الكتاب، وتعرف وجوهًا من الخطاب ..." [2].

وتؤيد الدّلالة المعجمية للتوشية ما نصّ عليه الحرالّيُّ في علاقة رسالتي العروة للمفتاح والتوشية والتوفية؛ فالتوشية: التزيين والزخرفة، يقال:"وشت الماشية: فشت وكثرت، وفيها مشاءٌ وفشاءٌ ووشاءٌ: لأنها تشي وتزين بكثرتها،... وأوشت الأرض: ظهر فيها وشيٌ من النبات. وأوشت النخلة: بدا أوّل رطبها"[3] "ووشي الثوب وَشياً وشِية: حسّنه ووشّاه: نمنمه ونقشه وحسّنه"[4]. وهذا يتلاءم مع نص الحرالّيُّ "لتحبير نصاحها " من وجه، ويتلاءم من وجه آخر مع ما ورد في الفصل الأوّل من الرسالة المسمى: "بالتوشية "حيث ورد الكلام فيه عن أعظم أساليب المدح التي اختص بها النبي – ﷺ – فكأنه زين العروة بالكلام عن أجمل أساليب المدح التي اختص بها سيد المرسلين، وهو أسلوب العدول الذي عدّه الحرالّيُّ أعظم المديح.

---

(١) "العروة للمفتاح الفاتح لباب المقفل المفهم للقرآن المنزل" ضمن كتاب: "تراث أبي الحسن الحرالّيّ المراكشي في التفسير": ٥٦.

(٢) "التوشية والتوفية " ضمن كتاب: " تراث أبي الحسن الحرالّيّ المراكشي في التفسير": ١٢٠.

(٣) "أساس البلاغة" أبوالقاسم محمود بن عمر جار الله الزمخشري، ط من دون، دار الفكر، بيـــروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م: باب الواو، الواو مع الشين: ٢/١٨.

(٤) "لسان العرب" ابن منظور، ت: عبد الله علي الكبير، محمد الشاذلي، ط من دون، دار المعارف، بيروت: باب الواو: ٦/٤٨٤٦.

كما أنّ الوشيّ ما كان في الحجر من ذهب[1] فهو إذن أثمنه، وهذا المعنى متلائم –أيضا – بأن يكون الكلام في الرسالة عن أعظم البشر – ﷺ – وأعظم أساليب المديح كما نص الحرالّيّ.

أما التوفية: فدلالتها المعجمية للوفاء هي التمام، فكلُّ ما تمّ من كلام وغيره فقد وفّى [2].

وهذا ملائم لنص الحرالّيّ السابق، ولما ورد في الفصل الثاني من الرسالة المسمى: "بالتوفية" الذي ورد الكلام فيه على وفاء القرآن بكل أحوال الأمم السابقة، وكون هذه الأحوال وافية في أمة محمد – ﷺ – من وجه، ومن وجه آخر كونها توفية لكل ما تقدم في الرسالتين السابقتين. فبعد أن أتم الكلام عن القرآن والدين وضوابط فهمه، أتمه بالتعريج على ذكر ماورد فيما سبقه من كتب الأديان السابقة.

(١) ينظر : السابق: باب الواو : ٦/٤٨٤٦.

(٢) السابق: باب الواو: ٦/٤٨٨٥.

سادسًا: فكر الحرالّيّ البلاغيّ:

يعدُّ أبو الحسن الحرالّيُّ واحدًا من الشخصيات التي لم تلق حظها في تاريخ العلوم، على الرغم من مشاركته في علوم متنوعة كما تقدم، لكنّه في الوقت الذي اشتهرت فيه كتب ابن عربي، ونشرت على نطاق واسع لم تنشر كتب الحرالّيّ وبقيت مخطوطة ومجهولة، إلى أن أخذ الدكتور محمادي الخياطي على عاتقه جمع تراثه [1].

ولعلّ ما كتبه الحرالّيُّ يمثل خطًا مجهولًا في الدرس القرآني، وتتبع أهميته من البعد التأسيسي ومحاولة التقعيد لنمط من الفهم الذوقي العميق للقرآن، فهمًا يتجاوز التقول الباطني، ولا يكون أسيرًا للتفسير الظاهري.

والمنطلق الذي أعان الحرالّيَّ في تأطير رؤيته هو الرؤية الكلية للقرآن، لا في ذاته فقط إنّما في سياق علاقته التاريخية مع الكتب والأديان وفي ضوء الصلة بين الله والإنسان[2].

ولعل إهمال تراث أبي الحسن ونسيانه يعود إلى أمرين:

أولهما: تلاميذه فلم يُعرف له تلاميذ بعينهم، على كثرة الذين تلقوا عنه، إلا أنّه لم يُنص على أيهم حمل علمه ونقله عنه .

آخرهما: اختلاف أهل زمانه حوله، فالحرالّيّ– بسبب أسلوبه وبيانه، وبسبب تجديده – كما تبيّن والله أعلم– في منهج التفسير وغيره من العلوم التي مارسها– قد وضع نفسه على محك التجربة، فمن استوعب مقاصده وعرف كلامه أعجب به وأعلن ذلك من العلماء والفقهاء، ومن رفض ذلك الجديد منه رماه على قدر معرفته أو على قدر بعده عن الفهم[3].

فهذا الفكر الكلّيّ يعدُّ بلاغة منسية، كما أنّ بلاغة متشابه القرآن كانت من قبل منسية، وكذلك بلاغة التناسب وفق المقاصد عند البقاعي، في حين انتشرت بلاغة السكاكي والخطيب التي تعد بدايات لا بد لها من تمام.

وهذه البلاغات المنسية تمامها بلاغة متشابه إلى بلاغة متناسب، ثم البلاغة الكلية هنا عند الحرالّيّ.

---

(١) ينظر : تراث أبي الحسن الحرالّيّ المراكشي في التفسير : ٥، ٦.

(٢) ينظر : رسائل أبي الحسن الحرالّيّ في قوانين فهم القرآن.

(٣) ينظر : أبو الحسن عليّ بن محمد الحرالّيّ الأندلسي شخصية اخترقت المكان إلى المكان والزمان إلى الزمان.

وهذا هو الفرق بين بلاغة الحرالّيّ وبلاغة من سبقه، فالذي يقرأها يدرك أنّها بلاغة خاصة ببحث القواعد الكلية المطردة التي نص عليها الحرالّيّ في رسالته: " مفتاح الباب المقفل" كما تقدم لأنّه كرر في غير موضع أن وكده هو البحث عن أصول وقوانين لفهم القرآن تُعد أصولًا كأصول الفقه [1].

وإنما نُسيت بلاغته في حين انتشرت بلاغة السكاكي والخطيب التقعيدية، على الرغم من أنّه عاش في الزمن الذي عاشا فيه، لأنّه لم يسر على النهج الذي سارا عليه، ولعله لم يطّلع على ما كتبا، وبخاصة كتاب السكاكي؛ لأنّ وكد بلاغتهما وبلاغة المتأخرين كانت تنظيمًا لما سبق إنتاجه، وتيسيرًا لتعلم وتعليم ذلك، فهي كتبٌ تقريبية، وليست كتبًا تؤسس للقول في بلاغة الكلام، وعلينا أن ننظر إليها في تقويمها وتقديرها على هذا الأساس، وهي قد استطاعت أن تحقق هذا التنظيم والتقريب على نحو جيد.

كما أنّها كانت موجهة للمتعلمين خصوصًا، وهم الذين يناط بهم حمل العلم ونقله، في حين كانت بلاغة الحرالّيّ لمن أراد الفهم لهذه الأصول، وقليل من يفهم هذا، وأقل منهم من يحمله وينقله، والأقل من يأخذه عنهم هذا من وجه.

والبلاغة التقعيدية –ممثلة في كتب مدرسة المفتاح– قد حظيت بكثير من الشرح والتعليق تحشية وتقريرًا، لما احتوت عليه من عبارات فيها دقة تحتاج إلى تبيين ومراجعة، وقد مارس الشراح وأصحاب الحواشي والتقارير منهج التحليل والنقد، فجعلوا من هذه الكتب نصوصًا تعاملوا معها كأنّها نصوص أدبية بليغة، وهذا يشير إلى أنّهم يرون أن الدرس البلاغي لا يقتصر نظره عندهم على النظر في القرآن والسنة والشعر... بل ينظرون في الأساليب العلمية؛ لأن الأسلوب العلمي فيه مطابقة لمقتضى الحال، وهذه المطابقة هي جوهر بلاغة الكلام.

وبلاغة الحرالّيّ ليست منفصلة عن بلاغة السكاكي، بل إنها تتخذ منها أدوات لها، فمن ذلك ما يتعلق بترتيب الخطاب عند الحرالّيّ الذي جعل الأساس فيها رتبة المخاطب، ومن ثم تأتي أساليب وأدوات البلاغة دالّة على ذلك من استعمال للخطاب، أوالغيبة، أو غير ذلك مما يدل على الرتبة متناسبة مع السياق.

فهي بلاغة موازية لبلاغة الخطيب؛ إذ إنّها تحدد الغرض أولاً، فرتبة المخاطب –علوّها أو دنوها– غرض، ثم تأتي بعده الأدوات لتحقيق الغرض، فهي تضع أمرًا كليًّا يتجول فيه البليغ بأدواته لتحقيقه.

(١) ينظر: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٢٨.

إذن بلاغة الحرالّيّ نوع من البلاغة يفيد وجهًا آخر؛ لأنّ الأساس فيها غرض المتكلم المعروف، وتأتي القواعد البلاغية الأخرى أدوات لتحقيقها .

ثامنًا: وفاتـه: توفي- رَحِمَهُ ٱللَّهُ - عند أذان العصر في اليوم الثاني عشر لشهر شعبان عام ثمانية وثلاثين وستمائة - رَحِمَهُ ٱللَّهُ -[1].

(١) ينظر: عنوان الدراية: ٥٤.

المبحث الثاني: مراتب الإقبال عند الحرالّيّ بين أُسس التعدد وتنوع الوجوه

أولاً: ضابط الإقبال[1]:

<u>تدور مادة (قبل) حول أصل واحد هو تكريم المقبل عليه، ويأتي التكريم بالإقبال</u> على وجوه متعددة تلتقي مع ما قصد إليه الحرالّيّ في باب الإقبال، بل إنّه يدل على اكتمال التكريم وتمامه في إيثاره المصدر: (إقبال) لما للمصدر من مبالغة[2]. وهذا ملائم لعلوّ درجة المقبل عليهم، لاسيما أنهم أولو العزم من الرسل.

وأوّل معاني الإقبال: الاستقبال، يقال: " لقيته من ذي قَبَل وقِبَل، ومن ذي عَوَض وعِوَض، ومن ذي أُنُف، أي: فيما يستقبل"[3]، ومن ثم يكثر في الإقبال -لاسيما الصفاء منه- ضمير الخطاب؛ لما يستلزم الاستقبال من مواجهة وهي -أيضاً- من معاني الإقبال " يقال: فلان جلس قبالته أي تجاهه... والقُبُل: الوجه... واستقبل الشيء وقابله: حاذاه بوجهه"[4] ؛ لما في إبداء الوجه من رضى عن المقبل عليه.

وكل ذلك يترتب عليه معان أخر للإقبال كالعناية والاهتمام "والعرب تقول: ما أنت لهم من قِبال ولا دبار أي: لا يكترثون لك"[5]. وقال الشاعر:

وما أنت إن غضبت عامر   لها في قِبال ولا في دِبار [6]

فالاستقبال والمواجهة عناية بالمخاطب" فالمقابلة والتقابل: أن يقبل بعضهم على بعض إما بالذات، وإما بالعناية والتوفر والمودة، قال- تعالى-:﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الواقعة: ١٦] ﴿ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[7] [الحجر: ٤٧].

---

(١) لا أقصد بالإقبال ما يعرف بالخطاب في درس الالتفات، إنما للإقبال (عند الحرالّيّ) مفهومٌ متعين أعم مما يعرف بأسلوب الخطاب في أسلوب الالتفات في الدرس البلاغي، كما هو موضح في التمهيد وفصول البحث.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ٣٠٠.

(٣) لسان العرب: باب اللام: ٥/ ٣٥١٦، ٣٥١٧.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه.

(٦) البيت من غير نسبة. ينظر: لسان العرب: ٥/ ٣٥١٦، وتاج العروس: ٣٠/٢٢٣.

(٧) "المفردات في غريب القرآن" الراغب الأصفهاني، ط ٣، بيروت، دار المعرفة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م: كتاب القاف: ٣٩٣.

ولهذه العناية إيحاءات داخلة في الدّلالة الثانوية للإقبال، ومتلائمة مع أساليبه التي عرض لها الحرالّيُّ، ومن هذه الدلالات: تصديق المخاطب، وهذا من الإقبال كما تجلى في عناية الله – ﷻ– بأولي العزم – عليهم صلوات الله وسلامه – بأن أيدهم تصديقاً لهم، ومن ثم تكثر أساليب الوعد والضمان في الإقبال عليهم[1].

ومنها الاختصاص: "فالقُبْل إقبالك على إنسان كأنك لا تريد غيره"[2]، ومن ثم يكثر في الإقبال إبراز صفات المقبل عليه، لاسيما فيما انفرد به واختص به من دون غيره من المخاطبين، ومن ثم يأتي النظم على نحو يشعر المتلقي باختصاص المقبل عليه وحده بالخطاب وإن كان داخلاً معه غيره طبيعة[3] أو سياقا [4].

ومنها الأولية، يقال: "وكان في قِبَل الشتاء أي: في أوله ، وقِبَال كل شيء وقُبُلُه: أوله وما استقبلك منه"[5]، ومن ثم يكثر التقديم لا سيما في ضمير المخاطب، أو في الذكر حيث يقدم على غيره وإن كان كان أسبق منه زمنا[6].

ومنها سلاسة الخطاب وسهولته وظهور المراد منه بالنسبة للمخاطب بلا تكلف ولا عناء، ففي حديث أشراط الساعة[7] : "وأن يُرى الهلال قُبلاً" أي: يُرى ساعة ما يطلع – لعظمه ووضوحه –من غير غير أن يتطلب[8]. بدليل قوله–صلى الله– في الحديث "فيقال: لليلتين" وهو إذا كان كذلك كان واضحًا واضحًا ظاهرًا يرى من غير عناء.

---

(1) ينظر البحث:293.

(2) لسان العرب: باب القاف:5/ 3517.

(3) كما في اختصاصه – ﷺ– بالنظر والتأمل في الأمر العام، كما في أفعال الرؤية: "ألم تر".

(4) كما في اختصاصه – ﷺ – بإضافة الربوبية إلى ضميره، وإن كان السياق في خطاب غيره، كأنّ هذه النعم هي له، أو أن ما في السياق من نقم هو خارج عنها... وهذا كثير مطرد.

(5) لسان العرب: باب القاف: 5/ 3517.

(6) كما في تقديم ضميره – ﷺ – في موضع سورة الأحزاب:﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ [الأحزاب: 7] ينظرالبحث: 285.

(7) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي، ت: بكري حياني، وصفوت السقا، ط5، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1401هـ- 1981م: رقم الحديث 38470 : 14/ 220.

(8) ينظر: لسان العرب: باب القاف: 5/ 3517.

وقال الزجاج -في قوله -تعالى-: ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ [الأنعام: ١١١] أي: عيانًا[1]، ومن ثمَّ يخلو الإقبال كله من التوبيخ والإهانة، وكلما صفا وعلا خلا حتى من اللوم والعتاب؛ ولذا يتسم بظهور المعنى ووضوح القصد.

وكل ما تقدم داخل في التكريم الذي هو من الدَّلالة الثانوية للإقبال؛ فالمقابَل: الكريمُ من كلا طرفيه، وقيل: المُقابَل: كريم النسب من قبل أبويه[2]، ومن ثم تتعدد وجوه التكريم في أساليب الإقبال الإقبال وتكثر تبعًا لمرتبة الإقبال.

---

(١) ينظر: "معاني القرآن وإعرابه" لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، ط١، عالم الكتب بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م: ٢/٢٨٣.

(٢) ينظر: لسان العرب: باب القاف: ٥/٣٥١٧.

ثانيًا: تعدد وجوه الإقبال:

بدأ الحرالّيُّ بابه الثامن في بيان وجوه الإقبال بأمر عام يشمل كل مخاطَب مقبلاً عليه أو معرضاً عنه، حيث قال: "اعلم أنّ كل مربوب يخاطب بحسب ما في وسعه لقنه وينفى عنه ما ليس في وسعه لقنه".

ثم انتقل من العام إلى الخاص، وهو خطاب بوجه خاص يكون إقبالًا على المخاطَب، وجعله متوقفًا في مرتبته على رتبة المخاطَب وسلامة قلبه، يقول: "فلكل سنٍّ من أسنان القلوب خطاب إقبال بحسب لقنه"[1].

فيبدأ خطاب الإقبال عنده من: "**الذين آمنوا**"، إذ إنّ بداية المدح في أسنان القلوب تبدأ من خطاب: "الذين آمنوا الذي جعله عقب خطاب الإنسان والناس، قال: " ثم المحل الذي يتحقق لهم قبول وسماع وإيمان لغائب الأمر والخلق، ولكنهم يتزلزلون عنه كثيرًا عند كل عارضة نيل وخادعة رفعة، وهو لهم بمنزلة سن المحتلم الذي قد ذاق طعم بدوّ النطفة من باطنه، الناجم العقل للنظر في حقائق المحسوسات، وتلك هو السن الذي يسمون فيه: الذين آمنوا"[2].

ثم انتقل من الخاص إلى الأخص، وهو تقسيم الإقبال مرتبتين: شوب إقبال، وصفاء إقبال، وبدأ بالأدنى.

وهذا منهج مطرد عنده، فبدأ بالشوب في قوله: "وربما كان له إباء عن بعض ذلك، فيقع عنه الإعراض بحسب بادئ تلك الإباء، وربما تلافته الرحمة فعاد الإقبال إليه بوجه ما دون صفاء الإقبال الأول"[3].

ثم ثنّى بصفاء الإقبال، قال: "وربما تناسقت الإقبالات مترتبة فيعلو البيان والإفهام"[4].

والصفاء يأتي صريحاً وعدولاً، ونصه السابق في الصريح من صفاء الإقبال، أما نصه على العدول ففي رسالته" التوشية والتوفية" حيث قال: " فيكون له في خطاب التشديد عليه في أخذه أعظم مدح، وأبلغ ثناء من الله ضد ما يتوهمه الجاهلون"[5].

وبالنظر إلى الدلالات المعجمية لكل وجه من الوجوه يلحظ التقاء هذه الدلالات مع فهم الحرالّيّ لوجه الإقبال في الذكر الحكيم.

---

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

(٢) السابق: ٣٥.

(٣) السابق: ٤٣.

(٤) نفسه.

(٥) التوشية والتوفية: ١٢٢.

فالصفاء يدور بين معان عدة:

أولها: الشيء الصافي نقيض الكدر[1].

وثانيها:خلوص الشيء وخياره، فصفوة كل شيء خالصه وخلاصته، يقال:أصفيته الود: أخلصته.

ثالثها: شدة المودة والحب، فصفي الإنسان أخوه الذي يصاحبه[2].

وهذه المعاني تلتقي مع الإقبال على أولي العزم من الرسل، فهم صفوة الناس وخلّصهم؛ ولذلك خطابهم يخلو من الكدر، حتى ما ورد في شوب الإقبال لا يتعدى العتب، والنصح؛ لذا كثر معهم ورود الإقبال صافيًا لا شوب فيه، يدل على ذلك كثرة أساليب الإنعام، وتعدد وجوهها من تأييد وإنعام في الدنيا والآخرة، وغير ذلك من وجوه الصفاء زيادة في تأنيس قلوبهم، الذي غلب على أسلوبه الخطاب والمواجهة به؛ لأنَّ هذا أدلُّ على الصفاء.

كما أنّه كثر فيه إسناد النعم لنون العظمة، أو للضمير العائد على الجلالة؛ إذ النعمة من العظيم أعظم(٣).

وكذلك كثرت معهم أساليب المدح، وتعددت وجوهها من ذكر الصفات الخاصة أو العامة لكل نبيّ، أو تعددها واجتماعها في نبي من دون آخر[4].

والعدول في الصفاء: أن يرد الأسلوب في الإقبال – كما يقول البلاغيون– على خلاف مقتضى الظاهر؛ إذ العدول: الميل عن الطريق، يقال: عدلت عن الطريق إذا ملت عنه (٥).

وهذا المعنى اللغوي يظهر في المفهوم الذي ذكره ابن الأثير بقوله:" إن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارهما، وفتش عن دفائنهما، ولا تجد ذلك في كل كلام[6].

(١) ينظر: لسان العرب: باب الصاد : ٤/ ٢٤٦٨.

(٢) نفسه.

(٣) ينظر:"تعبير الحق عن ذاته" عز الدين علي السيد، ط١، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م:٩.

(٤) ينظر: المطلب الخامس في البحث.

(٥) ينظر: لسان العرب: باب العين: ٤/٢٨٤١.

(٦) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين ابن الأثير، ط من دون، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة: ١/١٥٦.

وهذا يتفق مع فهم الحرالّيّ للعدول؛ إذ جعله أعظم المدح والثناء؛ لأنّه عدل به عن الأسلوب المعهود لسمة جمالية لا يفهمها إلا ذوو الأفهام، قال الحرالّيّ: "فيكون له في خطاب التشديد عليه في أخذه أعظم مدح، وأبلغ ثناء من الله، ضد ما يتوهمه الجاهلون" (1).

وعَدُّ الثناء بالعدول أعلى الثناء؛ لذا اختص به النبي -ﷺ- لأنّه أعلى الأنبياء رتبة.

والتناسب أصل في فهم العدول عند الحرالّيّ باعتباراته المختلفة، سواء كان في تناسب النظم بعضه مع بعض، أو في تناسب معاني الكلام.

أما الشوب فهو رتبةٌ ثانيةٌ من الإقبال، ووجه ثانٍ من وجوهه:

ودلالة الشوب المعجمية دالّة على تأخر رتبته عن صفاء الإقبال؛ فالشوب الخلط، يقال: شاب الشيء شوبًا: خلطه(2).

ومع الاختلاط فيه دلالة تعدد هذا المختلط، يقال -لغلاف القارورة-: مشاوب؛ لأنّه مشوب بحمرة وصفرة وخضرة؛ لأنّ فيه ألواناً مختلفة (3)، وهذا ملائم لفهم الحرالّيّ لشوب الإقبال، قال: "وربما تلاقته الرحمة فعاد إليه الإقبال بوجه ما، دون صفاء الإقبال الأول".

فهنا إذن خلطٌ ومزجٌ، وتعددٌ، ومن هنا كثر في الشوب أسلوبان:

أولهما: الجمع بين الذكر والحذف: ذكر جانب الإقبال كالعطاء والإنعام، وحذف ما يدل على الإعراض كمنع الإجابة لسؤال وطلب مع إبراز العطاء، وهذا بيّن في قوله -تعالى-: ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ [الأعراف:١٤٤] في شأن موسى -عليه السلام- ففيه معنى العطاء والمنع، فهنا اجتمع مع التعدد واختلاف هذا المتعدد بعضه عن بعض.

ثانيهما: أساليب التقليل، فالشوب من قولهم: فلان يشوب ويروب، أي: يدافع مدافعة غير مبالغ فيها، وفلان يشوب عن أصحابه: إذا دافع عنهم شيئًا من دفاع(4)؛ ولذا ترد صفات المدح في مواضع شوب الإقبال على وجه التقليل، فبعض مواضع الشوب لا يختلط فيها المدح بالذم، ولكنّه لا يكون صفاء؛ نظراً إلى تقليل صفات الثناء، أو الإنعام بالنسبة إلى مواضع أخرى كان الإقبال فيها صفاء، سواء كان سبب الشوب المخاطب، أو السياق، أو طلاقة القدرة، أو غير ذلك من الأسباب المؤثرة في رتبته الإقبال.

---

(١) التوشية والتوفية: ١٢٢.

(٢) ينظر : لسان العرب: باب الشين: ٤/٢٣٥٥.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

ومن ذلك ما ورد في شأن الإنعام على سيدنا عيسى – عليه السلام – فلمّا كان السياق سياق اصطفاء وعلوّ شأن في موضع سورة آل عمران = وردت النعم على سبيل التعظيم، قال –تعالى–: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[آل عمران: ٤٩] فوردت منسوبة إليه – عليه السلام –.

ولكن حين وردت في معرض يوم القيامة، وقدرة الله على المكذبين كان للسياق أثره في التقليل، فوردت بصورة أقل إنعامًا عما هي في سورة آل عمران، قال –تعالى– في سورة المائدة: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾[المائدة: ١١٠] وتفصيل ذلك في البحث[1].

وفي كل وجه من وجوه الإقبال رتب تختلف باختلاف المخاطب والمقام والسياق، فأولو العزم أعلى درجات المخاطبين؛ لذلك كان الصفاء معهم أكثر وروداً من شوب الإقبال .

وهم جميعاً –وإن كان يكثر معهم صفاء الإقبال– ليسوا على رتبة واحدة، بل تختلف تبعًا لأسس الإقبال التي منها المخاطب والمقام والسياق وغير ذلك، كما سيرد تفصيله في العنصر الثاني.

كما أنّ لكل وجه أساليبه، وقد نص على ذلك الحرالّيُّ بقوله : "وربما تناسقت الإقبالات، فيعلو البيان والإفهام"[2]، فإذا تكاثرت الإقبالات وتناسبت وجوهها كان الإقبال أعلى.

(١) ينظر البحث: ٤٠٦ ومابعدها.

(٢) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

ثالثًا: أسس مراتب الإقبال:

لمراتب الإقبال أسس نص عليها الحرالّيُّ في رسالته: "مفتاح الباب المقفل" يمكن إجمالها فيما يلي:

أولًا: رتبة المخاطب، فيتفاوت الإقبال بحسب رتبة المخاطب، ونص على ذلك الحرالّيُّ بقوله : "فيعلو البيان والإفهام بحسب رتبة من توجه إليه الإقبال"[1]، وقوله: " فلكل سنٍّ من أسنان القلوب خطاب إقبال بحسب لقنه"[2] فلما كانت مرتبة أولي العزم أعلى من غيرهم كان الإقبال عليهم أعلى رتبة أسلوبًا ومعنى.

أو بتفاوت المخاطب في أحواله وصفاته ، وذلك ما نصَّ عليه الحرالّيُّ بقوله: "تفاوت الخطابين بحسب تفاوت المخاطَبين"[3] وذلك عقب استشهاده بقوله -تعالى-: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ [الفرقان: ٤٥] فتفاوت خطاب النبي -ﷺ- عن خطاب المشركين الذين خوطبوا بقوله -تعالى-: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ [الأنبياء: ٣٠]

ثانيًا: تنوع أسماء الله وصفاته : "فلكل اسم من أسماء الله بيان يخص إقامته طوراً من أطوار خلقه تفصيلاً وإجمالاً، فمن تفطَّن إلى رتب الخطاب في القرآن بحسب أسماء الله ... فتح الله له بابًا إلى الفهم يجد به يقين تجربة إبانته"[4] كما أنَّ لتنوع ما تضاف إليه أسماء الله وصفاته مدخلًا -أيضا- في الإقبال قال الحرالّيُّ: "وكما يتضح لأولي التعرف رتب البيان بحسب إضافة اسم الرب، فكذلك يتحقق لأولي الفهم وجوه إحاطات البيان بحسب النعوت والتبيان ..."[5].

ومن ثم ارتبطت أسماء الله وصفاته بالإقبال من حيث تعدد أسماء الجمال وصفاتها من الربوبية والرحمة ... لما فيها من معاني التفضل والإنعام والتكريم بما يتناسب مع الإقبال؛ ولهذا يعلو الإقبال حيث يكثر ورود أسماء الله وصفاته الدَّالة على الفضل والعطاء والعناية والاهتمام بالمخاطب والحنو والرفق به لاسيما في مقام الشدة والضيق اللذين يعتريان المتلقي في مراحل حياته.

ثالثًا: رتب التنزيلات باعتبار المخاطب؛ وفي ذلك قال الحرالّيُّ: " فمن تفطن إلى رتب الخطاب في القرآن... فتح الله له بابًا إلى الفهم يجد به يقين تجربة إبانته ، ووضوح صدق إنبائه

---

(١) و(٢) و(٣) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

(٤) و(٥) السابق: ٤٢.

عن كنه الذوات ورتب التنزيلات[1] فقد يكون المخاطب واحدًا، ويتنوع الإقبال معه مابين صفو وشوب، أو تختلف رتبة الإقبال تبعًا لاختلاف المقام، كما في شأن النبي -ﷺ- في سورة الأحزاب، حيث علا الإقبال عليه والتكريم له في هذا الموضع عنه في مواضع إقبال أخر لا لاختلاف الذات بل لاختلاف المقام؛ حيث كثرت الشدة عليه وتنوعت وجهاتها في موضع سورة الأحزاب؛ فمن شدة مقاتلة المشركين له، إلى خيانة اليهود والمنافقين واستهزائهم به، ثم مطالبة أزواجه له زيادة النفقة، ثم شدة التقول عليه في شأن زينب -رضي الله عنها- ثم تأذيه من مكوث الصحابة في بيته ....، ومن ثم علا الإقبال عليه هنا، وذكرت له من الخصوصيات ما لم تذكر في مواضع أخر، كتقديمه على الأنبياء وإن تقدموه زمنًا، والصلاة عليه زيادة على التسليم، والتوسع في الثناء عليه. وهذا علوُّ اقتضاه المقام وإلا فالمخاطب واحد -ﷺ-.

رابعًا: حال المتكلم، فربما يعلو الإقبال أو ينزل تبعًا لغلبة صفة المتكلم من دون أن يكون للمخاطب مدخل في ذلك، وهذا ما نص عليه الحرالّيُّ بقوله: "وربما تلافته الرحمة فعاد إليه الإقبال بوجه ما دون صفاء الإقبال الأول"[2]. فنص الحرالّيُّ هنا على أنّ الاقبال قد يعود للمقبل عليه من دون عمل منه أو استحقاق، لكن لرحمة الله، وهذا عام ولم يرد في شأن أولي العزم؛ لخصوصيتهم في تبليغ الدعوة ومواجهة أعداء الله.

لكن الذي ورد في شأنهم عكس ما ذكره الحرالّيُّ هنا فقد يكون المخاطب من أهل الرحمة، ولكن -نظرًا لحالٍ يكون عليها المتكلم- يرد الإقبال معه أقل، ومن ذلك أنّه كان لسلطان الألوهية في موضع سورة المائدة: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [المائدة: ١١٠]

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٣٣.

(٢) السابق: ٤٣.

في شأن سيدنا عيسى – عليه السلام – مدخل في نزول مرتبة صفاء الإقبال عليه إلى الشوب، فورد الخطاب –في ظاهره– عتابًا فقلّلَ من صفات الثناء؛ لأنّه ورد في مقام كان المتكلم في حال قهر وعلوّ فكان لسلطان الملك وقهر الألوهية أثرٌ في نزول رتبة الإقبال من دون أن يكون للمتكلم مدخلٌ في تراجع الرتبة [1].

خامسًا: المعاني من سياق إلى سياق، فكلما تناسقت متتابعة علا الإقبال، وهذا ما نصَّ عليه الحرالّيُّ بقوله: "وربما تناسقت الإقبالات مترتبة فيعلو البيان والإفهام" [2] ومن ذلك أنك ترى الصفات في الثناء، تأتي متتابعة إما معطوفة بعضها على بعض، أو مقطوعة، وقد ترد بوجوه مختلفة تشمل الحسي والمعنوي في الصفات، أو الدنيوي والأخروي في الإنعام ....، وهذا كثير مطرد في البحث[3]

(١) ينظر البحث: ٤٠٦ ومابعدها

(٢) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

(٣) ينظر البحث: ٦٠ ومابعدها.

الفصل الأول

الفصل الأول: مرتبة صفاء الإقبال

المبحث الأول: صريح صفاء الإقبال

يأتي الإقبال صريحًا، حيث يكون ظاهرًا بيّن الدلالة على التكريم، فيرد أسلوبه على مقتضى ظاهر الكلام بغير عدولٍ في التركيب، أو تعريضٍ أو خفاء في الكلام، فالصريح : البين الظاهر، يقال: كذب صُراحيةً وصُراحيٌّ وصُراح: أي بينٌ يعرفه الناس، وقال الأزهري: يقال للّبن والبول صريح: إذا لم يكن فيه رغوة [1].

ومن ثم تأتي صفات المدح واضحة الدلالة على المعنى، متتابعة الأساليب، مسندة إلى المقبل عليه، إما باسمه، أو بضمير خطابه لاستلزام تعين المقبل عليه من دون لبس.

كما أنّ التكريم في صريح الإقبال يكون ممتد الجذور، مما يعين على ظهور الإقبال في الخطاب، وهذا الظهور فيه علوٌ وبروز؛ لذا فهو جزء من صفاء الإقبال، الذي هو أعلى رتبة من شوب الإقبال.

ويأتي أسلوب صريح الإقبال على الحقيقة من غير تعريض، فالتصريح: خلاف التعريض، والصريح: الخالص من كل شيء[2]؛ لذا لا يتأتى فيه خلط الصفات؛ لأنّ هذا يتعارض مع خلوص التصريح.

ثم إنّ أسلوبه مبني على الحقيقة، فالصريح ضد الكناية[3]، وهذا عكس أسلوب العدول في الإقبال الذي يبنى على غير الحقيقة، سواء بالكناية أو التجوز.

وتعددت سياقات صريح الإقبال إلى سياقات عدة، هي مايلي:

١) سياق المنّ والإنعام بالرعاية في الصغر.

٢) سياق المنّ بالهبـة.

٣) سياق التأييد والنصرة.

٤) سياق التسلية والتصبير.

٥) سياق رتبة المقبل عليهم بين تنوع الصفات والثناء.

---

(١) ينظر: لسان العرب: باب الصاد: ٤/ ٢٤٢٤، ٢٤٢٥.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

المطلب الأول: صفاء الإقبال في سياق المنّ والإنعام بالرعاية في الصغر:

من صفاء الإقبال في سياق المنّ والإنعام= العناية بأولي العزم في مرحلة الصغر، عناية دالّة على علوّ الإقبال عليهم، وتأنيسهم وقت الشدة ؛ فالله – جلّ شأنه– قد عُني بهم صغارًا ولمّا يتحملوا عبء الرسالة، والتبليغ، فهل يترك العناية بهم وقت الدعوة؟!.

وقد ورد الإقبال بالعناية في الصغر مع موسى وعيسى ومحمد – عليهم صلوات الله وسلامه– من دون غيرهم من أولي العزم؛ لما في ذلك من خصوصية تدل على علوّ الإقبال، وأهميته في هذه المرحلة المبكرة، واتصال ذلك بدعوتهم.

ويأتي وجه خصوصية هذه المرحلة في شأن عيسى –عليه السلام– من أنّ أساس الجدل في ولادته، وعليه ترتب ما بعد ذلك من دعاوى؛ إما بتأليهه وعبادته، أو باتهام نسبه وشرف أصله؛ لذا كان الإقبال عليه في هذه المرحلة أساسًا للإقبالات عليه بعد ذلك.

أما موسى –عليه السلام– فلأنّ الخطر قد تعلق بوقت صغره، والخوف عليه من فتك فرعون في هذه المرحلة، وما تبعها من تربيته فيهم ومواجهتهم بالدعوة.

أما الرسول –ﷺ– فللتقابل بين دعوى قلى ربه إياه، والارتداد إلى العناية بالصغر؛ لأنّها كالدّليل على انتفاء الترك بالكلية من وجه، ومن وجه آخر لبيان أثر العناية به في المراحل الأولى من الصغر على الدعوة، فما صار إليه حاله نتاج رعاية الله له في الصغر، حيث قلبت العناية الإلهية محنة يتمه إلى منح– كما سيرد فيما بعد – وهذا له وجه في إيثار الإقبال عليه في مرحلة الصغر.

وذلك في ستة مواضع [1]:

أولا: في شأن عيسى –عليه السلام–:

١) قال –تعالى–: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ... قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٧].

---

(١) اعتمدت في ترتيب المواضع على ترتيب المصحف؛ لاعتماده عند القوم عامة وعند الحرالّي خاصة كما سأذكره في آخر المواضع.

٢) قال -تعالى-: ﴿ فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا (٢٩) قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا (٣٠) وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا (٣١) وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا (٣٢) والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا (٣٣) ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون (٣٤) ﴾ [مريم: ٢٩-٣٤].

ثانيا: في شأن موسى -عليه السلام-:

١) قال -تعالى-: ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى (٣٧) إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى (٣٨) أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني (٣٩) إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى (٤٠) واصطنعتك لنفسي (٤١) ﴾ [طه: ٣٧-٤١].

٢) قال -تعالى-: ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين (٧) ﴾ [القصص:٧].

ثالثا: في شأن محمد- ﷺ -:

١) قال -تعالى-: ﴿ والضحى (١) والليل إذا سجى (٢) ما ودعك ربك وما قلى (٣) وللآخرة خير لك من الأولى (٤) ولسوف يعطيك ربك فترضى (٥) ألم يجدك يتيما فآوى (٦) ووجدك ضالا فهدى (٧) ووجدك عائلا فأغنى (٨) فأما اليتيم فلا تقهر (٩) وأما السائل فلا تنهر (١٠) وأما بنعمة ربك فحدث (١١) ﴾ [الضحى: ١-١١].

٢) قال -تعالى-: ﴿ ألم نشرح لك صدرك (١) ووضعنا عنك وزرك (٢) الذي أنقض ظهرك (٣) ورفعنا لك ذكرك (٤) فإن مع العسر يسرا (٥) إن مع العسر يسرا (٦) فإذا فرغت فانصب (٧) وإلى ربك فارغب (٨) ﴾ [الشرح: ١-٨].

رتب التنزُّلات وأثرها في تفاوت رتب الإقبال على سيدنا موسى وعيسى ومحمد –صلوات الله عليهم وسلامه– :

يتجلى أثر رتب التنزلات على هذه المواضع في انتظامها في مقام رئيس واحد استلزم الإقبال عليهم بتأنيسهم، حيث اشتركت كلها في كونها في مقام الشدة، والوحشة، إلا أنّ وجوه الإقبال به تعددت واختلفت؛ تبعًا لمسبب هذه الوحشة لدى كل نبيٍّ من جانب، ومن جانب آخر تبعًا لمنزلة كلٍّ منهم.

فمسبب الوحشة لدى موسى وعيسى –عليهما السلام– الخوف؛ لذا ورد الإقبال عليهم بنعم الأمنِ التي تنوعت –أيضًا– تبعًا لتنوع باعث الخوف لدى كل منهما.

فباعث خوف موسى –عليه السلام– كان من الهلاك، والقتل على يد فرعون، فذكَّره بنعمة حفظه وهو صغير، وكيف يسَّر تربيته في بيت فرعون ذاته، قال –تعالى–: ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾[طه: ٣٩].

أما باعث خوف عيسى –عليه السلام– فكان متصلًا باتهام أسله أولًا، و بالخوف على أمه من الأذى كونها ولدته من غير أب ثانيًا؛ لذا انتظم الإقبال بتذكيره بصفاء نسبه، وبراءة أمه؛ ليأمن هذا الخوف خاصة، قال –تعالى–: ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾[مريم: ٢٧-٣٠].

أما مسبب الوحشة لدى سيدنا محمد –ﷺ– فكان دعوى المشركين بأنّ الله قلاه لتأخّر الوحي، فكان الإقبال عليه بوجه يذكّره بالاهتمام به، ورعايته في صغره؛ ليلفت نظره إلى اتصال الإقبال عليه –من باب الأولى– في حال تحمله للرسالة، قال –تعالى–: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ [الضحى: ٣].

وقد اتّصل الإقبال على موسى وعيسى ومحمد –عليهم صلوات الله وسلامه– في جميع مراحل حياتهم حتى وقت موتهم، وورد متلائمًا معنى ومبنى مع المقام الوارد فيه، والمخاطب المخصوص به –كما سأوضح لاحقًا–.

، وجه ترتب الإقبال في نزج المصحف:

كان النّظر فيما سبق موجهًا لترابط الإقبال بين السّور؛ تبعًا لتناسب انتظامها في مقام رئيس واحد، فإن يمّمت إلى الترقي فيما بينها تبعًا لترتيب المصحف، تجد له اعتلاقًا بالمقام – فالمقام

الذي أثير فيه الجدل حول تلك المرحلة في حياة عيسى -عليه السلام- هو مدار القول كله؛ لأنه في الاعتقاد، وذلك رأس ما سواه، فمن ثم بدأ به.

كما تجد لترتيب المصحف مدخلًا في ترتب الإقبال؛ فهو أساسٌ معتمدٌ للتّرابط، والتّكامل في الموضوعات عند القوم عامة، وعند الحرالّيّ خاصة، حيث نصّ عليه -في فهمه للتّرابط بين الحروف السبعة التي نزل القرآن عليها- بقوله: "وكما ابتدأت الفاتحة بالسابع الجامع الموهوب، ابتدئ القرآن بالحرف السادس المعجوز عنه... ثم ولِيَ السادس المفتتح به القرآن الخامس المحكم... وهذا إنّما وقع ترتيبه هكذا في القرآن المتلوّ "[1] فهنا نصَّ على براعة استهلال القرآن بسورة الفاتحة التي جمعت كل معاني القرآن، فسماها بالجامع الموهوب، وإلى التناسب بين سوره، وتكامل المعاني فيها حيث قصد بالحرف المعجوز عنه سورة البقرة بالحروف المقطعة، وبالخامس المحكم سورة آل عمران، التي نصت على الفرق بين المحكم والمتشابه.

والتناسب بين سور القرآن لم ينكره أحد من أهل العلم، بل يكاد يجمع عليه علماء الأمة، وكل ذلك له أثر في تدرج رتب الإقبال.

فلنسق الإقبال في درج المصحف ترقٍ خاصٌ، حيث بدأ بسيدنا عيسى -عليه السلام- في حال صغره أولًا، وختم بالإقبال على سيدنا محمد -ﷺ- في حال صغره آخرًا.

أما بدؤه بسيدنا عيسى -عليه السلام- فلأنّ أمره مرتبط بالعقيدة، وهو المقصد الرئيس الذي يعلي القرآن بتصحيحه وتثبيته، إذ كان مولده هو الداعي إلى تأليهه، ولمّا ختمه بالإقبال على النبي -ﷺ- فللترقي في كمال الإقبال من وجه؛ حيث كَمُلت للرسول -ﷺ- فيه النعم الحسية والمعنوية، ومن وجه آخر فيه ملاءمة لحال الرسول -ﷺ- بكونه خاتم الأنبياء، فلاءم ختم النبوة به أن يكون ختام الإقبال عليه -ﷺ- .

وتوسّطهما الإقبال على سيدنا موسى -عليه السلام- الذي ارتبط بنفي الشقاء الحاوي في رحمه تسليةً، وتصبيرًا على مشاق الدعوة إلى التوحيد، وتثبيت العقيدة، وهذا ملائم لأنْ يكون مرتبة وسطى بين الاهتمام بالعقيدة، والختم بكمال النّعم.

هذا، ونجد الإقبال في كل موضع منتظمًا، ودائرًا في فلك المقصد الرئيس في كل سورة لا يكاد يجاوزه، وقد نبه الحرالّيّ لذلك بقوله: "ويذكر في كل سورة ما هو الأليق والأولى بمخصوص منزلها؛ فلذلك ينقص الخطاب في القصة الواحدة في سورة ما يستوفيه في سورة أخرى؛ لاختلاف

---

(١) العروة للمفتاح الفاتح للباب المقفل المفهم للقرآن المنزل: ٦٠.

مخصوص منزلها، كذلك الحال في القصص المتكررة في القرآن من قصص الأنبياء، وما ذكر فيه لمقصد الترغيب، والتثبيت والتحذير، وغير ذلك من وجوه التنبيه" [1].

فالإقبال في موضع سورة آل عمران منتظم في سلك الابتلاء، ومن ثم الاصطفاء بعده، حيث دار ذلك في محاور السورة كلها: سواء في الابتلاء بالمتشابه والمحكم: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٢١٦-٢١٧].

أو في ابتلاء الأنبياء ومنه: ابتلاء سيدنا عيسى -عليه السلام- بالخوف من اتهام أصله؛ ليكون الإقبال باصطفائه بعد تمحيصه، وأمه بالابتلاء، وتخليصهما من كل مذمّة خلوصًا يرفعهما رفعة لا توصلهما للألوهية.

وانتظم الإقبال عليه -عليه السلام- في سورة مريم بسلك الرحمة الذي كان شائعاً في السورة: ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ ﴾ [مريم: ١-٢].

أما الإقبال على موسى -عليه السلام- في موضع سورة طه فقد انتظم في سلك نفي الشقاء عن المرسلين الذي صُدّرت به السورة ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ ﴾ [طه: ٢] وكان ذلك موجهًا لكل ما ورد فيها من أخبار، وقصص، وبيان لعظمة الله، التي تتجلى في قدرته على تغيير الأمور. وفي ذلك بشارة لنبينا الكريم بأنّ عاقبة الأمر صائرة لليسر لا محالة ؛ ولذا ارتقت مرتبة الإقبال على موسى -هنا- عن الإقبال عليه في موضع سورة القصص الذي انتظم في سلك الوعد بالمساعدة عند الحاجة.

ولاشك أن هذا أعلى مرتبةً من نفي الشقاء، ويؤكده ما ورد في سورة القصص من تفصيل لقصة مقتل القبطي، الذي قلّل من مرتبة الإقبال؛ لأنه موطئ لشوب الإقبال على سيدنا موسى -عليه السلام- كما سيأتي.

أما موضعا سورتي الضحى والشرح، فالسورتان إقبالٌ على سيدنا محمد -ﷺ- بالتذكير بنعم ظاهرة، وباطنة.

---

(١) ينظر: تفسير الحرالّيّ ضمن كتاب تراث أبي الحسن الحرالّيّ المراكشي في التفسير: ٥٨١.

وبهذا تمام الكمال الحسيّ: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الضحى: ٦]، ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾[الضحى: ٨]، ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾[الشرح: ١] والكمال المعنويّ له -ﷺ- ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الضحى: ٧-٨]، ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشرح: ٢-٤] تمامًا ينبئ عن علوّ الإقبال عليه-ﷺ- على سائر أولي العزم في هذا الموضع، وفي سواه.

وقد كان مناط الإقبال في سورة آل عمران بالثناء على مريم، وأهلها بصبرهم، وبتألّههم لله وتعلقهم به: ﴿ نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾[آل عمران: ٣٥]، ﴿ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ [آل عمران: ٣٦] ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي ﴾[آل عمران: ٤٣]وبربط المعجزات بالله وقدرته.

ومناطه في سورة مريم بتعداد نعم دالّة على الرحمة، والعطف: ﴿ لِأَهَبَ لَكِ ﴾ [مريم: ١٩]، ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [مريم: ٢٥]، ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾[مريم: ٢٦]، وفي سورة طه بتعدد سبل الأمن، وتمام الحفظ، والرعاية، وفي سورتي الضّحى، والشّرح كان الإقبال بالرضى، والوصل الدائم.

<u>أثر المقتضيات السياقية في اختلاف الخصائص التركيبية، والتصويرية:</u>

<u>**وكل هذه السياقات رشّحت للإقبال على أولي العزم من الرسل، ولكنْ هناك فروقٌ يختص بها كل موضع**</u> تبعًا لما سبق أن ذكرت من مقصد السورة، والمقام، وهذا ما عبر عنه الحرالّيّ بـ" تنزلات الأمر" [1] وتبعًا للمخاطب، فـ" كل مربوب يخاطب بحسب ما في وسعه لقنه .. فلكل سن من أسنان القلوب خطاب إقبال بحسب لقنه" [2]. ومقصوده: أن يكون هناك تلازمٌ بين أحوال المخاطب وتنوع أساليب الإقبال، واختلافها، سواء في حال المخاطب الواحد، أو بين أولي العزم.

فتنوعُ النظمُ بين: إفراد ضمير الخطاب تارة - بما يدل على تحمّل المخاطب، وعلوّ مرتبته، وهذا مما يعلو به الإقبال فيستحضره في كل كلام- و تنوع الخطاب بالغيبة، والحضور أخرى، وإطراده بالغيبة ثالثة، فهذه مراتب ثلاث للخطاب تكشف عن مراتب الإقبال فيها، فأعلاها ما كان في لقن المخاطب تحمّل الخطاب من المولى، ودونه ما تنوّع بين الخطاب والغيبة، وأدناها ما كان على الغيبة دائمًا .

---

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

(٢) السابق: ٤٣.

وبهذا يظهر لنا جليًّا تعاضد النسق اللغوي، مع النسق المعنوي الذي يلائمه[1]، ويتجلّى هذا التعاضد في الآتي:

معالم تعاضد النسق اللّغوي بالنسق المعنوي:

المعلم الأول : توزيع أسماء الله، وصفاته بما يتلاءم مع مرتبة الإقبال في كل موضع:

لا ريب أنّ دقة الكلمة، ووضعها في موضعها أساس بلاغة الدّلالة على المعنى، قال الخطابي: "اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات، هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"[2] وهذا ما أكده الجرجاني في وصفه للكلام البليغ :"ولاجهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه، وأتمّ له، وأحرى بأن يكسبه نبلًا، ويظهر فيه مزيّة"[3].

وأظهر ما تكون هذه البلاغة فيما دق من الألفاظ في القرآن الكريم، وتجده في دقة تخير أسماء الله الحسنى، بما يكشف عن رتبة الإقبال تارة فـ:" لكل اسم من أسماء الله بيان تخص إقامته طورًا من أطوار خلقه تفصيلاً، وإجمالاً، فمن تفطّن إلى رتب الخطاب في القرآن بحسب أسماء الله، وأطوار الخلق، وتنزلات الأمر ...– فتح الله له بابًا إلى الفهم" [4]، وتارة أخرى في إضافتها إضافةً تدلُّ على علوّ منزلة المقبل عليه:" فللربوبية بيان في كلّ رتبة بحسب ما أظهرته آية مربوبه ... وكما يتضح لأولي التّعرف رتب البيان بحسب إضافة اسم الرّب، فكذلك يتحقق لأولي الفهم وجوه إحاطات البيان بحسب النعوت والتبيان ..."[5] وتقدم ذكر اعتماده لدى الحرالّيّ ضابطًا من ضوابط تفاوت المراتب[6].

---

(١) قال الحرالّيّ:" فيعلو البيان والإفهام بحسب رتبة من توجه إليه الإقبال" السابق: ٤٣.

(٢) "بيان إعجاز القرآن" ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، ت: محمد خلف الله محمد زغلول سلام، ط٤، دار المعارف، القاهرة: ٢٩.

(٣) دلائل الإعجاز : ٤٣.

(٤) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٣٣.

(٥) السابق: ٤٢.

(٦) ينظر : البحث: ٢٦.

والأسماء والصفات التي دارت في المواضع هي : اسم الجلالة، أو الاسم الأعظم (الله) و(الرحمن) و(رب)، وما دل عليها من ضمير المتكلم المفرد، والجمع (نا) .

فالملاحظ أنّ اسم الجلالة (الله) شاع في الإقبال على عيسى-عليه السلام- في موضع سورة آل عمران، مقارنة بلفظ "رب" الذي ورد في الكلام عن عيسى - عليه السلام- وأمه ثلاث مرات فقط، قال البقاعي: "ولما كانت هذه السورة سورة التوحيد المقتضي للتفرد بالعظمة، عبّر ما صدرت به من اسم الذات الجامع لجميع الصفات، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا كفء له، فلا رادّ لأمره؛ ﴿ يُبَشِّرُكِ ﴾ وكرر هذا الاسم الشريف في هذا المقام؛ زيادة في إيضاح هذا المرام، بخلاف ما يأتي في سورة مريم -عليها السلام- "[1].

وتكرار اسم الجلالة في هذا السياق -خاصة- إحدى عشرة مرة ملائم للإقبال على عيسى- عليه السلام- بإعجاز مولده، وتكريم نسبه، إقبال تكريم لا يصل به إلى حد الألوهية؛ لما في اسم (الله) من دلالة على المعبود بحق[2] التي تردُّ على دعوى عبادة عيسى- عليه السلام- نظرًا لما صاحب حاله من عجيب مولده؛ لذا كان اسم الذات (الله) دائرًا في سائر الإقبال عليه.

بينما لم ترد إلا مرةً واحدةً في موضع الإقبال في سورة مريم، في تأكيد عيسى أنّه عبدالله : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ فموضع سورة آل عمران صرح بأنّ محاجّة النصارى كانت في دعوى ألوهية عيسى -عليه السلام- ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[آل عمران: ٦١] إذ كانت المحاجّة في ذات الله؛ في المسيح أهو وحده الله؟ أم أنّه إله مع الله؟ أما في سورة مريم فالمحاجّة في كونه ابن الله، وليس في أنّه إله، ولهذا السبب لم يرد علم الذات: "الله" بجانب الرحمة الدائرة في السورة.

ولم يرد البتة في موضعي الإقبال على موسى -عليه السلام- في سورتي طه والقصص، ولا في موضعي الإقبال على النبي -ﷺ- في سورتي الضحى، والشرح؛ لعدم اقتضاء سياق الإقبال له.

وشاع اسم "رب" - بتكراره أربع مرات - واسم "الرحمن" - بتكراره مرتين- في الإقبال عليه في سورة مريم تبعًا للرحمة المقصودة في السورة، وهذا دليل على علوّ الإقبال على سيدنا عيسى في موضع سورة مريم عنه في موضع سورة آل عمران.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ٢/٨٨.

(٢) ينظر : المفردات في غريب القرآن: كتاب الألف: ٣١.

وورد لفظ: "رب" في سورتي الضحى، والشرح أربع مرات مضافًا فيها جميعًا إلى ضميره -ﷺ- ملاءمة لعلوّ الإقبال عليه -ﷺ- لما في ذلك من دلالة على أنّه مقصود لذاته بالنعم، وهذا دليل قربه والرضى عنه -ﷺ-.

ولم يرد "رب" ولا علم الذات: "الله" صريحًا في الإقبال على موسى -عليه السلام- في موضع سورة طه الذي أُختُصّ من دون غيره بشيوع ضمير المتكلم العائد على الله -عز وجل- حيث تكرر ثلاث مـــرات: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طـــه: ٣٩]، ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طـــه: ٣٩]، ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾ [طه: ٤١]، واشترك مع موضع الإقبال على الرسول-ﷺ- في سورة الشرح بشيوع ضـــمير نـــون العظمـــة الـــذي تكـــرر خمـــس مـــرات فـــي ســـورة طـــه: ﴿ مَنَنَّا ﴾ [طـــه: ٣٧]، ﴿ أَوْحَيْنَا ﴾ [طه: ٣٨]، ﴿ فَرَجَعْنَاكَ ﴾ [طه: ٤٠]، ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ ﴾ [طه: ٤٠]، ﴿ وَفَتَنَّاكَ ﴾ [طه: ٣٩] ومرتين في سورة القصص ﴿ وَأَوْحَيْنَا ﴾ [القصص: ٧]، ﴿ إِنَّا ﴾ [القصص: ٧] وثلاث مرات في سورة الشرح ﴿ نَشْرَحْ ﴾ [الشرح: ١]، ﴿ وَوَضَعْنَا ﴾ [الشرح: ٢]، ﴿ وَرَفَعْنَا ﴾ [الشرح: ٤] من دون غيرهما، وهذا ملائم لمظنة الأمن، ونفي الشقاء من وجه، ومقابل لتعاظم فرعون من وجه آخر في الإقبال على موسى-عليه السلام- وملائم لعظمة المنّة، وكمالها في الإقبال على النبي -ﷺ-.

<u>المعلم الثاني:</u> تنوع أساليب التركيب ودلالات الألفاظ بين الإفهام والإفصاح" فإفهامه: إسراره للقلوب الفهمة، وإفصاحه: إعلانه للأسماع الواعية" [1].

وهذا ضابط ثالث لدى الحرالّيّ يظهر في أمور في هذه المواضع:

١) أسلوب الخطاب وأثره في بيان مراتب الإقبال:

غلب أسلوب الخطاب على أسلوب الغيبة في هذه المواضع؛ لأنّه الأليق بمقام الشدة والوحشة فيها؛ فالخطاب أدعى للتأنيس وإزالة الوحشة؛ لذا وجّه الخطاب مباشرة لموسى - عليه السلام - في موضع سورة طه؛ لأنّه تعلّق بإجابته هو: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٣١.

إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) ﴾ [طه: ٣٧-٤١].

ولأنه في موضع سورة القصص؛ لأنه تعلق بخوفها هي: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾[القصص: ١٠] ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص:٧].

وللنبي -ﷺ- في موضعي الضحى، والشرح: ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾ [الضحى: ١-١١].

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب (٨) ﴾[الشرح: ١-٨] لما في الخطاب من مواجهة تستدعي الأمن بعد الخوف في شأن موسى-عليه السلام- والوصل والاهتمام في شأن النبي -ﷺ- وهذا مناط الإقبال عليهما.

أما الخطاب في الإقبال على عيسى-عليه السلام- في موضع سورة آل عمران فكان موجهًا لأمه:

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٧] وذلك لأنّ الإقبال كان عليه -هنا- قبل مولده من وجه، ومن وجه آخر؛لأنّ فيه تشريفًا لأمّه بمباشرة خطاب الله لها تشريفًا يقتضي شرف نسبه، وأصله، ولتناسق الحديث عن أصوله بالخطاب خاصة.

وورد حكاية على لسانه -عليه السلام- في موضع سورة مريم: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا

كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم: ٢٩-٣٤]؛ لاستلزام الإقبال تبرأة أمّه من وجه، وعلوّ شأنه وإبشاره بهذه المعجزة من وجه آخر.

وفي ورود الإقبال -هنا- بالخطاب دلالة على علوّ صفاء الإقبال؛ فالخطاب من أعلى أساليب الإقبال، وفي كونه صريحًا للنبي، ولموسى - عليهما السلام - دليلٌ على علوّ مرتبة الإقبال عليهما في هذه المواضع عن الإقبال على عيسى -﵇- وستعضد دلالة الخطاب دلالات أخر تبين علوّ الإقبال على النبي -ﷺ- عن موسى -﵇- .

٢) تعدد دلالات التعظيم وتنوعها في الدلالة على مرتب الإقبال:

تعددت دلالات التعظيم وتنوعت في الدّلالة على مرتبة الإقبال على النبي -ﷺ- فجاءت صريحةً، فتارة ترى (نون العظمة) ملازمةً للنّعم المقبل بها عليه: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾[الشرح: ١-٤]، وأخرى تجد اسم (رب) مضافًا إلى ضميره -ﷺ- ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾[الضحى: ٣-٥] وفي اجتماعهما دليلٌ على أنّ الإقبال عليه أعلى مراتب الإقبال.

وتفردت (نون العظمة) في الإقبال على موسى-﵇-: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾[طه: ٣٧-٤١] تفردًا دالًا على نزول مرتبة الإقبال عليه عن مرتبة الإقبال على النبي - ﷺ- من جانب، وعلوّها على مرتبة الإقبال على عيسى -﵇- من جانب آخر؛ حيث ظهرت دلالات التعظيم الصريحة في الإقبال على عيسى -﵇- في موضع سورة مريم، فبشّر به بوصفه بـ: ﴿غُلَـٰمًا

زَكِيًّا ﴾[مريم: ١٩]، وأشير إليه بـ: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾[مريم: ٣٤] بالكاف الدالة على علوّ منزلته، باعتبار أنّ البعد الحسي منزّلٌ منزلة البعد الرتبي، فكلما زاد البعد علا ما يقابله وما يدل عليه.

وغابت دلالات التعظيم – تمامًا – في موضع سورة آل عمران حيث وردت البشارة به: ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾[آل عمران: ٤٥] وورد ردُّ أمّه بـ: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ ﴾[آل عمران:٤٧] ملاءمة لنفي الألوهية عنه في هذا الموضع: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾[آل عمران: ٤٥-٤٧].

وهذه الدلالات من الإفصاح الذي أشار له الحرالّيُّ.

أما الإبهام فيتجلى في تخيُّر أمور ظاهرها المحن، وباطنها المنح علوًّا في الإقبال على النبي – ﷺ – على كل حال في العسر، واليسر، ففي قوله – تعالى –: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الضحى: ٦] نعمة ظاهرة في تكفُّله – ﷻ – برعايته، بما يدل عليه لفظ الوجدان من البحث، والتحري، والتقصي عن الأمر[1] وهذا فيه مزيد عناية، واهتمام. بخلاف (ألم تكن) مثلًا فلا تدل على هذه المعاني، وفيه – أيضًا – نعمٌ باطنةٌ في اليتم ذاته من وجهين:

١) أنّ اليتيم محط أنظار الناس؛ لتسقُّطِ أخطائه، ومن راقب الرسول – ﷺ – لم يجد عليه خطأً، بل شهد له برفعة الخلق؛ فهذا اليُتم إذن له لا عليه.

٢) أنّ ما كان عليه – ﷺ – من خُلق لم يكن نتاج عناية والدٍ رعاه، بل هي عنايةٌ إلهيةٌ، ووقايةٌ نفسيةٌ معنويةٌ من آثار اليُتم، والفقر، والضلال، وليست وقايةً ماديةً تردُّ إليه أباه الذي مات قبل مولده، وتملأ له خزائنه بالمال، وتهيئ له رغد العيش"[2] وهذا دليل على اتصال الإقبال عليه حتى قبل النبوة.

---

(١) ينظر: لسان العرب: باب الواو: ٦/٤٧٧٠.

(٢) "التفسير البياني للقرآن الكريم" عائشة بنت عبدالرحمن، ط من دون، دار المعارف، مصر: ٩/٥١.

وفي قوله -تعالى-: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ ﴾ [الضحى: ٧] علوّ آخر، فغاية ضلاله -ﷺ- عدم معرفته بالشرائع، وإلا فهو لم يشرك بالله قط، ولم يكن سفيهًا يومًا، فقد نزهه- تعالى-عن كل سفه، وشهدت الألسنة بذلك، وقد تعددت آراء العلماء في تعيين المتعلّق[1] ويظهر لي أنّه لا داعي لذكرها؛ إذ إنّ إطلاق المتعلّق أدلُّ على علوّ الإقبال للتنبيه على كمال عناية الله- ﷻ - به في كل أمره، إذ إنّه ما من وجه يحتمل الإضلال بأي معنى، وعلى أي متعلق إلا تدخل عناية القدرة لهدايته، ومن ثم حُذِف المتعلق في الفعلين، فلم يقل (ضالًّا) في أي شيء، ولا هداك إلى أي شيء، ويلاحظ أنّ الإطلاق في المتعلق مطرد في الأفعال كلها، فلم يقل (أواك إليه ولا إلى عمك)- مثلًا- ولا عائلًا إلى كذا، ولا أغناك بكذا، وهذا علوٌّ في الإقبال.

٣) الذّكر والحذف، وأثرهما في بيان مراتب الإقبال:

طيٌّ أجزاء من الإقبال في موضع، وذكرها في الآخر، وبالعكس ملاءمةً لمقصد كل سورة؛ حيث طوى في سورة آل عمران كلام عيسى في المهد، وذكره في سورة مريم، مصرحًا فيه بما لم يتحدث فيه عن نفسه في موضع سورة آل عمران؛ لأنه متعلق بتبرئة أمه، وعلوّ شأنه -أيضًا- وهذا متدرجٌ في الإقبال بالرحمة، ودليلٌ على علوّ الإقبال عليه في موضع سورة مريم عنه في موضع سورة آل عمران.

وطوى في موضع سورة مريم كلامه عن المعجزات التي ربطها بقدرة الله وألوهيته، وذكرها في سورة آل عمران؛ لملاءمته مقصدها من العناية بتوحيد الألوهية.

كما طوى في موضع سورة طه الحكاية عن فراغ قلب أم موسى-عليه السلام- حين فارقها، وشدة حزنها، والحكاية عن مقتل القبطي، وأشار إليها إشارة في سياق الامتنان عليه؛ ملاءمة لنفي الشقاء في السورة، وللدّلالة على علوّ الإقبال عليه -هنا- عن موضع سورة القصص؛ حيث ذكر فيها مقتل القبطي، وصرح فيها بالعتب على لسان القبطي، وباعتراف موسى-عليه السلام- بظلمه لنفسه، وهذا موطئ لشوب الإقبال بعده في قصة القبطي.

وكما كان لطيّ الجمل، وذكرها أثر في بيان مرتبة الإقبال، كان لطيّ الألفاظ وذكرها أثر -أيضًا- وهذا نص عليه الجرجاني لمّا أكد بلاغة الحذف: "فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبِن"، وقال -مؤكدًا على اتساع المعاني وتعاززها بالحذف-: "وانظر إلى مواقعها في نفسك، وإلى

---

(١) ينظر: " التفسير الكبير" الفخر الرازي، ط٤، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م: ١١/١٩٧.

ما تجده من اللطف والظرف، إذا أنت مررت بموضع الحذف منها، ثم فلّيت النفس عما تجد، وألطفت النظر فيما تحس به. ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر، وأن تخرجه إلى لفظك، وتوقعه في سمعك، فإنك تعلم أن الذي قلت كما قلت، وأن رُبَّ حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد"[1].

وتتجلى بلاغة الحذف -هنا- في طيِّ متعلق الأفعال "فآوى"، "فهدى"، "فأغنى" لدلالته على علوّ الإقبال على النبي - ﷺ - في سورة الضحى من وجهين:

أ - الدلالة على طلاقة النعمة[2]، وهذه مبالغة في شأنها تقتضي علوّ شأن المُنعَم عليه بها.

ب - عدم التصريح بالمنِّ عليه مباشرة في السياق الذي مقصوده الأول رفعة شأنه -ﷺ-.

في حين ذكره في موضع المنّ على موسى -عليه السلام- في سورة طه: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه: ٣٩]، ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه: ٤١] لأنّ في ذلك دلالة على أنّ حقيقة داعي هذه النِّعم منٌّ خالص من الله، يكمن إعجازه في انعدام البعد الخارجي، والاجتماعي له؛ فسبب محبة كل من رأى موسى له هو من الله؛ لأنّ ما عرف عن شكل موسى -عليه السلام- أنّه كان أدمًا، ولكن الله جعل له قبولًا، كما أنّه -عليه السلام- كان شديدًا في تعامله، ومع ذلك له محبة في قلوب الناس.

كما أنّ الرعاية في المجتمع لا تكون عادة من عدو، وعلى الرغم من ذلك ييسر الله له-عليه السلام- الرعاية في بيت عدوه، بل إنّه يكرر لفظ العداوة مرتين: ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ [طه: ٣٩] تأكيدًا لعظمة الأمن الذي أمّنه به من مكمن الخوف، وهذا علوٌّ في الإقبال عليه -عليه السلام- يميز رتبته إلا أنّه يبقيها في مرتبة أقل من رتبة الإقبال على النبي -ﷺ- الذي أوحت دلالات الألفاظ في أكثر من أسلوب أنّه معنيٌّ لذاته بالنِّعم.

كما طوى ضميره -ﷺ- في الفعل "قلى" وذكره في "ودعك" لدقّة في التلطف والإيناس؛ حيث تحاشى (القلى) في خطابه -تعالى- لحبيبه المصطفى في مقام الإيناس؛ لما فيه من الطرد والإبعاد وشدة البغض، أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي يؤذن بالفراق على كره مع رجاء العودة واللقاء[3].

---

(١) دلائل الإعجاز: ١٤٦، ١٥١.

(٢) ينظر: التفسير البياني: ٥١.

(٣) السابق: ٣٥.

وذكر ضميره في سورة الشرح: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾ [الشرح: ١-٤] زيادة في التقرير والتبشير.

وكرر ذكر (جعلني): ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ ﴾ [مريم: ٣٠-٣٢]، وذكر (يوم) ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣ ﴾ [مريم: ٣٣] في الإقبال على سيدنا عيسى -عليه السلام- في موضع مريم تقوية لدلالة العناية به في كل وقت من مولده إلى مماته، وفي هذا أقوى تأكيد على العناية بنسبه، ومولده.

٤- تفرد مواضع الإقبال على عيسى -عليه السلام- بلفظ: " اذكر" في التذكير بالنعمة، واشتراك مواضع الإقبال على موسى معها في لفظ: "إذ" وإن كانت أقل، وخلو مواضع الإقبال على النبي -ﷺ- من لفظي" اذكر " وإذ " في التذكير بالنعم، ومجيء التذكير فيها بأسلوب التقرير وهو أعلى مرتبة في الإقبال؛ لأنَّ التقرير فيه دلالة على حضورها في نفسه ووقوعها حسًا، بخلاف التذكير بـ " إذ" و" اذكر" ففيهما معنى مضي النِّعمة وانقضائها، وربما توحي بنسيانها.

وهنا يظهر أثر ما بيَّنته ضابطًا رابعًا لدى الحرالِّيّ وهو المخاطب، ولا يخفى أثره - أيضًا- فيما تقدم من أساليب.

ويتجلى تعاضد النسق اللفظي والنسق المعنوي بما يلائم مقام الإقبال والمخاطب المخصوص به تفصيلاً لكل نبي في أنّ لكل موضع منها سياقًا خاصًا ترتب عليه تخير ألفاظ خاصة تتناسب مع سبب الإقبال وتمهد له، وتأتي ألفاظ الإقبال ودلالاته وتراكيبه ومزاياه البلاغية تبعًا، لذلك قال الإمام عبد القاهر الجرجاني -في كلامه عن تحقيق البلاغة والفصاحة في الكلام-: "ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه، وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلاً ويظهر فيه مزية"[1].

(١) دلائل الإعجاز: ٤٦.

ومن ثم أثر اللفف[1] السابق لموضع الإقبال أو اللاحق ألفاظًا وتراكيب تتلاءم مع موضع الإقبال، وتفصيل ذلك في كل نبي منهم -عليهم السلام- مايلي:

أولاً: الإقبال على عيسى -عليه السلام-:

١- قال -تعالى-: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (48) ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٨].

٢- قال - تعالى-: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) ﴾ [مريم: ٢٩-٣٤].

تقدَّمَ الاصطفاء في موضع سورة آل عمران قال- تعالى-: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ﴾ [آل عمران: ٣٣] على الإقبال على عيسى-عليه السلام- تمهيدً للإقبال، فاصطفاء آل عمران الذين هم أصول عيسى-عليه السلام- هو مرشّح الإقبال على عـيسى-عليه السلام- بكرامة أصله وشرف نسبه فاصطفاء الأصل إنّما هو اصطفاء للفرع؛ "اصطفاهم أي: صفّاهم من الصّفات الذّميمة وزيّنهم بالخصال الحميدة"[2] ولذا خصّ بالذكر آدم أبا البشرية، ونوحًا الأب الثاني لهم، وإبراهيم أبا الأنبياء؛ ليعطف عليهم آل عمران الذين منهم عيسى، فإذا كان هؤلاء الخُلّص هم أجداده فهذا خلوص وتنقيةٌ لنسبه؛ لذا دارت معاني الإقبال ودلالته حول التشريف والتكريم هنا خاصة، ويظهر ذلك جليًا في ثلاثة معالم، هي:

---

(١) المقصود به السياق القبلي والبعدي عند الحرالّي، واللف: من لفّ الشيء بالشيء: إذا ضمّه إليه وجمعه ووصله به. ينظر: تاج العروس: مادة (ل ف ف): ٢٤/٣٦٩. كأنّ ماقبل الإقبال ومابعده موصول به، ومضموم إليه، ومجموع له، إما باعتباره توطئة له وتمهيدًا له، أو خروجًا منه إلى غيره، وكلاهما يكون فيه معنى الإقبال.

(٢) التفسير الكبير :٣/ ١٩٩.

المعلم الأول: غلبة الألفاظ الدّالة على التشريف معنى ومبنى:

فقد تخيّر النظم الحكيم في موضع سورة آل عمران المنّة على عيسى -عليه السلام- بجعله (وَجِيهًا) للإقبال عليه ليلائم بمادته بيان شرف نسبه؛ حيث إنّ "الوجيه من فيه خصال حميدة من شأنه أن يعرف ولا ينكر"[1]، قال الحرالّيّ: "وأصل معناه الوجه وهو الملاحظ المحترم بعلوّ ظاهر فيه"[2].

ولا يكون المرء وجيهًا إلا برفعة نسبه وشرفه. كما أنّ وصفه بـ: (وجيها) يناسب علوّ عيسى- عليه السلام - الظاهر على قومه في تعليمهم وتطبيبهم وإخبارهم بما يدخرون. وهذه مظاهر للعلوّ والإقبال تتلاءم مع معنى الوجاهة من وجه آخر، وهذا تخير بليغ للمادة يلائم غرض الإقبال بكرم أصله وعلو شأنه الظاهر عليهم.

وفي بنيته بصيغة المبالغة على وزن: (فعيل) دلالة على زيادة ومبالغة بالاعتبارين معًا، سواء وجد وخلق وجيهًا، أو يراه الناس كذلك، وهذه زيادة في الوجاهة ملائمة لعلوّ الإقبال.

كما أنّه تخير وصفه بـ: ﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾[آل عمران: ٤٥] و﴿ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٦] ولا يكون بهذه المنزلة عند الله - القرب والصلاح - إلا من صلح شأنه كله ظاهرًا وباطنًا، وهذا تشريف يزيد صفاءه تعريفُ الوصفين بـ:(أل) الدالة على كمال الوصف.

وفي موضع سورة مريم تخيّر الصّلاة والزّكاة لتوصيته بها: ﴿ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾[مريم: ٣١]؛ لما فيهما من تطهير يلائم الإقبال عليه بطهر نسبه، وزاده تقوية تعليقهما بدوام مدة حياته.

ووصفه ببرّ ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي ﴾[مريم : ٣٢] والبرُّ أعلى الإحسان، ولا يتصور البتة ممن دنس أصله، كما أنّه أورده بالمصدر الذي فيه دلالة دوام بدلالته على الحدث مجردًا من الزمن[3].

ولذا تساوقت الكلمات في صميم الإقبال على عيسى باختيار الكلمات في لفف الإقبال عليه، فقد جاءت في الدّلالة على تشريف أصله زيادةً في تشريفه هو، وطِئةً للإقبال عليه، ويظهر ذلك فيما يلي:

---

(١) "التعريفات" علي بن محمد الجرجاني، ط من دون، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م:٢٠٠.

(٢) تفسير الحرالّيّ ضمن تراث أبي الحسن الحرالّيّ: ٥٩٠. يقصد أن أصل معنى الوجه مقدم الإنسان وفيه تظهر سمات الاحترام والقبول؛ و:(وجيه) مما نسب إلى الأعضاء على غير قياس، كـ:(رئيس) بالنسبة للرأس؛ لإبراز صفات الرفعة الخاصة به.

(٣) ينظر: "الإيضاح في علوم البلاغة" الخطيب القزويني، ت: محمد الفاضلي، ط١، صيدا، المكتبة العصرية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م: ٩٤.

أ- الإجابة بـ: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا ﴾ على دعاء أم مريم في قوله -تعالى-: ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾ [آل عمران: ٣٥] ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧] فتخير (تقبلها) من دون (أجابها) أو (رضي) لما في معنى هذه المادة من دلالتي الإقبال على المخاطب والرضى به أيضًا، كما أنّ القبول يذكر للعمل الطيب[1]، ففيه كناية عن القرب والطيب، فالله طيّب لا يقبل إلا طيّبا، ومريم عملٌ صالحٌ تقبله الله، وهذا إقبال بتشريف أصله وصلاحه.

ب- تخيُّره: ﴿ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ [آل عمران: ٤٢] حيث تخيّر مادة (اصطفى) من دون (اختار)؛ لزيادة التفضّل والإنعام، ففيه معنى خلوص الشيء وصفائه[2]، ومن ثم تناسق لفظيًا بين اللفظ الدال على خلوصها، وخلوص أصلها في ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣] فهنا من ذلك، وفي عموم الاصطفاء على نساء العالمين تأكيد على طهرها، وتناسق لفظيٌ -أيضًا- في عموم الأصطفاء مع أصلها، ألا ترى كيف قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣] فجعل الاصطفاء هناك عامًا، وهذا يدور في فلك التشريف.

جـ- تخير: (الكفالة) إنباءً عن الإقبال عليها بتشريفها ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ [آل عمران: ٣٧] فهي أدلُّ على العناية والقرب؛ فالكفالة لا تكون إلا في النفس ولا تكون أبدًا إلا لمعروف[3]، وفي هذا شرف لمريم كونها معروفة عنده -ﷻ- بشرفها وطهرها أزلًا، كما أنّ في الإنبات دلالة تتابع الرعاية، والاهتمام بها حتى استوائها.

---

(١) ينظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٣، ٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ: الفرق بين الإجابة والقبول: ٢٥٠.

(٢) ينظر: السابق، الفرق بين الاصطفاء والاختيار: ٣١٩.

(٣) ينظر: السابق، الفرق بين الكفالة والضمان: ٢٣٣.

د - بشر بعيسى -عليه السلام- في موضع سورة مريم بقوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾[مريم: ١٩] فآثر "الهبة" الدالة بمبناها - المضارعة- على الاستمرار التجددي، وبمعناها على كثرة العطاء من غير عوضٍ أو غرض[1].

المعلم الثاني: الترقي في دلالات التشريف بأساليب عدة، وأثره في بيان رتب الإقبال:

أ- تعداد الصفات عن طريق العطف:

قال الحرالي: "في عطف الصفات ما يؤذن بكمال الوصف؛ لأنّ العرب تعطفها إذا كملت وتتبع بعضها بعضاً إذا تركبت والتأمت"[2]، وقال الزمخشري: "دخول العاطف يؤذن بأنّ كلّ صفة مستقلة"[3]، واشترط صاحب البرهان في تكرار النعوت لواحد بالعطف اختلاف معانيها[4] وهذا يتوافق مع الإقبال على عيسى -عليه السلام- في قوله -تعالى-: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾ [مريم: ٣٠-٣٢].

فدلالة العطف في الصفات يلائم الدلالة على كمال كل وصف ذكره لعيسى - عليه السلام - في تكريمه وتشريفه، ومن ثم نقاء أصله من الدعاوى الزائفة والبهتان.

كما كمن في دلالة الاختلاف بين الأوصاف الترقي في تشريفه بأن آتاه الكتاب وجعله نبيًّا، هذه في ذاته. ثم صرح بتعدي خيريته لغيره: "مباركًا" وهذا أكمل في الإقبال عليه بتشريفه وتكريمه.

ونسق الصفات بعد العبودية: هل هو تفصيل للعبودية وبيان لوجهها؟ فبدأ بإيتاء الكتاب وثنى بجعله نبيًّا إلى أن ختم بقوله: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾[مريم: ٣٣]، أو هو باعتبار الواقع بدءًا ونهاية؟ فبدأ بأول أمره وانتهى بآخره، أو هو باعتبار الغرض الذي ساق له الكلام من تبرئة أمه؟ بأنّ من كان له هذه الصفات فلا يتأتى لأمه

---

(١) ينظر: لسان العرب: باب الواو ٦/٤٩٢٩.

(٢) تفسير الحرالي ضمن تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير: ٥٣٤.

(٣) "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" جار الله الزمخشري، ت: عادل عبد الموجود، علي معوض، الرياض، مكتبة العبيكان، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م: ١/١٤٤.

(٤) ينظر: "البرهان في علوم القرآن" بدر الدين الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار الفكر، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م: ٢/٤٤٦.

الوصف الذي اتهمت به، أو هو باعتبار علوّ مرتبته في قوله:﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [مريم: ٣٤] بالإشارة للبعيد – كما تقدم–؟.

فهذه الوجوه متعددة، إلا أنّ أقربها الأول في اختيار العبودية وإضافتها إلى اسم الجلالة: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾[مريم : ٣٠]؛ لأنّ فيها تلك المعاني كلها، ويكون ما يأتي بعد هذا تفصيلًا لها، والمقام يستدعي البسط؛ لأنّه في طور المنافحة والمدافعة عن أمه.

ويتجلى في تكرار: 'جعلني' استقلال كل جملة بالمعنى المراد وهذا علوٌّ في الإقبال: ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم: ٣٠-٣١] لكي لا يتصور أن البركة في وقت النُّبوة فقط، فالبركة فيه من بداية مولده فتكرارها أدل على علوّ الإقبال.

ب– إثبات الوصف له ونفي ضده: ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾[مريم: ٣٢] وهذا علوٌّ في النّعمة والإقبال، فمعلوم أنّ اجتماع الإثبات والنفي أقوى في الدلالة على الإقبال من أن يثبت له الوصف فقط من دون نفي غيره؛ لأنّه أثبت الوصف بطريقين، وهذا تأكيد له من وجه، وتأبيد له من وجه آخر[1] زيادة على مافيه من نفي توهم أدنى شقاء وإن قلّ، كما أنّ فيه معنى القصر الإصطلاحي، فكأنّه قصر صفاته على البر فقط في كل حال، فلا يعروه التجبر والشقاء أبدا.

ولم يرد النظم الحكيم بـ: 'إنّما أنا بر بوالدتي' مع إفادته للنفي؛ ذلك لأنّ النفي مع 'إنّما' مدلول عليه بالفحوى والتعريض، وليس بصريح اللفظ[2]، ولمّا كان نفي التجبر والشقاوة عنه أساسًا رئيسًا في علوّ مرتبته المانعة من لصوق التهمة بوالدته لطهارة الأصل والفرع معًا= كان الأليق أن يكون النفي صريحًا بعد الإثبات في:﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾[مريم: ٣٢].

ولم يقل: 'وجعلني برًّا' بل ورد النظم بـ:﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي ﴾ ؛ لأنّ الجعل مرحلة تالية للخلق[3]، في حين أن النظم دل على أنّه برٌّ في أصل خلقته، لا أنّه لم يكن ثم كان.

وهذا أدلُّ على تشريفه لدوام بره بمن ولدته، ولا يكون من دنس نسبه كذلك ولا من ولدته حقيقةً بأدنى ما وصفت به من دنس من اليهود – لعنهم الله– .

---

(١) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة: ٦٩.

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز :٣٣٥، ٣٣٦.

(٣) ينظر : الفروق اللغوية: الفرق بين الجعل والعمل: ١٥٤، وذلك لأنّ الجعل تغيير صورة الشيء.

ويلاحظ في صفاته – هنا– اختصاص البر بأمّه، وجعل النهي عن التجبر عامًّا، فكلما كانت العلاقة أقرب كان العطف أقوى، فعلاقته بأمّه أسمى وأعلى؛ لذلك جعل اللفظ الخاص لها؛ لما يستلزمه من الحنو والعطف، ولا يشترط هذا العطف مع العامة، بل يكفي فقط العدل وعدم الظلم ولا شك في أنّ هذا علو في الإقبال عليه .

وورود صفاته بالتفصيل لازم لتعداد المناقب زيادة في التكريم، وقد رتبت ترقيًا من الصفات الذاتية إلى الأفعال، أو من أول ابتداء أمره إلى انتهائه؛ ولذلك ختمها بـ:﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ﴾[مريم: ٣٣] فبدأ بعبوديته لله حتى قبل ولادته، ثم نبوته وبره، إلى أن توفي، فكأنّه عرض لمسيرة حياته.

جـ – الإطلاق والتقييد بين مقتضى الظاهر وخلافه، وأثره على بيان رتب الإقبال:

قيّد في قوله –تعالى–:﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[آل عمران: ٤٦] .

وقوله :﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ ﴾ [مريم: ٣١]

وقوله: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ﴾[مريم: ٣٣] ؛ لأنّ التقييد بالظرف والمكان ليسا على ظاهرهما، بل لإرادة التأبيد، وتخصيص هذه الأوقات أدخل في السياق الدقيق؛ لقوله –تعالى–:﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[آل عمران: ٤٦] فقد تكلم –عليه السلام– في غير هذين الوقتين، ولكن تعيينهما أدخل في الإقبال عليه؛ ففي كلامه في المهد براءة والدته؛ وفي الإخبار بكلامه في كهولته بشارة بسلامته وإنباء بعودته آخر الزمان[1]، ويظهر لي أنّ فيه تزكيةً لكلامه من خرف الكهولة من وجه آخر، فما تكلم به من حق في طفولته سيسير معه حتى كهولته، وكون كلامه حقًا لا يعروه خطأ في كل وقت أدخل في تبرئة أمه والتأكيد على سلامة نسبه ورفعة أصله، وأدل على الاصطفاء المذكور في السورة.

والتقييد أدخل –أيضًا– في السياق الدقيق؛ لقوله– تعالى–:﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ ﴾ [مريم: ٣١] وقوله: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم: ٣٢] في سورة مريم؛ لأنّ التشاجر ابتدأ بيوم مولده، بين

(١) الكهل من الرجال الذي جاوز الثلاثين ووخطه الشيب، قال ابن الأثير: الكهل من الرجال من زاد على ثلاثين سنة إلى الأربعين، وقيل: هو من ثلاث وثلاثين إلى تمام الخمسين. ينظر: لسان العرب: باب الكاف:٥/٣٩٤٧.

متهم لأجل المولد، ومبالغ لأجله، فنبه بسلامته ابتداء من ذلك اليوم؛ لتعلق سياق الإقبال به، والا فالمراد الإطلاق لكل وقت ومكان ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ ﴾ هذا تقييد بالظرف، ﴿ وَيَوۡمَ أَمُوتُ ﴾ تقييد آخر بالظرف، وكذلك ﴿ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيًّا ﴾، وكذلك ﴿ مَا دُمۡتُ حَيًّا ﴾، و﴿ أَيۡنَ مَا كُنتُ ﴾، فهذه القيود لا تراد للاحتراز من غيرها من الأوقات، بل المراد منها العموم والشمول، لكن حددت هذه الأوقات للخلاف والجدل فيها، وهذا ملائم للسياق الدقيق في سورة مريم، فلم يكن جانب تكليف الرسالة هو المسيطر عليها، بقدر ما كانت رحمته بوالدته وتبرئته لها أساسًا لرفعته.

د- تقييد النّعم بالضمير ودلالة التشريف في ذلك:

علّق الهبة بالضمير العائد على مريم – عليها السلام –: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩ ﴾ [مريم: ١٩] ﴿ لَكِ ﴾ وفي ذلك دلالة على أنّها هبة خاصة بها ولن تتأتّى لغيرها بعد ذلك، والتخصيص باللام في (لك) يتساوق مع القصر بإنما لامتداده إلى آخر الجملة، وهذا اعتناء خاص لا يكون إلا لشرف منزلتها، وتخيّر :(اللام) لينبئ أنّ العطية خير لها لا كما ظنت.

هـ – التعريف، وأثره في الإقبال بتشريف عيسى – عليه السلام –:

التعريف بالإضافة:

١-الإضافة إلى العلمية: في قوله –تعالى–: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ﴾[مريم: ٣٠] عرّف بنفسه أنّه (عبد الله) مضيفًا عبوديته لاسم الجلالة "الله" وهذه رفعة وتشريف له بأنّه عبدٌ لله من دون سواه؛ لما في الإضافة إلى العلمية من دلالة تشريف وتعظيم إذا كان المضاف إليه عظيمًا[1] وهنا أضاف عيسى نفسه للاسم الأعظم "الله" الذي يُعدُّ أصلًا في الأسماء الدّالة على الألوهية، وهذا أدخل في الإقبال عليه بالتشريف والتكريم، وفيه رد على ادّعاء النصارى بألوهيته.

٢- الإضافة إلى الضمير: تساوق مع التعريف هذا التعريف بالإضافة إلى الضمير في اللفظ في قوله –تعالى–:﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧] في موضع سورة آل عمران،

(١) ينظر: "مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني" ط من دون، بيروت، دار الإرشاد الإسلامي ضمن شروح التلخيص: ٣٤٦/١.

وفي قوله: ﴿ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ في موضع سورة مريم أضيف لفظ الربوبية لضمير مريم – عليها السلام – وفي ذلك تشريف لها وتأنيس؛ حيث أضاف لفظ الربوبية (رب) – الذي هو أصل لكل ما يندرج تحت الربوبية – إلى ضميرها، وهذا تكريم بأن اختصها بإضافته لضميرها من وجه، وبأنّها معروفة عنده -ﷻ- من وجه آخر، كما أنّ في لفظ الربوبية دلالة رعاية وإنعام دالّة على تشريفٍ وتكريمٍ لمن اختص بها، وزاد الأمر تشريفًا الإشارةُ إليه بـ:(ذلك) ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾[مريم: ٣٤]؛ تنزيلًا لبعد درجته ورفعة محلّه منزلة بعد المسافة [١] وهذا دليل على الإقبال عليه بتشريفه، ورفعة منزلته، وزاده تأكيدًا التصريح باسمه، ووصفه بأنّه ابن مريم دليل ثناء عليه.

و- التقييد بالجار والمجرور والوصف:

١- التقييد بالجار والمجرور: حيث قيّد تقبلها بـ : ﴿ بِقَبُولٍ ﴾ فلم يقل: (تقبلها قبولًا) ليشعر بملابسة القبول لها في كل أحوالها وزمانها، فلم تنفك عنه البتة من أول لحظة التقبل إلى منتهى أجلها.

و تلك الملابسة بامتدادها تتناسب مع ما ذكر بعدُ من مراحل العناية بها، كرامةً لها، واصطفاءً إياها، وتنويهًا بذكرها.

٢- التقييد بالوصف: وصف القبول والإنبات بوصف واحد (حسن) ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾[آل عمران: ٣٧] والأصل في الصفة أنّها للمدح والثناء، وهذا إقبال بالتكريم والتشريف لأمه – عليها السلام – وكرر الوصف (حسن) بلفظ النكرة، وفي تلك دلالة على اختلاف مناط كل منهما؛ فلكل من القبول والإنبات حسن غير حسن الآخر، فكمالٌ على كمال.

كما وصف عيسى – عليه السلام – في نفس سورة مريم بـ: (زكيًا) ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم : ١٩]، ولا يكون الحسن والتزكية إلا لمن شرف نسبه، وعلت مكانته.

(١) السابق: ٣١٧/١.

المعلم الثالث: شيوع المبالغة في بنية الأفعال وأثرها في بيان رتب الإقبال:

إجابة دعاء أم مريم بـ :(تقبّل) من باب (تفعّل) فيه دلالة على شدة الاعتناء، ومادتها من جنس ما سألت به (فَتَقَبَّلْ مِنِّي)، (فَتَقَبَّلَهَا) قال الحرالّيُّ: "ولما أخبر بدعائها أخبر بإجابتها فيه فقال: (فَتَقَبَّلَهَا) فجاء بصيغة (التفعّل) متطابقة لقولها (فَتَقَبَّلْ) ففيه إشعار بتدرج وتطور وتكثر، كأنّه يشعر بأنها مزيد لها في كل طور تتطور إليه، من حيث لم يكن: فقبل مني فلم تكن إجابته: (فقبلها) فيكون إعطاءً واحداً منقطعاً عن التواصل والتتابع فلا تزال بركة تحريرها متجدداً لها في نفسها، وعائداً بركته على أمها" [1].

وفي تخيّر ﴿ وَكَفَّلَهَا ﴾ [آل عمران: ٣٧] بالتشديد –على قراءة من قرأ بالتشديد[2]– المُنبئة مبنى "بأنّ الله – ﷻ – هو في الحقيقة كفيلها بما هو تقبّلها، وفي استخلاصه لزكريا حيث جعله يد وكالة له فيها"[3]، وفي صيغة –المضيّ– دليل على تمام الأمر وكماله، وهذا علوٌّ في الإقبال.

وتخير الفعل "أنبت" و ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران: ٣٧] من (أفعل)، لدلالته على قصد الاعتناء بها، بخلاف نبتت ففيه إشعار بتركها إلى المعهود لحالها كشأن غيرها، ولما كان نباتها على غير مقتضى حال غيرها من الرزق وغيره بغير حساب، كان الإتيان بالمصدر(إنباتًا) ابتداء أولى، فعدل عنه إلى (نباتًا) ليفيد معنى جديداً، هو مطاوعتها لذلك الجديد الغريب، وعدم نفورها أو جفائها عنه؛ تنبيهًا لنقاء فطرتها وصفاء طبعها، أي: حفظها ورعاها فقبلت ذلك ونمت عليه وألفته، وكل ذلك من تكريم الأصل العائد على الفرع المقبل عليه عيسى –عليه السلام– قال الحرالّيُّ: "وفي ذكر الفعل من «أفعل» في قوله: ﴿ وَأَنْبَتَهَا ﴾ [آل عمران: ٣٧] والاسم من «فعل» في قوله: ﴿ نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران: ٣٧] إعلام بكمال الأمرين من إمدادها في النمو الذي هو غيب العيون، وكمالها في ذاتية النبات الذي هو ظاهر للعين، فكمل في الإنباء والوقوع حسن التأثير وحسن الأثر، فأعرب عن إنباتها ونباتها معنى حسناً"[4] فالحرالّيُّ يشير إلى أنّه توافر لمريم والنبات أمران: أمر خفي غير مدرك للعيون وهو كل التفاعلات التي تحدث في بطن الأرض للنبات، ومثله

---

(١) تفسير الحرالّيّ ضمن تراث أبي الحسن الحرالي :٥٧٩، ٥٨٠.

(٢) هي قراءة عاصم وحمزة والكسائي، وخلف. ينظر: القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدّرة، راجعة محمد كريم راجح، ومحمد فهد خاروف، ط من دون، مكتبة كنوز المعرفة، جدة: ٥٤.

(٣) تفسير الحرالّيّ ضمن كتاب "تراث أبي الحسن الحرالّيّ المراكشي في التفسير": ٥٧٩ ، ٥٨٠.

(٤) السابق: ٥٧٩، ٥٨٠.

العناية بباطن مريم وأمورها المعنوية، وأمر ظاهر جلي للعيون، وهو حسن الأثر والخفي هو الذي أثر في الجلي وهذا أدلُّ على العناية.

ويلاحظ المتأمل أنّ دلالات الإقبال على عيسى -عليه السلام- في هذه المواضع تركزت على تشريفه وتأكيد علو نسبه، وهذا له مدخل في درجة الإقبال .

ثانيًا- الإقبال على سيدنا موسى -عليه السلام-

١- قال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) ﴾ [طه: ٣٧-٤١].

٢- قال -تعالى-: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص: ٧].

ورد الإقبال على موسى في موضع سورة طه في سياق نفي الشقاء: ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) ﴾ [طه: ٢] وأعظم أسباب نفي الشقاء الأمن من الخوف؛ لذا انتظم الإقبال في تقريبه من الله الذي لا يذلُّ من والاه ولا يعزُّ من عصاه.

والمتأمل يجد الإقبال متناسقًا في سورتي مريم وطه؛ حيث إنَّ نفي الشقاء من وادي الرحمة، ويجده متناسقًا -أيضًا- مع السور قبلها؛ فسورة الإسراء إقبال كلها من أول آية فيها: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء: ١] وشاع الإقبال أثناء سورة النّحل قبلها بتعدد المنن الدالة على الإنعام والعناية، وختم به آخرها بإعلان المعية للمحسنين ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل: ١٢٨].

أما سياق سورة القصص فقد تقدّمت فيه إرادة المنّ على بني إسرائيل بالتمكين في الأرض ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) ﴾ [القصص: ٥] وهذا مرشح للإقبال على موسى بتأمينه وجعل عاقبة الأمر له.

لذا دار الإقبال على موسى -عليه السلام- في فلك القرب من الله المستوجب للأمن وأجلى ذلك البيان بأساليب مبينة عن رتبة الإقبال تتجلى في أربعة معالم هي:

المعلم الأول: غلبة الألفاظ الدالة على القرب والحماية معنى ومبنى:

فقد تخير النظم الحكيم لفظ: (مننّا) ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [طه: ٣٧] في سورة طه لتبدء بها لتذكير موسى -عليه السلام- بالإقبال عليه في مرحلة الصغر، وعلقها بـ "مرة أخرى" الدالة على تتابع الأمن عليه، ثم تلاها بألفاظ دالة على شدة قربه من الله -عز وجل- قربًا هو كفيل بالأمن والسعادة؛ فتخير فعل (الإلقاء) مع هبة المحبة ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾[طه: ٣٩] الدالة على السرعة في قذف المحبّة وكلمة "محبة" من دون (حبا) لدلالة زنتها على مزيد قرب ومبالغة في المودة[1]. وتخيّر لفظة (صنع) في قوله: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه: ٣٩] و﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه: ٤١] من دون "تكبر" أو تربى" لما في هذه اللفظة من دلالة ترتيب العمل وإحكامه على ما تقدم علم به وبما يوصل إلى المراد منه، كما أنّ الصنع متضمنة للجودة[2]، ولما في مبناها من مزيّة قرب "تُصنع" بالمضارعة والبناء للمفعول الدال على استمرار وعظمة في الفعل، و: (اصطنعتك) دون (صنعتك) لما في زيادة المبنى من زيادة المعنى؛ ففيه زيادة عناية بزيادة الصفات التي من أجلها كان لله وهي خلوصه للدعوة.

وتساوق مع هذه الدلالات المعية والعلوّ الدائرة في لفف موضع سورة طه: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه: ٤٦]، ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾[طه: ٦٨]، والوعد والضمان الدائر في لفف موضع القصص ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[القصص: ٧]، ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[القصص: ١٣] والنهي عن الخوف والحزن ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾[القصص: ٧].

---

(١) ينظر: "معاني الأبنية في العربية" فاضل صالح السامرائي، ط، دار عمار للنشر، عمّان، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م: ٣٥.

(٢) ينظر: الفروق اللغوية: الفرق بين العمل والصنع: ١٥٤.

المعلم الثاني: تقييد منن الأمن بجار مجرورة ضمير المتكلم العائد على الله - ﷻ -:

يظهر علو الإقبال في ذلك في تقييد المنن المقبل بها على موسى -عليه السلام- في موضع سورة طه بالضمير العائد على الله - ﷻ - (مَحَبَّةً مِّنِّي، على عيني، لنفسي) ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه: ٣٩]. ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه: ٤١]لما في ذلك من دلالة القرب من وجه، وخفاء من وجه آخر؛ لأنّها نعم باطنة، وهذا ملائم للأمن من وجه، وعلوّ الإقبال في هذا الموضع من وجه آخر.

المعلم الثالث: تعليق النعم بضمير العظمة، ودلالة الأمن في ذلك:

علقت المنن بالضمير العائد إلى الله - ﷻ - في الموضعين، قال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾[طـــــه: ٣٧]. ﴿ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ [طه: ٤٠].

وقـال: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾[القصـــص: ٧] ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القصص: ١٣].

وهذا دليل على علوّ الإقبال بحمايته ورعايته، فتخير هذا الضمير من دون غيره يحوي عظمة الحماية من وجه وقربه من الله الناتج عن عظمة العناية به من وجه آخر.

المعلم الرابع: تبادل الخبر والإنشاء ترقيًا في دلالة الحماية والأمن:

فقد بدأ بتأمين أم موسى -عليه السلام- بالنهي ﴿ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾[القصص: ٧] أولاً، ثم بشرها بالخبر المؤكد ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[القصص: ٧]، وربط على قلبها ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾[القصص: ١٠]، ثم حقّق الوعد لها ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾[القصص: ١٣] وتكثيف هذه الدلالات لأمن أم موسى إنّما هو إقبال على موسى فهو السبب الرئيس لهذا الإقبال، يدل على ذلك تخير تكنية أمه بـ(أم موسى)

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص: ٧].

ولا يخفى قلّة الإقبال في موضع سورة القصص عن المواضع الأخر؛ لذا لم ترد ألفاظ ولا صيغ مكثفة للدلالة على علوّ الإقبال، ويؤكد ذلك تفقه القبلي والبعدي؛ إذ ذكرت العناية ببني إسرائيل في القبلي: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ وصرح بالعتب في مقتل القبطي في البعدي: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾[القصص: ١٥].

وكما تركز الإقبال على سيدنا عيسى -عليه السلام- بتشريفه تركز الإقبال على سيدنا موسى -عليه السلام- بقربه من الله وعظمة حمايته.

ثالثاً- الإقبال على سيدنا محمد -ﷺ-:

١- قال -تعالى- : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١ ﴾، [الضحى: ١-١١] .

٢- قال -تعالى-: ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨ ﴾ [الشرح: ١-٨] .

يتجلى التعاضد بين التسقين اللفظي والمعنوي في الإقبال في أعلى صوره حين يكون إقبالاً على رسول الله -ﷺ- وهذا ما نبه إليه الحرالّيّ في قوله:" فيعلو البيان والإفهام، بحسب رتبة من توجه إليه الإقبال... فخطاب الإقبال على النبي -ﷺ- أعظم إفهام في القرآن"[١].

تقدم سياق الإقبال على سيدنا محمد -ﷺ- في سورتي الضحى والشرح القسَمُ بأشرف الأوقات وأوضحها نوراً ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ ﴾[الضحى: ١]، وأقربها رضى ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ [الضحى: ٢] ليرشح لرضى الله عنه وظهور علو شأنه عند ربه -ﷺ- وهذا متناسق مع الشدة قبله في السور المتقدمة؛ حيث تقدم في سورة الغاشية التصريح بالشدة والشقاء في وصف المجرمين ﴿ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝٣ ﴾[الغاشية: ٣] وذكر عذابهم في ذلك اليوم، ثم شدة ابتلاء الإنسان ببسط الرزق أو قبضه، ثم شدّة التحسر على فوات الأوان في يوم العرض في سورة الفجر، إلى شدة متناهية في كونه-ﷺ- حِلاً في البيت الحرام، وكون الإنسان في كبد في سورة البلد؛ لذا ورد القسم بالبلد منفيًّا، ولم يوصف بالأمين ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ ﴾[البلد: ١-٢]، وشدة أخرى في الشمس ﴿ فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ۝١٥ ﴾[الشمس: ١٤-١٥] وبعد كل هذه الشدة يأتي الفرج والإقبال بالرضى والبسط في آخر سورة الليل ﴿ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١ ﴾ فإذا كان

---

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

هذا الإقبال على من أعطى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ ﴾[الليل: ٥-٧] وهو من أفراد أمة الرسول -ﷺ- فكيف يكون الإقبال عليه -ﷺ- وهو أصل في ذلك؟ لذا اكتمل الإقبال عليه هنا بالنّعم المعنوية والحسية.

ولتعاضد النسق اللغوي مع النسق المعنوي لبيان رتب الإقبال أربعة معالم هي:

المعلم الأول: غلبة الألفاظ الدالة على الرعاية وعلو الشأن معنى ومبنى:

فقد أقسم بالضحى والليل ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ ﴾[الضحى: ١-٢]؛ لشرف هذين الوقتين أولًا، ولما في إشراق الضحى من إنباء عن إشراق علاقة سيدنا محمد -ﷺ- بربه الكريم، وما في هدأة الليل من إنباء عن رضى الله -ﷻ- عنه -ﷺ-.

و تخيُّر: "**يجدك**" من دون: "**يرك**" وكررها في الإخبار عن معرفة حاله -ﷺ- لما في دلالة الوجد من عناية ومتابعة واهتمام بالحال [1].

واختصّ: "أوى" من دون: "كفل" - كما ورد في موضع سورة آل عمران مع مريم - في ضمه يتيمًا؛ للدلالة على علو منزلته، ففي "أوى" دلالة التجمع والإشفاق، فأواه بمعنى: رقّ عليه ورحمه[2] فكأنّه لشدة قربه جمع شتاته، وأشفق عليه وضمه إلى جنابه - ﷻ- وجعل بنيتها بالمضي دلالة على تقرّر الأمر.

كما أنّه جعل الإيواء لله ولم يجعله لأحد من خلقه، بخلاف مـــريم حيث جعل إيــواءها لـــزكريا-عليه السلام- بما يدل على قوة الإيواء مع النبي- ﷺ -.

كما تخير "حدّث" ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝ ﴾[الضحى: ١١] من دون: أخبر أو نبئ؛ لما في الحديث من تكرار للإخبار بالنّعمة [3] وتجديد بحيث لا يكون في التكرار إملال وهو دليل على السرور بها، ويُعدُّ مرشحًا لعلوّ الإقبال عليه -ﷺ-.

وعبّر في سورة الشرح بـ ﴿ نَشْرَحْ ﴾[الشرح: ١]في الإخبار بنعمة إزالة الهمّ؛ لما في مادتها من دلالة تجلٍّ وظهور يلائم بيان علوّ النّعمة مقارنةً بظلام حال قومه من وجه، ومن وجه آخر لما تحويه في رحمها من معنى السرور والابتهاج بإثارة داخله رضىً ويقينًا، وفي الشرح معنى التوسعة

(١) ينظر: لسان العرب: ٦/ ٤٧٧٠ .

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: كتاب الهمزة، باب الهمزة والواو ومابعدهما في الثلاثي: ١/٨٢.

(٣) ينظر: لسان العرب: باب الحاء:٢/ ٧٩٧

والبسط[1] وكأنّ الله بسط صدره فجعله محلًا يتسع للأمة في إقبالها وإدبارها، فخفف على الأمة بما له من عظيم الحلم وجميل الصبر، والرحمة والرأفة بأمته . فلا يقيم صدره على ضيق، فكل ضيق يلم به هو إلى زوال؛ لما كان له من نعمة شرح الصدر، وبسط فضاءاته غير متناهية.

كما أنّ الشرح لا يستعمل إلا فيما فتح من الجواهر[2] وهذا منبئ عن كرامته في ذاته -ﷺ- فجمع بهذه اللفظة الإقبال بالثناء على حاله، وعلى ذاته في آن واحد.

وحين قابلها بنعمة أخرى تخيّر "وضعنا" ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ﴾ [الشرح: ٢]؛ لما فيها من دلالة علوّ النّعمة فالوضع لم يستعمل في القرآن – بمعناه خلاف الرفع – إلا مع الثقل العظيم كوضع الأنثى حملها، ووضع الأرض أثقالها[3]، وهذا علوٌ في الإقبال عليه -ﷺ- وحين زاده فضلًا أورد الرفع ضد الوضع ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ ﴾ [الشرح: ٤] ؛ لكونه مضادًا للوضع، وهذا يستلزم عظمة الرفع؛ تبعًا لعظمة الوضع هذا من وجه، ومن وجه آخر؛ لما في الرفع من دلالة تقريب الشيء، وإذاعته وإظهاره ومنه الرفعة والشرف[4]، وهذا أدق من (أعلى) لأن العلوّ لا يستلزم الشرف.

هذا في مادة كل من "نشرح"، "وضعنا"، و "رفعنا" فإذا نظرت إلى المبنى رأيت استعمال المضارعة في "نشرح" والمضي في "وضعنا" و "رفعنا" لأنّ علوّ الإقبال يكمن في استمرار شرح صدره استمرارا تجدديًا أمام كل غمة، وهذا فيه من العناية مافيه، بينما وقع وضع الوزر، ورفع الذكر مرة واحدة؛ لدلالة ذلك على عدم تجدّد الوزر له بعد ذلك وعدم انخفاض ذكره البتة بعد ارتفاعه.

وكل هذه الألفاظ دائرة بين دلالتين للإقبال: كمال العناية والرعاية من وجه، وعلو شأن النبي – ﷺ- من وجه آخر، فالعناية به -ﷺ- مبنية على علوّ شأنه، يؤكد ذلك أنّها وردت ردًا على من قال بأنّ الله قلاه ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ﴾ [الضحى: ٣] وعلى هذا الأصل دارت أساليب الإقبال عليه – ﷺ- .

---

(١) ينظر: السابق: ٤/٢٢٢٨.

(٢) نفسه.

(٣) ينظر: "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم" محمد فؤاد عبدالباقي، ط ٣، القاهرة، دار الحديث، ١٤١١هـ - ١٩٩١م: مادة وضع: ٨٤٢، وينظر التفسير البياني للقرآن الكريم: ١/٦٣، ٦٤.

(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة: كتاب الراء، باب الراء والفاء وما يثلثهما: ١/٤٧٩.

المعلم الثاني: التعليق بالمفعول، والإطلاق من الفاعل وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

تجاذب دلالتي الإقبال بالعناية وعلوّ الشأن التقييدُ والإطلاقُ في هذين الموضعين، فحين يكون المقصد الأول بيان علوّ شأنه - ﷺ - تعلق النعم بضميره وتطلق من ضمير الفاعل، وحين يكون المقصد الأول الامتنان بعظمة الرعاية تعلق بضميري الفاعل والمفعول، ويظهر ذلك فيما يلي:

أولًا – تعليق العطاء بضميره:(يُعطيك) ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾[الضحى: ٥] في موضع الضحى، وتنويع طرق التعليق في مواضع الشرح تارة بكاف الخطاب: 'ما ودّعك'، 'صدرك'، 'ظهرك'، 'وزرك'، 'ذكرك'، وبالجار والمجرور: 'لك' و 'عنك' تارة أخرى، وهذا تأكيد على أنه -ﷺ- معنيٌّ بالنعم لذاته زيادة على أن يكون إعدادًا له لتبليغ الرسالة.

ثم رتّب على العطاء رضاه -ﷺ-: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾[الضحى: ٥] وربطه بالفاء الدّالة على سرعته، في حين لم يعلّق الإيواء والهداية والإغناء بأي من ضميري الفاعل والمفعول بل أطلقها: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾[الضحى: ٦-٨]، ويظهر لي أنّ في هذا إنباءً عن جلال النّعمة وإطلاقها من كل وجه...هذا من وجه، ومن وجه آخر فيه إنباء عن تحرز إسناد فعل 'قلى' إلى ضميره -ﷺ- لئلا يتوهم أن القصد الأول لتذكيره -ﷺ- بالنّعم، والامتنان عليه؛ لأنّ في ذلك تقليلًا من الإقبال؛ لأنّ القصد الرئيس -هنا- إعلاء شأنه، فقد وردت ردًّا على من اتهمه من المشركين بأنّ الله قلاه، وقد أشار السعد إلى مثل هذا الغرض في شرحه للتلخيص[1].

ثانيًا – اطّرد تعليق النعم بالضميرين في موضع الشرح: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾[الشرح: ٢-٤] واختص نون العظمة من دون غيرها؛ لأنّ في ذلك دلالة على عظم المنعم[2]، وهو المقصد الرئيس المتمحض منه عظمة شأن المنعَم عليه، ويدل على ذلك البدء بالاستفهام ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾ [الشرح: ١] فلم ترد ردًّا على اتهام كالسابقة، بل تقريرًا بعظمة المنعم والنّعم، وكلا المقصدين إقبال عليه -ﷺ-.

---

(١) ذكر أن من أغراض حذف المفعول المبالغة في التأدب مع الله -ﷻ- فهناك مشابهة في الغرض من وجه أن التأدب رفعة لشأن المفعول به. ينظر مختصر السعد في شرح التلخيص ضمن شروح التلخيص: ٢/١٤٠.

(٢) ينظر: تعبير الحق عن ذاته: ٩.

المعلم الثالث: التقابل بين الشيء وضده وأثره في بيان رتب الإقبال:

يتجلى ذلك في إثبات النعمة ومقابلتها بضدها في قوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾[الشرح: ١] قابلها بقوله: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾[الشرح: ٢-٣] حيث إنّ قوله: ﴿ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾[الشرح: ٣] مع ذكر الوزر وما فيه من معنى الذنب فيه معنى ضيق الصدر فرفعه عنه شرح له، وهذا هو وجه تأكيد النعمة الأولى بالضد، ومن ثم تأتي سورة الشرح تفصيلًا للنعمة الأولى المقررة بقوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾[الشرح: ١] سواء كان على وجه التضاد أو على وجه التناسب، فقوله بعد ذلك: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾ [الشرح: ٤] إنعام مع شرح الصدر على وجه التناسب ؛ إذ إنّ ذلك مطلوب، ومن ذلك دعاء سيدنا إبراهيم -عليه السلام- ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ ۝٨٤ ﴾ [الشعراء: ٨٤].

وفي قرن العسر باليسر: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾[الشرح: ٥-٦] ضمان بتأبيد الرعاية والاهتمام، لاسيما إذا اعتبرنا التنكير في: (يسر) للنوعية والتعظيم معًا، فإذا نظرنا إلى المعية في قوله: "مع العسر" وجدنا دلالة التقارن والاستلزام وعدم تخلف اليسر عن العسر بما يستلزم شرح الصدر ؛ زيادةً في النعمة.

ثم تختم السورة بما هو أبعد في شرح الصدر والتسكين القلبي بالتقرب إليه: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾[الشرح: ٧-٨].

المعلم الرابع: الترقي وأثره في بيان رتب الإقبال:

ويظهر بيان الترقي لرتبة الإقبال في أمور هي:

أ- ذكر الأدنى ثم الأعلى من النِّعم على مستويين: مستوى السورة الواحدة، ومستوى السورتين.

ففي سورة الضحى بدأ -أولًا- بذكر نعمة إيوائه يتيمًا، ثم ترقى بذكر هدايته ضالًا، ثم ترقى بذكر إغنائه حسًا ومعنى عمن سواه، وفي سورة الشرح بدأ بشرح صدره، ثم وضع وزره، ثم زاد الفضل برفع ذكره.

وعلى مستوى السورتين بالبدء بالنِّعم الظاهرة في سورة الضحى، والتثنية بالنعم الباطنة في سورة الشرح، وهذا ترقٍّ وكمال في النعمة، ومن ثَمّ إنباء عن علوّ الإقبال.

ب- تفصيل النّعم -أولًا- ثم إجمالها، فبعد أن ذكر النعم مفصلة ختم في الضحى بـ: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾[الضحى: ١١]، وفي الشرح ختم بـ: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾[الشرح: ٥-٦] وهذا جماع للنعم في السورتين، وذكره لها مرتين يستلزم علوّ الإقبال في الموضعين.

المطلب الثاني: صريح الإقبال في سياق المنّ بالهبة

١- الهبات العامة:

أقبل المولى- ﷻ- على أولي العزم بهبات لامست مربوبية كل منهم – عليهم السلام – لذا تنوعت هبات النبي -ﷺ- بين هبات حسية ومعنوية، وغلبت المعنوية؛ حيث إنه رُبي -ﷺ- على الحمد، في حين غلبت الهبات الحسية للأنبياء من أولي العزم تبعًا لما رُبي له كل منهم وأبداه وجوده،

فأقبل على سيدنا إبراهيم -عليه السلام- بجعله أصلًا للذرية الصالحة؛ فهو أبو الأنبياء، وأقبل على موسى بهبة الأخ المعين والعضيد في الرسالة؛ لما اصطفاه الله لرسالاته وكلامه، ويتجلى ذلك في أربعة مواضع هي مايلي:

١) ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَٰهَا إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[الأنعام: ٨٣-٨٤]

٢) ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾[مريم: ٤٩-٥٠].

٣) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾[مريم: ٥٣].

٤) ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[القصص: ٣٤-٣٥].

وجه الإقبال ومغرسه المعنوي:

لما ربى الله إبراهيم -عليه السلام- رباه بأن يكون أبًا للأنبياء، فلاءم ذلك أن يكون وجه الإقبال عليه جعله الأصل في الذرية الصالحة؛ إذ إنّ تلاؤم الإقبال مع حال المقبل عليه أساس من أسس الإقبال عند الحرالّي؛ فـ"ربُّ كلّ شيء: مُقيمه بحسب ما أبْداه وُجُوده"[1].

ومغرس الإقبال[2] في موضع سورة الأنعام نابع من قوله -تعالى-: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٨٣] فـإبراهيم -عليه السلام- أرفعهم درجـة؛ لـذا جُعل أصـلاً لصلاحهم.

أما مغرس الإقبال عليه بهبة الولد في موضع سورة مريم فماثل فيما ابتدأت به السورة من الذكر والرحمة: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ [مريم: ٢] لذا اتسم الإقبال فيها بالتكريم، ورفع الذكر فيه رحمة له -عليه السلام- بأن جعل عاقبة اعتزاله لقومه على خلاف مقتضى الظاهر، فلم يستوحش، بل وهب الولد.

أما وجه الإقبال على موسى -عليه السلام- فمتعلق بأمر الرسالة؛ ملائمة لشدة الأمر مع سيدنا موسى وهي شدة تتجلى في حال المعاند، وفي حال سيدنا موسى- عليه السلام - التي حكاها من وجهين من حال لسانه: ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا ﴾[القصص: ٣٤] وحاله مع الذنب الذي كان لهم عليه: ﴿ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [القصص: ٣٣]، فكانت هبة الأخ له دائرة في فلك ذلك على اختلاف جوانبها تبعًا لاختلاف السياق والمغرس.

فلما كان المغرس في سورة مريم هو ذاته مغرس الهبة لإبراهيم -عليه السلام- وهو التكريم والرحمة اتسم الإقبال عليه بهبة الأخ بالتكريم ورفع الذكر رحمة لموسى -عليه السلام- لذلك ورد وصفه بالنبوة تشريفًا له: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾[مريم: ٥٣] وجعلت الرحمة منبعًا للهبة ومصدرًا لها.

---

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤١.

(٢) المغرس هو: المبدأ والأساس الرئيس الذي نبت وابتدأ منه الإقبال.

واتسمت الهبة بـ(هارون) في سورة القصص بالقوة:﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص: ٣٥] لكون المغرس في عوامل الخوف فيما يتصل بالنفس ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [القصص: ٣٣] والرسالة ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص: ٣٤].

أما موضع سورة طه: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه: ٣٦] فقد اتسمت هبة (هارون) بجعله معينًا لموسى – عليه السلام- لما في ذلك من ملاءمة لطلبه السابق: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ ﴾[طه: ٢٩] فالوزير: هو من يحمل الثقل عن صاحبه[(١)] هذا من وجه، ومن وجه آخر لملاءمة سياق السورة الدائر في نفي الشقاء، ودعاء موسى -عليه السلام- كلّه دائرٌ حول نفي الشقاء، ومايعينه على ذلك، فلاءم الإقبال لقَن [(٢)] موسى-عليه السلام- ومقتضى حاله كلٌ باعتباره.

يظهر مما تقدم تفاوت الإقبال: بيانًا وإفهامًا تبعاً لرتبة المقبل عليه، ويتعاضد في بيان ذلك النسق اللفظي مع النسق المعنوي كما صرح الحرالّي[(٣)].

ويتجلى ذلك في خمسة معالم:

المعلم الأول: الترتيب وأثره في بيان رتب الإقبال:

أثر ترتيب الذُّرية في شأن إبراهيم -عليه السلام- في الموضعين في علوّ الإقبال؛ حيث بدأ في الهبة بـ(إسحاق)، وثنى بـ(يعقوب): ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [الأنعام: ٨٤].

وفي ذلك الترتيب تناسب، من حيث التسلسل من الأب إلى الولد ثم ولد الولد ... وتسلسل الإكرام في عقبه أدلٌ على تكريمه -عليه السلام- حيث إنه كان الأصل في ذلك، وتعاهُدُ ذريته من الله بالكرامات إنّما هو لكرامته على الله وعلوّ شأنه فرُفِعتْ ذريته لأجله، وهذا ما نص عليه البقاعي في قوله: "وابتدأ -سبحانه – بهما؛ لأنّ السياق للامتنان على الخليل – عليه السلام- وهو أشد سرورًا

(١) ينظر : معجم مقاييس اللغة: كتاب الواو، باب الواو والزاء وما يثلثهما: ٦٣٠/٢.

(٢) ينظر : مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤١.

(٣) السابق: ٤٣، قال الحرالّي: "فيعلو البيان والإفهام، بحسب رتبة من توجه إليه الإقبال".

بابنه... وابن ابنه الذي أكثر الأنبياء الداعين إلى الله من نسله ومن خواصه"[1] فالترتيب هنا لم يراع فيه الزمن بل القرابة من سيدنا إبراهيم- عليه السلام -والتصوق به، فكأنّ هذه الهداية من أجله، لذلك وردت على هذا الترتيب وذكر هداية هذه السلسلة من أجله هو رفعة لشأنه هو- عليه السلام-.

كما أنّ في ترتيب: ﴿ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾ [مريم: ٥١] في شأن موسى -عليه السلام- تناسبًا مع الإقبال في سورة مريم؛ إذ إنّ المناط فيها للتكريم لا الرسالة، فكان الترقي هنا في الوصف تبعًا لذلك، فبدأ بالرسول ثم ذكر النبي: ﴿ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾ [مريم: ٥١]؛ لأنّ دلالة النبوة في التشريف أعلى وأعمق من دلالة الرسالة، سواء من دلالة النبوة بمعنى الرفعة في المكانة والسمو، أو من الإنباء، قال البقاعي: فصار الإخبار بالنبوة عنه مرتين: إحداهما في ضمن: ﴿ رَسُولًا ﴾، والأخرى صريحًا مع إفهام العلو باشتقاقه من النبوة، وبكون النبأ لا يطلق عليه غالبًا إلا على خبر عظيم، فصار المراد: رسولًا عاليًا مقداره ويخبر بالأخبار الجليلة، وفيه دفع لما يتوهم من أنّه رسول عن بعض رسله كما في أصحاب يس"[2].

أما ترتيب المنّة على موسى - عليه السلام - في سورة القصص في قوله -تعالى-: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[القصص: ٣٥] فلتناسب الإقبالات مترتبة علوٌّ في الإقبال يظهر هنا في التناسب الظاهر مع هبة موسى -عليه السلام- باعتبارين:

الاعتبار الأول: الترتيب من الخصوص إلى العموم، حيث جاء بالعون له -عليه السلام- بشد عضده، ثم ضم إليه الأقرب وهو أخوه: ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا ﴾[القصص: ٣٥] ثم عمّ التأييد له، ولأخيه ولقومه: ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ وهذا يتلاءم مع حال موسى-عليه السلام- في السورة

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢/٦٦٤، ٦٦٥. ولم يذكر إسماعيل -عليه السلام- هنا على الرغم من أنّه أول ولد إبراهيم عليه السلام وقد اطرد ذلك في القرآن اعتمادًا على استقلال كل منهما بأصل في الرسالة فكان إسحاق -ويعقوب من رسل بني إسرائيل، بينما كان اسماعيل -عليه السلام- بذرة لرسالة سيدنا محمد ﷺ. ومن هذا الوجه في الاستقلال كان فصل إسماعيل وإيراده قصة معطوفة على مجمل القصص لا مفرداً معطوفاً على أصل الفعل.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٤/٥٤٠، والنبوة أعلى في هذا السياق، وإلا فدلالة الرسالة عند أهل العلم أعلى.

من خوفه على نفسه من ثأر فرعون ثم من خوفه على الرسالة وعلى قومه، فقدم اختصاصه بالإكرام إقبالًا عليه، ثم عمم ذلك تأكيدًا في إكرامه وإعلاءً لهيبته له.

الاعتبار الثاني: الترقي في النعمة، حيث بدأ بالإنعام عليه بتقويته، ثم عظّم النعمة بأنْ جعل له ولأخيه سلطانًا يحميهما من فرعون وملئه، ثم عظّم العناية بأن جعل الغلبة لهما ولقومهما، وهذا يتلاءم مع طلبه -عليه السلام- بأنْ أمّنه في ذاته، ثم أمّنه في قومه، وكتب لهم النصرة والغلبة.

ويظهر علوّ رتب الإقبال بعضها على بعض في تقديم التعليق: الجار والمجرور على المفعول في قوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ ﴾[الأنعام: ٨٤] في شأن كل من إبراهيم وموسى -عليهما السلام- عند هبة الولد والأخ، وسار النظم على التقديم جريًا على نمط تقديم التعلق -أيضًا- حين ذكر الهبة بعلوّ الذكر: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠ ﴾[مريم: ٥٠].

والتقديم أليق بالإكرام والتشريف؛ لما فيه من الاختصاص، أو العناية بهما تأكيدًا لاستحقاقهما المنّة، وهذا علوّ في الإفهام ملائم لرتبة المقبل عليه وما زُيّن له بأن جعل أصلًا للذرية الصالحة.

المعلم الثاني: الوصل وأثره في بيان رتب الإقبال:

يظهر ذلك فيما يلي:

١) العطف الوارد في ذرية إبراهيم -عليه السلام- له مدخلٌ في رتبة الإقبال؛ حيث عطف بعضها على بعض: ﴿ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٤] وفي ذلك تسلسل للذرية بالوصل يدل على علوّ منزلته وشأنه -عليه السلام- لأنهم كلهم موصولون به، وهذا ملائم لما أبداه وجوده، فهو أصل وأب لهم.

٢) عطف الجمل بعضها على بعض: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾[مريم: ٤٩]، ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا ﴾، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٠] في شأن إبراهيم -عليه السلام- وفي شأن موسى -عليه السلام-: ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ ﴾ [مريم: ٥١]، ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢ ﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣ ﴾ [مريم: ٥٣]، ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا ﴾ [القصص: ٣٥]،

﴿ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص: ٣٥] له مدخل في الإقبال-أيضًا- فمجيئها بالواو فيه ترقٍ لدلالتها على أنّ كل موضع في حد ذاته هو نعمة كافية في المنّ والرحمة فكيف إذا اجتمعت جميعًا؟ ولهذا الترقي وجه في كل موضع؛ فلما وهب الله إبراهيم -عليه السلام- الذرية ترقى في أن هداهم لأجله.

وفي شأن موسى-عليه السلام- في سورة مريم لمّا كمّله في نفسه فاض بعد ذلك الكمال على غيره؛ حيث إنّهم وُهِبُوا النبوة لأجله، فالترقي في هذا الموضع من هذا الوجه؛ لذا كان:﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣] أعلاها، وكذلك الترقي ظاهر في موضع سورة القصص بأن تمم له النعمة في ذاته ثم عداها إلى من سواه.

فتتابع النعم على هذا الأسلوب من العطف فيه دلالة على ثبات النعم إقبالًا عليه.

وورود نعم أخرى على اختلاف معانيها بغير الواو، كقوله -تعالى-: ﴿ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾[مريم]، ﴿ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم: ٥٠] له وجه آخر - يلتقي مع علوّ الإقبال، حيث إنّ عدم الوصل بين الصفات مبالغة ظاهرة في الوصف لا تتأتى بالعطف، ففي: ﴿ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ ﴾ [مريم: ٥١] مبالغة في وصف ذاته -عليه السلام- وعلوّ شرفه، وفي وصف اللسان به (عليًا) مبالغة في ظهور هذا الذكر. والله أعلم.

المعلم الثالث: تغيُّر الضمائر وأثره في بيان رتب الإقبال:

اطرد إسناد أفعال النّعم، والهبات إلى نون العظمة: (وهبنا) (نجينا) (جعلنا)، وهذا يتناسب مع دلالة الهبة من وجه، ومن وجه آخر مع جلال النّعم وعظمتها، ومن ثم علوّ الإقبال بها.

وتنوعت الضمائر عند تعليق النّعم بالمنعَم عليه بين: ضمائر غيبة في سورة مريم، (لهم) (أخاه) (له) ملاءمة للمضي فيها وتحقق الأمر، وهذا أدلّ على الرحمة، وضمائر خطاب في سورة طه ملاءمة لتقدم الطلب والإكرام في الإجابة الذي يستلزم الخطاب، وفي سورة القصص لاءم الخطاب جانب التطمين فيها؛ لأنّ جانب الخوف فيها عاليًا، والخطاب أليق بالتطمين وأدلّ على علوّ الإقبال.

وهذا التغير للضمائر خطاب للمربوبين بحسب تَلَقّيهم ورتبهم؛ فالرتبة عالية فهم من أولي العزم من الرسل، قال الحراليّ: " فللربوبية بيان في كل رتبة بحسب ما تظهرته آية مربوبه"[1].

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤١.

المعلم الرابع: التقابل وأثره في بيان رتب الإقبال:

ذِكْرُ الضد أدخلُ في الإكرام وعلوّ الإقبال؛ حيث يبين اختصاص المُقبَل عليه بالفضل من دون غيره، ويظهر ذلك في هبة ذرية إبراهيم -عليه السلام- ذكرًا عاليًا: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝ ﴾ [مريم: ٥٠] باستعمال المجاز المرسل الذي دلَّ على علوّ الهبة؛ حيث إنّ فيه تصويرًا لتكرر ذكرهم وفشوّه في مختلف الأمم بتعدد لغاتها، وعلوّ صيتهم حتى إنّ اللسان لا يفتر عن ذكرهم، وقابل هذا العلوّ في ذكرهم بخمول ذكر غيرهم من أهل الخسران: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ ﴾ [مريم: ٥٩] والضد بالضد يعرف.

المعلم الخامس: دقة الكلمة وأثر ذلك في بيان رتب الإقبال:

يتجلى ذلك فيما يلي:

١) تخيُّر الهبة: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣]، وللهبة أثرٌ في علوّ الإقبال -هنا- على موضعي سورتي القصص وطه من وجوه:

أ - **مادة الكلمة**؛ حيث إنّ الهبة هي العطية الخالية من الأعواض والأغراض[1]، وهي تقتضي التمليك والتفضل على الموهوب[2] وهذا لا يستلزم في العطية.

وتمحُّضها من الأغراض علوٌّ في الإقبال على سيدنا إبراهيم، وسيدنا موسى -عليهما السلام- فقد اطردت الهبة في كل إقبال مباشر من الله -عز وجل- على إبراهيم -عليه السلام- بخلاف البشرى بواسطة الملائكة، فقد اطرد معها ما يُناكد تمحض الهبة من عقر الزوجة؛ فهناك فرق بين البشرى المباشرة من الله - عز وجل - حيث لا مناكدة فيها، ولا عوض بتقدم طلب وبين بشرى الملائكة، وتمحُّض وصف الهبة خلوًا من الأغراض دالٌّ على الإكرام والتشريف.

كما أنّ صريح الهبة لا يستلزم تقدم طلب؛ لذا ورد صريحًا في موضع سورة مريم مع موسى- عليه السلام - ابتداءً من دون طلب، والابتداء في الهبة إكرام ورحمة وعلوٌّ في الإقبال ملائم لسياق التكريم والرحمة في موضع سورة مريم، ووردت معانيها في موضعي سورة طه: ﴿ قَدْ

(١) ينظر: لسان العرب: باب الواو: ٦/٤٩٢٩.

(٢) ينظر: الفروق اللغوية: الفرق بين الإعطاء والهبة: ١٨٩.

أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ ﴿ أُوتِيتَ ﴾[طه: ٣٦] وسورة القصص:﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ ﴾ [القصص: ٣٥] لتقدم طلب صريح منه -عليه السلام-.

ولا يخفى أن هبة إبراهيم -عليه السلام- أعلى من هبة موسى -عليه السلام- وإن اتفقت اللفظة مادة وبنية؛ نظرًا لرتبة الموهوب، ونوع الهبة؛ فإبراهيم أبٌ للأنبياء؛ لما أبداه من وجوده؛ لذا كانت هبته بجعله أصلًا لصلاح الذرية أبناءً وأحفادًا، ثم أقبل عليه بهبة الولد مقابلة لاعتزاله لقومه، فأبدلت وحشة الاعتزال بأنس الولد، وهبة الولد أعلى من هبة الأخ -ولا شك- وهذه الإيحاءات في دلالة اللفظة من علوّ الإفهام ملائمة لحال المخاطبين بها، كما ذكر الحرالّي[1].

ب- مبنى الكلمة:

وكما تضمن صريح اللفظ إكرامًا وإقبالًا كان كذلك مبناه؛ فورود الهبة بالمضي في موضعي سورتي مريم وطه: (وهبنا) (أوتيت) فيه دلالة على أنّ الإجابة على هذا الطلب سابقة عليه، زيادة في التفضل؛ فرغبته متحققة سلفًا، وهذا متلائم مع سياق نفي الشقاء في سورة طه، ومطلق الرحمة في سورة مريم، وفي المضي:(وهبنا) دلالة تحقق لوقوع الهبة، وتناسبٌ لفظيٌّ مع مجيء الأفعال ماضية في قصة سيدنا موسى-عليه السلام- ﴿ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم: ٥١] ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ ﴾ ﴿ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴾[مريم: ٥٢] كما أنّها تتناسب مع :(اذكر) لأنّ التذكر يكون مع أمر مضى، وهذا لا يتنافى مع دلالة التحقق.

أما ورودها في سورة القصص مستقبلًا: (سنشد) فملائم لحال الخوف والشدة فيها ومايستلزمه من الضمان والوعد المزيل للخوف والمؤنس للمكروب، فالاستمرار والتجدد في العون أدخل في التأييد.

ويعضد الإكرام في دلالة التحقق في المضي تعليقها بـ:(له) حيث دلت على أنّهّا لذواتهم خاصة وليست من أجل الرسالة، وهذا العلوّ ملائم لعلوّ رتبة كل منهما من وجه، وملائم لتقدمهما في هذه المرحلة من مراحل نبوتهما من وجه آخر.

---

(١) ينظر: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

كما أنّها وردت في بنيتها مسندة إلى نون العظمة، وهذا يتلاءم مع دلالة علوّ الإكرام في مادة الهبة من وجه، ومن وجه آخر ملائم لمقام علوّ الإنعام، وعلو المُنْعَم عليه؛ فلا تسند النِّعم إلى نون العظمة إلا في مقام المنّ العالي علوًّا غير متناه ومقام إجلال النعمة [1].

٢) تخير :(هدينا) في موضع و: (نبيًّا) في موضع آخر في شأن ذرية إبراهيم -عليه السلام- حيث وردت الهبة مقترنة بالهداية في موضع سورة الأنعام: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ [الأنعام: ٨٤] ووردت النبوة في موضع سورة مريم: ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾[مريم: ٤٩] وفي ذلك تناسب مع سياق كل منهما، فالسياق في سورة مريم سياق تكريم وإعلاء ذكر، والنبوة هي التشريف وإعلاء الذكر والشأن.

أما سياق سورة الأنعام العام ففي الهداية من الضلال؛ لذا تناسب أن يأتي الإقبال بالهداية، كما أنّ ذلك متلائم مع ما ذكر في السياق البعدي؛ إذ إنّ ذكر هذه السلسلة المباركة القصد منه التوطئة لاهتداء النبي -ﷺ- بهم: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: ٩٠].

ومتلائم مع السياق القبلي؛ فالرحلة مع سيدنا إبراهيم- عليه السلام - مقصود بها الاهتداء إلى طريق الحق خاصة.

وإذا وجهت النظر إلى درج المصحف تجد في ذلك ملاءمة لحال المُقْبَل عليه ومراحل دعوته، فكأنّ موضع سورة الأنعام تمهيدٌ للهداية، وموضع سورة مريم ارتقاءٌ في التكريم .

٣) تخيُّر :(عليًّا) بنية ومعنى: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٠] في وصف ذكرهم؛ حيث دلت اللفظة مادة على علوّ ورفعة، ودلت بنيتها :(عليًّا) -التي على وزن (فعيل) - على مبالغة في هذا العلو تؤكد ظهور ذكرهم على ذكر من سواهم، فإذا كانوا قد استحقوا هذه المنزلة، فكيف برفعه من كان أصلًا لها؟

٤) تخيُّر: (الذرية) في موضع سورة الأنعام: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾[الأنعام: ٨٤].

---

(١) ينظر: تعبير الحق عن ذاته: ٣٣.

فالذرية فيها دلالة الانسلال من إبراهيم- عليه السلام- والتسلسل منه[1]، فكل إكرام لها هو إكـرام لـه- عليه السلام- وكل هبة لهم الأصل أنها له.

٥) تخيُّر: (أوتيت) في شأن إجابة موسى- عليه السلام -: ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ لدلالة السهولة ويسر العطاء في الإتيان [2]، وهذا فيه إنعام وإكرام .

كما أنّها وردت بالمضي لا بالمضارعة:(ستؤتى) وهذا تأكيد على تحقيق طلبه تحققًا منبعه الإكرام، كما أنّه بناها للمفعول، وهذا دليل آخر على علوّ الإقبال؛ فالبناء للمفعول دليل على عظمة الإيتاء، متضمنة عظمة المؤتي وعظمة المؤتى[3].

٦) تخير:(مخلصًا) مطلقة في شأن موسى -عليه السلام- وفي هذا الإطلاق دلالة على الخلوص من كل الشوائب، سواءً كانت همومًا أو غيرها من آثام النفس، كقتله للقبطي -مثلًا- وهذا الخلوص يتلاءم مع علوّ دلالة الهبة من وجه، ومع سياق الرحمة والتكريم في السورة من وجه آخر.

وعلوّ البيان في تخير هذه الألفاظ متلائم مع علوّ رتبة المقبَل عليه؛ إذ إنّ فيها إفهامًا علا بعلوّهم، فأعلى الإفهام ما يكون مع الأنبياء كما ذكر الحرالّيّ [4].

ومن هذا الإفهام دلالة العظمة في إطلاق ضمير العظمة: (وهبنا) (هدينا)؛ فكل ما يتناسب مع دلالة العظمة من كرم العطاء، وعظم المنّة داخل في الإفهام لا الإفصاح.

وكذلك دلالات الإطلاق من القيد في كلمة: (مخلصًا) من شمول هذا الخلوص لكل شائبة داخل في الإفهام -أيضًا- وهذا يتناسب مع علوّ رتبة الأنبياء.

---

(١) ينظر: لسان العرب: باب الذال: ٣/١٥٠١، إذ تطلق الذرية على أولاد الرجل ذكورا وإناثا.

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الألف: ١٨.

(٣) ينظر: المبني للمجهول تراكيبه ودلالاته في القرآن الكريم: ٢٢٣.

(٤) ينظر: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

٢- الهبات الخاصة بالنبي- ﷺ -

أ- الاعتبـار بآيات الكـون

اختص النبي-ﷺ- بالخطاب في الاعتبار بآيات الكون تارة، وبجعله أصلًا في استبقاء غيره تارة أخرى، كما اختص- سابقًا- من دون سواه بالتذكير بأصل الخلق؛ لأنّه -ﷺ- كما قال البقاعي:"لا يعلم ذلك من المخلوقين حق علمه غيره"(١).

وتخصيصه - ﷺ- بالخطاب في الاعتبار عند الحرالّيّ من أشرف المعاني، ونصّ على ذلك في قوله:" فأشرف المعاني ما قيل فيه﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾(٢) إقبالًا على النبي -ﷺ- وعموم المعاني ما قيل فيه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا ﴾ إقبالًا على الأمة؛ ليخاطب كلٌّ على قدر ما قدم لهم من تمهيد موهبة العقل؛ لتترتب المكسبة من العلم على مقدار الموهبة من العقل" (٣).

وهذا إلماح إلى تميُّز علمه - ﷺ- وعلوّه على علم غيره، مما اقتضى اختصاصه بالخطاب. وصرح بذلك الغزالي في قوله: "وتفاوت نور البصيرة؛ كتفاوت نور البصر، والفرق مدرك بين الأعمش، وبين حاد البصر... ومن أنكر تفاوت الناس في هذه الغريزة، فكأنه منخلع عن ربقة العقل، ومن ظنّ أن عقل النبي- ﷺ- مثل عقل آحاد السوادية وأجلاف البوادي فهو أخس في نفسه من آحاد السوادية، وكيف ينكر تفاوت الغريزة، ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم، ولما انقسموا إلى بليد.. وإلى ذكي... وذلك مثلُ الأنبياء -عليهم السلام- إذ يتضح لهم في بواطنهم أمور غامضة... وذلك لاختلاف جواهر الأرض، في صفاتها، فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل"(٤).

وهذا الاختصاص بالعلم استلزم الإقبال عليه بخصوصية الخطاب بالاعتبار في آيات الكون، ومن هذه المواضع، قوله -تعالى-: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآي والسور: ٣١/٦. ويؤيده قوله - ﷺ-: "والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا" البخاري، ت: محمد زهير الناصر، ط١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ، كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، رقم الحديث ١٠٤٤: ٣٤/٢.

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن مادة (رأى): ٣٤٦، ٣٤٧.

(٣) تفسير الحرالّيّ ضمن تراث أبي الحسن الحرالّيّ المراكشي في التفسير: ٤٢٠.

(٤) "إحياء علوم الدين" محمد بن محمد الغزالي، ط١، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، دار المعرفة، بيروت: ١١١٥، ١١٦.

جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾[الفرقان : ٤٥]، وقوله:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ ﴾[لقمان: ٢٩] ويشابهها ما أقبل به على سيدنا إبراهيم -عليه السلام- في قوله -تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ...... ﴾ [الأنعام: ٧٥] .

المغرس المعنوي للإقبال في المواضع:

اشتركت المواضع الثلاثة في مغرس معنوي عام للإقبال باختصاص العلم:هو تقدم تكذيب المشركين للرسل، فكان الإقبال باختصاصهم بالعلم ملائمًا للرد على هؤلاء المكذبين؛ ذبًا عن الرسل من وجه، ومن وجه آخر تسليةً وإيناسًا لهم بأنّ تكذيب من كذبهم بلاء في أنفسهم هم لا من رسلهم، فالرسل قد اختصوا بالعلم، وعلوّ الإدراك.

وعلى الرغم من اشتراك المواضع في أساس المغرس (التكذيب) إلا أنّ رتبة الإقبال تفاوتت في المواضع تبعًا لاختلاف خاصية هذا التكذيب.

فالتكذيب في موضع سورة الفرقان كان استهزاءً بالرسول -ﷺ- وهذا داعٍ عالٍ للإقبال عليه فورد الإقبال باختصاصه بالعلم مقابلًا لاستهزائهم به -ﷺ- فاستهزأ بهم، وحطَّ من فهمهم، فأعرض عنهم بذمهم، مقبلًا عليه -ﷺ- بخطابه مباشرة؛ اعتدادًا بفهمه وعلمه.

ويمهد لهذا الإعراض عنهم تشبيههم بالأنعام، بل هم أضل، قال - تعالى-: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وهذا موطئ للإقبال عليه؛ لذا اختص بالخطاب بالعلم من دونهم، على الرغم من عموم الآيات للمخاطب بها.

أما موضع سورة لقمان فالتكذيب فيه كان مُحزنًا للرسول -ﷺ-: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ [لقمان: ٢٣] فكان الإقبال عليه متصلًا ببيان تكذيبهم للألوهية وعظمها، وتكذيبهم لها أدعى إلى التخفيف من حزنه، فليس السبب منه، بل منهم؛ فمن كذب هذه العظمة على ظهورها فلا يُحزن عليه، ومن هنا أقبل عليه باسم الجلالة: (الله) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾من دون: (ربك).

وموضع سورة الأنعام فيه تكذيب وضلال -أيضًا- فأقبل على إبراهيم -عليه السلام- بأن أراه ملكوت السموات والأرض مجيبًا على حيرته وأسئلته، وهاديًا له إلى الصواب.

وكما كان لهذه المغارس اختلاف تبعًا للسياق، فقد ترتب عليه اختلاف الأساليب التي ورد بها الإقبال؛ تعاضدًا بين النسق المعنوي واللفظي، كما صرح الحرالّيّ.

ويتجلى ذلك في خمسة معالم هي مايلي:

المعلم الأول: الخبر والإنشاء، وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

ورد الإقبال على سيدنا محمد -ﷺ- بأسلوب الإنشاء:﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وهذا أدلُّ على علوّ الإقبال عليه -ﷺ- في هذه المواضع عن غيرها مما ورد بالإخبار له من وجه، ومن وجه آخر علوّ في الإقبال عليه -ﷺ- على غيره من الأنبياء من أولي العزم.

فمعاني الإنشاء مستفيضةٌ، ولها وجوه متعددة كلما فليتها؛ لقول البلاغيين إنّ الإنشاء لا يقصد نسبته في الخارج، وهذا يعطي اتساعاً للدلالات، في حين أنّ الخبر مقصودٌ: إما لفائدة الخبر، أو للازم الفائدة [1] وهذا القصد يقلّ من رتبة الإقبال.

وورود الإنشاء بالاستفهام بالهمزة خاصة - نافيًا إياها وجاعلًا المستفهم عنه:(الرؤية) التي أوردت بالمضارعة: (تر)، وعلقت بالربوبية:(إلى ربك) ورودها هكذا-أساليب تُعلي من رتبة الإقبال، بخلاف المواضع التي وردت بالإخبار في مواضع أخرى للاعتبار بهذه النعم، كقوله-تعالى-:

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦ ﴾ [الحديد: ٦].

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٦١ ﴾ [الحج: ٦١].

وقوله: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ ﴾ [فاطر: ١٣].

واختلف الأسلوب؛ لأنّها لم ترد في سياق استدعى اتساع دلالات الإنشاء، أو سعة المعاني؛ حيث لم يتقدمها تكذيب، فاختلاف السياق إذن اقتضى اختلاف الأسلوب.

كما أنّ اختلاف المخاطب له مدخل -أيضًا-؛ لذا ورد الإخبار مع إبراهيم -عليه السلام- لاختلاف رتبته عن رتبة سيدنا محمد -ﷺ- الذي هو أفهم ولد آدم وأفضلهم قاطبة، كما أنّ التكذيب لم يكن صريحًا وموجهًا له - عليه السلام -.

---

(١) ينظر: مختصر السعد في شرح التلخيص ضمن شروح التلخيص: ١٩٣/١.

فورد الإقبال بالاستفهام في الموضعين المقبل فيهما على الرسول- ﷺ - بخاصية العلم خاصة، وخصت الهمزة من دون غيرها للاستفهام، قال- تعالى-: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾[الفرقان: ٤٥]، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾؛ لاختصاص الهمزة بالتصديق والتصور، وورودها منفية يصرف معناها إلى التقرير، وهذا أدخل في علوّ رتبة الإقبال؛ حيث إنّ التقرير لا يجب أن يكون للحكم الذي دخلت عليه الهمزة، بل بما يعرف المخاطب من ذلك الحكم[1]. وهذا تأكيد على الاعتداد بعلمه- ﷺ - فالسؤال ليس عن الرؤية، بل على إقراره - ﷺ- بما استقر ثبوته عنده، وهذا أدلّ على علوّ فهمه، والاعتداد به اعتدادًا يقابل استهزاءهم به.

كما أنّ البلاغيين عدوا دخول النفي على الاستفهام نفيًا للنفي، وفي نفي النفي إثبات له بل تأكيد على إثباته [2] وهذا وجه آخر يعلي من رتبة الإقبال.

المعلم الثاني: تخير الألفاظ معنى ومبنى، وأثره في بيان رتب الإقبال :

ورد الاستفهام عن الرؤية خاصة: (ألم تر) من دون النظر، أو العلم؛ إذ إنّ فيها معنى الإدراك وذلك بحسب قوى النفس، فقد يكون بالحاسة، أو بالوهم والتخيل، أو بالعقل[3].

كما أنّ في الرؤية دلالة الإحاطة والشمول المستلزم عمق النظر والتدبر الذي يوصل إلى جوهر الأشياء وحقائقها، وهذا أدخل في علوّ الإقبال بخصوصية العلم؛ لأنّه لا فهم كفهمه -ﷺ-؛ لذا اختص بالخطاب بالرؤية من دون سواه، قال الحرالّيّ: "وفي قوله: (ترى) بالتاء إقبالٌ على النبي- ﷺ - ... وفيه إشعار بأنّ ذلك من أمر يعلو أمره إلى محل رؤيته التي هي أتمّ الرؤية[4].

وفعل: (رأى) منقول من الرؤية البصرية إلى الأمور القلبية، كأنك رأيت هذا الأمر بعينك، فكما أنّه ليس في الرؤية العينية شك كان هذا بمنزلته[5].

---

(١) السابق: ٢/٢٩٥.

(٢) نفسه.

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الراء، مادة رأى: ١٩٠.

(٤) تفسير الحرالّيّ ضمن تراث أبي الحسن الحرالّيّ المراكشي في التفسير: ٣٠٦.

(٥) ينظر: "معاني النحو" د. فاضل صالح السامرائي، ط٢، دار الفكر، ٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ: ١٢/٢.

ولاستلزام الرؤية هذه المعاني العميقة أتى الإقبال بها عليه ملائمًا لحاله، ولعلوّ فهمه، فعلى الرغم من أنّ الآيات المذكورة أمور عامة يراها الناس، إلا أنّ المنتفع بها، المدرك لها حق الإدراك هو سيدنا محمد - ﷺ - ومن هنا تولّد الإقبال بها عليه.

وهذا يلتقي مع ورودها بالمضارعة: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ الحاوي في رحمه تكرار الزمن على مهل لتدقيق النظر؛ إذ إنّ فيه تجزئة له ببطء دون الانقضاء السريع المتمثل في الماضي، وكلمّا تجزأ الزمن أمكن التعمق في التدبر تعمقًا يكشف حقيقة وجوهر الأشياء، مع الإحاطة بأسرارها الخفية.

والمضارعة تتناسب مع تخير: (الملكوت) في شأن إبراهيم - عليه السلام - فالمرئي (الملكوت) من دون (الملك) وفي الملكوت دلالة على معرفة عالم الغيب من الأرواح والنفوس[1]، وهذا أعمق في المعرفة، وأدخل في الإقبال بالاختصاص بالعلم فلا يصل له إلا خواص الناس؛ لذا ورد التعليل بـ:﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥] وفي ذلك تناسب بين الملكوت من ناحية، والمضارعة في (**نري**) من وجه آخر؛ فاليقين نتاج تعمق في أسرار الكون، كما أنّ اليقين لا يحصل إلا بكثرة الدلائل المسببة لحصوله، وهذه الكثرة تلتقي مع التكرار، وتجزئة الوقت في المضارعة.

وورد اليقين بالاسمية؛ دلالة على ثبات اليقين لديه؛ لذا عدي بـ:(من) لتؤكد كونه من الفئة التي تعرف عند الناس بالبالغين درجة عين اليقين في معرفة الله -تعالى-[2].

ولاختلاف بناء الفعل أثرٌ في رتبة الإقبال؛ حيث وردت مع الرسول - ﷺ -: (تر) ووردت في شأن إبراهيم -عليه السلام-: (نري) ولا شك أن كون الرؤية متولدة منه -ﷺ- فيه نسبة الإدراك له، وهذا أعلى إقبالًا عليه من:(نري) لدلالته على أن الإدراك ليس منه مباشرة، بل بعد معونة وإرشاد من الله - عز وجل -.

المعلم الثالث: تعاور الربوبية والألوهية، وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

ورد التصريح بالربوبية في موضع سورة الفرقان :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [الفرقان: ٤٥]، بينما صرح بالألوهية في موضع سورة لقمان: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾ [لقمان: ٢٩]؛ وذلك لاختلاف في امتداد الإنعام في كل منهما، فالمعنى العام للربوبية: الرعاية والعناية، وهي المستلزمة للإقبال في

---

(١) ينظر: التعريفات: ١٨٣.

(٢) ينظر: "التحرير والتنوير" محمد الطاهر ابن عاشور، ط١، بيروت، مؤسسة التاريخ، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م: ٧/١٢٩، ١٧٤.

كلا الموضعين، لكنّ امتدادها في كلّ منهما مختلف، كما أنّ خصوصية المغرس المترتب عليه -أيضًا- مختلف اختلافًا اقتضى التصريح بالربوبية في موضع سورة الفرقان، والعدول إلى الألوهية في موضع سورة لقمان، على الرغم من أن الحديث عن الإنعام.

فامتداد الربوبية في سورة الفرقان من البركة التي ابتدأت بها السورة: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ١] المبثوثة في السورة عمومًا، في حين امتدت الربوبية في سورة لقمان من إسباغ النعمة: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠].

وبالنظر إلى الدلالة المعجمية لكلّ من البركة والإسباغ نرى علوّ البركة؛ حيث إنّ معناها يدل على النماء والزيادة من حيث لا يوجد بالحس ظاهرًا، فإذا عهد من الشيء وكان المعنى خافيًا عن الحس قيل: هذه بركة، وقيل: اشتقاقها من البروك، وهو اللزوم والثبوت لثبوتها في الشيء، ويوصف بها كل شيء لزمه وثبت فيه خير إلهي، كما أنّ فيها معنى المواظبة على الشيء[1].

أما الإسباغ فيدل على الكمال والسعة والتمام[2]. والزيادة والنماء واللزوم -لا شك- أعلى من السعة والتمام؛ لأنها تحويها في رحمها، ولا تنفك عنها؛ لذا نرى بسطًا في النعم وامتدادها في موضع سورة الفرقان، وهذا يؤكد علوّ الإقبال الذي اقتضى التصريح بالربوبية، في حين صرح بالألوهية في سورة لقمان، وعلت غاية إثبات الألوهية فيما سبق من النعم فيها.

المعلم الرابع: التقييد والتعليق، وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

قُيّدت الربوبية في موضع سورة الفرقان بالإضافة إلى ضميره -ﷺ- (ربك) وهذا علوّ في الإقبال يتلاقى مع كل ما سبق من تخيُّر الألفاظ، والأساليب وامتداد النعم في السورة.

فتعليقها بالجار والمجرور ترقٍّ إلى علوّ آخر؛ لما في ذلك من تأكيد على الرؤية القلبية، وقوة الاعتبار، قال الراغب الاصفهاني: "وإذا عُدّيَ رأيت بـ: (إلى) اقتضى معنى النظر المؤدي إلى الاعتبار نحو: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾"[3].

وكون المجرور: (ربك) آكد في تأكيد الإقبال على النبي -ﷺ- ففيها دلالة على معرفة الرب من خلال نعمه، وهذا علوّ في الفهم لا يكون إلا للنبي- ﷺ -.

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الباء: ٥٤.

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة: كتاب السين، باب السين والهمزة وما يثلثهما: ١/٥٨٤.

(٣) المفردات في غريب القرآن: كتاب الراء: ١٩٠.

المعلم الخامس: تغيّر الضمائر، وأثرها في بيان رتب الإقبال:

غلبت (نون العظمة) على الإقبال في موضع سورة الفرقان: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾[الفرقان: ٤٥] ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٦]، وهذا لا شك يلتقي مع علوّ الإقبال في هذا الموضع، ففيه تفخيم وتعظيم للنعم نابع من تعظيم شأن المخاطب بهذه النعمة - ﷺ -.

كما أنّ في الالتفات من ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم علوًا آخر في الإقبال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٥].

(جعله- جعلنا) لأنّ ضمير المتكلم أدخل في الامتنان من ضمير الغائب؛ فهو مشعر بأنّ هذا الجعل نعمة . وهذا ترق في الإقبال يعاضده تغيّر العطف بـ: (ثم) الدال -هنا- على الترتيب الرتبي، وهذا متناسب مع علوّ النّعمة، وعلوّ رتبة الإقبال.

ب- اختصاصه -ﷺ- بجعله سببًا لنفي عذاب الاستئصال:

مما اختص به النبي -ﷺ- أنْ جعل نعمة في استبقاء أمته مع وجود سبب العذاب، وقد ورد الإقبال عليه بهذا التكريم في سياق التقابل بين إهلاك الأمم السابقة واستبقاء أمته لأجله، في ثلاثة مواضع:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[الأنفال: ٣٣].

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل: ١-٥].

يلحظ المتدبر أنّ وجه الإقبال في هذه المواضع واحد، وهو إكرام النبي - ﷺ - بجعله سببًا في المنّ على الغير، سواء في استبقاء المكذبين مع استحقاقهم لعذاب الاستئصال، كما في موضع سورة الأنفال، أو عدم معاملة الأمّة معاملة الأمم الماضية في العذاب، كما ورد في موضع سورة هود، أو إبقاء البيت الذي له عظيم الفضل والمنّة على قريش؛ حيث يُجبى إليه ثمرات كل شيء، وأمنٌ لهم، وفخرٌ في موضع سورة الفيل.

فهذه منن من وجوه مختلفة هم في أنفسهم لا يستحقونها، ولكن أعطوها إكرامًا للنبي -ﷺ- ولذلك اختص النبي- ﷺ - بالخطاب بها إقبالاً عليه من دونهم، وهذا يتلاءم مع ما نصّ عليه الحرالّيّ -في شأن النبي- ﷺ - بقوله: " وربُّ محمد ربُّه وربّاه للحمد"[1] فالحمد بمعنى: فاعل أو مفعول. ومن أسمائه - ﷺ - حامد، ومحمود، وكونه محمودًا بمعنى يحمده الناس لجميل فضله عليهم، فهو نعمة مرسلة إليهم، وهذا مبنى الإقبال -هاهنا- حيث أنعم الله -ﷻ- به على أمته من جانبين:

أ. استبقاء من كانوا أهلًا للهلاك.

ب. استبقاء البيت وما له من نعمة وفضل على قريش، وجميع المخاطبين.

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤١.

المغرس المعنوي للإقبال في هذه المواضع:

اشتركت هذه المواضع في وجه الإقبال، وفي المغرس على اختلاف في قوته، اختلافًا اقتضى اختلاف الرتبة في الإقبال، ترتب عليه اختلاف في الأساليب المودية له، والمنبئة بدرجة الإقبال.

المغرس المشترك بينها هو استعلاء التكذيب للرسول -ﷺ- فهم كذبوا من لا يعرفون قدره-وهذا من جهلهم- فأتى الإقبال بإكرامه -ﷺ- وإعلاء قدره مقابلًا بالتضاد لجهلهم بقدره وصدهم عنه، فمنّ عليهم بإبقائهم إكرامًا له، في حين حرصوا على تكذيبه وإهلاكه - ﷺ -.

وتبعًا للسياق الدقيق لكل موضع تدرجت رتب الإقبال، وتنوعت الأساليب الدّالة عليه كما نصّ الحرالّيّ على ذلك بتعاضد النسق المعنوي بالنسق اللفظي[1]، ابتداء بالسمت العام للإقبال في المواضع، وانتهاء بخصائص التراكيب المقبل بها في كل موضع.

فالسمت العام في سورة الأنفال للأسلوب إفصاح قابله الإفهام في موضعي سورة هود والفيل، وهذا السمت في الإقبال اختص به النبي -ﷺ- وكان أعلاه معه، قال الحرالّيّ: "فخطاب الإقبال على النبي - ﷺ- أعظم إفهامٍ في القرآن".

فأكثر مواضع الإقبال مع النبي- ﷺ- ترد بالإفهام؛ لأنّ معانيه الثانوية ثريّة، وفيه خفاء[2]، أما بقيّة الأنبياء فالشائع في الإقبال معهم الإفصاح حتى في ثوب الإقبال؛ إذ يأتي جانب اللوم والعتاب صريحًا، وكذلك جانب الثناء أيضاً صريحًا.

أما متى يغلب الإفهام على الإفصاح؟ ولم اختص به النبي؟ هل لأنّ النّعم المذكورة معه-ﷺ- معلوية متنامية؟ فهذا يلائمه الإفهام فهي معتمدة على أمور نفسية لا تتعلق بصريح اللفظ، بل بما يحيط باللفظ، ومن ثم يكون اتساع المعاني في الإفهام أعلى، وهل يغلب الإفصاح على الإفهام إذا كان الألم أشدّ، والإعراض أقوى فيكون الإفصاح أولى لتطييب الخاطر؟

أتى الإقبال إفهامًا في موضع سورة هود؛ لأنّ الحديث لم يكن له - ﷺ - بل كان حكايةً عن الأمم الماضية، وسيق الموضع على سبيل قياس حال أمته بأحوال الأمم السابقة، فالإقبال-هنا- على سبيل الخفاء، حيث لم يتعلق الكلام به -ﷺ- ولا بصفاته وصفات قومه معه، كما كان في سورة الأنفال، بل عن قومه وتكذيبهم.

---

(١) قال الحرالّيّ: "فيعلو البيان والإفهام بحسب رتبة من توجه إليه الإقبال" مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

(٢) يختص بهذا فصل مستقل في الرسالة: هو الفصل الثالث (العدول) لأنّه عند الحرالّيّ على نسق واحد هو الوصية وسمته الإفهام.

وكان مناط الإقبال عليه -ﷺ- بلفظ الربوبية ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾ [هود: ١٠٢] فحقهم الأخذ، ولكن لأجل ربوبية الله لك يا محمد منع عنهم العذاب .

وكذلك الشأن في سورة الفيل، فلم يكن السياق في إبراز صفاته -ﷺ- بل كان في الإنعام بدفع أذى أصحاب الفيل عن قريش، وأصل الإنعام ربوبية الله للنبي -ﷺ- ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل: ١] فلوجوده فيهم أو لقرب مولده دُفع عنهم أذى أصحاب الفيل.

وكل ذلك إفهامٌ في الإقبال مُغايرٌ للإفصاح في موضع سورة الأنفال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

<u>تدرج رتب الإقبال تبعا لتدرج المصحف:</u>

يمكن النظر إلى تدرج هذه المواضع في إكرامه - ﷺ- والإقبال عليه باعتبارين:

أولهما: تدرج رتب الإقبال من الأعلى إلى الأدنى تبعًا لترتيب المصحف، وهو معتمد عند أهل العلم [1].

ثانيهما: تدرج رتب الإقبال من الأدنى إلى الأعلى تبعًا للترتيب النزولي للسورة، ولا تعارض بين الاعتبارين.

فبالاعتبار الأول تجد أعلى أساليب الإقبال في سورة الأنفال باعتبار سياقها الخاص الذي استلزم تقدمها في ترتيب المصحف؛ فداعي الإقبال ومثيره فيها أعلى، وبالتالي رتبة الإقبال كانت أعلى؛ فاستعلاء التكذيب في سورة الأنفال بيّن، ومصرح به من وجوه ثلاثة:

أ. التصريح بالكيد للنبي-ﷺ- في هذه السورة ورد بأعلى وجوه الكيد، حيث تعددت أنواع الكيد بين إثبات، وقتل، وإخراج ﴿ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، كما تعلق المكر بضميره -ﷺ- ﴿ يَمْكُرُ بِكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، والتعدية أتت بالباء وفيها معنى الملابسة والإلصاق، وهذا يعني أنّ هذا المكر ملصق به -ﷺ- في كل وقت ومكان، وهذا يعلي من كيدهم به -ﷺ-.

(١) ينظر: "أسرار ترتيب القرآن" جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م: ٥٦ ومابعدها.

ب ـ طلبهم عذاب الاستئصال صراحة، قال -تعالى-: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٢] دلّ عليه التقابل بين الشرط والجزاء الذي يدل على شدة العناد والجحد، فمقتضى الشرط أنْ يكون الجواب: فاهدنا إليه، ولكن لأنّ عنادهم كان لذاته - ﷺ - كان جوابهم ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢] فورد الإقبال إكرامًا لذاته - ﷺ - فهذه الذات التي كذبتموها، هي سبب في رحمتكم.

ج ـ الجو العام لسورة الأنفال الذي فيه مخالفة للرسول - ﷺ - ومن تلك اختلاف المؤمنين وخروجهم إلى المعركة كارهين، ثم المخالفة في شأن الأسرى فأتى تطييب خاطره - ﷺ - بالإقبال مقصودًا لذاته؛ لذا كان داعي الإقبال أعلى، فورد بأعلى الأساليب، وهو نفي الكون لدلالته على التنافي بين عذاب الاستئصال، وذاته - ﷺ - وتأبيد هذه الحالة وعمومها، فعذاب الاستئصال أمنت منه كل أمة الدعوة ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ويلي موضع سورة الأنفال موضع سورة هود؛ لأنّ التكذيب فيها أخف من التكذيب في سورة الأنفال ولم يكن صريحًا كالتكذيب في موضع سورة الأنفال، قال -تعالى- في أول السورة: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [هود: ٥] والإلماح أخف من التصريح، يؤيد ذلك تعليق الرحمة بالإنذار الشائع في السورة الذي يسير في فلك مقصدها الدائر بين الإنذار والتبشير، كما أنّ السياق القريب لم يكن له - ﷺ - سواء في الجحد أو في غيره، فلم يكن ممحضًا له لذلك كان فيه تنزّلٌ في الإقبال، وورد في وادي الإفهام لا في وادي الإفصاح؛ لذلك كان الأسلوب الرئيس للإقبال التشبيه، لأنّ هذا الإلحاق في الوصف، وفي الحال بين الأمم الماضية وأمته هو أداة الربط؛ فأسلوب التشبيه هو الذي أوجز ذلك فالشيء ليس هو هو في التشبيه بل فيه منه[1].

ويأتي موضع سورة النمل آخر المواضع رتبة؛ ذلك لأنّ داعي الإقبال فيه القائم على المقابلة بالتضاد مع موقف المشركين، أخف من الموضعين السابقين؛ حيث سبق التكذيب في السورة المتقدمة وكان تكذيبًا عامًّا؛ لذا كان الإلماح إلى الإقبال أعلى فلائمه أن يأتي بأسلوب الاستفهام.

(١) الإيضاح في علوم البلاغة: ٦٩ ، شروح التلخيص: ٣/٢١٥.

فرتب الإقبال بهذا الاعتبار متدرّجة مع الترتيب المصحفي بدءًا وانتهاءً، فالسابق أعلى من اللاحق.

والثاني: الترتيب النزولي:

الإقبال يتصاعد في هذا الترتيب من الأدنى إلى الأعلى، فأول المواضع سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)﴾ [الفيل: ١-٥] لأنها أسبق نزولاً، والملائم للأسبق نزولاً أن يكون متناسبًا مع منهج الدعوة، فيكون عموم المنّ فيه أعلى، وبالمقابل يقل فيه التصريح بدفع العذاب عن المكذبين لأجل النبي -ﷺ- بل إن سمت النعمة العموم والشمول، وهذا ما ورد في سورة الفيل، فالنعمة لقريش تصريح ولأجل النبي إفهام، وهذا ملائم لأولية النزول المقتضي تأليف القلوب.

ويأتي موضع سورة هود: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ [هود: ١٠٢] أقل إلماحًا وأقرب إلى الإفصاح بكون النبي -ﷺ- أصلاً في منع الهلاك عن قريش وأنّ داعي المنّ وسببه هو النبيّ - ﷺ - وإلا فهم يستحقون العذاب؛ لأن فعلهم مشابه لفعل الأمم السابقة، فقد كذّبوا كما كذّب الذين أخذهم العذاب والهلاك، ولكنه مُنع عنهم إكراماً للرسول -ﷺ- ومن هنا كان الإقبال عليه ملائمًا لكونها مرحلة متوسطة في النزول بين سورة الفيل والأنفال.

ويأتي موضع سورة الأنفال مصرحًا بالمنّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] وذلك لأنّ مرحلة نزول هذا الموضع كانت في أواخر العهد المكي، وكان التكذيب صريحًا حينها وأعلى نبرة فناسب تصريحهم التصريح بالإقبال الوارد في الموضع، وأتى الإقبال أعلى؛ لأنّ داعي تأليف القلوب الذي يلتقي مع منهج الدعوة هنا أقل والأنسب له الإنذار، وأن يرد الإقبال إكرامًا له لا لهم.

و يلاحظ أنّ أعلى الإقبال عليه - ﷺ - بكلا -الاعتبارين- في سورة الأنفال، وأدنى منه رتبة موضع سورة هود، ثم موضع سورة الفيل، ولا تعارض.

وتبعًا لتفاوت هذه الرتب علوًا ودنوًا تفاوت الأسلوب ملاءمة للرتب، ويتجلى ذلك في ستة معالم هي:

المعلم الأول: النفي وأثره في بيان رتب الإقبال:

ورد أعلى المواضع بنفي الكون في قوله – تعالى–: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣] لعلوّ داعي الإقبال –كما سبق– فلم ترد المنة بمنع الفعل، بل وردت بنفي الكون (ما كان) وهو آكد من النفي؛ لأنّ نفي انبغاء الفعل أقوى من نفي الفعل، وعند البصريين أنّ معنى ما كان "أي: ما كان مريدًا للفعل ، أو قاصدًا له، أو مقدرًا له" [1].

وهذا أبلغ من نفي الفعل نفسه، وأعلى الإقبال (ما كان مريدًا للفعل) وهذا ملائمٌ لعلوّ الـمخاطَب– ﷺ – فعلى اعتبار المُخاطَب وعلوّ منزلته يرد التقدير، فالمراد نفي أول مرحلة من الثلاث– إرادة الفعل أو مقصده أو تقديره – حيث نفي الإرادة أصلًا، وبذلك ينفي الفعل بأي وجه، وهذا ملائم لحاله – ﷺ –.

وعلق الزركشي على وجود (اللام) في نفي الكون (ليعذبهم) بأنّ اللام جعلت الفعل بمنزلة ما لا يكون أصلاً [2]، وهذا متناسب مع مضمون الجملة؛ فإذا كانت (اللام) جعلت منزلة الكلام بما لا يكون أصلًا فإنّ نفي الكون فيه نفي لإرادة الفعل أصلًا، وهذا تناسب في نظم الكلام، وأدل على علوّ منزلته – ﷺ– فوجوده – ﷺ – يدافع عذاب الاستئصال من وجوه عدة منها:

أ . أنّه – ﷺ – رحمة للناس، وهذا مضادٌّ لعذاب الاستئصال الذي فيه النقمة وشدة العذاب.

ب . أنّ رسالته – ﷺ – عامّة عمومًا مكانيًا وزمانيًا، وعذاب الاستئصال ينافي ذلك.

ج . أنّ أمته آخر الأمم، وهي شاهدة على الأمم، وهذا منافٍ لعذاب الاستئصال.

المعلم الثاني: التشبيه، وأثره في بيان تفاوت رتب الإقبال:

ورد قوله – تعالى–: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود: ١٠٢] مختصٌّ بالتشبيه من دون غيره من المواضع؛ لأنّ الحديث في السياق كان في أحوال الأمم الماضية، والتشبيه هو الذي ألحق حال أمته –ﷺ– بأحوال الأمم الماضية

---

(١) مذهب البصريين أنّ لام الجحود تتعلق بمحذوف هو خبر كان التي قبلها ويقدر :(ماكان مريداً للفعل، أو قاصداً له، أو مقدراً له) أما مذهب الكوفيين فلا حذف عندهم. ينظر :" الجنى الداني في حروف المعاني" الحسن بن قاسم المرادي، ت: فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤١٣هـ-١٩٩٢م: ١١٨. وذكر النحاة أن معنى: (ماكنت لأفعل كذا) أي: ماكنت مناسباً لفعله، ولايليق بي ذلك، ولاشك أنّ في هذا معنى التوكيد. ينظر :"شرح الرضي على الكافية" محمد بن الحسن الأستراباذي، ت:يوسف حسن عمر ، ط من دون، جامعة بني غازي، بني غازي: ٤/٦٢.

(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن: ٢/٨٧.

في شيء واحد، بينما كان الحديث في سورة الأنفال عن حال أمته معه، وسياقها مقاتلة له؛ ولذا لا يتأت التشبيه هنالك؛ لأنّ التشبيه مشاركة أمر لآخر في معنى[1]، ولم يكن في موضع سورة الأنفال استلزام لذلك؛ فهو صريح في حال الرسول-ﷺ- مع قومه بخلاف موضع سورة هود الذي ألحق حال أمته بحال الأمم السابقة لما فيهم من تكذيب يشابه تكذيب الأمم المتقدمة، فالسياق إذًا هو الذي استلزم التشبيه، ولذلك ورد التشبيه بحرف الجر (الكاف) و(ذلك) (كذلك) لإلحاق قصة بقصة، وهذا مطرد في القرآن الكريم[2]، فلا تأتي (كذلك) في أساليب القرآن لإلحاق أمر مفرد البتة.

والذي لطّف الخطاب ودلّ على الإقبال كلمة:(ربك) بإضافة الربوبية له خاصة؛ لأنه من خصائصه هو وروعي فيها ذاته -ﷺ-.

و قد اختص -ﷺ- بالخطاب بهذا؛ إلماحًا إلى امتناع أخذهم من أجله هو؛ لذا كان الإقبال إلهامًا لا إفصاحًا؛ لأنّ في التشبيه - كما سبق- معنى كون الشيء فيه معنى الشيء وليس هو. فكذلك المكذبون من أمة محمد فيهم من أحوال الأمم السابقة، لكنّه لم يحل بهم ما حلّ بالسابقين؛ إكرامًا للرسول -ﷺ- ولذلك أثبت لهم -بعد ذلك في السياق- نوعًا آخر من العذاب ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ [هود: ١٠٩] لأنّ تشبيههم بالأمم السابقة يقتضي تكرار العذاب لهم كما عُذّب السابقون، إلا أنّ الربوبية الخاصة بالنبي -ﷺ- منعت هذا التكرار، وهذا مناط الإقبال عليه، حيث خولف الأصل من أجله -ﷺ-.

لذلك أضيفت الربوبية إلى ضميره -ﷺ- (ربك)، وهذا ملائم لسياق السورة الدائر بين الإنذار والتبشير؛ فالإنذار كامن في: (كذلك)، والتبشير في: (ربك) وهذا الإلماح يقتضي أن تكون رتبة الإقبال أقل منها في موضع سورة الأنفال، الذي كان الإقبال فيه إفصاحًا، والإفصاح في الإكرام أعلى منًّا وأثرًا في النفس.

المعلم الثالث: الاستفهام، وأثره في بيان رتب الإقبال:

ورد الإقبال في موضع سورة الفيل بالاستفهام: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ ﴾[الفيل: ١] من دون الخبر تصريحًا أو تلميحًا؛ لأوليّة نزول هذه السورة؛ حيث يلاحظ أنّ أول الخطاب يكون تنبيهًا للأمر، ثم بعد ذلك يقرر الأمر ويحقق، فيكون خبرًا صريحًا فالاستفهام لاءم هنا أول الخطاب، والخبر هناك لاءم تقرر الأمر وتحقيقه في مراحل متأخرة في

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٢٠٩.

(٢) لوحظ ذلك من تتبع اطراد أساليب ورود (كذلك) في القرآن الكريم.

الخطاب عن هذه المرحلة؛ لذا تصدر الاستفهام بـ :﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ الإقبال على سيدنا محمد -ﷺ- في موضع سورة الفيل بإدخال الهمزة على النفي، وهذا يقتضي تقرير الرسول -ﷺ- بالمرئي تقريرًا مؤكدًا، حيث ورد الاستفهام داخلًا على النفي، وهذا مثل التوكيد في نفي النفي.[1]

وتعليقه بالرؤية يقوي التوكيد، سوى أنَّ الرؤية -هنا- أعلى منها في مواضع الرؤية المتقدمة[2]. ذلك أنَّ الاعتداد برؤيته هنالك كان في شيء ملحوظ وملموس، أما هنا فالتقرير بأمور غيبية لم يحضرها، حتى لو كانت في عام ولادته إلا أنَّه لم يدركها حقيقة، وكون الخطاب ورد خاصًا به فهذا دليل قوة اعتباره من وجه، قال البقاعي: " ألم تر " أي: تعلم علمًا هو في تحققه كالحاضر المحسوس بالبصر، وذلك لأنَّه -ﷺ- وإن لم يشهد تلك الوقعة فإنه شاهد آثارها .. وخصه-ﷺ- إعلامًا بأنَّ ذلك لا يعلمه و يعمل به إلا هو، ومن وفقه الله لحسن اتباعه" [3]ومن جانب آخر فيه إلماح أنَّ الكرامة كانت خاصة به وله -ﷺ- قال ابن عاشور: "فالتقرير مستعمل مجازًا في التكريم إشارة إلى أن ذلك كان إرهاصًا للنبي- ﷺ- "[4].

وورود الاستفهام – هنا- عن الكيفية لا عن وقوع الفعل= أدخلُ في علوّ الإقبال، حيث طلب منه -ﷺ- تأمل الكيفية؛ لأنَّ فيها طلاقة القدرة، ووجوه تعرّفه على الله -ﷻ- وكل ما يتعلق بـه -ﷺ- في علاقته مع المولى - ﷻ-.

قال صاحب مغني اللبيب في معنى (كيف): "وعندي أنها تأتي ... مفعولًا مطلقًا -أيضًا- وأنَّ منه (كيف فعل ربك) إذ المعنى: أيَّ فِعْلٍ فعلَ ربك"[5]. وهذا التقدير تأكيدٌ على قوة طلاقة القدرة يلتقي مع تعليقها بـ :(أصحاب الفيل)، ففي هذه التسمية لهم من دون غيرها تأكيد على قوتهم؛ حيث إنَّه سماهم بأعلى عدة للقتال حينها، وهذه القوة تتلاءم مع طلاقة القدرة في: (كيف).

---

(١) ينظر: مختصر السعد ضمن شروح التلخيص: ٢/٢٩٧.

(٢) أعني الرؤية في الاعتبار بآيات الكون المتقدم ذكرها في البحث ينظر البحث:٧٦

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٨/٥٢٨.

(٤) التحرير والتنوير: ٣٠/٤٧٨.

(٥) "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" أبو محمد عبد الله بن هشام، ت: محمد محي الدين، القاهرة، دار الطلائع: ١/٢٢٣.

المعلم الرابع: التقييد بالحال وأثره في بيان رتب الإقبال:

قيد نفي الكون في موضع سورة الأنفال بحال وجوده -ﷺ- ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾[الأنفال: ٣٣]، وقيد أخذ القرى في موضع سورة هود بظلمها﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ [هود:١٠٢].

والمعلوم أنّ النفي للكلام المقيّد يتوجه للقيد [1]، فنفي العذاب عنهم متوجه إلى وجود الرسول -ﷺ- فيهم، فالحال هي التي أريدت بالنفي، فاستحقاقهم للعذاب واقع، لكن حال وجوده معهم هو سبب رفع العذاب فالقصد ليس نفي الوقوع، بل نفي وقوعه والحالة تلك، وهذا مناط الإقبال عليه- ﷺ- حيث أكرم بهذه الخاصية، وعُدّ نعمة لأمته في استبقائهم لأجله-ﷺ- والملاحظ أنّ الإقبال فيها صريحٌ مُفصَحٌ به هنا.

أما القيد في سورة هود:﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ [هود : ١٠٢] فالإقبال إلماحٌ، حيث يُفهم منه أنّهم هم ظالمون ومستحقون للعذاب فدفع العذاب عنهم كرامة له - ﷺ- إقبالًا عليه وإنعامًا، وهذا الإفهام ملائم للسياق السابق الذي لم يرد فيه الكلام صريحًا عن النبي - ﷺ- وأحواله مع أمته -كما تقدم- والتصريح في سورة الأنفال ملائم لتقدم الكلام عن أحواله -ﷺ- مع أمته صريحًا.

المعلم الخامس: تنوع طرق التعريف، وأثرها في بيان رتب الإقبال:

أ . التعريف بالضمير:

ورد تعريفه -ﷺ- بالضمير:(أنت) في موضع سورة الأنفال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣] وفي هذا دليل زيادة عناية به -ﷺ- إذ إنّ الأصل في التعريف بضمير الخطاب أن يكون لمتعين[2] وهذا التعيين تشريف له، يؤكده السياق الذي ورد تأييدًا له- ﷺ - ودفاعًا عنه، زاد عليه إكرامه بمنع العذاب عمن يستحقه لأجل وجوده هو؛ لأنّ في ذكر الضمير:(أنت) دون التعريف به بـ:(الرسول) كما ورد في سورة الحجرات: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات: ٧] - دليلًا على أن منع العذاب إكرامٌ لذاته، وهذا ملائم للتصريح بالإقبال في موضع سورة الأنفال، ولعلوّ الإقبال فيه ، فمن أغراض التعريف بالضمير إضافة الخبر إليه في صورة واضحة مؤكدة، ومن ذلك ما ورد في جواب ابن الدمينة لصاحبته في عتابها له بقوله:

وأنتِ التي قطّعتِ قلبي حزازةً وقرّفتِ قرحَ القلب فهو كليمُ

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٢٧٩، ٢٨٠.

(٢) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٤٨.

وأنتِ التي كَلَّفتِني دَلَجَ السُّرى   وَجَوْنُ القَطَا بالجَلْهَتَيْنِ جُثُومُ[1]

فقد ذكر الشاعر ضمير صاحبته في كل بيت؛ لأنّه يحرص أن يبرز ذاتها ليضيف إليها هذه الأخبار المهمة في صورة واضحة مقررة [2].

وهذا المغزى في هذه الخصوصية لغرض تقرير الخبر والفعل في صورة بينة واضحة تجده أوقع ما يكون في هذا الموضع فوجوده - ﷺ - ذاته هو الذي قرر وأكّد نعمة إبقائهم.

ب . التعريف بالإضافة:

يظهر في إضافة الربوبية لضميره -ﷺ- في موضع سورة هود: ﴿ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾ [هود: ١٠٢]، ﴿ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ [الفيل: ١] وإضافة الربوبية لضميره - ﷺ - إعلاء لشأنه يلتقي مع ما يتضمنه معنى الإضافة من تشريف المضاف إليه بشرف المضاف[3]؛ ففيه إلماحٌ إلى أنّ الربوبية تحققت لهؤلاء من أجله هو-ﷺ- وإلا لورد النظم: (ربهم) بإضافة الربوبية لضميرهم لوكانوا يستحقونها بذاتهم.

وهذه الإضافة لضميره ملائمةٌ للإلهام في الإقبال في كلا الموضعين، فلم يصرِّح أنّه هو السبب لكن دلت العناية والرعاية في معنى الربوبية على ذلك؛ يؤيد ذلك شيوع اسم الجلالة (الله) عند تعلق العذاب بالأمم السابقة في سورة هود؛ لأنّ فيه دلالة على تربية المهابة؛ لذلك تأتي في مواضع الخوف من الهلاك، ولكن لمّا أريد بالكلام الإقبال على النبي -ﷺ- عدل عن الألوهية إلى الربوبية ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾ [هود: ١٠٢] على الرغم من أنّ أمته تستحق العذاب لكنه عدل إلى الربوبية، وهذا علو في الإقبال عليه - ﷺ-.

---

(١) ديوان الحماسة' أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، ت: عبدالله عبدالحليم عسيلان، ط من دون، المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض،١٤٠١هـ - ١٩٨١م: ٢/١٢٥.

(٢) ينظر : 'خصائص التراكيب دراسة تحليلة لمسائل علم المعاني' د. محمد محمد أبو موسى، ط٥، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م: ١٨٤، ١٨٥.

(٣) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : ٥٧.

المعلم السادس: دقة اللفظ وأثره في بيان رتب الإقبال:

ورد النظم الحكيم بالأخذ في موضع سورة هود: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾[هود: ١٠٢] لما فيه من معنى المجازاة والمتابعة [١]، وكذلك الشدة والقوة في الأخذ، ويكون في مكروه [٢]، كما أنّه ورد بالمصدرية التي فيها معنى تجرد الحدث تجردًا يقتضي المبالغة، فصرفُ هذه القدرة البالغة لأجله علوّ في الإقبال عليه، وتأكيد على إكرامه -ﷺ-.

وأثر: (فعل) في موضع سورة الفيل من دون أخذ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] لما في الفعل من معنى العموم، وأنّه لا يكون إلا بسبب[٣]. وسبب هذا الفعل تكريم النبي- ﷺ - إقبالًا وإعلاءً لشأنه حتى قبل مولده -ﷺ-.

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: الألف: ٢٢.

(٢) ينظر: الفروق اللغوية: الفرق بين الأخذ والاتخاذ: ١٥٧.

(٣) السابق: الفرق بين الفعل والإنشاء: ١٥٢.

ج- اختصاصه – ﷺ – بالإضافة إلى ضمير الحضور في صفة العبودية

وكما اختص النبي- ﷺ - بالخطاب في أمور عامة، واعتبارات مشاهدة للعامة؛ اعتدادًا بعلوّ فهمه على سائر الخلق، اختص كذلك -ﷺ- بأعلى الإنعام وأجلّ النعم؛ اعتدادًا بعبوديته لله-ﷻ- لأنّها أعلى من عبودية سائر الخلق، فالله هيأه لذلك، قال الحرالّيّ: "ورب محمد ربّه، وربّاه للحمد"[1].

فجاءت عبوديته -ﷺ- في سياق المنّ بأعلى وأجلّ النّعم، حيث جاءت في سياق إنزال القرآن والنُّبوة، ثم التّقرب في مرحلة الإسراء والمعراج من الله – ﷻ – والمعراج أعلاها؛ ذلك لأنّ العبودية هي "غاية الخضوع ولا تُستَحَقُّ إلا بغاية الإنعام،.. ولا تكون العبادة إلا مع المعرفة بالمعبود" [2]. ومَنْ أشد خضوعًا لربه، وأكثر معرفة به، وأكثر استحقاقًا لغاية النّعم منه – ﷺ-؟

وقد ورد الإقبال عليه بنعمٍ متلائمة مع عبوديته في خمسة مواضع:

١- ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء: ١].

٢- ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ ﴾ [الكهف: ١].

٣-﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾[الفرقان: ١].

٤- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الحديد: ٩].

٥- ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [النجم: ١٠].

والملاحظ أن جميع هذه المواضع اشتركت في وجه إقبال واحد: هو اختصاصه بالإنعام بنعم عاليةِ درجة، ونوعًا، وقد تفاوتت أنواعها ودرجاتها بما يتلاءم مع درجة عبوديته – ﷺ – من وجهين:

---

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤١.

(٢) الفروق اللغوية:الفرق بين العبادة والطاعة: ٢٤٨.

١) ما يتلاءم مع علوّ حال عبوديته -ﷺ- على سائر الخلق، فاختص بهذه النعم من وجه، ومن وجه آخر تفرّد بإضافة عبوديته لضمير المفرد (عبده) من دون سواه [1].

٢) ما يتلاءم مع تفاوت أحواله -ﷺ- وعلوّ بعضها على بعض، كما نصّ العلماء على ترقيه -ﷺ- في الكمالات [2]؛ فحال عبوديته في أول بعثه، وحين إنزال الكتاب عليه أقلُّ منه حين أسري به، وحال عبوديته حين أسري به أقلُّ منه حين عرج به -ﷺ- إلى السماء [3]، على اعتبار النّعمة المثيرة لدرجة العبودية؛ لأنّ العبودية تذلل وخضوع، وغاية الخضوع حين يكون في السموات العلى؛ لذا كان أعلى المواضع موضع سورة النجم: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠] فدرجة القرب أعلى، ونوع النعمة أعظم: "فللربوبية بيان في كل رتبة بحسب ما أظهرته آية مربوبه" [4].

وعلى تفاوت هذه النعم إلا أنّ لها سمتًا أسلوبيًا مطردًا في جميع المواضع، يتجلى فيما يلي:

١) الاشتراك في مادة العبودية وبنيتها:

اشتركت المواضع في كلمة: (عبده) وفيها علوٌّ في الإقبال من حيث بنيتها ومادتها.

أما المادة:

فالعبودية كما تقدم هي: "غاية الخضوع ولا تستحق إلا بغاية الإنعام" [5]... ولا تكون إلا مع معرفة المعبود، فاستلزم وصف العبودية غاية الإنعام، وهذا علوٌّ في الإقبال عليه -ﷺ-؛ إذ ارتبط جلال النعم برتب العبودية، فلما ربّى الله النبي-ﷺ- على أعلى مراتب العبودية اختصه بأعلى نعم الربوبية من نبوة وقرآن، وتنوعت النعم تبعًا لتفاوت درجات ومراتب العبودية التي استلزمتها -كما تقدم ذكره-.

---

(١) سيتضح فيما بعد سبب العلوّ في ذلك.

(٢) ينظر: تفسير العلماء لقوله تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحى: ٤] ومنها قول الفخر الرازي: "وللأحوال الآتية خير لك من الماضية، كأنه -تعالى- وعده بأنه سيزيده كل يوم عزًا إلى عز، ومنصبًا إلى منصب، فيقول: لاتظن أني قليتك بل تكون كل يوم يأتي فإني أزيدك منصبًا وجلالاً". التفسير الكبير: ١١/١٩٣.

(٣) فقد تقرر عند القوم ترقيه -ﷺ- في الكمالات زمانًا وحالاً.

(٤) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤١.

(٥) الفروق اللغوية:الفرق بين العبادة والطاعة: ٢٤٨.

أما البنية:

١) فوردت بالوصف، في حين وردت مع غيره وسيلة للدعوة للعبودية ببناء فعل الأمر: (اعبدوا) فهي مع بقية الخلق أمر بالعبادة، أما معه – ﷺ – فهي متحققة فيه وصفًا ثابتًا قبل النعمة، وممهدةً لها؛ ولذا وردت وصفًا؛ لأنّ الفعل يستلزم الحدوث، لكن الوصف دليلٌ على اتصافه بها قبلاً.

٢) وردت بالخبرية من دون الإنشاء بالأمر؛ لأنّ الإخبار يتلاقى مع دلالة الوصف في ثبوت الأمر وتحققه، وليس هذا في الإنشاء الدّال على الأمر بالحدوث.

٣) إضافة (عبده) إلى ضمير الغيبة خاصة:(عبده) ولم ترد بهذه الإضـــافة إلا في شأنه–ﷺ– في حين وردت منكّرة مع غيره (عبداً) أو مضافةً إلى نون العظمة (عبدنا) (عبادنا).

وفي إضافته إلى ضمير الغيبة إيحاءٌ بأنّه إذا ذكر غيبًا لا ينصرف الذهن إلا إليه، وهذا أقرب إلى ما ذكره البلاغيون من فائدة التعيين في حذف المسند إليه: بأن يكون متعيناً بحيث إذا حذف لايصلح الخبر إلا له حقيقةً، أو إدعاءً، بمعنى أن الصفات لا تتحقق إلا فيه[1]، لأنّ ضمير الغيبة لا بد أن يرجع إلى معلوم، فكونه يطلق دون أن يتقدم له ذكر؛ فلأنّه متعين وهذا له نظير من الحذف.

والمعنى أنّ العبودية إذا جاء فيها ضمير الغيبة على وجه الكمال، وعلى الوجه الأمثل لا تنصرف إلا إلى النبي –ﷺ– وهذا التعيين حقيقي بدلالة القرائن المعنوية من النِّعم الخاصة به – ﷺ – الواردة في السياق من إنزال الكتاب، أو الإسراء أو المعراج.

كما أنّ دلالة قرائن النظم من أساليب تؤكد على علوّ الإقبال علوًا لا يتلاءم إلا مع حـــاله –ﷺ– .

٤) تقدُّم هذا الوصف وروده في أول السور فيه دلالة على أنّه الأصل –ﷺ– في العبودية الممتدة في السور، وعده أصلًا لها علوٌ في الإقبال عليه – ﷺ –.

وسأختار موضع سورة النجم ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [النجم: ١٠] لأفصّل القول فيه لكونه أعلى مواضع هذا الإقبال من وجوه:

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٤٥.

أولها: المقام، فمقام المعراج أقربُ وأجلُّ نعمة؛ لذا استلزم عبودية أعلى ونعمًا أجلَّ؛ حيث إنّه عُرج به إلى السموات العلى، وخاطبه الله مباشرة، ولا يخفى أنّ هذا أعلى المقامات؛ إذ إنّ مغرسه شدة القرب من الله - ﷻ -.

ثانيها: تكاثف دلالات الأسلوب على علوّ مرتبة الإقبال على النبي-ﷺ- في هذا الموضع: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾[النجم: ١٠]ويتجلى ذلك في معلمين هما:

المعلم الأول: العطف ودلالاته على علوّ مرتب الإقبال:

ورد النظم بالتدريج في مراحل القرب بالعطف، قال -تعالى-: ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [النجم: ٧-٩] وتنوع العطف بين الفاء وثم -ولكلّ دلالة= يتناسب مع علوّ الإقبال: فدلالة السرعة في الفاء تدل على إسراع القرب منه -ﷺ- وهذا دليل على حظوته ومكانته عند ربه، كما أنّ في عطف: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[النجم: ١٠]دلالة أخرى على علوّ الإقبال؛ حيث إنّها متفرعة عن القرب المتقدم ومترتبة عليه.

أما (ثم) في قوله - تعالى-: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [النجم: ٨] فيمكن حملها على التراخي الرتبي، وهذا فيه علوٌّ لشأنه - ﷺ - حيث تلتقي مع ترقيه - ﷺ - في القرب من منزلة إلى منزلة أعلى، هذا من وجه، ومن وجه آخر يمكن حملها على الترتيب الزمني الذي يلتقي مع دلالة العناية بالأمر، وعدم التعجل فيه، فامتداد الزمن فيه دلالة عناية بأمر القرب منه - ﷺ - ...والله أعلم.

المعلم الثاني: دقة الألفاظ بنيةً ومعنى، وأثر ذلك في رتب الإقبال:

ورد الإقبال بـ: (أوحى) ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾[النجم: ١٠]، من دون: (علّم) أو (أنزل) لما في هذه المادة من إيحاءات تدل على الخفاء والإسرار[1]، وهو خفاء يلتقي مع علوّ الإقبال عليه بشدة قربه من الله - ﷻ- حيث أوحى الله له مباشرة، وسرًّا بينهما [2].

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن: كتاب الواو :٥٣٢.

(٢) يؤكد ذلك ما ورد في السنة من سؤال موسى له في حديث الإسراء والمعراج: ما فرض الله لك على أمتك؟ ينظر: 'صحيح البخاري' حديث الإسراء والمعراج: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم الحديث ٣٤٩: ١/٧٩ . وهذا دليل على أنّه لم يسمع، ولم يعلم، ماذا فرض الله لسيدنا محمد -ﷺ-

ومجيء الاسم الموصول: (ما) في: (ما أوحى) علوٌّ في الإقبال؛ فدلالة الإبهام في :(ما) إطلاق للذهن في إدراك عظمة ما أُوحي إليه، وتعظيم للموحَى به إليه - ﷺ- وعظمته عظمة له-ﷺ-.

ثم وردت كلمة: (الفؤاد) وعلقت الرؤية به﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾[النجم: ١١] وهذا علوٌّ في الإقبال؛ فلعظمتها تدرك بالقلب وترى وتدرك إدراك البصر، ولكونها غيبًا اطلع عليها-ﷺ- علّقت بالفؤاد، كما أنّ الموقف عظيم شديد عليه -ﷺ- فاستلزم خضوعًا ورقة لا تكون إلا في الفؤاد.

وقد رآها رأي العين لذلك أكد بـ: (لقد) ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [النجم: ١٨] مضيفًا الآيات للربوبية (ربه)، والربوبية مرتبطة برؤيته لها- ﷺ - فلم يقصد هنا التنويه بالآية، بل بنعمة إراءة الرسول إياها فكلمة: (رأى) هنا هي جانب الإنعام، فاختصاصه - ﷺ- برؤية ما لا يراه الناس عين الإنعام، وهذه الخصوصية في الإراءة مترتبة على خصوصية عبوديته، فالربوبية المقتضية للإنعام آيات: ﴿ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ﴾ [النجم: ١٨] مرتبطة بالعبودية في ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾[النجم: ١٠]؛ لذا وصفت الآيات بالكبرى، وهو وصف يتعاضد مع الإبهام في: (ما) في قوله -تعالى-: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [النجم: ١٠] و ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾[النجم: ١١]، وهذا التكاثف في الأساليب دليل على علوّ الإقبال عليه - ﷺ- في هذا الموضع على المواضع الأخر. والله أعلم.

د- اختصاصه -ﷺ- بالشهادة على الشهداء

مما هو معلوم أن مرتبة الشهادة في الآخرة لا تكون إلا لنبي أو صالح من أتباع الأنبياء، وهذه مرتبة فيها تكريم ولا ريب، ثم يرتقي التكريم إلى مرتبة أعلى حين يكون المقبل عليه شهيدًا على الشهداء، وهذا مما اختص به النبي -ﷺ- فلم تأتِ لغيره، وقد وردت في موضعين هما:

قوله -تعالى-: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١].

وقوله -تعالى-: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل: ٨٩].

وكلا الموضعين اشتركا في وجه إقبال واحد هو تشريفه -ﷺ- في مواجهة تكذيبه، وهذا التشريف تتفاوت درجته -ﷺ- عن تشريف غيره من الشهداء؛ حيث أتت شهادتهم مرتبة أولى، ولعلوّ شأنه ارتقت شهادته إلى مرتبة ثانية، فكان شهيدًا على الشهداء، ويفهم من هذا خصوصيته بعدم احتياجه إلى من يشهد له[1]، والإقبال بتعداد المراتب وتفاوتها فيه علوٌّ في الإقبال بخلاف ذكر المرتبة ابتداء.

وكما اتفق الموضعان في درجة إقبال واحدة اتفقا في معرض واحد للإقبال، فالإقبال عليه ورد ردًّا على إنكار المكذبين نعمة الله عليهم بالنبي -ﷺ- ومقاطعتهم له، فكأنّهم أنكروا من هذا قدره، وهذا سفه منهم وجهل دعاهم إلى مخالفته، قال -تعالى-: ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ ﴾[النساء: ٣٧] وفي سورة النحل صرح بقوله: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[النحل: ٨٣]؛ لذا ورد الإقبال عليه ببيان منزلته.

والإقبال في موضع سورة النساء أعلى رتبة من الإقبال في موضع سورة النحل باعتبار اختلاف الاهتمام، فقد كان مناط الاهتمام النبي -ﷺ- فالفوز بالعلاقة المثلى معه -ﷺ- ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا

(١) ينظر: "دلالة القرآن المبين على أنّ النبي أفضل العالمين" أبو الفضل عبدالله بن الصديق الغماري، ط من دون، جمعية آل البيت للتراث والعلوم الشرعية، فلسطين: ٢٨.

يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥]؛ ولذلك جعل له طاعةً مستقلةً في سورة النساء: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النساء: ٥٩]، وجعل الخسران بعصيانه: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء: ٤٢] بخلاف سورة النحل فمناط الاهتمام فيها دعوة المشركين عن طريق إبراز نعم الربوبية، ومن بينها الإنعام به عليهم، فكأنه جزء من النعم الكثيرة المبثوثة في السورة، هذا من وجه، ومن وجه آخر كان لامتداد خصائصه وصفاته -ﷺ- المبثوثة في السورة مدخل في علوّ الإقبال عليه-هنا- بخلاف سورة النحل ؛ لعدم امتداد صفاته -ﷺ- فيها.

ولذا عاضد هذا العلوّ المعنوي علوٌّ في اللفظ الدّال على رتبة الإقبال، ويتجلى ذلك في ثمانية معالم منها:

المعلم الأول: الخبر والإنشاء، وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

بُنِيَ الإقبال في موضع سورة النساء على أسلوب رئيس هو الاستفهام بـ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا ﴾ [النساء: ٤١] وهو أسلوب إنشائي، في حين بُنِيَ الإقبال في موضع سورة النحل على الخبر، وفي بناء كل منهما على الإنشاء تارة، وعلى الخبر تارة أخرى ملاءمة لعلوّ الإقبال؛ فلما علا الإقبال في موضع سورة النساء علوّاً استلزم الحال غير المتناهية ورد بالاستفهام بـ:(كيف) التي يستفهم بها عن التصور[1]، وفيها دلالة توحي بعظمة الحال التي استفهم عنها، سواء حال إهانة المخاطبين، أو حال تكريمه - ﷺ - في هذا الوقت، فـ:(كيف) أساس علوّ الإقبال بعد السياق الذي اقتضاها؛ لما في هذا الحرف من تصوير وتخييل تتعدد اتجاهاته، فيذهب الذهن إلى أبعد ما يمكن أن يتخيل في كلا الحالين على وجه التضاد بين التكريم للنبي- ﷺ - على تلك الحال العالية وحال الإهانة والخزي للمكذبين ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ١٣٦.

بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء: ٤٢]، وهذه الحال الغريبة العجيبة هي التي ذرفت من أجلها عينا رسول الله - ﷺ - [١].

وتفريع الفاء في: (فكيف) مما قبلها ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠] فهذه الشهادة من الأجر العظيم، خاصة أنّه وصف الأجر بالعظيم وعلّقه بـ(من لدنه) من دون من عنده؛ لأنّ فيها خصوصية تلائم الكرامة الممنوحة للرسول -ﷺ- فهي أدلّ على القرب والحظوة؛ وذلك لدلالة: (لدن) على شدة القرب، فهي لا تكون إلا لما هو حاضر عندك[٢].

وهذا العلوّ نتاج النظر إلى الأداة، فإذا وجهت النظر إلى المسؤول فللعلوّ داعٍ آخر، فالمسؤول هو الرسول -ﷺ- وتصور الرسول -ﷺ- أعلى تصور؛ لذا فإن سؤاله هو خاصة عن هذه الحالة دلالة على علوّ شأنه -ﷺ- علوًّا يستلزم علوّ الإقبال عليه؛ فكلّ مخاطَب يخاطب بحسب لقيه كما ذكر الحرالّي"[٣].

وقد استفهم عن هذه الحالة في موضع سورة النساء، ثم أمره بأنْ يذكرها في سورة النحل ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل: ٨٩]، فالتقدير: (اذكر) فورود موضع سورة النحل بالأمر: "اذكر" بعد تقريره بها في سورة النساء تلاؤمٌ مع الترتيب المصحفي؛ حيث صوّرها له - أولًا- فلما صارت مؤكدةً ذكره بها.

---

(١) يستأنس في ذلك بما ورد من الحديث في هذه الآية: حَدَّثَنَا صَدَقَةُ أَخْبَرَنَا يَحْيَى عَنْ سُفْيَانَ عَنْ سُلَيْمَانَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَبِيدَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ يَحْيَى بَعْضُ الْحَدِيثِ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقْرَأْ عَلَيَّ، قُلْتُ: اقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ قَالَ أَمْسِكْ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ" صحيح البخاري: كتاب: تفسير القرآن، باب: "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا" رقم الحديث ٤٥٨٢: ٦/٤٥ .

وقد علق على ذلك ابن عاشور بقوله: " بكاء الرسول - ﷺ - دلالة على شعور مجتمع فيه دلائل عظمة المسرة بتشريف الله إياه في ذلك المشهد العظيم، وتصديق المؤمنين إياه في التبليغ،... والأسف على ما لحق بقية أمته من العذاب على تكذيبه... والبكاء ترجمان رحمة ومسرة وأسف وبهجة". التحرير والتنوير : ٤/١٣٦.

(٢) ينظر : الفروق اللغوية: الفرق بين عندي ولدني: ٣٣٤.

(٣) ينظر : مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

المعلم الثاني: العدول عن مقتضى الظاهر، وأثره في بيان رتب الإقبال:

عدل في قوله – تعالى –: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء: ٤٢] حيث وردت الآية الأولى بالضمير: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾، ووردت الثانية ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ بالاسم الظاهر: (الرسول) ومقتضى الظاهر أن يكون بالضمير لتقدم ذكر له، ولكن حين علا التكريم باختصاصه –ﷺ– بالشهادة، ورد بالخطاب بـ: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ وهذه المباشرة بالخطاب علوّ إقبال؛ لدلالته على أنّ الكرامة لذاته –ﷺ– وحين كانت الثانية لبيان عذابهم بسبب عصيانهم عُدِل عن الخطاب بالضمير إلى تعريفه بالرسالة: ﴿ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾ ومقتضى الظاهر: (عصوك) فالعذاب الموجود في أحوال الكفار عذابٌ متعلق بمخالفة الرسالة، وليس بمخالفة ذاته – ﷺ – في حين كانت الكرامة بالشهادة لذاته –ﷺ– فانظر كيف أسند إلى ضميره صراحةً معاني التكريم والتشريف، فلما التفت إلى العصيان نأى به أن يسند إليه صراحة زيادة في التكريم؛ إذ إنّ السياق كلّه في لزوم طاعته –ﷺ–.

وورود الرسول معرَّفًا بـ: (ال) الدّالة على كمال الوصف فيه إكرام له –ﷺ– وتعريض بهم أن عصوه وهذا شأنه، وقد تكون للجنس، وفي ذلك –أيضًا– تشريف لانتظامه –ﷺ– انتظامًا أوليًا في الرسل، فتكذيبه تكذيبٌ لهم جميعًا.

المعلم الثالث: التقديم والتأخير وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

قدّم النظم الحكيم المتعلّق في موضع سورة النساء: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] في حين أخرّه في موضع سورة النحل: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النحل: ٨٩] ويلتقي هذا التقديم والتأخير مع علوّ الإقبال في كلا الموضعين ورتبته، فالسياق القبلي والبعدي في سورة النساء فيه حديث عن هؤلاء المشركين: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [النساء: ٣٧] و ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ [النساء: ٣٨].

وفي البعدي ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤٢]، وهذا تعريض بهم يقابله بالتضاد تكريمه، وجعل عذابهم مُسبَّبًا عن انقطاع علاقتهم بالرسول -ﷺ-، وهذا يتلاقى مع سياق الكلّي لسورة النساء المبني على العلاقات الاجتماعية وأثرها بين الاتصال والانقطاع وأعلاها مرتبة وأثرًا العلاقة مع الرسول -ﷺ- كما أنّ تصورها لهم في هذا الوقت: ﴿ إِذَا جِئْنَا ﴾ هو مناط الكلام، ولذلك قدمهم وهذا أساس تضادٍّ بين حالتين هما:

١) المثال الأعلى في العلاقة مع النبي -ﷺ- الذي اقتضى فوز أهله.
٢) الانقطاع في العلاقة عنه -ﷺ- وعصيانه الذي اقتضى عذابهم وهوانهم، ومن هنا يأتي الإقبال عليه - ﷺ- حيث إنّ التباين بين العلاقتين ظهرت آثاره في هذا الوقت خاصة على نحو أعلى، فخزيهم أعلى في ذلك الوقت.

أما موضع سورة النحل فلم يأت بعده موقفهم بعد ذلك، ولم يرد الاستفهام عن حالهم في ذلك الوقت، ومن ثمّ قدم شهيدًا هنا من وجه، ومن وجه آخر تَقدُّمُ الشهادة ملائم لما ورد من أحكام ومخالفتهم لها- فهو شاهد- ﷺ - على هذه الأحكام- ويلائم ذلك عطف نعمة إنزال الكتاب عليه وجعله هدى ورحمة وبشرى.

المعلم الرابع: الإطلاق والتقييد، وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

قيّد في موضع سورة النحل الجزء الأول من الشهادة بما يدُلّ على قرب الشهداء من أممهم بـ:(أنفسهم) ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [النحل: ٨٩] ولم يقيد في الجزء الثاني الذي اختص به النبي -ﷺ- مع أنّه أعلى فورد النظم بـ :﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النحل: ٨٩] بلا تقييد بـ:(أنفسهم) وهذا علوّ إقبال عليه -ﷺ- فالتقييد مع غيره من الأنبياء دليل على ضيق نطاق شهادتهم، والإطلاق معه -ﷺ- دليل على سعة نطاق شهادته، فكما أنّ كل نبي يبعث لقومه خاصة، والنبي محمد -ﷺ- بعث للناس كافة، فهو كذلك شهيدٌ على الناس كافّة في ذلك اليوم، وهذا دليل على علوّ منزلته -ﷺ- كما أنّه عني في الجزء الأول ببيان حال الأمم عند شهادة الشهداء عليهم بينما عني في الثاني ببيان حاله -ﷺ- ومن ثم فلا وجه للتقييد في الثاني.

المعلم الخامس: التنكير وأثره في بيان رتب الإقبال:

وردت: (شهيدًا) منكرة في شأن الشهداء، وفي شأن شهيد الشهداء محمد -ﷺ- في كلا الموضعين في سورتي النساء والنحل، ولكل تنكير دلالة تلتقي مع علوّ الإقبال على النبي-ﷺ- فتنكير: ﴿ بِشَهِيدٍ ﴾: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾[النساء: ٤١] ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾[النحل: ٨٩] للإفراد[1] على اعتبار أنهم الأنبياء، فكل أمة لها نبيها فقط، ويمكن أن يتأتى فيه معنى التعدد فيشمل كلًّا من الرجل الصالح إلى النبي على اختلاف درجات الصلاح، ويأتي النبي بعد ذلك شهيداً على قومه.

أما دلالة التنكير: ﴿ شَهِيدًا ﴾: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[النساء: ٤١] ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ [النحل: ٨٩] فللتعظيم[2] ويأتي هذا التعظيم من العموم، ولذلك أطلق فقال: ﴿ شَهِيدًا ﴾ في موضع الفاصلة بهذه المدة في الألف التي تلتقي مع دلالة العظمة. وتلتقي -أيضًا- مع الإطلاق الذي سبق ذكره فلم يُقيَّد بـ:﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ وهذا كلّه من التناسب في النّظم للدّلالة على علو رتب الإقبال عليه -ﷺ-.

وكذلك تنكير صفات الكتاب المنزل عليه: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ ﴾ [النحل: ٨٩] تلتقي مع علوّ النعمة عليه -ﷺ- .

المعلم السادس: ضمير نون العظمة وأثره في بيان رتب الإقبال:

اطّرد الإسناد إلى نون العظمة في كلا الموضعين: (وجئنا)، (نبعث)، (نزّلنا) ونون العظمة تلتقي مع علوّ الإقبال، فكلما كان الفاعل عظيمًا كانت النعمة أعظم، وعظمة النعمة إنّما هي من علوّ شأن المُنعَم عليه، قال صاحب تعبير الحق عن ذاته: "ضمير الفخامة يكون في مقام الامتنان بجلائل النعم، والتذكير بعظم الفضل لأنّه لا يملك الجليل إلا الجليل"[3]. ولا شك أنّ جلائل النعم لا تكون إلا لمن علا شأنه، ومن أعلى شأناً من الرسول -ﷺ-؟

---

(١) ينظر: "مفتاح العلوم" يوسف بن محمد السكاكي، ت: عبد الحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م: ١٩١.

(٢) السابق: ١٩٢.

(٣) ينظر: تعبير الحق عن ذاته: ٣٣.

المعلم السابع: الظرفية وأثرها في بيان رتب الإقبال:

وردت الظرفية في كلا الموضعين؛ بـ (إذا) في سورة النساء: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا ﴾ [النساء: ٤١] وبـ: (يوم) في سورة النحل: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ [النحل: ٨٩]، وللظرفية التقاء بالإقبال؛ حيث إنّ فيها تقديرًا للفعل: (اذكر) وهذا دلالة على تحقيق الأمر، وهذه الدلالة تلتقي مع دلالة اختصاصه -ﷺ- بالخطاب في مواضع: (ألم تر) على شهوده الأمر، ورؤيته له رأي العين، واختصاصه بذلك إكرام له وإجلال -ﷺ-.

وطلب (إذا) للجواب يلتقي مع علوّ موضع سورة النساء؛ فالمخالفة فيها صريحة، فكان الجواب ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾[النساء: ٤٢] أما في سورة النحل فكانت على سبيل الإخبار المحض دون نظر إلى الجواب، فلما علت المخالفة علا الإقبال عليه -ﷺ- وصرح بعقاب من عصاه؛ تكريمًا له.

المعلم الثامن: دقة الألفاظ معنى ومبنى وأثر ذلك في بيان رتب الإقبال:

يتجلى ذلك في وروده: (شهيدًا) لوصف حاله -ﷺ- ففي الشهادة معنى الحضور والعلم[1] وفي عده - ﷺ - حاضرًا وعالمًا بما كان تكريم له، وهذا يلتقي مع دلالة الظرفية الدّالة على تحقق الأمر، ومع اختصاصه بـ: (ألم تر) في أمور غيبية، وهذا كلّه من علوّ الإقبال عليه.

كما أنّ في بناء هذه اللفظة على 'فعيل': (شهيد) من دون 'فاعل': (شاهد) دلالة مبالغة في الشهادة يوجبها السياق، فوجه هذه المبالغة أنّه لم يكن فقط حاضرًا وعالمًا لها علمًا عامًّا، بل هو عالم بجزيئات الأمور ودقائق الحقائق فـ: (شهيد) بهذا الوزن إقبال من هذا الوجه فمعرفته عميقة وليس عامة، يلتقي مع هذه الدلالة تنكيرها الدال على العظمة .

كما يظهر علوّ الإقبال في دقة الألفاظ في ورود الفعل: (جئنا) معه -ﷺ- والفعل: (نبعث) مع غيره من الشهداء في موضع سورة النحل؛ فالبعث فيه دلالة تحريك وحث ومتابعة[2]، في حين تدل (جئنا) على سرعة المجيء، فكأنّه -ﷺ- يجيء للشهادة من غير حث، ومجيئه -ﷺ- منفصل عن مجيئهم، ومن ثمّ لم يدخل معهم في أصل الجملة، بل كان منفصلًا، وهذا دليل على أنّه في مرتبة أعلى من المرتبة السابقة.

(١) ينظر : الفروق اللغوية: الفرق بين الخبر والشهادة: ٥٤، الفرق بين العلم والشهادة: ١١٠.

(٢) ينظر :السابق: الفرق بين البعث والنشور: ٣٠٠.

أما ورود فعل المجيء مع الطرفين في سورة النساء، فهذا متناسب مع عظيم الحالة وهول الموقف الذي صوره السياق، والاستفهام في موضع سورة النساء؛ لذا استعمل المجيء من دون الإتيان لتعظيم الحالة التي استدعته، وإلا فإسناده للعظمة: (جئنا) لا عسر فيه، وإنّما التعبير بالمجيء هنا لشدة الموقف وهيبته كما ورد في قوله -تعالى-: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾[الفجر: ٢٢]،﴿ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ﴾[الفجر: ٢٣].

ويعاضد المعنى المبنى؛ فورود :(نبعث) بالمضارعة الدّالة على الاستقبال في شأن غيره-ﷺ- وورود:(جئنا) بالمضيّ الدّال على انقضاء الحدث في شأن النبي -ﷺ- فيه علوٌ في الإقبال وإكرام له؛ فقد جيء به أزلاً شهيدًا على الشهداء، في حين يعطون الشهادة في ذلك اليوم، وهذا التقدم في إكرامه بالشهادة دليل على حظوته، وعلوّ منزلته -ﷺ-.

وعلوّ هذه الأساليب إفهامٌ معه -ﷺ- على قدر رتبته؛ فعلى قدر رتبة المخاطَب يعلو البيان، وأعلى الناس إفهامًا النبي - ﷺ- وهذا أساس من أسس الإقبال كما ذكر الحرالّيّ [1].

---

(١) ينظر: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

هـ - اختصاصه -ﷺ- بقرن طاعته بطاعة الله

اختص النبي -ﷺ- بقرن طاعته بطاعة الله -ﷻ- إجلالًا عليه وتكريمًا، وهذا كثيرٌ شائعٌ في القرآن الكريم ورودًا ودلالة، ومن أعلاها ما ورد في سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥ ﴾[النساء: ٦٥]، وسورة النور: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤ ﴾ [النور: ٥٤].

وقد اتفق الموضعان في مغرس واحد للإقبال هو إثبات طاعة له - ﷺ - على وجه الاستقلال عن طريق تكرار فعل الطاعة في الموضعين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ [النساء: ٥٩] ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥ ﴾[النساء: ٦٥] ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤ ﴾[النور: ٥٤] دلالة على اختصاصه - ﷺ - بأمر مستقل له فيه طاعة ملزمة نظرًا لعلوّ قدره ورفعة مكانته، وقد ذكر العلماء ذلك، ونص عليه صراحة الطاهر ابن عاشور في قوله: "وإنما أعيد فعل ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ ... إظهارًا للاهتمام بتحصيل طاعة الرسول لتكون أعلى مرتبة من طاعة أولي الأمر، ولينبه على وجوب طاعته فيما يأمر به،... لئلا يتوهم السامع أنّ طاعة الرسول المأمور بها ترجع إلى طاعة الله فيما يبلغه عن الله دون ما يأمر به في غير التشريع، فإن امتثال أمره كله خير"[1].

(١) التحرير والتنوير: ٤/١٦٥.

فلما كان المقام في هذين الموضعين مقام تبيان طاعة الرسول -ﷺ- واختصاصه بطاعة مستقلة في مواجهة تمرد على أحكامه من المنافقين واليهود =كرر فعل الطاعة، وهذا علوٌ في الإقبال عليه -ﷺ-.

والملاحظ أنّ سياق الموضعين العام مشترك -أيضًا- فكلاهما في المخالفة الصريحة للرسول -ﷺ- حيث جمع الموضعين استنكاف المنافقين من اتّباع حكمه -ﷺ-.

والموضعان وإن اتفقا في معرض واحد، وسياق عام واحد، إلا أنّ رتبة الإقبال عليه -ﷺ- بوجوب طاعته تفاوتت بين الموضعين تبعًا للطابع الخاص لكل سورة؛ فعلت رتبة الإقبال في موضع سورة النساء لما امتازت به السورة من علوّ الإقبال عليه فهو الغرض الرئيس من النظم، فالسورة دارت على العلاقة المثلى معه - ﷺ- لاختصاصه بصفات تلزم ذلك، وأعلى الصفات الملزمة لطاعته اختصاصه بأن يكون شهيداً على الشهداء في الموقف، فمن كانت هذه منزلته فحقه الاتباع.

أما موضع سورة النور فلم يتمحض غرضها الرئيس للإقبال عليه، أو ذكر خصائصه -ﷺ- بل امتزج الإقبال عليه - ﷺ - بتعنيف المنافقين وتبكيتهم على موقفهم منه -ﷺ-.

واستلزم هذا الاختلاف في الغرض الخاص لكل من السورتين اختلافًا في الأسلوب والتركيب بما يبين عن رتبة الإقبال فيهما، كما استلزم الاشتراك في الغرض العام تشابههما في أساليب أخر .

ويتجلى الاشتراك في معلمين هما:

المعلم الأول: التعليق وأثره في بيان رتب الإقبال:

اشترك الموضعان في تعليق الإيمان والهداية بطاعة الرسول -ﷺ- واختص موضع سورة النساء بتعليق الإيمان بطاعته: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ... ﴾.

أما موضع سورة النور فقد علّق الاهتداء بطاعته من دون الإيمان؛ وذلك لعلوّ الإقبال في موضع سورة النساء نظرًا لتمحض سياقها في الإقبال عليه -ﷺ- وذكر صفات عليا اختص بها تستلزم وجوب طاعته، وجعلت هذه الطاعة سببًا في الإيمان فهو الشهيد على الشهداء في الموقف-ﷺ- ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ فلاءم الموضع الأعلى تعليق الوصف الأعلى به، والموضع الأدنى منه الوصف الأدنى؛ فالهداية أدنى مرتبة من الإيمان والهداية

ملائمة لسياق سورة النور ؛ لأنّ فيها تبيينًا وإرشادًا لقضايا مبهمة اختص النبي -ﷺ- بعلمها وبيانها.

ويعضد العلوّ في موضع سورة النساء الترقي الوارد في الصفات بعد ذلك - كما سيرد- فالإيمان لا يتحقق فقط بالطاعة، بل لابد من الرضا بالحكم ظاهرًا وباطنًا ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

المعلم الثاني: تعليق التحكيم به - ﷺ- وأثره في بيان رتب الإقبال:

صرح بتعليق التحكيم به- ﷺ- في موضع سورة النساء :﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[النساء: ٦٥] وفي سياقه القبلي :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾[النساء: ٦١] ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [النساء: ٦٤]، ومن ثم أسند القضاء إليه صراحة ﴿ مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ولذا كثر الاستفتاء في النساء تناسبا مع التحكيم والفصل منه في الأمورالمشتبهة عليهم.

بينما علق تحكيمه وقضاءه في سورة النور إبهامًا؛ حيث أمر بالطاعة العامة له -ﷺ-: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النور: ٥٤] ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[النور: ٥٦]وهذا يعلي من رتبة الإقبال في موضع سورة النساء؛ فالتصريح فيها يدلّ على أنّ الرسول - ﷺ - استقل بالحُكم، وحكَمَ بالسنة فيما لم يرد فيه حُكْمٌ قرآني[1]. وسبب النزول يؤيد ذلك[2].

أما في موضع سورة النور فلم يصرح فيها باختصاصه بالحكم، وهذا يتلاءم مع ما ورد في السورة من قصة الإفك، فالنبي لم يَفْصِل في هذا وهم أهل بيته، حتى نزل وحي السماء بالفصل

(١) ينظر : "التعبير القرآني" فاضل السامرائي، ط ١، دار عمار، عمان، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م: ١٥٤.

(٢) ينظر : "أسباب النزول" علي بن أحمد الواحدي، ط٦، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م: ٣٣٧.

فيه، بخلاف موضع سورة النساء الذي قضى فيه بحكمه مباشرة بوحي السنة، ومن هنا كان التصريح فيها ظاهرًا جليًا، وأتى الإيماء والإبهام في النور.

وكما اشترك الموضعان في أساليب دلت على الإقبال، فقد اختص موضع سورة النساء بأساليب تُبيِّن علوّ رتبة الإقبال فيه عن موضع سورة النور، ويتجلى ذلك في تسعة معالم هي مايلي:

المعلم الأول: الخطاب وأثره في بيان علو رتب الإقبال:

ورد الخطاب في موضع النساء : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[النساء: ٦٤-٦٥] "جاؤك "فلا وربك"، "يحكموك"، "مما قضيت"، وتتابع الخطاب له -ﷺ- فيه علوٌّ في الإقبال عليه؛ حيث باشره بالخطاب اهتمامًا ورعايةً وتأكيدًا على تسليمهم بقضائه، وتأييدًا من الله له فيما حكم به؛ فوجَّه الخطاب له-والحكم كان في شأن لهم- تأكيدًا على صحة حكمه ووجوب قبولهم له، يعضد هذا تصدير الخطاب بالقسم وتعلق الإيمان بطاعته -ﷺ- .

أما موضع سورة النور فلم يرد بالخطاب البتة، بل جاء بضمير الغيبة مرة وبالاسم الظاهر أخرى؛ لأنّ السياق كما تقدم – ممتزج بتعنيف المنافقين على مخالفتهم للرسول -ﷺ- فتوجه الخطاب لهم لا له -ﷺ- وهذا يدل على أنّ رتبة الإقبال في موضع سورة النور أدنى منها في موضع سورة النساء.

المعلم الثاني: النفي وأثره في بيان رتبة الإقبال:

دلّ النفي على علوّ الإقبال في موضع اقتران طاعة الرسول -ﷺ- بطاعة الله -ﷻ- بوجوه متعددة:

أ – **تقدم النفي:** قال -تعالى-: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ... ﴾ فتقدم النفي في: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ ﴾ مع القسم دليل اعتناء واهتمام بالأمر المقسم عليه.

وفيه تعظيم لشأنه -أيضًا- لذا ارتبط بالقسم، وهذا علوٌّ في الإقبال عليه -ﷺ- إذ ينفي الإيمان عنهم ابتداءً لمخالفتهم لأمره.

ب – **تكرار النفي:** كرر النفي هنا بـ(لا) مرتين "فلا وربك" "لا يؤمنون" وهذا فيه توكيد للأمر توكيدًا يدل على علوّ شأنه؛ حيث نُفِيَ إيمانهم عنهم إن لم يحكّموه -ﷺ- وقد اختصت سورة النساء بهذا التكرار لعلوّ الإقبال فيها.

ج – **دلالة إفصاح النفي وإفهامه:** دلَّ إفصاح النفي على انتفاء إيمانهم عنهم إن لم يُحكّموه ويرضوا بحكمه، ودل إفهامه على عصمته -ﷺ- من الخطأ، وهذا -ولا شك- تفضيل له وإعلاء لشأنه.

المعلم الثالث: الترقي وأثره في بيان رتب الإقبال:

تنوع الترقي في النظم بوجوه متعددة منها:

أ- الترقي بالعطف: في قوله -تعالى-:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥] دل العطف بـ(ثم) على التراخي الرتبي؛ لترقي أحوالهم عند تحكيمه -ﷺ- فيحكّمونه أولاً، ثم يرتقون إلى زوال الحرج من أنفسهم والرضا بحكمه ثانيًا، وهذا الترقي في الأحوال المبني على الرضا بحكمه دليل عناية به وإعلاء لشأنه.

ب- زيادة الترقي بالتناسب المعنوي :﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا ﴾و ﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ حيث أُشترط لإيمانهم قبول حكمه والرضا به داخليًا في أنفسهم، وظاهريًا في تصرفاتهم، وهذا إقبال وعناية به -ﷺ- وعطف:﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ على ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا ﴾ مع أن مقتضى الظاهر أنه داخلٌ فيه عموم بعد خصوص وإطلاق بعد قيد؛ لأن التحكيم قيد بـ:﴿ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[1] وهذا أدلُّ على علوّ مكانته -ﷺ- .

ج – زيادة الترقي بالتأكيد بالمصدر: في قوله -تعالى-: ﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ فهذا ترقٍّ؛ حيث جعل تسليمهم تسليمًا مطلقًا للنبي-ﷺ-.

المعلم الرابع: دقة الألفاظ ودلالتها على علو الإقبال معنى ومبنى، يتجلى ذلك فيما يلي:

(١) ينظر: دلالة القرآن المبين على أنّ النبي أفضل العالمين: ٢٤.

- تخيُّر الربوبية، وإضافتها لضميره -ﷺ- ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ ﴾ في القسم دليل على إنعام، وعناية خاصة؛ إذ في الربوبية معنى التدبير، وولاية الأمر حتى يتم، وإصلاح بتمامه [1].

- تخيُّر: " شَجَرَ " من دون غيرها كـ:(وقع) أو (حدث) مثلًا، لأنَّ فيها دلالة على شدة الاختصام والاختلاف حتى جعل تزاحمهم وتقاتلهم كتداخل أوراق الشجر وفروعها[2]... وفي هذا دلالة على صعوبة الرضا بالحكم، صعوبة تستلزم علوّ الإقبال على النبي -ﷺ- حين يحكم، ويرضى بحكمه بالقلب والجوارح -بعد كل هذا الخصام- فيها دليل على عظيم شأنه، وعظيم أثره ومنزلته فيهم.

- وتخير: "حرجا " وهو ضيق لا منفذ فيه[3]؛ فيه تعظيم لقدره -ﷺ- فلا يكون في أنفسهم أي ضيق من الحكم، ومن ثم تناسقت المادة حرجا مع تنكيرها لينفي أقله؛ ليكون مقابلًا لرضى الاضطرار عند المنافقين في الربط بين مجيئهم إليه وإصابتهم بالمصيبة، ثم تخيُّر: "يسلِّموا" الدَّالة على التسليم بإذعان للحق[4] تسليمًا يدل على الرضا، فهذه معانٍ دالة على علوّ الإقبال عليه كما دل مبناها، حيث وردت بالمضارعة :"ويؤمنوا"، "يسلموا" و "يجدوا"، فيتجدد لهم الإيمان والتسليم مع كل حادثة يحكم فيها النبي -ﷺ- فيستمر إيمانهم به وتسليمهم له.

المعلم الخامس: القسم وأثره في بيان رتب الإقبال:

ولا تخفى دلالة القسم على عظمة الأمر المقسم به، والمقسم عليه، بما يزيد الإقبال علوًّا، فورود القسم بالربوبية مضافة إلى ضميره -ﷺ- يعلي من الإقبال؛ لاختصاصه بتلك النعمة، أما عظمة المقسم عليه ودلالتها على علوّ الإقبال فظاهر؛ حيث إنَّ الغرض خلوص طاعته من شوب كره أو عصيان، ولايكون ذلك إلا لتعظيم حكمه وعلوّ قدره -ﷺ-.

المعلم السادس: الشرط وأثره في بيان رتب الإقبال:

يدل الشرط على علو الإقبال بوجوه عدة:

أ - دلالة الشرط على العموم في (من) فلم يتعلق بمخاطب من دون آخر ولا بوقت من دون آخر بما يعلي من الإقبال عليه بأن شأنه -ﷺ- كذلك أبدا.

---

(١) ينظر : الفروق اللغوية:الفرق بين الصفة برب والصفة بمالك: ٢١١.

(٢) ينظر : لسان العرب: باب الشين:٤/٢١٩٨.

(٣) ينظر : الفروق اللغوية: الفرق بين الضيق والحرج: ٣٤١.

(٤) ينظر : المفردات في غريب القرآن: كتاب السين: ٢٤٦.

ب – دلالة الشرط على استلزام الجواب وذلك في قوله –تعالى– ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] للدلالة على التحتم واللزوم.

ج – مجيء الجواب: (فقد أطاع الله) من دون غيره، حيث اشترط لطاعة الله طاعة الرسول –ﷺ– وهذا تشريف له، فهو مبلّغ عن الله – ﷻ– وطاعته من طاعة الله – ﷻ–.

د– التغاير في زمني فعل الشرط وجوابه حيث ورد فعل الطاعة المتعلق بالرسول "يطع" بالمضارعة، ومع الله بالمضي "أطاع"، فكأن القصد أنّ من يتجدد له طاعة الرسول –ﷺ– فهذا دليل ثبوت طاعته لله – ﷻ– ثم وردت الجملة الثانية عن الرسول بالمضي: ﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ ﴾ [النساء: ٨٠] فلم يأتِ بالتولي بالمضارعة كما وردت الطاعة؛ وذلك أنّ من يتجدد له السماع من الرسول –ﷺ– لا يتأتى له تجدد التولي، بل إنه يطيعه ولابد، وهذه رفعة للرسول –ﷺ–.

هـ – التوكيد في الجواب: ﴿ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] توكيدًا يدل على العناية بشأن النبي –ﷺ– وعلو شأن طاعته حيث أكد ثبوت طاعته – ﷻ– وجعلها مستلزمة بطاعة الرسول –ﷺ–.

و – العدول في الطباق في جملتي الشرط، قال –تعالى–: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ ثم عدل في الجملة الثانية إلى: ﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ [النساء: ٨٠] مع أنّ مقتضى الظاهر "فقد عصاه" لكن لأنّ الاهتمام كان بحال النبي– ﷺ – فجعل الجواب مناطًا به –ﷺ– تبرئةً له منهم ومن توليهم، فليس السبب منه، بل من داخل أنفسهم وخبثها.

المعلم السابع: الذكر والحذف، وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

يتجلى ذلك في ذكر المتعلق في الطاعة، وحذفه في التولي، قال –تعالى–: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء: ٨٠] بذكر المفعول: "الرسول"، وقال: ﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾ [النساء: ٨٠] بحذفه فلم يرد النظم "ومن تولى عنه"، وفي هذا تحرز من إسناد التولي عنه صراحة؛ لكي لا يُظن أنّه سبب في النفور ولو احتمالًا؛ لذلك جعل الجواب: ﴿ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ [النساء: ٨٠] لجعل العيب نابعًا من دواخل أنفسهم، ومن ثم خالف –أيضًا– بين جواب الطاعة وجواب التولي،

فجعل جواب الطاعة: ﴿ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ ولم يجعل جواب التولي (فقد عصى الله) مع اقتضاء الظاهر لذلك، ولكن لما كان الكلام لطاعته هو -ﷺ- إثباتًا ونفيًا وأثرها، جاء جواب التولي ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[النساء: ٨٠].

المعلم الثامن: التعريف وأثره في بيان رتب الإقبال:

حيث عرّف "الرسول" بـ: (أل)﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] ويحتمل التعريف أن يكون:

أ - لكمال الوصف: فهو الرسول المكمل لشرع سابقيه المتمم لبنائه.

ب - للعهد: فهو الرسول المعروف والمعهود لديهم صدقه وأمانته.

المعلم التاسع: العدول عن الإضمار للإظهار وأثره في علو الإقبال:

قال -تعالى-: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] بإظهار "الرسول"، في حين اطرد خطابه -ﷺ- بالضمير في الآيات المتقدمة: ﴿ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٧٩] ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾[النساء: ٧٩] فكان مقتضى الظاهر أن يرد النظم: "من يطعك " فالالتفات من الإضمار للإظهار علوًا في الإقبال عليه، بذكر وصفه الذي أورده بالتعريف زيادة في العلوّ، فهذا تلاؤم مع علوّ رتبة الإقبال، وسياق التشريع معًا، أما التلاؤم مع رتبة الإقبال فللتلازم الرتبي بين الرسول والمرسل، وهذا فيه من التشريف مافيه، وأما تلاؤمه مع السياق فلما في الرسول من معنى التشريع، وقد دار السياق على أحكام تشريعيه خاصة بالرسول -ﷺ-.

المطلب الثالث : صريح الإقبال في سياق التأييد والنُّصرة

١- التأييد بالمعجزات

كما أقبل الله -ﷻ- على الأنبياء من أولي العزم بهبات تلائم مربوبية كل منهم، فكذلك -أيضًا- أيدهم بما يلائم ما أقيموا له وأبداه وجودهم كما ذكر الحرالي[1].

فالإقبال بالمعجزات ملائم لرسالاتهم وللمخاطبين بها، ولأحوال الأنبياء-عليهم السلام- فتنوع الإقبال بين العصا، في شأن موسى -عليه السلام- في قوله -تعالى-: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٧-١١٩].

وقوله: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه: ٦٤-٧٠].

وما تلاها من المعجزات في قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ۖ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[الأعراف: ١٣٣-١٣٧].

وقوله – تعالى- في موضع سورة الزخرف: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[الزخرف: ٤٦-٥٠].

---

(١) ينظر: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤١.

أو في الكلام في المهد وما تلاه في شأن عيسى- عليه السلام- في قوله -تعالى-:

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٥) ﴾ [آل عمران: ٤٥] ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ (٤٨) ﴾ [آل عمران: ٤٧-٤٨].

وقوله :﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾ [مريم: ٢٩-٣٣].

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) ﴾[المؤمنون: ٥٠].

تأييد موسى -عليه السلام- بالمعجزات

قال -تعالى-: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٧].
وقوله -تعالى- : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٤]

ورد التأييد في الموضعين السابقين لموسى -عليه السلام- بمعجزة العصا، إقبالًا عليه في موقف الخوف زيادة تأنيس وطمأنة لقلبه، وفي هذه المعجزة ملاءمة للمرحلة التي وردت فيها في أول إرساله- عليه السلام- لتصديق المرسل إليهم من السحرة؛ لعلوّ شأن السحرة لدى فرعون وملئه.

وورد التأييد له بمعجزات أخرى كالطوفان والجراد والقمل في قوله- تعالى-: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾[الأعراف: ١٣٣] ، وفي ذلك ملاءمة للرد على تحديهم لموسى -عليه السلام- وتكذيبهم له وقهرهم إياه.

أما موضع سورة الزخرف فوردت الآيات مُجْمَلةً لما هو مفصَّل في موضع سورة الأعراف، وهذه الملاءمة للحال أساس معتمد من أسس الإقبال لدى الحرالّي [1].

يلاحظ اتفاق الموضعين الأولين في نوع المعجزة المقبل بها على موسى - عليه السلام - والمغرس-أيضًا- حيث إنّ مغرسهما هو الخوف من المواجهة، سوى أنّهما تفاوتا في رتبة الإقبال لاختلاف الحال والسياق في كل منهما، فعلت رتبة الإقبال في موضع سورة طه؛ ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ ﴾ [طه: ٦٧-٦٨] لاستعلاء الباطل من جوانبه المتعددة؛ كالتحضير للمواجهة، والتصريح بالخوف، وإيراد الحوار بين موسى والسحرة أو بين السحرة بعضهم لبعض، وكل ذلك يعلي من الخوف ويستلزم إقبالًا أعلى، كما أنّ السياق الكلي للسورة من نفي الشقاء وإبراز مواطن السعادة والأمن يستلزم علوّ الإقبال- أيضًا-

أما موضع سورة الأعراف فلم يستعل فيه الباطل استعلاءه في موضع سورة طه، ولم يكن السياق الكلي للسورة معنيًّا بنفي الشقاء، ولا بما يستلزم السعادة بل كان في إبراز المخالفة وأثرها،

---

(١) ينظر : مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

فكان الإقبال أدنى رتبة حيث لم يكن التحضير للمواجهة مذكورًا كما في موضع سورة طه، ولم يصرح بالخوف ولا بالحوار، بل ألمح إليه إلماحًا، في حين فصّل في سورة طه، ومن ثمّ كان الإقبال عابرًا في سورة الأعراف، وهذا ملائم لسمت قلّة ورود النعم فيها.

واختلف موضع سورة الأعراف الثاني عنهما مغرسًا: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ فمغرسه الردّ على تتابع الإيذاء: ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾[الأعراف: ١٢٩].

أما المغرس في موضع سورة الزخرف: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٦-٥٠] فتابع من التأييد المحض لموسى -عليه السلام- حتى قبل التكذيب؛ ليكون مقابلًا لتحقيره من فرعون، وليقابل -أيضًا- بين: (آياتنا) وما فيها من التعظيم واعتداد فرعون بملكه، فالإرسال كان مصاحبًا بالآيات والمجيء كذلك، وترقت الآيات في الموضع تبعًا لذلك.

وتبعًا لاختلاف المغرس تأخرت رتبة الإقبال في هذا الموضع عن الموضعين السابقين من وجهين:

أولهما: أنّ الخطاب كان موجهًا إلى المكذبين؛ ردًا عليهم ولم يكن موجهًا صـــراحة لــــموسى -عليه السلام- وإن كان إكرامًا له، وهذا يتناسب مع السياق العام للسورة في اعتداد المكذبين بزخرف الدنيا.

آخرهما: مرحلة هذه المعجزات كانت متأخرة عن مرحلة المعجزات الأخرى، وأول الدعوة أعلى إعجازًا من آخرها.

وقد تفاوت علوّ البيان والإفهام لاختلاف الرتب على ما اعتمده الحرالّيّ أساسًا لتفاوت الإقبال من اختلاف رتبة المقبل عليه وقلبه [1]،فتعاضد النسق اللفظي مع النسق المعنوي لبيان رتب الإقبال، ويتجلى ذلك في معلمين هما:

المعلم الأول: تنوع التعريف وأثره في بيان رتب الإقبال:

تفاوَتْ رتب الإقبال على موسى -عليه السلام- في هذه المواضع استلزم تنوعًا في طرق التعريف؛ وذلك لاختلاف دلالة كل طريق من طرق التعريف عن الآخر، وعلوّه عليه – وإن اشتركت في أصل التعريف– وهي دلالات نص عليها العلماء[2]. فعرّف بالعلمية في سورة طه: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه: ٦٧] ونودي باسمه الصريح : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ لدلالة التعريف بالعلمية على تمييز المعرف بها[3]. فتمييز موسى-عليه السلام- بهذه الطمأنة خاصة أدخل في تأنيسه ، كما أنّ فيه دلالة على عظمة شأنه فلنْ يخذله، وهذا أدخل في علوّ الإقبال؛ حيث جمع له التعريف بالعلمية زيادة في الإيناس والتكريم -معًا- وهذا يلائم مثير علوّ الإقبال – كما تقدم – ومن ثم فاستقصاء نداء موسى بالعلمية دليل علو للإقبال في موضع سورة طه ؛إذ ورد مرة واحدة في سورة الأعراف، بينما جاء في ستة مواضع فيها؛ لما في تتابع العلمية في خطاب الله -عزوجل- له من تقريب وتلطف وتأنيس يتناسب مع علوّ الإقبال فيها.

---

(١) السابق: ٤٣.

(٢) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : ٤٨، مختصر السعد'مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح' ابن يعقوب المغربي،'عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح' بهاء الدين السبكي، بيروت، دار الإرشاد الإسلامي: ١/٢٨٧.

(٣) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة: ٥٤.

ولامم تعريفه بالعلمية إتباعه بضمير الخطاب: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ [طه: ٦٨] فالأصل في التعريف بالخطاب تعيين المخاطب[١]، وهذا التعيين معاضد للتمييز المتقدم في العلمية لما فيه من المباشرة بالكلام، أو القصد إليه خاصة، وكلاهما مؤكد على الاهتمام بموسى ورعايته خصوصًا وتعيينًا، وهذا ملائم لعلوّ رتبته -عليه السلام- من جانب، وملائم لسياق سورة طه في نفي الشقاء من جانب آخر، ومن جانب ثالث لعلوّ مثير الإقبال من استعلاء للباطل وشدة الخوف.

وورد تعريفه بالغيبة في غيره؛ ملاءمةً للسياق الوارد فيه، وكونه أدنى من هذا الموضع، حيث قلّ الخوف في قوله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٦-٥٠] ولامم عدم استعلاء الخوف نزول رتبة الإقبال، ومن ثمّ نزل البيان عنها فعدل عن الخطاب إلى الغيبة، وليس في الغيبة ما في الخطاب من إرادة تعيين أو مباشرة بالخطاب،إلا أنها ملائمة لتوجه الخطاب إلى المخالفين، ولا تلتقي دلالة الاهتمام في الخطاب بدنوّ شأن المخاطَب.

هذا في التعريف به -عليه السلام- أما التعريف بالآيات التي أتت معه، فقد ورد التعريف بالموصولية تارة، وبالإضافة إلى ضميره -عليه السلام- تارة أخرى، وبـ(أل) التعريف ثالثة، وكل نوع ملائم لرتبة الإقبال الوارد فيه.

فعرفت العصا في موضع سورة طه بالموصولية: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴿٦٩﴾ ﴾[طه: ٦٩] وتخيرت (ما) خاصة. في سياق مواجهة السحرة، بينما عرفها بالإضافة في الأعراف في السياق نفسه﴿ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ لملاءمة الإبهام لعلوّ الإقبال في سورة طه؛ إذ فيه دلالة على كون حقيقة هذه العصا أمرًا لا يحيط به الوصف، فهي شيء ليس معلومًا حتى لو كانت عصا، إلا أن جوهرها فيه من الأسرار ما لا يدرك، كما أنّه يمكن حمل الإبهام على التعظيم، وتعظيم شأن عصاه تأييدٌ له .

ويمكن حمله على أنّ فيه ترفعًا بعصاه عن تسميتها باسم مشابه لاسم أدواتهم التي سحروا بها أعين الناس: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾[طه: ٦٦].

(١) السابق: ٤٩.

وهذه الإيحاءات متناسقة ملائمة للإقبال في سياق شدة الخوف واستعلاء باطلهم، حيث استعلت معجزاته مقابلة لاستعلاء باطلهم،والإفهام في رتبة الإقبال ملائم لعلوّ اللقن–هنا–[1].

أما موضع سورة الأعراف فعُرِّفت العصا بالإضافة إلى ضميره –عليه السلام– ﴿ عَصَاكَ ﴾ وهذا ملائم للإقبال في الأعراف؛ فالحال فيها أقلُّ خوفًا، كما أنَّ فيه ملاءمة للسياق العام في الأعراف الذي قلت فيه النعم عنها في موضع سورة طه الذي اطرد فيها علوُّ النعم.

وعُرِّفت الآيات في الموضع الثاني في سورة الأعراف بـ(ال) التعريف، قال–تعالى–: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٣] وفي ذلك اكتمال وصفها، وهذا ملائم لمقابلة قوة تصريحهم بالإنكار والتكذيب، وقوة تحديهم لنبيهم، وملائم لسياق سورة الأعراف الذي شاع فيه تعجيل العقوبة فتعريف الآيات: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٣] بـ (ال) الدّالة على كمال الوصف إعظامٌ لها، وتشديدٌ في تهديدهم، ويمكن أن تكون: (ال) لإرادة الجنس ويكون الغرض المراد تصوير وتشخيص هذه الأحداث الجسام في ذهن المتلقي؛ لأنَّ جنسها معروف عندهم.

وعُرِّفت في موضع سورة الزخرف بالإضافة إلى نون العظمة: ﴿ ءَايَٰتِنَآ ﴾ لملاءمة التأييد الممحض لموسى– عليه السلام – من وجه، ومن وجه آخر لملاءمة سياق السورة ومقصدها؛ فالإضافة إلى نون العظمة فيه دلالة على علوّ جوهرها وأنها الحق، وليست كالزخرف الزائف لدى فرعون ، وكون ما يؤتاه موسى ويؤيد به هو الجوهر، وما لدى عدوه هو الزخرف الباطل، هذا قوة تأييد له– عليه السلام – وعلوٌ في الإقبال عليه.

المعلم الثاني: التوكيد وأثره في بيان رتب الإقبال:

١. التوكيد بالقصر:

اختص موضع سورة طه بالتوكيد بالقصر؛ لأنّه أدلُّ على علوّ التأييد الذي تميَّز به موضع سورة طه، قال –تعالى–: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا

(١) قال الحرالّي:"ويعلو البيان والإفهام بحسب رتبة من توجه إليه الإقبال" مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنـــزل: ٤٣.

صَنَعُوا كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه: ٦٨-٦٩] وقد ورد التوكيد بالقصر في هذا الموضع بطريقين:

أ- بتعريف الطرفين في قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٨]، وهذا ملائم لطمأنة قلب موسى -عليه السلام- وتأييده، فالقصر بتعريف الطرفين يكون عاليًا في الدلالة على كمال الوصف، ويكون في القصر الادعائي، فكأنَّ موسى وصل إلى مرتبة من العلوّ تصل إلى الكمال، وهذا مطلق ليس خاصًّا بهذا الموقف فقط، وكلما قلَّبت القصر ظهر لك وجه من التوكيد، فلو اعتبرت أنَّ الطرفين هما (الكاف) و(أعلى) ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾و (أنت) ضمير فصل كان هذا أدخل في التوكيد، وأدل على زيادة التطمين والتأنيس؛ لأنَّ ضمير الفصل يزيد على تأكيد القصر تأكيدًا، وإذا اعتبرنا أنَّ الطرفين (الكاف) مع (أنت) فهو دالٌّ على التوكيد ولكن بتكرار ضميره- عليه السلام - ثم زاد عليه بوصفه بـ(الأعلى).

يزيد على هذا التأكيد ما تقدم الموضع من توكيد بـ(إنّ): ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ لأنّها تأتي ردًّا على المنكر فهي أعلى توكيدًا من غيرها، وأساليب التوكيد في هذا الموضع علت بيانًا لعلوّ المغرس، حيث بدأ بالتوكيد من أول الجملة : فـ(إنّ) فيها توكيد، والقصر فيه توكيد، وتكاثف التوكيد ملائم لدرجة الوحشة والخوف الذي كان شديدًا وحاسمًا لا يحتمل اللبس، فإما نصرة للدعوة أو نصرة لهم، فورد الإقبال مزيلًا لأي أثر من آثار الخوف؛ لأنَّ الموقف لا يحتمل غير ذلك وأيدَّ ذلك، أنَّ العلوّ أتى في شأن موسى -عليه السلام- مطلقًا من دون تقييد، بخلاف ما ورد في شأن الصحابة، حيث قيد العلوّ بإيمانهم، قال -تعالى-: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]؛ لأنّه لا يتصور معه -عليه السلام- الشرط؛ للتفاوت الرتبي بين مرتبة الرسول وغيره من سائر الناس.

ب- ورود التوكيد بالقصر بـ(إنّما) في قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَٰحِرٍ ﴾[طه: ٦٨] وهذا ملائم للتعريف بسحرهم، والتأكيد على أنّه باطل باستعمال: (إنّما) طريقًا للقصر لدلالتها على أنَّ ما صنعو هو كيد ساحر أمرٌ معروف لا يجهله أحد فالأمر شائع لا ينكر[1]، وشيوع الخبر بأنّ كل ما يفعلونه إنّما هو كيد ساحر لا أكثر، مطمئن لموسى -عليه السلام- ومثبت لقلبه.

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٣٣٠.

٢. التوكيد بأدواته المعهودة:

ورود التوكيد بأدوات التوكيد مطردًا في غير هذا الموضع، فأكد بـ :(لقد) في شأن موسى – عليه السلام – قال –تعالى–: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[الزخرف: ٤٦] والتوكيد بـ :(قد)– التي تقدمتها (اللام) التي فيها معنى القسم– ملائمٌ لسياق التأييد في سورة الزخرف؛ ففي:(قد) دلالة تحقيق الأمر وتوكيده[1]، واللام فيها قسم مؤكد يرد على منكر ذلك، وهذا التوكيد ملائم لانخداع الناس بزخرف الأمور، في حين أنَّ حقائق الآيات والأمور على خلاف ذلك، فتأييد الله هو الحق لا قوة فرعون الزائفة.

كذلك لاءم التوكيد بـ:(إنّ) موضع سورة مريم في شأن سيدنا عيسى– عليه السلام –﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم: ٣٠] ؛ لأنّه رد على منكر، وكان بنو إسرائيل منكرين ما أتت به بين يديها، معتقدين فيها غير ما هي فيه، فجاء رده عليهم قويًّا ملائمًا لحالهم تبرئة له ولأمه.

٣. التوكيد بترقي الجمل:

ترقي النظم في مواضع الإقبال مؤكدٌ للتأييد والعون، ففي موضع سورة طه: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه: ٦٨–٧٠] بدأ بنهيه عن الخوف مقولًا لفعل القول المسند إلى ضمير العظمة ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ ﴾ تأكيدًا للإيناس والاطمئنان، ثم ترقى ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ ﴾ ثم ترقى إلى ذكر العلة المقوية للطمأنينه ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ثم أرشده هو إلى فعل يكون سبيلًا لتنجيته ﴿ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ ثم حدوث الفعل والنصرة ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ﴾ فهذه النّعم مترتبة على بعضها، حيث نزع الخوف من نفسه – أولًا– ليلقي إلقاء الثابت لا إلقاء الخائف، ثم ترقى إلى أن نصره ونجاه من كيد الكائدين.

---

(١) ينظر: "رصف المباني في شرح حروف المعاني" أحمد بن عبد النور المالقي، ت: أحمد الخراط، ط من دون، مجمع اللغة العربية، دمشق: ٢٩٢.

كما يلاحظ توكيد النعم بترقيتها في موضع سورة الأعراف: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٧-١١٩] حيث بدأ بالوحي مسندًا إلى ضمير العظمة: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ ﴾، ثم فعل العصا: ﴿ تَلْقَفُ ﴾، ثم النصرة: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ وترقى في تأكيد النعمة بأن ذكر ضدها من حال خسرانهم على مراحل، فبدأ بذكر غلبتهم ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ ﴾، وفي تقييده بـ:(هنالك) تعظيم فتحديدها بـ: (هنالك) كأنه لم يكن هناك غلبة كغلبة السحرة في ذلك المكان، ثم ذكر بعد الغلبة أثرها وعارها عليهم: ﴿ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴾ وترقي النعم في هذا السياق منبئ عن تـوكيد تأييده -عليه السلام-.

ويظهر هذا الترقي أيضاً في موضع سورة الأعراف الثاني: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٣-١٣٧] حيث صرح بإرسال الآيات متتابعة على وجه الترقي من الأدنى إلى الأعلى حتى انتهى إلى الإغراق: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ ثم أكد الإقبال بأن أورث الأرض قوم موسى -عليه السلام- ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ كل هذا الترقي إنما هو تحقيق لرجاء موسى -عليه السلام- السابق: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى

ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٩] ويظهر العلوّ في الإقبال في وقوع الرجاء مرتبًا على نحو ما أمله -عليه السلام- حيث بدأ مباشرة عقب الرجاء ببيان خطوات الإهلاك، وعقبه بالاستخلاف تأييدًا له وإقبالًا عليه.

وما فصّله في سورة الأعراف أجمله في سورة الزخرف:

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٦-٥٠] حيث بدأ بإجمال الآيات التي أريها فرعون: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وانتهى بإجمال العذاب: ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

تأييد عيسى – عليه السلام – بالمعجزات

ورد التأييد لعيسى -عليه السلام- بمعجزات ملائمة لرسالته وحاله؛ إقبالاً عليه بما يلائم وجوده ولقيه، فكانت معجزته الأولى- بعد ولادته من غير أب- كلامه في المهد ارتباطًا بوالدته، في موضعين: أولهما قوله -تعالى-: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٩].

ثانيهما في قوله -تعالى-: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم: ٣٠-٣٣]

ويلاحظ أن الموضعين -وإن اتفقا في ارتباطهما بوالدته، ومن ثم تصدرا مشهد تأييده بالمعجزات في النظم- بينهما اختلافٌ في الغرض والأسلوب- كما سيأتي- نظرًا لاختلاف السياق الدقيق بين الموضعين.

ثم تتابع تأييده ببقية معجزاته، بما يلائم أحواله في مراحل الرسالة؛ حيث أُيِّد بالكتاب وما بعده من معجزات في: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٨-٤٩].

وكل موضع منها له سمتٌ يغاير الآخر وإن اشتركت جميعا في تأييد عيسى - عليه السلام - بالمعجزات؛ فكلامه في المهد في سورة آل عمران قد صبغ بالتكريم والتشريف؛ تفصيلا لجوانب إصطفاء أصله بدءًا من آله الأول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ﴾[آل عمران: ٣٣] وانتهاء باصطفاء والدته: ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) ﴾ [آل عمران: ٤٢].

فمن ثم كان السمت العام في تأييده بالمعجزات في سورة آل عمران تكريم أصله.

أما سمت التأييد بالمعجزات في سورة مريم فهو سمت رحمة بوالدته درءًا لتهمة شنيعة، واتساقًا مع السياق العام للسورة نفسها، ومن ثم روعي التفصيل في كلامه في المهد؛ لاقتضاء المقام هذا كما سيأتي.

ثم أجمل تأييده في موضع المؤمنون: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) ﴾ [المؤمنون : ٥٠].

وورد الإقبال عليه في قوله -تعالى- : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) ﴾[المؤمنون: ٥٠] ببيان سمو أصله البشري، لمّا كان مغرس الإقبال مقابلًا لإنكار الكفار للرسالات لبشرية الرسل وعدها منافية للرسالات ، فذكر المعجزات هنا إجمالًا بـ(آية) لتشمل كل ما يقتضيه سمو الحال من دلالات ومعجزات تؤيده - عليه السلام - من ولادته إلى رفعه.

وتتفاوت وجوه الإقبال ورتبه تفاوت البيان، ليتعاضد بذلك النسق اللفظي مع النسق المعنوي في بيان درجة الإقبال، ويتجلى ذلك في خمسة معالم هي:

المعلم الأول: العطف وأثره في بيان رتب الإقبال:

وردت المعجزات التي أيد بها عيسى -عليه السلام- متعاطفة بالواو: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي

أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٩].

وللإقبال بهذا العطف اعتبارات:

١) إما أن يكون العطف بين هذه النعم للتشريك في دلالتها على الاصطفاء، فيكون الإقبال عليه بجمع هذه النعم له على وجه واحد وبدرجة عناية واحدة؛ دلالة على العناية به في كل شأنه، وهذا فضل من الله وتكريم.

٢) أو يكون العطف بين هذه الصفات على سبيل الترقي، باعتبار الانتقال من نعمة إلى أخرى فكل نعمة أعلى من التي قبلها، وهذا -أيضًا- علوّ في الإقبال.

هذا في موضع سورة آل عمران، أما موضع سورة مريم: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾[مريم: ٢٩-٣٣].

فترتيب هذه النعم له اعتبارات متعددة، ولكل اعتبار مدخل في الإقبال، فبدأ فيها بالعبودية ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ فإما أن تكون العبودية أصلًا للصفات وما بعدها تفصيل لها؛ لذا بدأ بإيتاء الكتاب، وثنى بجعله نبيًّا إلى أن ختم بقوله: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾ وهذا فيه علوّ إقبال عليه، حيث شرّف أولاً بالعبودية، وأيّد بكل ما يقيمه عليها.

أو باعتبار الواقع بدءًا و نهاية، فيكون أمره كلّه إقبالًا وتكريمًا من مولده إلى انتهاء أمره، أو باعتبار تبرئة أمه، فهذا تأييد له وإقبال فإكرام أصله إكرام له -عليه السلام- أو باعتبار علوّ مرتبته التي نصّ عليها الإشارة له بالبعد ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾.

وكل ذلك يستلزم عطف المعجزات بعضها على بعض إقبالًا عليه -عليه السلام- من أول مولده وحتى انتهاء رسالته بالتأييد، فلم يخلُ منها في أي وقت.

المعلم الثاني: التقييد وأثره في رتب الإقبال:

قَيَّد كلامه -عليه السلام- بما يدلُّ على دوام وصف الكلام واستوائه في الزمن كله: في المهد وكهلا في سورة آل عمران: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٦] وهذا القيد يعني من تأييده ويؤكد صدقه، فالمعنى: " يكلمهم طفلاً وكهلاً من غير أن يتفاوت كلامه في هذين الوقتين، وهذه خاصية شريفة كانت حاصلةً له، وما حصلت لأحد من الأنبياء قبله ولا بعده"[1]. بما يتناسب مع الاصطفاء السابق.

وعدم التفاوت هنا في أمرين:

أ. البيان وإظهار المقصود، حيث إنّ بيانه -عليه السلام- طفلا هو هو بيانه كبيرًا، فلم يتلعثم كتلعثم الأطفال، بل كان كلامه فصيحًا صريحًا.

ب. عدم تفاوت المبيَّن، فكلامه في طفولته كان تبليغ نبوة، مثله مثل كلامه كبيرًا ونبيًّا.

فالكلام لم يتفاوت صفة ولا معنى في الوقتين، بخلاف لو أطلق الكلام فيكون مطلق كلام لا ينص على صفة ولا على ما حمل من معان.

بينما أطلق عن هذا القيد في سوره مريم لأمرين:

أ- استلزام الوقت من السياق، حيث دلَّ السياق على أنَّ كلامه هنا في وقت واحد قد ارتبط بحالة واحدة: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ ﴾ [مريم: ٢٧].

ب- التنافي بين دوام كلامه وبين الغرض المراد هنا؛ إذ المراد الاستدلال على براءة أمه، وكلامه حينئذ وقت مجيء هذه أدلُّ على ذلك وأبين من أن يتكلم بذلك حال رسالته، فمن ثم لم يقيد: "في المهد وكهلا" كما قيد سابقا.

كما قيدت الربوة بوصفها بـ: (ذات قرار ومعين) :﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾[المؤمنون: ٥٠] وتقييدها بهذا الوصف علوٌّ في التأييد والرعاية؛ ليلائم السكنى فيها فخصَّ القرار والمعين بالذكر.

---

(١) التفسير الكبير: ٤/٤٥٩.

المعلم الثالث: تخير الألفاظ معنى ومبنى وأثره في بيان رتب الإقبال:

وردت المعجزات المنسوبة إلى عيسى -عليه السلام- بالمضارعة: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٩] (أخلق، أنفخ، أبرئ، أحي) وهذا علوٌ في التأييد؛ لدلالة المعنى على تحقق هذا التأييد من الله له، أما ما يجري على يده فهو مستمر متجدد بتجدد الحوادث، وهذا التحقق للتأييد والاستمرار للقدرة عليه منّة أدخل في طمأنة عيسى - عليه السلام - ومن ثمّ أعلى إقبالاً عليه.

كما تخيّر النظم :(آية) وفي إيحاءات دلالتها علوٌ في التأييد؛ حيث تدل على الظهور والوضوح، وفي دلالة أخرى تدل على الثبات والإقامة على الشيء، وثالثة على العلوّ والارتفاع[1] وكل هذه الدلالات أدلُّ على علوّ الإقبال على عيسى -عليه السلام- زاد هذا العلوّ تنكير "آية" الدال على التعظيم علوًّا، فتعاضدت الدلالة والمبنى في الدلالة على علوّ الإقبال.

ويعضدها ورودها مضافة لنون العظمة: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ ﴾ ففيها دلالة على جلال النعم تناسب مقام علوّ التأييد والامتنان، ومتناسب مع :(آية) بإيحاءاتها الدّالة على علوّ التأييد كما سبق ذكره.

المعلم الرابع: الإفراد في موطن الجمع والتثنية وأثره في بيان رتب الإقبال:

ورد ذكر النعم الجليلة والمعجزات العظيمة على عيسى -عليه السلام- بالإفراد في سورة الأنبياء: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ (آية) التي وردت منكرة للنوعية والتعظيم يعود -أيضًا- إلى أحد اعتبارين، وكل منهما له مدخل في الإقبال:

أ. إما أن القصد أنّها في ذاتها مشتملة لأجزاء متعددة بداية برعاية أمه صغيرة، ثم حملها من غير سبب، وانتهاء بحفظها بعد مولد عيسى -عليه السلام- وتبرئتها على لسان ابنها ثم حفظه هو -عليه السلام- صغيراً أو كبيراً. فكل جزء من حياتهما كان آية منفردة بذاتها، وهذا علوٌ في الإقبال عليهما.

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الألف: ٤١، ٤٢.

ب . أو في الإفراد رجوع كل المعجزات إلى ولادته من غير زوج [1].

والأول عندي أرجح ؛لأنّه لو كان القصد للذي ذكره العلماء لكان تُخيّر اللفظ الدال على الولادة ولورد النظم: (ووالدته) ولكنه ورد بـ :(أمه) فالأم هي الأصل، فكأن الأصل في حياتها وحياته الآية والمعجزة، فكل مرحلة من حياتهما هي آية في ذاتها المولد والنشأة حتى الكبر .

المعلم الخامس: الإيجاز وأثره في بيان رتب الإقبال:

يتجلى أثر الإيجاز في بيان رتب الإقبال في قوله –تعالى– :﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾[المؤمنون: ٥٠] حيث أوجز إيجاز قصر، وهذا الإيجاز يلتقي مع علوّ الإقبال فكأنّ: (آية) شملت كل ما تقدم من أمرهما من الإعجاز بدءًا بكفالة أمه، ومرورًا بولادته وانتهاءً بمعجزات رسالته، وهذا ملائم للسمت العام للسورة، حيث ذكر تتابع الرسل على وجه الإيجاز، فبدأت بقصة نوح – عليه السلام – منفصلة، ثم تنزلت في الإيجاز في قصة موسى – عليه السلام – وكانت أكثر إيجازًا مع عيسى – عليه السلام – حتى كان النداء في الآخرة بالجمع: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[المؤمنون: ٥١] وهذا الإيجاز هنا مقابل للإطناب في سورة آل عمران: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾[آل عمران: ٤٥-٤٨] مع أنّ الموضعين في تعداد النعم، ولكن لما كان الغرض في سورة آل عمران التذكير بالاصطفاء الموجب الشكر، استدعى ذلك التطويل، أما هنا في موضع سورة المؤمنون فقد ذكرت النعم تشريفاً وتكريماً فقط، فلاءم ذلك الإشارة .

---

(١) ينظر: التفسير الكبير: ١٨٣/٨.

٢- التأييد بإيتاء الكتاب

أ- تأييد موسى -عليه السلام- بالتوراة

في قول الحرالّيّ:- "اعلم أنّ الربوبية إقامة المربوب لما خلق، وأريد له، فرب كل شيء مقيمه بحسب ما أبداه وجوده"[1]= تأسيل للإقبال على أولي العزم بإيتاء الكتاب، فقوله: "إقامة كل مربوب لما خلق له" دليل على عناية وإقبال؛ لما في الإقامة من دلالة التسوية، وتعديل الاعوجاج، بل إدامة هذه القوامة للحال [2].

ولا شك أنّ أعلى إقامة للمربوبين هي للأنبياء عامّة، ولأولي العزم منهم خاصة، فهم أعلى المربوبين، ولأنّ إقامتهم كانت لأمور تتعلق كلها بما أنزل إليهم – سواء في مواجهة الكفر والشرك أو الهداية أو الاستدلال على الله، أو بيان الأحكام والشرائع، فهذا ما خلقوا له وأقيموا من أجله= اقتضى الإقبال عليهم أن يخلقهم لأعلى الغايات، واقتضى علوّه أن يهيئهم له تمام التهيئة فإن كان ربى المؤمنين للإيمان فقد ربى خيارهم للحمد.

ولذا علق هذه الإقامة بالربوبية إقبالاً عليهم وإنعامًا ورعاية، ولتمام هذه الرعاية نوّع في أسماء ما أنزل عليهم تبعاً لطبيعة المرسل إليهم، وطبيعة الرسالة وتنوع أغراضها ، ولا يخفى أنّ هذا التنويع امتداد للإعداد والتهيئة ، فلما كانت رسالة موسى -عليه السلام- خاصة ببني إسرائيل سمى ما أنزل إليه كتابًا؛ ليلائم ما في الكتاب من دلالة الإلزام والتكليف[3] المرسل إليهم.

وسمى ما أنزل على عيسى -عليه السلام-: "إنجيلاً" ليلائم ما ورد فيه من آداب وأخلاق؛ إتمامًا لما ورد في التوراة من أحكام .

ونوّع في تسمية ما أنزل على سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- بين كتاب فيه إلزام وتكليف، وذكر فيه تشريف، وقرآن فيه تعبد، وغير ذلك ملاءمة لعموم رسالته وكونها خاتمة الرسالات.

---

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤١.

(٢) ينظر :الفروق اللغوية:الفرق بين الاستواء والاستقامة: ١٧٦.

(٣) قال الحرالّيّ -في تفسير معنى الكتاب-: "من الكتب، وهو وصل الشيء المنفصل بوصلة خفية من أصله، كالخرز من الجلد بقد منه، والخياطة في الثوب بشيء منه ليكون أقرب لصورة اتصاله الأول، فسمي به ما ألزمه الناس من الأحكام، وما أثبت بالرقوم من الكلام". تفسير الحرالّيّ: ١٥٥.

أما القرآن" فهو صيغة مبالغة من القرء، وهو ماجمع الكتب والصحف والألواح" تفسير الحرالّيّ: ٣٤٠.

ومن ثم فالحرالّيّ يشير إلى أن الكتاب فيه خاصية الإلزام، ولكن بطريق الإلف، فكأنّه شرع عليهم ماهو متصل بهم غير غريب عنهم، والقرآن جامع لما في الكتاب وزيادة، وبهذا فضُل القرآن كافّة الكتب السماوية.

ويتجلى الإقبال في إيتاء الكتاب في شأن موسى -عليه السلام- أن اختص بالتوراة؛ لما تحويه من شرائع وإلزام وأحكام يلائم طبيعة من أرسل إليهم باعتبارين:

الأول: فرعون وملؤه وما عرفوا به من استكبار وتوهمات وسحر، فكان ما أنزل على موسى-عليه السلام- عونًا له لكسر هذا الكبر، وتبصير الناس الحق.

الثاني: ملائم لبني إسرائيل الذين عُرفوا بعنادهم وتكذيبهم ومخالفتهم السافرة لأنبيائهم، فكانت شدة الإلزام موائمة لصلفهم وانحرافهم.

وقد استلزمت طبيعة المرسل إليهم، وطبيعة رسالتهم أمرين رئيسين في الإقبال على موسى- عليه السلام - بالكتاب خاضعين للسياق الوارد فيه الإقبال، هما:

أ) اختلاف أسماء وصفات ما أنزل على موسى -عليه السلام- وأثرها في بيان رتبة في الإقبال.

ب) اختلاف التعبير عنها تبعًا لاختلاف مراتب الإقبال.

أما الأول: اختلاف أسماء وصفات ما أنزل على موسى -عليه السلام- فرسالته -عليه السلام- كانت أحكامًا وتشريعات، ومن ثم كانت الصفات التي ذُكرت لما أنزل إليه والأسماء التي سميت بها تعبيراً عن خصائص الشريعة التي حملها، ومن هنا عبِّر عنها بالهدى، والبصائر، والكتاب، والفرقان، والضياء، والذكر بتنوع أغراضها، واختص كل غرض بما يتلاقى مع سياقه.

فاطرد: "الكتاب" في تسمية ما أنزل عليه في جميع المواضع التي ورد فيها المنُّ بإيتاء الكتاب عدا موضعي سورة غافر: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾[غافر: ٥٣-٥٤]، وموضع سورة الأنبياء ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وهذا يتلاقى مع السياق من وجه، ومع درجة الإقبال عليه بالكتاب من وجه آخر.

حيث تقدم هذه المواضع إما التكذيب الذي يستلزم الإلزام، وهذا يلتقي مع الكتاب وذلك في موضعي سورتي القصص والمؤمنون، أو صريح الأحكام وتفصيلها كما في موضع سورة الأنعام ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٤-١٥٥]، أوالدعوة إلى الالتزام بالدين والشرائع كما في موضع سورة الإسراء: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ

وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٢-٣].

ويتجلى الإقبال في دلالة الإلزام والتكليف في الكتاب من وجه امتنانه -تعالى- عليه بمعين يعينه على إلزامهم بهذه الأحكام ويردهم عن تكذيبهم في المواضع جميعها، ويزيد موضع سورة الأنعام: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[الأنعام: ١٥٤-١٥٥] دلالة أخرى على الإقبال حيث ورد مقترنًا بالكتاب الذي أنعم به على نبينا محمد -ﷺ- وممهدًا لذكره، فكونه مقترنًا بأعظم كتاب، وممهدًا له فهذا إقبال على موسى -عليه السلام- بهذه النعمة.

كما يزيد في موضع الإسراء بدلالة حسن الظن بأن جعلهم من الذرية المؤمنة: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾[الإسراء: ٣] وهذا تلطف وعناية دالة على الإقبال.

واختص موضع سورة غافر بتسمية ما أنزل على موسى بـ: "الهدى" حين آثره بالهدى، وآثر: "الكتاب" حين ذكر مع بني إسرائيل، وهذا فيه ملاءمة لسياق التفصيل الدائر -هنا-.

وهذا دليل على علوّ الإقبال بالكتاب المنزّل في موضع سورة غافر عن غيره من المواضع، ترتب عليه علوّ الوصف الوارد له بعد ذلك، وعلوّ المتعلق - أيضًا- كما سيأتي.

أما موضع سورة الأنبياء فقد سمي ما أنزل على موسى - عليه السلام - فرقانًا، وضياءً، وذكرًا ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٨] وهذه التسمية ملائمة لموضعها، فالسياق ليس لقصد الإلزام والتكليف، بل للارتقاء في مراتب الهداية؛ بدلالة تعليقها بالمتقين.

كما أنّ السياق القبلي كان في شأن الموازين القسط، وهذا يستلزم فرقانًا بين الحق والباطل، كما تقدم فيه جهل الكفار وعدم علمهم: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾[الأنبياء: ٣٩] ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[الأنبياء: ٤٢].

وهذا يستلزم ضياءً وذكرًا بالإضافة إلى الفرقان، والسورة دائرة في تكريم الأنبياء، والملائم لهذا التكريم معهم ما هو أعلى من الكتاب أو الهدى، وهذا إقبال على موسى بأن كان كتابه فرقانًا وضياءً وذكرًا.

كما أنّ اقترانه وتمهيده لذكر القرآن بعده: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠ ﴾[الأنبياء: ٥٠] دال على علوّ شأنه علوًا يدل على علوّ شأن المُقبَل به عليه.

فتسميته بالفرقان والضياء والذكر اقتضاها السياق، وقد دلت على الإقبال دلالة التكريم والترقي فيها، واقتران ذكرها بذكر أشرف الكتب.

وكما تنوعت الأسماء تنوعت -أيضًا- الصفات بما يتلاقى مع السياق من وجه، ومع الإقبال بأساليب عدة:

١) **اطراد الهدى وصفًا للكتاب** في جميع المواضع عدا موضع الفرقان: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ۝٣٥ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، لأنّ السياق كان في النصرة، من دون عرض الدعوة، ولا مقتضى لذكر الهدى مع الكتاب هنا.

ووصف الكتاب بالهدى يلتقي مع دلالة الإلزام والتكليف في الكتاب -عند عرض الدعوة- فالهدى: بيان طريق الرشد ليسلك من دون طريق الغي[1]، ويلتقي مع طبيعة المرسل إليهم موسى- عليه السلام - لمخالفتهم وضلالهم وما عرف عنهم من استكبار وتكذيب.

كما أنّ تخيُّر:(الهدى) -من دون غيره من الأوصاف المرادفة له كـ:(البيان) و(الرشاد)- أدلُّ على الإقبال، فالهداية تفيد التمكين من الوصول إلى الشيء وشأنها الإيصال[2].

واختصاص موسى -عليه السلام- بالإنعام بهذا الكتاب الذي صفته الهدى إقبال وعناية به وإعانة له على هداية قومه.

٢) **تنوع صفات الكتاب في الموضع الواحد:**

فلم ترد صفة الهدى للكتاب منفردة إلا في موضع سورة الإسراء، ولم ترد بصيغة الوصف بل مفعولاً للفعل "جعلنا": ﴿ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الإسراء: ٢] وتلك ملاءمة لسياق التلطف والتكريم لما في الجعل من دلالة التصيير[3] وهذه بشارة لموسى- عليه السلام- وحسن ظن

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن:كتاب الهاء، مادة هدى: ٥١٦، ٥١٧.

(٢) نفسه.

(٣) يقال: جَعَله أحنق الناس بعمله، أي: صيَّره" ينظر: لسان العرب: باب الجيم: ١/ ١٣٧.

بني إسرائيل، عاضده اعتبارهم من الذرية المؤمنة: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣] وهذا دليل على علوّ الإقبال في موضع سورة الإسراء، بدلالة اقتران نعمة إتيانه الكتاب بنعمة الإسراء بالنبي -ﷺ- وإيثار "الجعل"، ومقام تحسين الظن بهم، وخصوصية السياق عامة.

أما بقية المواضع فقد تعاضدت صفة "هدى" مع صفات أخر في الدلالة على الإقبال بالكتاب بوجوه عدة:

١)**التكامل:** بين هذه الصفات على سبيل الترقي، ويتجلى ذلك في موضع سورة القصص: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[القصص: ٤٣] حيث ورد مع الهدى صفة بصائر ورحمة وعلقت برجاء التذكر، فبدأ بالبصائر ﴿ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾ والبصيرة تكامل العلم والمعرفة بالشيء[1] ولم يقل دراية أو إدراكا بل تخير أعلى درجات الإدراك؛ لأنّ البصيرة هي قوة في القلب تدرك بها المعقولات[2]، ثم عطف عليها (هدى) عطفا اقتضى الرحمة، فالتمكن من معرفة طريق الرشاد يستلزم الرحمة، وكل ذلك دليل على علو الإقبال هنا، فإذا كان هذا أثره على من التزم الكتاب فكيف بمن أنزل عليه؟ وجميع هذه الدلالات تلتقي مع الإلزام في الكتاب. واختصاص سورة القصص بهذه الصفات الثلاث: (بصائر، وهدى، ورحمة) مراعى فيه أنها سيقت لإبراز المن على بني اسرائيل بعد عناء الاستعباد: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص: ٥] ولا يتم ذلك إلا بمنهج قائم على هذه الصفات في الكتاب.

٢) **التقابل:** بين هذه الصفات، قال -تعالى-: ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ ﴾ [غافر: ٥٣-٥٤]، فالكتاب: هدى لمن هو حاضر ليدرك، وذكرى لمن قد نسي، وذلك لمراعاة ماذكره في السياق من أحوال في اليوم الآخر تبعث عند تذكرها إلى الاتعاظ والطاعة. وهذا

(١) ينظر: الفروق اللغوية: الفرق بين العلم والبصيرة: ١٠٥.

(٢) ينظر: " الكليات " أبو البقاء الكفوي، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م: فصل الباء: ٢٤٧.

علوٌ في الإقبال على موسى -عليه السلام- فقد كان هدى له -عليه السلام- كاملًا وحاضرًا بدلالة (أل)؛ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[غافر: ٥٣] ولذا لم يتدرج معه في الصفات بصائر وهدى ورحمة ولم يعطف "ذكرى" على الهدى.

٣) **الشمول**: ويتجلى ذلك في موضع سورة الأنعام: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٤-١٥٥] حيث شملت العناية الكتاب المنزل فهو ﴿ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ سواء قصد بالذي أحسن موسى-عليه السلام- أو الكتاب[1] فهو إقبال عليه بأن كان كتابه تمامًا للنعمة، وتخيُّر التمام هنا أليق بالإقبال وأدل على هذه العناية؛ "والتمام اسم للجزء الذي يتم به الموصوف"[2] فكتابه تمامٌ للنعم قبله، وهذا أدخل في الإقبال.

ويعاضده في العلوّ التعبير بالموصول:(الذي) من دون:(ما) لدلالة التعريف فيه المقتضية شهرة هذا الإحسان ومعرفته به.

وشملت ما ورد في الكتاب المنزل من أحكام ﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ وفي التفصيل دلالة عناية، ففيه "معنى البيان عن كل قسم بما يزيد على ذكره فقط"[3]، وهذا أكثر استلزامًا للهداية والإرشاد.

وشملت المُرسل إليهم ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ فاقتضى التمام والتفصيل الهدى والرحمة، فأي رعاية أكثر من ذلك ؟ وهذا علوّ في الإقبال يعاضده اقترانه بالقرآن بعده: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[الأنعام: ٩٢].

ومن ثم كان موضع سورة الأنعام أعلاها إقبالًا على موسى لتعدد صفات الكتاب وظهور تفضيله وتعاضد النظم على علوّه.

---

(١) ينظر: التفسير الكبير: ٥/١٨٦.

(٢) الفروق اللغوية: الفرق بين الكمال والتمام: ٢٩٤.

(٣) السابق: الفرق بين الشرح والتفصيل: ٧٩.

وقد تعاضدت مع هذه المعاني والدلالات طرائق التعبير بها في الدلالة على الإقبال ويتجلى ذلك في أربعة معالم هي:

المعلم الأول: التعريف والتنكير وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

للتعريف والتنكير أساليب متنوعة للدلالة على الإقبال ودرجته في سياقات المنّ بإنزال الكتاب منها:

1) اطراد تنكير صفات كتاب موسى-عليه السلام- ويظهر لي أنّ دلالتي النوعية أو التعظيم هي الغالبة في هذه المواضع، فدلالة التعظيم ظاهرة في موضع سورة القصص؛ حيث إنّ سياق المقابلة بشأن فرعون وملئه، واعتبار عظيم المنّ على بني إسرائيل بالكتاب يقدم دلالة التعظيم في الصفات، لأنّ هذا أدل على العناية وعلوّ الإقبال عليهم مقابلة بضلال غيرهم.

وكذلك في سياق سورة غافر، لدلالة التفضيل السائرة في السورة، فموسى-عليه السلام- فضل أولي الألباب، وهم فضلوا غيرهم، وبدلالة تعليق: ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ ﴾ بـ: ﴿ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ وتعلو دلالة النوعية في موضع سورة الأنعام: ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (155) ﴾[الأنعام: ١٥٤-١٥٥].

لكونه ممهدًا للكمال الذي سيرد في القرآن الكريم بعدها، ولا يمنع أن يكون فيها تعظيم للصفات وإن لم تكتمل، حيث يكمّل القرآن الكريم هذه العظمة.

وتعاور التعريف والتنكير في الهدى في موضع سورة غافر بين موسى وبني إسرائيل "فكل يخاطب بحسب لغته: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (53) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (54) ﴾ [غافر: ٥٣-٥٤] فحين كان التعلق بسيدنا موسى وحده عرّف: (الهدى) وحينما تعلق ببني إسرائيل نكّره، فكمال الإقبال على موسى -عليه السلام- يستلزم التعريف؛ لأنّه اهتدى به كاملاً، ولمراعاة الكمال بين الرسول والمرسل به، فالهدى هنا كمال بمثله هو في هذا الوصف؛ ولذا عاد التنكير حينما تعلق بغيره حتى وإن كانوا (أولي الألباب) لأنّهم دون مرتبة موسى -عليه السلام-.

كما أنه علّق الهدى بإيتاء موسى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ وعلق الكتاب ببني إسرائيل ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ فخص موسى بالثمرة وأعطاهم السبب[1].

ويتناسق مع العلو: إيثار: ﴿ ءَاتَيْنَا ﴾ مع موسى، وإيثار: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ﴾ مع بني إسرائيل والدلالة على أنه أصل لما أورثوه، فهو سبب للفضل عليهم، وهذا علوّ إقبال على موسى -عليه السلام-.

ويعاضد علوّ الإقبال قوله -تعالى-: ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ فهذا ضمان استمرار الهدى وامتداده في قومه؛ لأنّ الميراث حق ثابت لوارثه لاينزع منه بحال، وهذا من التأييد والنصرة التي تقدمت في السورة: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[غافر: ٥١].

وقد ذكر الهدى ابتداءً هنا، على حين تدرج معهم حتى وصلوا إلى الهداية: ﴿ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [القصص: ٤٣] في موضع سورة القصص؛ للتصريح بالمنّ فيها ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص: ٥].

٢) تعاور التعريف والتنكير بين: (الفرقان)، و(ضياء)، و(ذكراً): ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٨] حيث ورد التعريف في: (الفرقان) لكمال تفريقه بين الحق والباطل؛ إذ المقابل باطل محض فعبودية غير الله باطل ظاهر ولاتدرج في وجاء ما أوتيه موسى -عليه السلام- لرد دعوى ألوهية فرعون وإثبات التوحيد الكامل، ومن ثم كان وصف الفرقان هنا ملائمًا لذلك، وهذا إقبال على موسى -عليه السلام- فحين تعلق الاسم بذات الكتاب عُرّف، ولكن حين تعلق بأثره نكّره، فالكتاب في ذاته مكتمل التفريق بين الحق والباطل، كما أنّ فصله بين حق العبودية لله وباطل الإشراك به غيره يأتي حاسمًا كاملًا لاتدرج فيه، ولكن حين تعلق بأمور لها اتصال بالتشريع والمجتمع وما اتصل بهما نكّر؛ لأنها لما تكتمل بعد فبقيت فيها لبنة لمّا توضع وهي في انتظار الكمال، ومن ثم راعى التعريف لكمال الوصف (النور) مع القرآن: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، لأنه قد اكتمل حينئذ، ومن ثم لما ذكر وصف (ذكرًا) وصفًا للقرآن قيده بالوصف (مبارك) في قوله: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٦/٥٢٤.

مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]؛ نظرًا لعلو مرتبته على التوراة، ومن ثم علوّ مرتبة الرسول على مرتبة موسى -عليه السلام-.

المعلم الثاني: العطف وأثره في بيان رتب الإقبال:

١) العطف على الصفات للكتاب المنزل:

تتابع العطف في موضع سورة القصص: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القصص: ٤٣] مبينًا حال الكتاب الذي أوتيه موسى: " بصائر للناس، وهدى، ورحمة"، وهذا العلوّ لشأن كتابه هو علوّ لشأن المنعم عليه به؛ حيث ورد العطف بالواو، وهذا إقبال لدلالة الواو على استقلال كل وصف عن الآخر من وجه، ومن وجه آخر فيه دلالة الترتيب السياقي الدالة على الترقي في هذه الأوصاف ... فهو بصائر تُرقي للهدى وتستلزم الرحمة.

وحين تتعاضد الدلالات في إيحاءات الكمال بعلو الإقبال، فالبصائر: اكتمال المعرفة[١]، والهداية: التمكن من الرشاد[٢] وهذا يقتضي الرحمة؛ لذا تقدمت البصائر وتوسطت الهدى وختم بالرحمة.

٢) دلالة العطف على تغاير الصفات للذات الواحدة:

دل العطف في قوله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٨] على تغاير صفات ما أوتيه موسى -عليه السلام- واستقلال كل بوصفه في موضعه من الذات هذا من وجه، ومن وجه آخر يرى ابن عاشور أنه: " ليس يلزم أن تكون بعض هذه الصفات قسيمًا لبعض، بل هي صفات متداخلة، فمجموع ما أوتيه موسى وهارون تتحقق فيه هذه الصفات الثلاث"[٣] وهذا كمال في العناية بوجوهها يدل على الإقبال.

وتعدد وجوه المعاني المتولدة من العطف هنا دلالة على علوّ الإقبال في هذا الموضع وهذا ملائم لسورة الأنبياء التي حوت تكريمًا للأنبياء.

---

(١) ينظر: الكليات: فصل الباء: ٢٤٧.

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الهاء: ٥١٦، ٥١٧.

(٣) التحرير والتنوير: ١٧/٦٥.

فقد أوردت ما كان في شأن الأنبياء فقط من دون التعرض لأقوامهم على وجه الاستقلال هذا من وجه، ومن وجه آخر ملائم لتتابع النعم وتكرارها في السورة، وهذا من تنزُّلات الأمر التي لها مدخل في درجة الإقبال.

فإذا ضممت إليه معاني هذه الذوات من تفريق بين الحق والباطل، وتخيُّر: "ضياء" من دون (نور) بما تحويه دلالته من بياض يتخلل أجزاء النور الدَّال على ظهور الطريق السويّ ونصوعه لمن اهتدى[1]، والذكر: الدَّال على حضور المعنى في الذهن[2]، فكمال على كمال في الإقبال بهذا الكتاب المبين العالي في شأنه علوًّا دالًّا على علوّ شأن المُقبَل به عليه والعناية به وبقومه.

كما أنّه قدَّم: (الفرقان) الذي هو أساس الكمال، ثم وسط الضياء الذي به نصوع الحق، وختم بالذكر الذي به حضور المعنى بالذهن، وفي ذلك ترقٍّ في بيان صفة كتاب موسى- عليه السلام - ووضوح الحق فيه، وهذا أدعى لأن يكون عونًا له على إلزام قومه وهدايتهم، وهذا العون إقبال عليه -ﷺ-.

و تعاضدت أساليب أخر مع تنوع الصفات والأسماء وطرائق التعبير بها للدلالة على رتب الإقبال بإيتاء الكتاب ومن ذلك:

أ- اطراد تعظيم الفعل الدَّال على الهبة والمنَّة بالإسناد إلى نون العظمة: ﴿ ءَاتَيْنَا ﴾، ﴿ جَعَلْنَا ﴾ وفي إسناد الفعل لنون التعظيم العائد على الله -ﷻ- دليل اهتمام- كما هو سمت اطراد البيان القرآني- منبعه الإقبال على موسى بهذه النعمة، والعناية بها، وعظمة شأنها العائدة على عظمة شأنه- عليه السلام-.

ب- اطراد توكيد الإنعام بالكتاب باللام وقد: ﴿ لَقَدْ ﴾ إقبالاً عليه؛ لأنّ ما تقدمها كان ذكرًا للمتقين، فكان التوكيد ملائمًا لعظمة الخبر في ذاته، ومن وجه آخر ملائم لتأكيد صدقه أمام اليهود لشدة تكذيبهم وعدم التزامهم.

ولم يرد التوكيد في موضعي سورة الأنعام والإسراء؛ إذ لم يتقدم في الموضعين تكذيب يقتضي توكيد إيتاء الكتاب، بل تقدم في الموضعين الإلزام بأحكام كما في موضع سورة الأنعام:

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ

(١) ينظر : الفروق اللغوية:الفرق بين النور والضياء: ٣٤٨.

(٢) السابق: الفرق بين الذكر والخاطر : ١٠٧.

تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[الأنعام: ١٥٤-١٥٥] أو العطف على نعمة الإسراء كما في موضع سورة الإسراء: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾[الإسراء: ٢-٣] فلم يكن هناك مقتضي للتوكيد؛ لأنه دلّ على الإقبال دوال أخر، من عطف على نعمة الإسراء، والتلطف والتكريم الدائر في السياق، في حين كان التوكيد – في المواضع السابقة– تأييدًا أو تأكيدًا على صدقه وتحقق عونه بنعمة إيتائه الكتاب– عليه السلام–.

ج– اطراد ورود ذكر النعمة بفعل الإيتاء: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا ﴾ لما في دلالة فعل الإيتاء من سلاسة العطاء الدّال على الكرم والإجزال[1].

المعلم الثالث: التقابل وأثره في بيان رتب الإقبال:

وصف الكتاب الذي أوتيه موسى –عليه السلام– في موضع سورة القصص بـ: ﴿ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [القصص: ٤٣] لمقابلة هذه الأوصاف لضلال فرعون وملئه فالبصائر: تقابل ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨]، والهدى في شأن موسى يقابله: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[القصص: ٤١]، والرحمة: تقابل اللعنة لهم ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾[القصص: ٤٢] والتقابل دال على الإقبال من وجهين:

الوجه الأول: اختصاصه بالفضل، ورميهم بالسوء؛ دلالة على فضله وعظمة شأنه عند الله حيث اختص بالأسمى وإن كانت الأوصاف للكتاب إلا أنّه إقبال على موسى–عليه السلام– من وجهين:

١– علو شأن الكتاب إنّما هو لعلوّ شأن المنعم به عليه.

٢– أنّ أي أثر من صلاح في المتبوع إنّما أصله لمن بلغ هذا الهدى . فإن كان هكذا حالهم فكيف به هو؟

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الألف:٩٩.

الوجه الثاني: كمال العلو له وانتهاء التدنّ لهم في الصفات الواردة دليل على علو الإقبال عليه، فقد خص موسى بأعلى الدرجات من كمال معرفة ﴿ بَصَآئِرَ ﴾ وكمال تمكن من الرشاد ﴿ وَهُدًى ﴾ وكمال وصول إلى الغاية، ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ ورُمي فرعونُ والمكذبون بأسفل الدركات من العمى، والضلال، واللعنة.

المعلم الرابع: العموم والخصوص في القيد وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

عُلِّقت صفات الكتاب في موضع سورة القصص (بالناس): ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[القصص: ٤٣] وهذا عموم ملائم لشمول كل من فرعون وبني إسرائيل، وملائم لعلوّ الإقبال لتناسقه مع تعظيم المنن على موسى- عليه السلام - وعمومها في السورة لكلّ أحواله، فكذلك عمّ تأثير كتابه الناس.

وكمال الصفات الواردة: (البصائر)، و(هدى)، و (رحمة) يتم إذا عمّ كلا الجانبين فرعون وملأه لتتم النعمة على موسى- عليه السلام -.

وعُلِّقت الصفة في موضع سورة الإسراء ببني إسرائيل ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٢-٣] واختصاصهم هنا ملائم لخصوص النّعم في الإسراء من وجه، وملائم من وجه آخر للإقبال على موسى-عليه السلام- فهم أهله وهو منهم، وهذا ملائم لغاية التلطف والتكريم الدائر في السورة، يؤكد ذلك قوله - تعالى-: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ فهم من الذرية المؤمنة، وهذا فيه ثناء دالٌّ على علو درجة الإقبال هنا عنه في القصص؛ لأنّ إيحاء الاهتمام بموسى - عليه السلام - ظاهر هنا فقد اهتم خاصة بمن هو منهم،

وفي سورة غافر علقها بـ (أولي الألباب) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾ [غافر: ٥٣-٥٤] وهذا دليل على علوّ درجة الإقبال هنا عنه في الإسراء- كما سبق بيانه- فما كمل عند موسى من (الهدى) كان مبتدئًا

عند خواص الناس: ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ ﴾ وفي مقارنته - عليه السلام - بخواص الناس، ثم تفضيله عليهم علوّ إقبال عليه ظاهر فهو فاضل على أفاضل الناس.

وفي موضع سورة الأنبياء علقت بـ: (المتقين) ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾[الأنبياء: ٤٨] ورأسهم موسى - عليه السلام - وهنا تلازم بين الفرقان وضياء وذكرًا ومتعلقها فهي درجات لوضوح الحق وبيانه لا يصلها إلا الأفضل: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وفي بدء الآية بذكر موسى واختصاصه بالإيتاء، ثم تعليق أثرها بالمتقين ثناء على موسى - عليه السلام - ومدح له ولا شك فهو أتقاهم؛ لذا اختصه به ليبلغه لهم... والله أعلم.

ب- تأييد عيسى- عليه السلام - بالإنجيل

يلتقي الإقبال بتأييد عيسى- عليه السلام- بالإنجيل مع حاله باعتبارين:

أولهما: الدلالة على كرم طبعه وأصله؛ حيث اختص برسالة ترتقي بالنفوس، وتحض على محاسن الأخلاق بما فيها من الآداب، وهذا إقبال عليه؛ حيث إنّه أفضل قومه في الكرم والطبع؛ لذا اختص هو من دون سواه بأن يكون مبلّغًا وموجّهًا لهذه الآداب.

آخرهما: عونه وتأييده بأن جعل كتابه متناسبًا مع من أرسل إليهم، ولا يكون العون والتأييد من الله إلا إقبالاً وعناية، وكلا الاعتبارين له ارتباط بالإنجيل مادة وغرضا؛ فهو مشتق من النَّجل وهو كرم الأصل والطبع [1]، ومن ثم فهناك تلازم بين الإقبال عليه بكرم أصله هو ودلالة الإنجيل على كرم الأصل.

وقد ورد الإقبال عليه بإيتائه الإنجيل في قوله -تعالى-: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد: ٢٧].

وقوله -تعالى-: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾[آل عمران: ٤٨].

وورد ذكر الإنجيل مقيدًا بالحال والوصف في موضع سورة المائدة: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [المائدة: ٤٦] وذلك لملاءمة السياق؛ حيث ورد الإقبال بالتأييد بالإنجيل في سياق تحكيم والزام من وجه، وذكر لخصائص الكتب السماوية وكونها حقًا، وممهدة للحق الكامل القرآن الكريم من وجه آخر.

وأتى الثناء والإقبال على عيسى- عليه السلام - بكونه مصدقًا لما ورد من أحكام وكتب سابقة، وبأن كتابه مصدقٌ لما سبقه، وممهدٌ للقرآن الكريم مبشرًا به، وكون الثناء عليه موصولًا بالثناء على القرآن= كل هذا إقبال على عيسى - عليه السلام - فأعظم المنن ما أتاه من الهدى.

---

(١) ينظر: لسان العرب: باب النون: ٦/٤٣٥٦.

ويعلي رتبة نعمته ورودها مقترنة بالقرآن الكريم؛ لذا كانت الصفات الواردة تدور في فلك الهدى والالتزام لما ورد من أحكام، فيكون أدعى إلى ذم الامتناع عن الأخذ به، وتفسيق أو تكفير أو تظليم من لم يأخذ بهذا الكتاب؛ لأنهم أعرضوا عمن هذا وصفه.

وهذا السياق يدلُّ على نزول درجة الإقبال في هذا الموضع عن غيره من المواضع الأخر؛ لأنّ الثناء لم يكن متمحضًا فقط للإقبال على عيسى -عليه السلام- بقدر ما كان لإثبات استحقاق المُعرضين للصفات المذكورة من: الكفر، والظلم، والفسق.

لذا نجد سياق سورة الحديد: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[الحديد: ٢٧] أعلى رتبة في الإقبال على الرغم من عدم وصف الإنجيل بأي وصف؛ لأنّ السياق متمحض في تفضيل عيسى-عليه السلام- بدلالات أسلوبية كثيرة-تتضح فيما بعد-

ويليه في الرتبة قوله -تعالى-: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾[آل عمران: ٤٨]؛ لما فيه من تعداد النعم على عيسى -عليه السلام-.

وقد ورد " الإنجيل " في جميع مواضع الإقبال معرّفًا بـ(ال) ويمكن صرف دلالتها إلى دلالة الجنس، فجنس هذا الكتاب التأديب والارتقاء بالطبع .

أو إلى دلالة التعظيم، وهذه العظمة تدلُّ على عظمة المنعم عليه بهذا الكتاب، ووردت صفاته منكرة؛ لأنّ السياق الذي وردت فيه يقتضي التنكير لدلالة عدم اكتمال الهدى والنور والموعظة فيها، بدليل ورود ذكر القرآن بعده، ووصفه بقوله -تعالى-: ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨] إلا أنّ وروده مقترنًا بأعظم كتاب ممهدًا أو مصدقًا له= إقبال على عيسى -عليه السلام- فلعلوّ شأنه علا شأن كتابه ومهد لصدق القرآن الكريم.

وقد تعاضدت أساليب الإقبال بإيتاء الإنجيل مع سياقاتها في بيان رتب الإقبال، ويتجلى ذلك في خمسة معالم هي:

المعلم الأول: الخصوص بعد العموم، وأثره في بيان رتب الإقبال:

هذا الأسلوب ارتقاء في الإقبال على عيسى -عليه السلام- إذ يدلُّ على تكرار الثناء عليه، فتارة يثني عليه في جملة الأنبياء، وأخرى يخصه من دونهم بالثناء، وهذا التكرار دليل على علوّ شأنه

ويظهر ذلك في موضع سورة الحديد: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحديد: ٢٧].

ويتلاقى هذا الخصوص بعد العموم مع التفصيل الدائر في سياق السورة من وجه؛ حيث إنه اختص بالذكر تفضيلًا له وعناية به، حيث ذكر في اللفف القبلي قوله: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا ﴾ ثم قال: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ فخصّ ذكره بعد أن أجمله من ضمن الرسل، ثم أجمل كتابه في قوله: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ثم خصه بالذكر في قوله: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾.

ويدخل في ذلك عطف الرحمة على الرأفة في شأن اتباعه: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ قال ابن عاشور: "والرأفة: الرحمة المتعلقة بدفع الأذى والضر فهي رحمة خاصة... والرحمة العطف والملاينة فعطف الرحمة على الرأفة من عطف العام على الخاص لاستيعاب أنواعه بعد أن اهتم ببعضها"[1] وهذا الأسلوب علوٌّ في الثناء والإقبال.

ويعاضد ذلك التفصيل وبسط الحديث عن عيسى – عليه السلام – في هذا الموضع، واتساع الإخبار عنه بجانب غيره ممن قبله، وهذا يتلاءم مع العناية الموجودة في الخصوص بعد العموم.

كما يدخل في هذا الأسلوب تكرار الهدى في قوله –تعالى–: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [المائدة: ٤٦]؛ حيث كرر الهدى مرتين، أطلق الأولى: ﴿ هُدًى وَنُورٌ ﴾ وقيد الثانية: ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وهذا دليل على شمول أثر كتابه لأسنان القلوب، وفي ذلك إقبال عليه؛ حيث أيده بكتاب له أثر على عموم القلوب وخواصها، وهذا من التأييد والعون الدّال على العناية بشأنه، والحرص على نصرته.

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٧/٣٧٩.

المعلم الثاني: الغيبة وأثرها في بيان رتب الإقبال:

ويتجلى ذلك في موضعي سورة آل عمران: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٨]، وموضع سورة الحديد: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾.

حيث ورد الإقبال عليه بالتأييد بالكتاب بالغيبة؛ لتلاقي ذلك مع السياق الوارد فيه المنّة، إذ كان الاهتمام في موضع سورة آل عمران بأصوله، ومن ثم جاء الإقبال عليه في ثوب خطاب والدته؛ لأنّ الإقبال عليه -هنا- وهو لمّا يولد بعد، بل أخبرت والدته بما سيكون عليه، وهذا امتداد لبدء الحديث على الأصول في السياق القريب والبعيد، بينما جاءت الغيبة في سورة الحديد لمرعاة السياق السابق في السورة الذي راعى أصول الرسالات وجذرها الرئيس بدءًا من نوح وإبراهيم؛ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحديد: ٢٦].

المعلم الثالث: التكرار وأثره في بيان رتب الإقبال:

تتساوق دلالة التوكيد في التكرار مع الإقبال حيث فيها دلالة عناية واهتمام بشأنه -عليه السلام- ويتجلى **في هبة الإنجيل في أمور:**

١) تكرار: (قفينا) في موضع سورة الحديد: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[الحديد: ٢٧] فتكرار التقفية مع عيسى -عليه السلام- واختصاصه بها دليل علوّ شأنه، وبيان لعظمة أثره في الرسالات، وهذا يتلاءم مع الإقبال عليه بإيتاء الإنجيل.

٢) تكرار :(هدى) في قوله: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [المائدة: ٤٦] ففيها دلالة شمول التمكين من الرشاد لعموم أسنان القلوب.

٣) تكرار: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ في موضع سورة المائدة، فكان الثناء من وجهين: لذاته - عليه السلام - فهو مصدق لما بين يديه، ولكتابه، واشتمال التصديق لذاته وما أنزل عليه علوٌّ في الإقبال عليه.

المعلم الرابع: العطف وأثره في بيان رتب الإقبال:

١) العطف بالواو:

في العطف بين الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، في قوله -تعالى-: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٨] .

وتقليب دلالة هذا العطف يتلاقى مع الإقبال على عيسى - عليه السلام - بوجوه مختلفة:

أ) ما فهمه الزمخشري من عطف التوراة والإنجيل على الكتاب والحكمة بأنهُ خصوص بعد العموم[(١)]، وهذا الفهم يلتقي مع الإقبال من وجه تكرار النعمة مرتين، وفي ذلك اهتمام وعناية.

ب) ما فهمه الرازي: من أنَّ العطف هنا للترقي، وهذا يتلاقى مع علوّ الإقبال عليه لترقيه من حال إلى حال أفضل منه، قال: "وإنما أخر ذكر الإنجيل عن ذكر التوراة؛ لأنَّ من تعلم الخط، ثم تعلم علوم الحق، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذي أنزله الله -تعالى- على من قبله من الأنبياء فقد عظمت درجته في العلم، فإذا أنزل الله - تعالى- عليه بعد ذلك كتاباً آخر وأوقفه على أسراره فذلك هو الغاية القصوى، والمرتبة العليا في العلم، والفهم، والإحاطة بالأسرار العقلية، والشرعية"[(٢)].

ج) ما فهمه البقاعي: بأنَّ تأخر ذكر الإنجيل دلالة على اشتماله على ما سبق، قال: "وتأخيره في الذكر يفيد تعظيمه بأنَّ ماقبله مقدمات لتلقيه ... لأنَّه في حيز الشرط فيقتضي اتصاف كل مقضي بهذه الأوصاف كلها"[(٣)].

والذي يظهر لي أنَّ العطف حاوٍ لكل هذه المعاني السابقة، وتعدد دلالتها له أثر في علوّ الإقبال عليه بالتأييد بالكتاب بوجوه متعددة: الترقي والخصوص والشمول ...والله أعلم.

---

(١) ينظر : الكشاف: ٣١٣/٢.

(٢) التفسير الكبير : ٢٢٦/٣.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ٩٠/٢.

وتغلب دلالة الترتيب بالواو[1] الدّالة على الترقي في عطف أوصاف أتباعه، فإيحاءات الكلمات دالّة على ذلك؛ فالرأفة: مبالغة في رحمة مخصوصة هي رفع المكروه، وإزالة الضرر. والرحمة هي: أن يوصل إليك المسار، "فالرحمة من باب التزكية والرأفة من باب التخلية"[2] ثم تلتها رهبانية: وهي المبالغة في العبادة والانقطاع عن الناس[3]. وهذا ارتقاء في الثناء عليهم وأسله الثناء على عيسى- عليه السلام - فهو مبلغهم ومؤدبهم الذي -لا شك- أخيرهم وأفضلهم.

وفي عطف عيسى - عليه السلام - على الرسل علوّ إقبال: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الحديد: ٢٧] حيث ذكر الرسل على سبيل الإجمال، وعطف عليهم عيسى -عليه السلام - بالواو من قبيل ذكر الخاص بعد العام زيادة في ذكر فضله، ولتعلق الغرض الرئيس به، ولجريان الأحكام الواردة من بعده على أتباعه من أمته.

خامسًا : تعاور إسناد الإنجيل إلى فعلي: علّم، آتى.

ورد الإسناد إلى الفعل: (علّم) في موضع سورة آل عمران: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾[آل عمران: ٤٨] لاقتضاء السياق لذلك من وجه، وتلاؤمًا مع الإقبال من وجه آخر، فالسياق في سورة آل عمران في الإعجاز بكرامة أصله واصطفائه.

والشك في ذلك يقتضي التعليم للإنجيل لتأكيد صدقه، ولدلالة استمرار العناية؛ ولذا اطرد مع الغيبة المضارعة: "يعلمه" ليدل على الاستمرار التجددي في كل موطن احتاج فيه إلى تعلم؛ زيادة في العناية والاهتمام به.

في حين ورد الإيتاء في موضعي سورتي الحديد والمائدة: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[الحديد:

(١) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ٢/١٨.

(٢) الكليات: فصل الراء: ٤٧٩.

(٣) السابق: فصل الراء: ٤٧٨.

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[المائدة: ٤٦]

لاقتضاء السياق لها؛ لغلبة التفضيل وهبة العطاء في السياقين، فموضع سورة المائدة كان الكلام في معرض مخالفة اليهود والنصارى في حكم الله، فذكّرهم بفضل إيتائهم سبب الهدى فاقتضى هذا أن يرد التذكير بالإنعام عليهم بما يدلهم على الهدى، وهذا يلائم -أيضًا- التمهيد لأعلى نعمة وهي القرآن .

وكذلك في موضع سورة الحديد كان السياق في تفضيل الله للرسل، وتعدد المنن عليهم، فكان الإيتاء مع الإنجيل ملائمًا للإقبال على عيسى - عليه السلام - باختصاصه بهبة الإنجيل.

ج- تأييد الرسول -ﷺ- بتنوع أسماء القرآن وصفاته

إقبال الله على عباده الصالحين يكون بالامتنان عليهم بالنعم، وكلما كانت النعمة أجلّ وأعظم كان الإقبال بها أعلى، ولا أجلّ من نعمة القرآن إنزالاً ووحيًا إليه -ﷺ- ودلّ على العلوّ والشرف تعدد أسماء هذا الكتاب المنزل عليه، فـ: "كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، أو كماله في أمر من الأمور ... وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه، وفضيلته"[1]. وفي ذلك دلالة على علوّ الإقبال عليه -ﷺ- بالقرآن.

وللإقبال بتعدد أسماء القرآن وصفاته مغارس معنوية ومنابت تتضح فيما يلي:

ورود الإقبال بتعدد أسماء القرآن وصفاته عليه -ﷺ- مقابلٌ لما اعتراه في مسيرة الدعوة من وجه، وبيانٌ لمنزلته عند ربه من وجه آخر.

فجاءت مقابلة لما اعتراه في مسيرة الدعوة من تكذيب وتصديق في قوله -تعالى-: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف: ٣].

وقوله -تعالى-: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٣].

وقوله -تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣) ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

وجاءت لبيان مرتبته عند ربه في موضع سورة الحجر: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) ﴾ [الحجر: ٨٧].

وموضع سورة طه: ﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) ﴾[طه: ١-٣].

(١) "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز" مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ت: محمد علي النجار، ط من دون، المكتبة العلمية، بيروت: ١/٨٨.

وموضع سورة فاطر: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ۝٣١ ﴾[فاطر: ٣١].

فقد أتت في هذه المواضع مقابلة لما أوتيه غيره من النعم، فكانت أعظم وأجلّ من نعمهم، كما وردت في موضع سورة طه لنفي الشقاء عنه؛ اعتناءً به واهتمامًا لشأنه.

ويظهر في كلا الوجهين للإقبال عليه -ﷺ- بإنزال القرآن اشتراكهما في التأكيد على عظمة النعمة، بل تفردها واختصاصها به -ﷺ- بأساليب عدة كما سيرد في اختلاف المادة والبناء التركيبي -بإذن الله-.

ويظهر الاختلاف بينهما في ارتفاع نبرة الاهتمام بالمنعم عليه -ﷺ- والتركيز عليه فيما ورد تنويهًا بشأنه، وترتفع نبرة الاهتمام بالنّعمة -القرآن- فيما ذكر مقابلًا لما اعتراه في مسيرة الدعوة من تكذيب وصدٍّ .

وتبعًا لذلك تختلف المادة بحسب السياق والغرض: "هذا الكتاب له أسماء باختلاف صفاته فهو كتاب وقرآن، وفرقان، وذكر، وتنزيل، وتجري عليه هذه الأوصاف، أو بعضها باختلاف المقام،.. ولهذا لم يوصف من الكتب السماوية بوصف القرآن غير الكتاب المنزل على محمد-ﷺ-"[1].

فأعلى الكتب القرآن؛ لذا اختص به النبي -ﷺ- وتسميته بالقرآن فيها دلالة على جمعه ما فيها من الأحكام والقصص وغير ذلك، وهذه عظمة فيه تدلُّ على عظمة شأن المنعم عليه به .

وقد قال بعض العلماء تسمية هذا الكتاب قرآنًا من بين كتب الله لكونه جامعًا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم ومحاسن الأمور[2].

و هذا بيّن في وصف القرآن الكريم؛ حيث يرد وصفه بـ:(الحق) بالتعريف بـ: (أل) من دون غيره من الكتب السماوية، وهذا دليل على أنّه اكتمل فيه ما نقص من الحق فيها.

كما أنّه اختص بالثناء ولم يُوطّئ للثناء على غيره من الكتب، بخلاف الكتب الأخرى فقد ورد الثناء عليها توطئة للثناء عليه، وفي ذلك جمع لما ورد فيها من الهدى والكمال فيه.

كما أنّه جمع محاسن الأمور؛ حيث ورد فيه أحسن القصص، قال – تعالى-: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣] وعلى اعتبار أنّ القصد إلى المصدر، فإنّ المعنى: نقصُّ عليك أحسن الاقتصاص ، وعلى هذا التقدير يعود الحسن إلى حسن البيان لا إلى القصة، وهذا فيه

---

(١) التحرير والتنوير: ١٣/٢٣٥. ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ۝١٠٦ ﴾ الإسراء: ١٠٦

(٢) ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٤/ ٢٦٣.

ثناء على علوّ حسن بيان القرآن عن غيره من الكتب، كما أنّه سمي بالمثاني التي من دلالتها الثناء والشرف[1] ووصف بأنّه عظيم، وهذه محاسن لم تذكر لغيره من الكتب.

وأكدّ على هذه المعاني صاحب التعريفات حين قال: "القرآن –عند أهل الحق– هو العلم اللدني الإجمالي الجامع للحقائق كلها "[2].

وكون القرآن يتلى فإنّ ذلك أرفع من المعجزات الأخرى؛ لأنّها أحوالٌ مرئية وهو مدرك عقلي؛ لأنّ إدراك المتلو إدراكًا عقليًا فكريًا =أعلى من المدركات الحسية؛ ولذا اختص به النبي – ﷺ – ويظهر علوّ الإقبال في ذلك باعتبارين:

أولهما: اختصاص النبي – ﷺ – به من دون غيره من الأنبياء .

آخرهما: اختلاف أحواله، وعلو بعضها على بعض، فيما يتصل بمواضع ذكره على بقية أسمائه.

أما الأول: فلأنّ القرآن تفرد من دون غيره بإعجازه الصوتي، وهذا مرتبط بالقراءة ولا يظهر في الكتابة، وتفرده تعظيم للنّعمة دالٌ على علوّ شأن المنعَم عليه؛ فللقرآن نهج في التلاوة ليس لغيره من البيان العربي أو البشري، فطريق التلاوة والترتيل والتجويد التي يتلى بها لم تكن العرب قديمًا وحديثًا تعرفه، ولاتعهد قراءة غيره بهذه الطرائق.

أما الآخر: فبالإضافة إلى دلالة القراءة على إعجازه الصوتي، فالقراءة –أيضًا– مرتبطة بالتعبد، ومن ثَمّ يكثر ذكر القرآن مع ذكر الصلاة سواء بلفظها أو بمعناها:﴿ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٣] ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ ﴾ [طـــــــه: ١٣٢] ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾[الحجـــــــر: ٩٨]﴿ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾[الحجر: ٩٨] ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ [الحجر: ٩٩]، وهذا جانب ينبئ بعلوّ عبادته –ﷺ– واجتهاده في الدعوة، وقراءة القرآن خير معين على ذلك.

ومن وجه آخر فإنّ حال الرسول –ﷺ– في مواضع ذكر القرآن مقامات بسط ورضى، وتنويه بعلوّ شأنه واختصاصه بالهبات والتيسير عليه، ونفي الشقاء عنه.

ولذا تنامى بيان الإقبال في التنويه بشأن النبي – ﷺ – في مواضع ذكر القرآن –خاصة– يتجلى ذلك في شيوع دلالات القرب في موضع سورة الحجر: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الثاء: ٨٩.

(٢) التعريفات: ١٤٢.

﴿ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧]، وموضع سورة طه ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰ ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝ ﴾ [طه: ٢-٣].

ويظهر تنامي الإقبال في دلالات القرب في الموضعين من وجوه عدة:

أ - شيوع الربوبية في الموضعين، وفي ذلك دلالة على علوّ الإقبال .

ب- الإضافة إلى ضميره -ﷺ- ربك.

ج- التأكيد على أنّ الله -ﷻ- تولى الدفاع عنه-ﷺ-:﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾[الحجر: ٩٥] وتولى رزقه أفضل الرزق:﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[طه: ١٣١].

ويتجلى التنامي - أيضًا- في تكثيف دلالات تعظيم النعمة بوجوه عدة- كما سيذكر في البناء التركيبي- وفي تكرار ذكر القرآن بالتصريح، والإضمار واسم الإشارة -كما في سورة يوسف- وتعدد طرق التعريف تكثيفٌ لدلالات الإقبال.

وهذا التنامي في البيان يدل على علوّ الإقبال عليه بالقرآن الكريم عن غيره من أسماء الكتاب من وجه، ومن وجه آخر يؤكد المقامُ ذلك العلوّ؛ حيث اختص الإقبال بالقرآن بمقامات الثناء على النبي -ﷺ- والتنويه به.

ويلي مرتبة الإقبال عليه بـ:(القرآن) الإقبال عليه بـ: "روح" قال - تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ لما في الروح من دلالة السعة والفسحة الدّالة على البسط مع النبي، كما أنّ فيها دلالة على نعمة الحياة بعد الموت، فالقرآن حياة للقلوب الميتة[1].

كما أنّ الروح من الله؛ لذلك شرف بها الإنسان: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾[الأنبياء: ٩١] لذا عُزِيَ علمها لله -تعالى- خاصة :﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾ [الإسراء: ٨٥].

كما أنّه لم يسمّ بها إلا أشرف الملائكة جبريل: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وشرف هذه التسمية دليل على علوّ الإقبال بهذه التسمية.

كما يؤيد ذلك بدء الآية بـ:﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ الدّالة على تشبيهه بأمر عظيم، ويؤيده -كذلك- ما ورد من التوكيد في الهداية إلى الصراط المستقيم، ووصفه بأنّه صراط الله.

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الراء: ٢١١.

وعلى الرغم من ورودها في سياق مقابل للتكذيب إلا أنّ اختصاصه بالروح فيه دلالة على علوّ الإقبال، وكذلك استعمال فعل الإيحاء: (وأوحينا) والتعليق بـ: (إليك) من دون: (عليك) دليل آخر على علوّ الإقبال بها؛ إذ إنّ فيها دلالة الغاية فهو -ﷺ- المقصود بغاية الإيحاء، وهذا أعلى في التكريم من دلالة الاستعلاء في: (على)[1] الدّالة على التكليف.

ويلي هذه المرتبة في الإقبال، الإقبال عليه بـ: (ذكرًا)؛ لأنّه يحوي في رحمه معنى الشرف ويغلب هذا المعنى في موضع سورة طه بالنظر إلى سياق السورة التي فيها تشريف للنبي، وعناية به برفع الشقاء عنه، وفيها كثافة لدلالات القرب فيه سواء في شأن النبي -ﷺ- أو شأن موسى -عليه السلام-.

ويجمع هذه التسميات الثلاث المتقدمة جامع رئيس، هو دلالة الشرف والعلوّ وإن اختلفت جهاتها، سواء في استلزامها لمحاسن الأمور وهدْي الأنبياء كـ: (القرآن) أو كونها من الله كـ: (الروح)، أو دلالتها على تخليد الذكر ورفع الشأن كـ: (ذكر)، وهذا كله علوّ وشرف.

لذلك فهي أعلى إقبالًا من الكتاب والتنزيل اللذين غلب عليهما معنى الهداية والإلزام والتكليف أكثر من الشرف والعلوّ.

ويليها في رتبة الإقبال به: (الكتاب) ويتجلى الإقبال به على النبي-ﷺ- في أمور:

أولها: السياق؛ إذ يغلب على السياقات الوارد فيها: (الكتاب) التنويه بكماله من دون الوقوف على الالتزام بما فيه من أحكام وتكاليف فقط.

ثانيها: دلالة مادة: "الكاف والتاء والباء أصل صحيح واحد يدل على جمع شيء إلى شيء"[2]، وهذا فيه ثبات وكمال للأمر يستلزم الاقتداء بتكاليفه من وجه، ومن وجه آخر فيه دلالة على عون المرسَل به على من أُرسل إليهم؛ لأنّه إذا جمع بعضه إلى بعض كان أدعى إلى الاستدلال به، وطلبه وقت الحاجة في الاستشهاد عليهم أو غير ذلك.

ونص المفسرون على أنّ تعريف مادة الكتاب مع القرآن خاصة دلالة على تعظيمه؛ فهو الكتاب الكامل والمشتهر من كتب الأنبياء[3].

كما أنّه وُصِف بأنه الحق بتعريف الحق بـ:(ال) في حين نكر الحق مع غيره من الكتب السماوية.

---

(١) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني: ٨٠، ٣٧١.

(٢) معجم مقاييس اللغة: كتاب الكاف، باب الكاف والتاء وما يثلثهما: ٢/٤٣٤.

(٣) ينظر: التفسير الكبير: ١/٢٦٥، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١/٣٣، والتحرير والتنوير: ١/٢١٨.

ويأتي أخيرًا (التنزيل) الدَّال على ترتيب الشيء ووضعه في منزله[1]. وهذا يتلاءم مع ما ورد في السياق من تكذيب وردٌّ على المكذبين بالتأكيد على ثقة القرآن وعظمته النابعة من عظمة مُنزِّله وعظمة مبلِّغه وعظمة مُبلَّغه.

كما أنّ الصيغة التي جاء عليها التنزيل تفيد التدرج، وهو ما كان عليه أمر نزوله على النبي - ﷺ- من وجه، ومن وجه آخر فيه إقبال لتأييد الرسول- ﷺ- بالقرآن وعونه به بتنزيله تبعًا للحوادث.

وللبناء التركيبي في بيان رتب الإقبال أثر يتجلى في ستة معالم هي:

المعلم الأول: تعريف أسماء القرآن وتنكيرها، وأثر ذلك في بيان رتب الإقبال:

ورد القرآن والكتاب معرفين في مواضع الإقبال، سواء بـ(ال) ؛ لما في التعريف من دلالة كمال الوصف كمالًا يميز هذه الهبة للنبي -ﷺ- خاصة أنّ المقروء أكثر، وكذلك المكتوب وتعريفهما يخرجهما من الشيوع الذي ينزل مكانتهما.

وذكر ابن عاشور: أنّ التعريف في الحق تعريف للجنس[2] ولا يمتنع أن يكون -أيضًا- للكمال في الوصف فهو الحق الكامل، حيث اكتمل له كل ما نقص في الكتب السابقة.

كما عرف الكتاب باسم الموصول: (الذي) في موضع آخر ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ﴾ [فاطر: ٣١] لما فيه من إيماء إلى أنّ كونه الحق الكامل أمر معروفٌ معلوم لدى المخاطبين.

وأفاد تعريف الجزئين: قصر المسند على المسند إليه، أي قصر جنس الحق على: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ وهو قصر للكمال في الوصف[3]، لاعتبار كماله فيه بخلاف ما عداه من الكتب مبالغة في ذلك، ويمكن أن يكون القصر حقيقيًا تحقيقيًا باعتبار إثبات الحق له ونفيه كلية عما يقوله المكذبون، ويكون القصر مردودًا إلى مواضع نفي الاستواء في السياق: ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر: ٢٢].

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة: كتاب النون، باب النون والزاء وما يثلثهما: ٢/٥٥٤.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٢/١٦٢.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٧٩.

بينما ورد: "روحاً"، و "ذكراً" منكّر لعدم شيوعه في غير ذلك من الكتب، بل إنّ تنكيره دالٌّ على علوّ الإقبال لدلالته على عظمة الروح و الذكر من وجه، و نوعيتهما من وجه آخر.

المعلم الثاني: التقديم والتأخير وأثره في بيان رتب الإقبال:

ويتجلى أثر التقديم والتأخير في بيان رتب الإقبال من خلال مايلي:

أ . تقديم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله -تعالى-: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ [يوسف: ٣] تقديمًا يفيد الاختصاص[1] وهذا الاختصاص فيه دلالة على علوّ الإقبال عليه -ﷺ- حيث اختص الله -ﷻ- بهذا القصص، ونسبه إلى ذاته -ﷻ- وفيه دلالة على علوّ شأن النبي -ﷺ- لعلوّ شأن ماأوحي إليه.

ب . تقديم الجار والمجرور الحاوي ضميره -ﷺ-: (إليك، عليك) على المفعول: "أحسن" وفي ذلك دلالة على علوّ في الإقبال والاهتمام به -ﷺ- حيث قدّم ذكره على النعمة، كما فيه دلالة قرب ورحمة، وتمام الإنعام عليه بأن اختصه عن طريق تقديم المتعلق بهذا السمو؛ لأنّ كل قصص في غير القرآن لا يصل إلى روعة قصصه دقة أسلوب، وجمال عرض، وصحة خبر.

المعلم الثالث: التعريف بـ: (ال)وأثره في بيان رتب الإقبال:

يتجلى الكمال في التعريف بـ: (ال) في تعريف القرآن والكتاب وكذلك ماورد من أوصاف للقرآن (العظيم) لدلالته على أنّ كل الصفات المتعلقة بالقرآن متحققه فيه على وجه الاستغراق ابتداءً من الحرف وانتهاءً بالكل، ومرورًا بأجزائه المختلفة:﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾[طه: ٢]، فالإنعام عليه بنفي الشقاء في كل ما يقرأ منه ابتداءً من الحروف، وكذلك معاني التعظيم والتشريف والإعجاز التي تشعر به مادة القرآن متحققة في كل أجزائه- أيضًا -على وجه الاستغراق، وهذا علوٌّ فيه يتناسب مع العلوّ مع المنزل عليه -ﷺ-.

كما أنّ في النفي عمومًا مستفادًا من النفي والاستثناء كما في سورة طه: ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ [طه: ٢] ووقوع فعل: (أنزلنا) في سياق النفي يقتضي عموم مدلوله، لأنّ الفعل في سياق النفي بمنزلة النكرة في سياقه، وعموم الفعل يستلزم عموم متعلقاته من مفعول ومجرور.

(١) السابق: ١٢٨.

فيعمّ نفي كلّ إنزال للقرآن فيه شقاء له، ونفي كلّ شقاء يتعلق بذلك الإنزال، أي جميع أنواع الشقاء، فلا يكون إنزال القرآن سببًا في شيء من الشقاء للرسول -ﷺ- وأول ما يراد منه هنا أسف النبي-ﷺ- من إعراض قومه عن الإيمان بالقرآن[1] وقد أكد هذا المعنى بالاستثناء؛ ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٣] الذي فيه تأكيد للمدح بما يشبه الذم؛ حيث يتبادر إلى الذهن ضده أو شيء ينقص عموم نفي الشقاء فأتى بما يعلي شأنه ويزيده.

المعلم الرابع: تعظيم شأن المنزل وأثره في بيان رتب الإقبال:

ورد تعظيم شأن المنْزِل -ﷻ- بأساليب عدة تدل على الإقبال، ومن ذلك:

١. العدول من ضمير المتكلم إلى الموصولية في موضع سورة طه، إذ عدل من الضمير في ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ [طه: ٢] إلى الموصولية ﴿ مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾ [طه: ٤] وجعل مبلغها أعلى مخلوقاته وأدلها على عظمته؛ لتعظيم شأن المنزل عليه- ﷺ- لاسيما وقد وصف السماوات بالعلى فهو علوٌّ يقابل علوّ القرآن.
٢. تخير نون العظمة ومافيها من معنى الرضى والبسط في إسناد الإقبال إليه -ﷻ- (آتيناك - أوحينا - أنزلنا).
٣. الوصف؛ حيث ذكر العظمة في وصف ذاته العلية بصفات الجلال والكمال ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ ﴿ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ ﴾ وتعظيم المنعِم فيه تعظيم شأن المُنْعَم عليه، وهذا علوٌّ في الإقبال عليه -ﷺ- .

المعلم الخامس: التعليق وأثره في بيان رتب الإقبال:

اطّرد تعليق المنّة بالقرآن الكريم بالله -ﷻ- مع مراعاة صفات تتلاقى مع الرتبة، وذلك لأنّها تضفي على القرآن ظلالًا من تلك الصفات وتكسوه بها، سواء كان ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ أو ﴿ مِّن لَّدُنَّا ﴾، أو ﴿ مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ فإذا كان من لدن حكيم خبير-مثلًا- فهذا يدل على حكمة القرآن في وضع كل معنى ولفظ في موضعه الأخص به على وجه الإعجاز وهذا علوّ، ولا يخفى أنّ المتعلق يَشْرُف بمتعلقه -ولا شك[2] - وهذا التشريف علوٌّ في الإقبال.

---

(١) التحرير والتنوير: ٩٥/١٦.

(٢) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٥٧.

المعلم السادس: تخيُّر أفعال الإسناد معنى ومبنى، وأثرها في بيان رتب الإقبال:

وردت أفعال الإقبال بالقرآن جميعها في زمن المضي :(آتيناك، أنزلنا، أوحينا) وفي ذلك دلالة على تمام النعمة وكمالها، كما دلت مادتها على علوّ الإقبال حيث وردت: (آتيناك) من دون (أعطيناك)؛ لما في معنى الإيتاء من سلاسة العطاء والكرم[1]، وكذلك التحنن إليه والتقرب منه - ﷺ - ولا يخفى ما في جَرْس صوت المدّ: (آتيناك) من دلالة على اتساع العطاء.

ودل: (أوحينا) على القرب الدّال على علوّ الإيتاء، ودلّ حرف الجرّ: (إليك) على القرب، فتعاضدت الدلالتان على أنّ القرآن هبة له لقرب منزلته ومكانته.

كما تحوي: (أنزلنا) دلالة على العظمة؛ حيث أنزل إليه القرآن من موضع عالٍ جدًّا، وهذا دليل على علوّ شأن المنزل الدّال على علوّ شأن المنزل إليه.

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الألف: ١٨.

د- تأييد الرسول -ﷺ- بمباشرة تعليمه (ماكتنات القرآن)

كما امتن الله - ﷻ - على الرسول -ﷺ- بنعمة الكتاب امتن عليه بمباشرة تعليمه الغيب، ويتجلى ذلك في المواضع التالية: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44) ﴾ [آل عمران: ٤٤]، ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49) ﴾ [هود: ٤٩]، ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) ﴾[يوسف: ١٠٢]، ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46) ﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (86) ﴾[القصص: ٨٦].

مغرس الإقبال المعنوي في المواضع:

لهذه المواضع مغرس معنوي مشترك في أنّها جميعًا في الدلالة على أنّ الله -سبحانه- تولى تعليمه مباشرة[1]، إذ سدّ منافذ العلم المعهودة من وجود وحضور، فذكر بذلك الدليل على اصطفائه بالعلم اللدني، لاسيما أنّ هذه المواضع قد اطّردت جميعها في سياق قصص غيبي لايمكن أن يُعرف إلا عن طريق الوحي.

(١) ينظر: "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" أبو الفضل شهاب الدين الألوسي، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١ م: ١٠/٢٩٣.

وللإقبال بهذه المواضع خصوصية باعتبارين:

أولهما: اختصاص الإقبال بها بالنبي محمد -ﷺ- من دون قومه، واختصاصه بالكمال فيها من دون غيره من الرسل، وهذا دليلٌ على علوّ الإقبال عليه.

آخرهما: خصوصية كل موضع بما يلائم السورة والحدث من حيث السياق، فيلاحظ أنَّ موضع سورة آل عمران اختص بنفي كون وجوده حاضرًا نبأ كفالة مريم والاختصام في تلك من دون غيرها من السور، قال-تعالى-: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٤]؛ لتناسب ذلك مع دواعي الاصطفاء والكفالة ؛ لأنهما يستلزمان كفالة الله - ﷻ- للرسول-ﷺ- وحفظه ورعايته.

ويعاضد هذا المغرس المعنوي وصف الله نفسه في مطلع السورة بالحيِّ القيوم: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ٢]، وهذان الوصفان هما عماد توليه حفظ أوليائه ونصرهم بوجوه شتى، لاستلزام القيومية معنى تواصل العناية والرعاية والقيام بشأنه - ﷺ- وهنا يكمن علوّ الإقبال عليه- ﷺ- فبالإضافة إلى اختصاصه بالتعليم بأمور غيبية، راعى - أيضًا- حالًا من أحواله - ﷺ - ليقبل عليه به.

أما موضع سورة هود : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: ٤٩] فمغرسها إعراض المشركين عن النبي-ﷺ- إعراضًا يستلزم إقبال الله -ﷻ- له بتلك الخصوصية من مباشرة التعليم؛ زيادةً في تأنيسه، وتعويضًا له عن وحشة إعراضهم، ودلالة على صدقه وخطئهم، ومن ثم كان مطلعها: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾ [هود: ٥] فهذا من ذاك، ومن ثم توالي القصص على هذا النحو من الإعراض.

وفي موضع سورة يوسف: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٢] اختص اجتماعهم على المكر بنفي كون وجوده حاضرًا ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ فهذا الحدث يلائم مقابلة حرص النبي -ﷺ-

على إيمان قومه بثباتهم على الكفر، كما قابل إخوة يوسف حب أبيهم له؛ لدلائل النبوة فيه بمكرهم، ويعاضد هذا المعنى من دلالة النّظم ما ورد بعدها مباشرة: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[يوسف: ١٠٣].

أما مواضع سورة القصص: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[القصص: ٤٤-٤٦]، ﴿ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾[القصص: ٨٦] فبالإضافة إلى الإقبال فيها بتعليمه مباشرة أمورًا غيبية، فقد تضمنت أحداثًا مشابهة لأشدّ أحواله -ﷺ- ففيها مشابهة لحاله حين إلقاء الوحي عليه -ﷺ- في الغار حيث جمعهما معًا هول المفاجأة وحالة الخوف.

وفي إخراج موسى -عليه السلام- من مصر، ومكثه في مدين ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[القصص: ٤٥] مشابهةٌ لحال إخراجه -ﷺ- من مكة مُكْرها وهو محب لها، كما أخرج موسى مكرهًا من مصر، ومكثه -ﷺ- في المدينة فيه مشابهة لمكث موسى -عليه السلام- في مدين، ولا يخفى علوُّ منزلة النبي -ﷺ- في طريقة عودته إلى مكة عن عودة موسى - عليه السلام - حيث عاد رحمةً لقومه على حين كانت عودة موسى - عليه السلام - هلاكًا لفرعون وقومه، وفي هذه المشابهة لأحوال مختلفة لرسول -ﷺ- تسليةٌ واهتمامٌ بشأنه -ﷺ-.

كما يظهر مغرس الإقبال فيها في دوران السورة كلها على الاختيار الأمثل من الله لأصفيائه في كل معاقدها الرئيسة: ﴿ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [القصص: ٦٨][1]، فمن ثم اختار له مباشرة تعليمه؛ إقبالاً عليه وعناية به ولم يكل ذلك إلى البشرية في أقرب صورها من أب أو أم أو معلم...

(١) الأمثل عندي أن تكون: (ما) بمعنى: (الذي)، وعلى هذا المعنى دار المقصد الرئيس من السورة.

ويعاضد هذه المفارس المعنوية في موضع سورة القصص في الدلالة على علوّ الإقبال دلالاتٌ عامة في النظم، تتجلى فيما يلي:

١- عناية سورة القصص بقصص موسى -عليه السلام- بسطًا وكأنّ فك الادغام فيه تلازم مع تتابع القصة في مراحلها وأحوالها المختلفة.

٢- دلالة السورة باسمها على هذا، وكذلك مطلعها الذي سمي القصص:(بالنبأ) ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [القصص: ٣]. والنبأ لا يكون إلا لخبر عظيم[1]، كل هذا فيه دلالة على علوّ شأنه -ﷺ- بأن اختص بتعليمه مباشرة من الله -ﷻ-.

٣- امتداد الخطاب كما سيظهر في البناء التركيبي، فلم يخاطب بموضع واحد، ولا بحالة واحدة بل بأكثر من حال في أكثر من موضع، وفي هذا امتداد للمواجهة.
وتكذيب معارضيه وامتداد المواجهة دليلٌ على علوّ الإقبال في هذه المواضع.

ولاشتمال مواضع سورة القصص لأكثر من حال من أحوال الرسول -ﷺ- هي أحداث رئيسة بالنسبة للقصة، وأقرب إلى حاله -ﷺ- وأقوى في الاستدلال على علو الإقبال= تخيرتها لتحليل بنائها التركيبي، وبيان أثره في بيان رتب الإقبال.

البناء التركيبي وأثره في بيان رتب الإقبال:

يتجلى أثر البناء التركيبي في بيان رتب الإقبال في ثمانية معالم هي:

المعلم الأول: الخطاب وأثره في بيان رتب الإقبال:

يظهر أثر الخطاب في بيان رتب الإقبال في:

١) تخيُّر الخطاب من دون الغيبة واطراده في جميع المواضع، وللخطاب مزية ظهور العناية والاهتمام التي تلتقي وعلوّ الإقبال عليه -ﷺ- فدلالة المباشرة والمواجهة أدخل في الإقبال وأدلُّ على الإفادة من المعلّم -ﷻ- .

٢) امتداد الخطاب في مواضع متفرقة من أول السورة إلى ختامها بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا

---

(١) ينظر: الفروق اللغوية: الفرق بين النبأ والخبر: ٥٣.

كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ [القصص: ٨٥-٨٦].

المعلم الثاني: الإطناب والإيجاز، وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

يتجلى أثرهما في بيان رتب الإقبال في هذه الموضع فيما يلي:

١) **الإطناب بالتكرار:** كررت: "ما كنت" في جميع المواضع، ويكمن علوّ الإقبال في هذا التكرار في زيادة العناية والاهتمام به في المواقف المتعددة، والأحوال المختلفة، حيث أخبره بما كان فيها حين كان غائبًا عنها؛ دليلٌ مباشرة تعليم بما يشهد على صدقه في التبليغ. كما كرر ضمير العظمة في: (قضينا، لكنا، أنشأنا، آياتنا، نادينا...)، فهذا التعظيم يتلاقى مع تعظيم العلم المنصوص له -ﷺ- وتعظيم المعلِّم.

٢) **الإيجاز في تسمية:** "الطور" حيث سماه في مواضع النفي: "بجانب الغربي" و" بجانب الطور" ولم يذكر صفة الأيمن، في حين ذكرها في الإثبات، وفي ذلك تحرز من نفي التيمن عنه ولو احتمالًا، وهذا يتلاقى مع الإقبال عليه بالمباشرة بالتعليم؛ فلم ينفِ كونه حاضرًا لأمر فيه يُمْنٌ، حتى لو كان اليمين جهةً له فقط.

المعلم الثالث: النفي وأثره في بيان رتب الإقبال:

بُني الإقبال في هذه المواطن على نفي الكون، وهذا أقوى من أن ينفي فعل تعليمه من غير الله[1]؛ لأنه بنفي كونه موجودًا نفى لسبب العلم وطريقه المتعارف عليه، ويتعين من ذلك أنّ طريق علمه هو إخبار الله -تعالى- إياه خبر موسى-عليه السلام- وهذا سوق لاختصاصه بهذا الشرف بالدليل.

كما أنّ في نفي كونه -ﷺ- موجودًا أن ذلك دليلًا على أنّ الأخير تأخير زمان وجوده إلى حيث اكتمال بعثته؛ فيكون الخاتم للمرسلين تناسبًا مع علوّ مكانته وكمال رسالته، حيث اطرد في اللغة أن يأتي نفي الكون حين إرادة التضاد بين حالين أو وصفين.

(١) راجع تفصيل دلالة نفي الكون في البحث:٨٨.

كما ورد النفي بـ: (ما) الحاملة في رحمها قوة في معنى النفي، فقد نصَّ سيبويه على ذلك بقوله:"وإذا قال: لقد فعل: فإن نفيه: مافعل؛ فكأنَّه قال: والله لقد فعل، فقال: والله مافعل"[1] بمعنى أنَّها تكون نفيًا لإثبات مؤكدٌ من المخاطب، يلتقي مع تأكيد تولي تعليمه مباشرة بالوحي من الله، فإذا لم يكن حاضرًا فكيف علم؟.

المعلم الرابع: العموم والخصوص، وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

يتجلى أثر الخصوص في بيان رتب الإقبال – لما عرف من المبالغة في العناية بالأمر المخصوص – فيما يلي:

١) اختصاص نفي كون وجوده في مواطن محددة من القصة من دون غيرها، مع أنَّ النظم ذكر في القصص أمورًا غيبية كُثُر كان يمكن الامتنان بتعليمه إياها مباشرة بنفي كون وجوده فيها، ولكن اختصت هذه الأحداث بالامتنان بها؛ لأمور هي:

أ- أنَّها أعلى الأحداث الرئيسة في القصة؛ لأنها بداية الالتقاء بالوحي، ففيها مشابهة لحاله – ﷺ – كما سبق ذكره في المغرس المعنوي للإقبال – لُعلي من الإقبال عليه بالتعليم المباشر للقصص.

ب- دوران هذه المواضع بين وجهي إقبال هما: تكريم النبي -ﷺ- وتسليته، فتكريمه بما ذكر من اختصاصه بالتعليم بالوحي مباشرة، وتسليته = يكمن في تصبيره على أحداث الرسالة فهو -ﷺ- ليس بدعًا من الرسل، بل سبقه إلى ذلك موسى -عليه السلام-.

كما أنَّه سلَّاه بأن ذكر خروج موسى -عليه السلام- مكرهًا من مصر كما أُخرج هو من مكة، وترقى في هذه التسلية بالتعهد له بالعودة إلى مكة منصورًا ظافرًا -ﷺ- وهذا وعد لم يذكر مع موسى- عليه السلام - وفي ذلك دليل علوّ الإقبال على النبي-ﷺ-.

وجمع هذه المواطن للمشابهة الضمنية لحاله – ﷺ -وتعريضها لتسليته تعريضًا من غير تصريح، وتضمنها تكريمه بالتعليم المباشر= أدعى لتخصيصها من دون غيرها.

(١) الكتاب: سيبويه: ت: عبدالسلام هارون، ط من دون، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م: ٣ /١١٧.

٢) الخصوص في قوله: ﴿ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّٰهِدِينَ ﴾[القصص: ٤٤] بعد قوله: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾[القصص: ٤٤] "وحاصله نفي الوجود العيني إذ ذاك فيكون ترقيًا في النفي"[1] وهذا علوٌّ في الإقبال عليه؛ لنفي سبب العلم المتعارف عليه، وإثبات الوحي والمباشرة بالتعليم بطريق الوحي، فكأنّه ساق الأمر بدليله.

٣) عموم الزمن وامتداده في قوله -تعالى-: ﴿ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾[القصص: ٤٥] فهذا التطاول في الزمن والانقطاع في العلم الحق، يؤيده تنكير: ﴿ قُرُونًا ﴾ الدّال على أنّها قرون طوال غير محددة بعدد-يتلاقى مع زيادة التكريم والإقبال؛ لأنّه علمه بعد طول جهل امتدّ زمانًا ومكانًا وحالًا، فكأنّه -ﷺ- نقطة الضوء في وسط هذا الظلام المتراكم.

المعلم الخامس: شيوع الربوبية وامتدادها، وأثر ذلك في بيان رتب الإقبال:

يتجلى بيان علوّ الإقبال بالربوبية هنا في جوانب هي:

١) إيثار الربوبية وإضافتها ضميره -ﷺ- في أكثر من موضع: ﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٦] وفيه دليل تحنن وتقريب، وخصوصية تلازم بين المضاف والمضاف إليه.

٢) العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في مقام الإضمار، فلم يرد النظم: (رحمة منا) بل ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ مع أنّ مقتضى الظاهر العطف على الضمير في "نادينا "، "منا " "لما يشعر به معنى الرب المضاف إلى ضمير المخاطب من العناية به عناية الرب بالمربوب"[2].

٣) امتداد هذه الربوبية في السورة وشيوعها في مقصدها الرئيس، في اختيار الأمثل للخلق عامه فكيف به- ﷺ- ومن حوله؟ بدءاً من المنّ على بني إسرائيل، ثم على سيدنا موسى، والمنّ على الأمة بتوصيل الذكر إليهم، ثم جعل الحرم آمناً لهم والناس يتخطفون من حوله،

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ١٠/٢٩٤.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٠/٦٨.

وجني الثمار لهم، والمنّ عليهم بتعاقب الليل والنهار، وانتهاءً بوعده بالعود الحميد له...، وهذا منبعه تكريمه هو - ﷺ-.

المعلم السادس: التقابل، وأثره في بيان رتب الإقبال:

ويتجلى ذلك في تضاد التعبير بين الرحمة والإنذار، حيث علّل قوله:﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٤٦] بـ:﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾[القصص: ٤٦] وتقليب المعاني في هذا التقابل يدُلّ على علوّ الإقبال من أكثر من وجه:

١) اختصاصه -ﷺ- بالرحمة:﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ وجعل الإنذار لقومه، وكون الرحمة له والإنذار لغيره علوًا في الإقبال عليه.
٢) أنّه هو الرحمة بذاته؛ لأنّه منذر لقومه مما يكون سبب هلاكهم، واختصاصه -ﷺ- بذلك من دون غيره إقبال عليه، يعلي منه امتداد آثار هذه الرحمة، وهو ما ورد في السورة من آثار الربوبية التي تستلزم الرحمة.
٣) أنّ الوحي إليه رحمة له؛ إذ لم يترك من غير هدى، بل هداه الله من جهل قومه، وهذا إقبال عليه.

ويعضد معاني الخصوصية أساليب هي:

أ- ورود: (رحمة) بالاسمية الدّالة على الثبات، في حين ورد الإنذار فعلًا مضارعًا فيه دلالة التجديد والتغيير، لا الثبوت، وهذه المقابلة بين الدّلالتين دليل علوّ في الإقبال عليه -ﷺ- حيث جعل الرحمة وصفًا ثابتًا له، والإنذار متجددًا بحسب الأحداث والحاجة، وهذا يجعل الرحمة أصلًا فيه، والإنذار مقتضًى.

ب- تنكير: "رحمة" يدل على كونها رحمة عظيمة الشأن، وفيه معنى العموم لعموم رحمته للعالمين في الدنيا والأخرة، والنوعيه فهي رحمة من عظمتها ليست معهودة في الناس وهذا علوّ آخر في الإقبال.

ج - يعضد دلالة الاستدراك على عظمة شأنه ﴿ وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٤٦] بالنسبة لغيره ممن أرسل رحمة للناس، النفي الوارد بعدها: ﴿ مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [القصص: ٤٦] ففي دلالته على أوليته في إنذارهم دلالة تكريم ظاهرة.

د - الرجاء بـ: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٦] وجعله من مقتضيات الرحمة بالنبي - ﷺ - علوٌ في الإقبال عليه؛ حيث جعل صفتهم بعد الإنذار: (التذكر) من دون غيرها من الصفات كالتعقل، أو التفكر؛ لأنَّ: (التذكر) من أعلى مراتب الفهم[1]، وتخيُّر هذه المرتبة العالية دليل عناية منبعها الإقبال على نبيهم؛ لأنه هو أساس هذ التذكر.

المعلم السابع: رد العجز على الصدر، وأثره في بيان رتب الإقبال:

يظهر الإقبال برد العجز على الصدر في التلازم بين قوله - تعالى-: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٤٦] وقوله آخر السورة: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾[القصص: ٨٦] فكأنه حقق له رجاءه قبل أن ينص عليه نصًا، وهذا علوٌ في الإقبال؛ إذ لبّى له الله ما يجول في خاطره دون أن ينطق به[2]، سواء كان هذا الرجاء: (الرحمة) -كما ذكر الرازي-[3] أو: (إلقاء الكتاب) -كما ذكر الطاهر ابن عاشور-[4] فكل ذلك إقبال عليه - ﷺ -.

المعلم الثامن: العطف وأثره في بيان رتب الإقبال:

يتجلى أثر العطف في علوّ الإقبال في موضعي القصص: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [القصص: ٨٥-٨٦]

(١) ينظر: الكليات: فصل الألف: ٦٧.

(٢) إذ كان الرسول- ﷺ- كثيرًا ما يتحنث في غار حراء راجيًا الهداية، وهذا قبل الوحي في حياة الرسول -ﷺ- فحقق الله رجاءه قبل أن ينطق، كما في تحويل القبلة للبيت الحرام، ومن ثم قالت له عائشة -رضي الله عنها-: "ما أرى ربك إلا يسارع في هواك"صحيح البخاري: كتاب: تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾ رقم الحديث ٤٧٨٨: ٦/١١٧.

(٣) ينظر: التفسير الكبير: ٩/٢٠.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٠/١٢٢.

حيث لم يعطف قوله: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ على ماقبله: ﴿ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا ﴾ كما لم يعطف ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوا ﴾ على ماقبله أيضا لمراعاة المعنى الدقيق لمزيّة في ذلك، نصّ عليها عبد القاهر الجرجاني بقوله: "اعلم أنّ مما يقل نظر الناس فيه من أمر العطف، أنّه قد يؤتى بالجملة فلا تعطف على ما يليها، ولكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التي تعطف جملة أو جملتان ....، والسبب في ذلك أنّ الجملة المتوسطة بين هذه المعطوفة أخيرا وبين المعطوف عليها الأولى، ترتبط في معناها بتلك الأولى....، ومما لا يكونُ العطفُ فيه إلاّ على هذا الحدّ قوله -تعالى-: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القصص: ٤٤-٤٥] لو جَريْتَ على الظاهر فجعلت كلّ جملةٍ معطوفةً على ما يليها مَنَعَ منه المعنى، وذلك أنه يلزم منه أن يكون قوله: ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ معطوفًا على قوله: ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ وذلك يقتضي دخوله في معنى لكن ويصير كأنه قيل ولكنك ماكنت ثاويا، وذلك ما لايخفى فساده، وإذا كان كذلك بان منه أنه ينبغي أن يكون قد عطف مجموع :"وماكنت ثاويا في أهل مدين... إلى مرسلين" على مجموع قوله: "وماكنت بجانب الغربي ... إلى قوله العمر"[1].

وكذلك الأمر في الموضع الثاني، فلو عطفت جملة: "وما كنت" على ما سبقها لأدخلت في مقصودها، لكن عطفها على الجملة الأولى يجعل تعيين غرض الكلام منحصرًا فيها، وهذا أقوى للإقبال عليه؛ لأنّ القصد إلى إثبات المنّة له بالتعليم المباشر له من الله واختصاصه بذلك.

---

(١) دلائل الإعجاز: ٢٤٤، ٢٤٧.

هـ - التأييد بتلقين الحجة

تلقين الحجة منٌ وإنعام فيه إقبال على من أنعم بها عليه، فهو هداية إلى طريق الصواب، ولمّا كان من أسس الإقبال أن يتفاوت علوّه بتفاوت رتب أسنان القلوب[1] كان أعلى الإقبال بتلقين الحجة لأعلى الناس رتبة محمد -ﷺ- فعلى الرغم من اشتراكه مع الأنبياء من أولي العزم في التأييد بتلقين الحجة وقت الحدث، إلا أنّه اختص -ﷺ- برتبة أعلى تتلاءم وعلوّ رتبته على سواه من الأنبياء، فلقّن بالحجة ابتداء قبل وقوع الحدث، "هذا نوع من دفاع الله عن نبيه وهو تلقينه مايقول لخصومه ومناظريه مع أنّه أفصح الخلق وأعلمهم بطرق الحجاج وأقواهم على إفهام الخصم ولكن الله -تعالى- يحب أن يظهر عنايته بمختلف الأساليب"[2] وهذا علوٌ في الإقبال عليه، حيث بلغت العناية به أنّ يحمى من الحدث، ومن عوارض النفس عند وقوع الحدث من خوف وغضب وغيره، في حين أنّها وقعت لغيره من الأنبياء -كتلقين موسى -عليه السلام- - الحجة- عند مواجهة السحرة بعد أن وقع الخوف في نفسه: ﴿ فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه: ٦٧] ﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴿٦٨﴾ ﴾ [طه: ٦٨] فكأنّ الله في هذه المواضع التي لقّن النبي بالحجة فيها في أمور مستقبلية لم يرض أن ينتظر بالرسول - ﷺ - إلى وقت وقوع الحدث فأعده ابتداء لما سيقع ليكون على ذكر منه، وعلى بيّنة بما سيقول فيه، وهذه عناية بالغة تلائم علو رتبة النبي -ﷺ-.

فتارة يُعدُّ للرد على من سيخالفه في شأن القبلة، قال -تعالى-: ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴿١٤٤﴾ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴿١٤٥﴾ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴿١٤٦﴾ الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴿١٤٧﴾ ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير ﴿١٤٨﴾ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد

(١) ينظر: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

(٢) دلالة القرآن المبين على أنّ النبي أفضل العالمين: ٩٦.

ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) ﴾ [البقرة: ١٤٤-١٥٠].

وبُعدٌ أخرى للردّ على المجادلين في شأن عيسى -عليه السلام-: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ (٦١) ﴾ [آل عمران: ٥٨-٦١].

وثالثة بُعدٌ للرد على اتهامه بمجانبة الطريق المستقيم: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٤].

وأخرى بُعدٌ للصمود أمام من يؤذيه ليتراجع عن عبادته كما في قوله -تعالى-: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ (١٠) أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ (١١) أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ (١٢) أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ (١٧) سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ (١٩) ﴾ [العلق: ٩-١٩].

ويلاحظ في هذه المواضع اشتراكها في وجه إقبال واحد؛ هو اختصاصه -ﷺ- بتلقين الحجة قبل وقوع الحدث تأييدًا له، وعناية بالغة حتى من عوارض النفس على اختلاف مغارسها.

فلما تقدم في موضع سورة البقرة: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾ [البقرة: ١٤٤] مخازي اليهود

وما ذكر من حسدهم للخير الذي أنزل للمسلمين- ما يؤكد إنكارهم النعم التي أنعم الله بها عليهم- أقبل عليه - ﷺ - بتلقينه الرد عليهم في إنكار هذه النعمة على سبيل اليقين في الحدوث، فليس غريبًا أن يقع منهم مثل هذا؛ لذا سماهم السفهاء، فهم يعارضون لأجل المعارضة والمخالفة من غير عقل ولافهم.

ولما تقدم في موضع سورة آل عمران تقرير أمر عيسى -عليه السلام- على خلاف ما هم عليه وعلى خلاف معتقدهم كانت المحاجة واردة يقينًا؛ لمخالفته لاعتقادهم وعبادتهم، فورد الإقبال عليه بتعليمه كيفية التصرف عند وقوع هذه المواجهة، فأتت المجادلة عقلية؛ لأنّ الحال قريب إلى الفهم فمن جادل النبي- ﷺ- كانوا الرهبان من وفد نجران، بخلاف المحاجة في موضع سورة البقرة فالذين عارضوا لا علم لديهم، فمعارضتهم للمعارضة فقط مع وضوح الحجة؛ ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩] ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولما تقدم في موضع سورة الأنعام براءته منهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٩] كان هذا إعلامًا بالمواجهة معهم وتنبيهًا لتميزه واختلافه عنهم بالوجوه التي ذكرها؛ فهم شيعٌ في دينهم، بينما هو على صراط الله المستقيم، فورد الإقبال عليه بتلقينه وجه المخالفة ووجه البراءة منهم، فكأنّه لقّن الصفات الخاصة به - ﷺ - التي تميزه عنهم؛ لأنّ التبرؤ منهم يضاد هذه الصفات الذميمة، حيث إنّ المتوقع أن يتساءلوا لم لمْ يكن منهم؟ وما وجه البراءة منهم؟ فورد الإقبال بتلقينه - ﷺ- كل ذلك قبل وقوعه، وقد وقع.

وورد التلقين له في موضع سورة العلق توجيهًا لفعله؛ لأنّ ما تقدمها كان في معاندة لأمر يتعلق بالفعل: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ ﴾ [العلق: ٩-١٠] فأقبل عليه بتلقين فعله لا قوله؛ ليلائم ما كان في أول الأمر من إيذاء الجسد، ومن ثم كان النهي أدلّ على هذا السمت ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩].

ولاختلاف هذا المغرس تفاوتت رتب الإقبال، وتفاوت البيان تبعا لذلك، فكان أعلى البيان في موضع البقرة لعلو رتبة الإقبال فيه لاعتبارات متعددة:

أولها: قوة المخالف وشغبه، ولذلك وصف بالسفيه لما تقدم في السياق من ذكر حسدهم للمسلمين ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩] ولا يكون الحسد إلا من سفيه، فتلقين الحجة أمام هؤلاء أقوى؛ لما في مواجهتهم من زيادة في التطاول والإيذاء أكثر من مواجهة العقلاء كما في موضع سورة آل عمران، أو مواجهة المشككين في سورة الأنعام؛ ولذا كان تلقين الحجة في هذا الموضع أدلّ على العناية والإكرام، فكان الإقبال فيها أعلى رتبة من المواضع الأخر.

ثانيها: إدخاله -ﷺ- في البدن في وجه الحجة: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾[البقرة: ١٤٤] فلتحويل القبلة -كما ذكر في النظم الحكيم- علتان هما:

أ- طلاقة قدرة الله: ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ [البقرة: ١٤٢] فله أن يفعل ما يشاء، وهذا مما لا شك فيه؛ ولهذا بدأ به.

ب - إرضاء خاطره - ﷺ -: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾[البقرة: ١٤٤]، وهذا موطن التكريم والإقبال وعلوّ الرتبة.

ثالثها: امتداد الإقبال في خطابه في هذا الأمر -خاصة- من دون الاستطراد إلى غيره حتى لو تعلق به جزء يسير، كما في المواضع الأخرى، فكان التركيز على ذات الأمر، وتكاد تكون الأساليب هي هي ذاتها، ثم إنه ختم بإتمام النعمة: ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٠] وبجعل منّة إرساله لهم مثيرة لشكرهم: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [البقرة: ١٥١].

و يتجلى علوّ البيان عن رتب الإقبال أسلوبا ولفظًا في موضع سورة البقرة في أمور اختص بها، وأخر اشترك فيها مع المواضع الأخرى وعلا شأنه فيها.

أما ما اشترك فيه من الأساليب مع المواضع الأخر ودلّ على علوّ رتبة الإقبال فيظهر في ستة معالم هي:

المعلم الأول: اطراد الأمر-(قل) في جميع المواضع عدا موضع سورة العلق: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ [البقرة: ١٤٢] ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١] ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ ﴾ [الأنعام: ١٦١] وتلقين القول له - ﷺ - أدلُّ على شدة العناية والتأييد من وجوه:

أ- ملاءمته للردّ على المخالفين؛ لأنّه في مواجهة فكر، فالقول أدعى للردّ عليهم، ولذلك لمّا كانت المعالجة للفعل في سورة العلق لقّن التوجيه بالفعل لا بالقول.

ب- فيه تخفيف عن الرسول - ﷺ - حيث حدد له جانب الرسالة تحديدًا تامًّا، مما يمنع معه زيادة همه على قومه، أو حسرته لغفلتهم فلا يلزمه معهم إلا القول، أما الهداية والحساب فعلى الله - ﷻ -.

ج- الاستدلال على العناية به - ﷺ - بطريق الأولى؛ حيث لقّن الأقل وهو القول، فتلقينه وإعداده لما هو أعلى من باب الأولى.

د- وروده بالأمر: بـ(قل) من دون: (بلّغ) دليل على تعليمه برفق؛ لما في القول من مجرد الأداء ولا يتعداه إلى جهد كما هو استلزام التبليغ مثلًا.

المعلم الثاني: اطراد دلالة الاستقبال للمتيقن حدوثه، وأثرها في بيان رتب الإقبال:

اطردت دلالة الاستقبال في المواضع التي لقّن فيها الحجة، فما ذكر له لما يحدث، لكنه حادث لا محالة: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢] ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٦١] ﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

والإتيان بالكلام على الاستقبال المتيقن حدوثه؛ إما تصريحًا -كما في موضعي سورة البقرة والعلق- أو تعريضًا بظهور بوادره -كما في موضعي سورة آل عمران والأنعام= فيه بناء نفسي للرسول -ﷺ- وإعداد له لحوادث المستقبل، وهو أدل على العناية، وعلوّ الإقبال عليه بالتأييد والتهيئة.

المعلم الثالث: تنوع أساليب الخبر، وأثرها في بيان رتب الإقبال:

تنوعت أساليب الخبر في تلقين الحجة في هذه المواضع بين خبر غير مؤكد: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٢] وثان مؤكد: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وثالث بأسلوب الشرط: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[آل عمران: ٦١] وكل منها ملائم لسياقه ومقامه ومبين عن رتبة الإقبال فيه.

فموضع سورة البقرة أتى الخبر على اليقين البدهي بما يفيد تحقيق الوقوع، وفي هذا ملاءمة لما تقدم في السياق من مخازيهم وإنكارهم لكل نعمة خُصّ بها المسلمون حسدًا من عند أنفسهم فليس بدعًا أن ينكروا ويعارضوا تحويل القبلة، وورودها على سبيل اليقين أدلُّ على الإقبال؛ إذ يتناسب الإطلاق من التوكيد مع وضوح حجته وقوته التي ألزمهم بها بما يعلي من أمره معهم، هذا من وجه، وبما يكشف عن مزيد عنايته -ﷺ- في إيثار الحجج البيّنة من وجه آخر، وهذا متلائم مع علوّ الإقبال في هذا الموضع عن الموضعين الآخرين .

ولمّا تقدم موضع سورة آل عمران من الحجج والآيات اليقينية في شأن عيسى-عليه السلام- مايمنع المحاجة فيه، أعدّه الله للردّ عليهم على سبيل افتراض الوقوع؛ ذلك لأنّ الأصل ألا يقع، فمن ثم جاء الإخبار على التوقع بالشرط، وأتت الجملة المعترضة: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٦١] بتوجيه الإقبال للاستقبال في تردد الأسلوب بين الحدوث وعدم الحدوث؛ لأنّ ما معه من العلم الأصل أن يمنعهم من المحاجة؛ فهو كاف وكثير، فهذه الجملة تضعف من احتمال وقوع المحاجة، وتتلاءم مع دلالة الشرطية، كأنّ الأصل أن يكتفوا بما سبق من البراهين،

والأدلّة، وما ثبت في شأن عيسى -عليه السلام- عن محاجة النبي -ﷺ- وهذا إقبال عليه وتكريم لشأنه -عليه السلام- من وجه إعلاء حجته وقطعها عن المحاجة على وفق مقتضى العقل، كما أنّ في تهيئته للاحتمالات إقبالًا عليه وتأييدًا نفسيًّا له.

ومن ثمّ جاء الخبر في الجواب من غير تأكيد لتعارض: (تعالوا) مع التوكيد لدلالتها على علوّ المخاطب، إذ " هو في الأصل أمر من-تعالى- يتعالى :إذا قصد العلو ، فكأنهم أرادوا به في الأصل أمرًا بالصعود إلى مكان عالٍ تشريفًا للمدعو "[1] والتوكيد يضاد معنى العزّة في: (تعالوا)؛ لأنّ زيادة التوكيد في الفعل تدلّ على معنى الإلزام، كما أنّ الأمر استلزم أن المأمور أقل رتبة، لكن الإتيان بالأمر بفعل: (تعالوا) فيه دلالة على أن المأمور مستعلٍ - أيضًا- ولا مدخل في أن يأتي الأمر معه، وهذا ملائم لمن حاجّه في شأن عيسى-عليه السلام- في هذا الموضع؛ فقد كان وفد نجران من أفاضلهم وعقلائهم، وملائم للمحاجة العقلية في مواجهة الفكر بالفكر.

وفي امتداد الشرط الزمني قوة أخرى في تأييده -ﷺ- فعلى مدى الزمن إذا وردت مجادلة منهم إلى آخر أمره معهم، فجوابه في شأن عيسى -عليه السلام- معدٌّ مسبقًا، وهذا امتداد للعناية والتكريم.

أما ورود موضع سورة الأنعام بالتوكيد: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١] فملائم لتوكيد المباينة بينه -ﷺ- وبين الذين فرقوا؛ حيث إنّ التوكيد أعلى من جانب المتضمنات، فإذا كان هناك ذم لصفاتهم ففي التوكيد ثناء ومدح لصفات النبي -ﷺ-.

المعلم الرابع: تنوع طرق التوكيد وأثرها في بيان رتب الإقبال:

ورد التوكيد في تلقين الحجة في موضع سورة البقرة: ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ [البقرة: ١٤٢] بطريق القصر بالتقديم، وورد في الأنعام: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١] ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢] بالتوكيد بـ: (إنّ).

واختلاف طرق التوكيد تبعًا لحال المخاطب أدخل في العناية به -ﷺ- وأدلّ على الإقبال عليه؛ إذ في ذلك تلقين له على أي وجه وحال، ومع أي نوع من أنواع المخاطب؛ فأتى التوكيد

(١) التحرير والتنوير: ٣/١١٣.

عن طريق التقديم المفيد للقصر في موضع سورة البقرة وهو أعلى المواضع الذي يأتي في موضع المخالفة ومع أعلى المخالفين، فكما أنّ بدهية ملكه -سبحانه- للمشرق والمغرب مسلمة لكل ذي عقل: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾[البقرة: ١٤٢] فكذلك أمر القبلة فله التصرف فيها لا لهم، والتوكيد هنا أشد ملاءمة لحال عنادهم وسفههم المتقدم في السياق.

وأما التوكيد بـ(إنّ) في موضع سورة الأنعام: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام: ١٦١] ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢] فهو يأتي في موضع المخالفة، لكنّها أقل من القصر؛ وورد هنا؛ لأنّ فيه مراعاة إنكارهم، كأنّهم ينكرون عليه وجه تميّزه، فالتوكيد بـ(إنّ) فيه مراعاة حال المختلفين معه، فهناك فريقان: فريق هداه الله، وفريق فرّق دينه، والاختلاف هنا مستلزم للتوكيد.

المعلم الخامس: الفصل والوصل، وأثر ذلك في بيان رتب الإقبال:

ورد العطف في تلقينه الجواب في موضع سورة آل عمران: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١] ولم يرد في موضع سورة البقرة: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾[البقرة: ١٤٢] وفي ذلك وانعدامه ملاءمة لرتبة الإقبال في الموضعين، تبعًا للحال في كل منهما.

فلما كان رده - ﷺ - مترتبًا على توقع تقدمهم بالقول في موضع سورة آل عمران: (فمن حاجك) ورد العطف بـ: (الفاء) (فقل) علوًا في الإقبال على النبي -ﷺ- لما في الفاء من دلالة السرعة والمباشرة في الجواب فلم يتردد- ﷺ - أمام مجادلاتهم، بل كان الرد معدًّا مسبقًا وقد أعد له -ﷺ- فلم يتعرض لأي عوامل نفسية تؤخر رده عليهم، ولم يحر جوابًا البتة؛ وذلك لعلوّ فهمه - ﷺ- فالله مَنّ علّمه ولقّنه.

أما خلوه من العطف في موضع سورة البقرة، فملائم لعلوّ الإقبال فيها عن سابقتها؛ حيث لم يرد: "فقل" لأنّ الفاء -كما تقدم- تستلزم ترتب حدث على حدث[1] بمعنى أنّه لا يواجههم بهذا الرد إلا

---

(١) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ١/١٨٠.

إذا ذكروا هذا السؤال، فورد تلقينه بـ:(قل) بدون الفاء؛ استباقًا لقولهم، وهذا ملائم لعلوّ الإقبال؛ فهو لم ينتظر حتى يواجهوه بهذا ويبدؤوه به، فهذه الحجة غير مترتبة على قولهم بحيث لو تأخروا لتأخر في الرد عليهم، وهذا ملائم لحالهم الذي ذكره القرآن، فهم السفهاء، والسفيه لا يُتريث على قوله، بل يُبادَر بالتوجيه والتصويب .

المعلم السادس: التقابل وأثره في رتب بيان الإقبال:

قابل النظم الحكيم بين نهي المخالف للرسول عن الصلاة: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ ﴾ [العلق: ٩-١٠]، وبين أمر الله له بالصلاة والقرب في قوله -تعالى-:﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩] بالفعل الدّال على أعظم الطاعة، وهو السجود والاقتراب من الله ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ ولم يقابَل بالأمر بالطاعة: (لا تطعه وأطعني) وفي هذا علوٌّ في الإقبال أن يلقنه بأن يُقابِل الامتناع عن طاعته بعمل الجوارح الدّال على أعظم الطاعة، وهذه قوة في المواجهة تقابل شدة إيذائهم الذي وصل لإيذاء جسده -ﷺ-.

أما ما اختص به موضع سورة البقرة من البيان الدّال على علوّ رتبة الإقبال فيه فيتجلى في ثلاثة معالم، هي:

المعلم الأول: دقة ألفاظ الإقبال:

فتخيُّر:(السفهاء) في وصف معارضيه فيها بناءٌ نفسي للرسول - ﷺ - حيث قابل علوّ علمه من الله - ﷻ - بوصف سفههم، وهذا أدخل في التأييد من أنْ يشير إليهم بـ: (هؤلاء) فالتقديم بوصف سفههم لئلا يقع في نفس الرسول -ﷺ- أية عناية لقولهم، أو اعتداد به.

وتخيُّر الوجه في شأن القبلة:﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾[البقرة: ١٤٤]، ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ [البقرة : ١٤٤] فيه علوٌّ في الإقبال؛ فالوجه مناط الإقبال والكرامة، فالعناية به من دون غيره من الجسد دليل الإكرام والعناية به -ﷺ-.

المعلم الثاني: أسلوب الاستئناف والاعتراض، وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

فالاستئناف البياني في قوله -تعالى-: ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ١٤٢] إيحاءٌ بأنّه -ﷺ- أخص من شاء الله هدايته وعُني به، ويؤكد ذلك ما ورد في السياق من الاعتناء بخاطره -ﷺ- في تحويل القبلة، فلم تحول القبلة لطلب صريح منه، بل لتقليب وجهه في السماء

وتمنيه تلك، قال -تعالى-: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾[البقرة: ١٤٤] "فأعطاه ما يتمناه من غير أن يسأله إياه، وهذا من كمال عنايته به-ﷺ- وشدة رعايته له"[1].

كما دلّ الاعتراض في قوله – تعالى-: ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾[آل عمران: ٦١] بين ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ ﴾ والجواب: ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا ﴾ على زيادة التفضل على النبي -ﷺ- بالعلم، فلم يكتف بما تقدم لهم من العلم، بل زيد فضلاً وعُلّم ما لم يعلموا ولُقّن بما يردُّ به عليهم، وهذه عناية استلزمها علوّ شأنه والإقبال عليه،لاسيما وقد جاء به: (ما) للدلالة على تفخيم وتعظيم ما جاءه من العلم إلى حد عدم الإحاطه به، وهذا التفخيم مانعٌ من وقوع الشرط: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

المعلم الثالث: دلالة العموم والخصوص وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

اطرد سمت الإقبال عليه -ﷺ- في موضع سورة البقرة بالانتقال من العموم إلى الخصوص؛ حيث يبدأ بذكر العموم، ثم يخصه بالخطاب، وهذا اصطفاء له وعنايةً خاصة به -ﷺ- بل على جميع المسلمين، قال -تعالى-: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾ [البقرة: ١٤٢] ولم ترد ما: (ولّاه)، ولم يأت التلقين بالرد على العموم: (قولوا) بل على الخصوص له- ﷺ- ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾[البقرة: ١٤٢] وأورد حال المؤمنين عموماً: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة: ١٤٣] ثم خصص النبي -ﷺ- بشأن القبلة: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: ١٤٣] ولم يقل كنتم عليها، وعمم في:﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٣] ثم خصه بـ: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ [البقرة: ١٤٤] ثم عمم في: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾[البقرة: ١٤٤] ثم اختصه -ﷺ- بـ: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة: ١٤٥].

(١) ينظر: دلالة القرآن المبين على أنّ النبي أفضل العالمين: ١٤.

فالرجوع إليه -ﷺ- بعد العموم مراعاة له بالنص الصريح؛ ولذا لاءم أن يختم هذا بالمنّة به عليهم-ﷺ-: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾[البقرة: ١٥١].

وقد ورد الخصوص له -ﷺ- في موضع سورة الأنعام؛ لأنه مناط العناية -ﷺ- ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣ ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣] ولكنّه لم يرد بمثل هذا التعاور بين العموم والخصوص، ولا بمثل هذا الامتداد في السياق، وهذا يجعل رتبة الإقبال -هنا- بالخصوص أقل من موضع سورة البقرة.

ويتجلى هذا الخصوص في موضع سورة الأنعام في عموم الصراط المستقيم لكل مدعو، إلا أنّه اختص به -ﷺ- في الرد على المخالفين من الكافرين، وجعل له من دونهم الصراطه لذا تبرأ منهم: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١]؛ لأنه -ﷺ- مناط العناية وبهداه يهتدي الناس، وهذا إقبال عليه -ﷺ- ولذلك علّق أعمال الجوارح الدالة على الاستقامة - أيضا - به خاصة: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الأنعام: ١٦٢] على الرغم من أنّ الأمر عام لكل من هدي من أتباعه -ﷺ- ولكنه اختصه؛ لأنّه أصلهم في ذلك وأعلاهم إخلاصا.

و- التأييد بالتنجيــة

الإقبال على الأنبياء من أولي العزم شمل مراحل الدعوة المختلفة؛ عناية بهم وإكرامًا، ومن أعلى الإقبال تنجيتهم من أعدائهم.

لسياق التنجية سمت مشترك، هو مواجهة تحوي خطرًا، وتكون في مقام ختام دعوة الأنبياء؛ إما: في ختام مرحلي، أو ختام نهائي.

وتبعًا لاختلاف مثيراتها - من مواجهة الكافرين، أو دعاء النبي على قومه، أو التصريح بتكذيبهم، أو تدرج الشدة في الأمر مع أقوامهم- يختلف الإقبال فيها علوًا ودنوًا تبعًا لشدة المثير فيها، ولحال ورتبة كل نبي منهم -عليهم صلوات الله وسلامه - قال الحرالّيّ: "وربّما تناسقت الإقبالات مترتبة، فيعلو البيان والإفهام بحسب رتبة من توجه إليه الإقبال" [1].

فالحرالّيّ يشير هنا إلى أمرين:

1) علوّ النظم بتتابع الإقبال؛ وذلك في قوله: "تناسقت الإقبالات مترتبةً"، وسيأتي تفصيل ذلك في الحديث عن تراكيب الإقبال.

2) علوّ الإقبال باعتبار حال المخاطب؛ وهذا ما نحن فيه، فَرُتَبُ الإقبال بالتنجية تفاوتت باعتبارين:

أ . باعتبار تفاوت رتب الأنبياء بعضهم على بعض، فيعلو الإقبال تبعًا لعلوّ رتبة النبي على غيره من الأنبياء- عليهم صلوات الله وسلامه-.

ب . باعتبار اختلاف حال النبيّ الواحد، ومغرس الإقبال عليه وسياقه في كل موضع.

أما الاعتبار الأول: فأعلى رتب الأنبياء رتبة النبي محمد -ﷺ- من وجوه عدة:

أ . اطراد ورود العون والتنجية له من دون تقدم الطلب، أو الخوف، أو الاستغاثة منه -ﷺ-.

ب . سلامته -ﷺ- من حضور لحظة الهلاك أو القرب منها، حيث كانت تنجيته مقدمة باعتبار ما سيكون، وهذه عناية أعلى من أن يدركه الخوف ثم ينجى منه.

ج . تمحض الإنجاء له وحده -ﷺ- من دون عطف أحد عليه في هذه النعمة.

ويلي نبينا محمد -ﷺ- في الرتبة سيدنا إبراهيم -عليه السلام- لاشتراكه معه في تمحض الإنجاء لذاته -عليه السلام- وعلت رتبة النبي -ﷺ- بالاعتبارات الأخرى المتقدمة.

---

(1) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

وتأتي رتبة سيدنا عيسى -عليه السلام- تالية لرتبتهما -أيضًا- باعتبار تمحض النجاة لذاته، وتعلو رتبة سيدنا محمد -ﷺ- ورتبة سيدنا إبراهيم -عليه السلام- رتبة سيدنا عيسى -عليه السلام- باعتبارات أخر يرد ذكرها في المغارس والسياقات القريبة، ثم يليه رتبة سيدنا موسى -عليه السلام- باعتبار أن نجاته لا تأتي له ممحضةً بل يشترك معه قومه، وإن كان سببًا في ذلك، ثم تأتي بعد ذلك رتبة سيدنا نوح -عليه السلام- لعموم التنجية له ولقومه، ولمخلوقات أخر، وقد علت رتبة سيدنا موسى -عليه السلام- في هذا السياق -على الرغم من اجتماعهما في السمت العام- بعلوّ المعيّة ويقين النجاة، وجلالة النعم معه -كما سيتجلى في تحليل المواضع-.

وهذا الترتيب باعتبار حال المقبَل عليه، واعتبار غرض التنجية، وتمحضها لذات المُقبَل عليه. فباعتبار جلال النعم يعلو الإقبال على النبي -ﷺ- على الإقبال على سيدنا عيسى -عليه السلام- ولكن باعتبار تمحُّض التنجية للذات يعلو عيسى -عليه السلام- وهي المقدمة هنا في هذا المبحث.

أما الاعتبار الثاني:

فيكون في علوّ رتب الإقبال داخليًا، حيث تعلو بعض المواضع على بعض في شأن النبي الواحد باعتبار السياق الوارد فيه الإقبال ومغرسه.

ومن المواضع التي ورد فيها الإقبال بتنجية النبي محمد -ﷺ- ما يلي:

قوله -تعالى- في سورة القصص: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾ [القصص : ٨٤-٨٥] .

وقوله -تعالى- في سورة التوبة: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة: ٤٠].

وقوله تعلى في سورة الحجر: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر : ٩٥-٩٩] .

فأعلى المواضع في شأن النبي -ﷺ- هو موضع سورة القصص.

وللإقبال في هذا الموضع مغرسان يحتملهما سياقه القريب:

أولهما : المجازاة في قوله -تعالى-: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ فيكون منبت الإقبال بالتنجية بجعله من الجزاء بالإحسان فهذا الوعد والضمان في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ مجازاة للنبي -ﷺ- على تحمله القرآن تكليفًا وقيامه به. فيكون الإقبال على أساس من التوافق بين إحسانه والإحسان إليه بالجزاء.

ثانيهما: أن ينبت الإقبال من بيان عاقبة أمره ومآله، فيكون قوله -تعالى-: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ -تعقيبًا ختاميًا على قصة قارون= مغرسًا للإقبال عليه بالتنجية، وضمان عودته منتصرًا إلى مكة على وجه التضاد بين العاقبتين، عاقبة قارون، وعاقبة النبي - ﷺ -.

فيأتي الإقبال بالتنجية على هذا الوجه الأكمل بسبب تقواه أو مجازاته بالحسنة على إحسانه؛ لذا علا الإقبال فيها وطوى كل مراحل التنجية الحالية فهي مؤكدة الحدوث؛ لذا صرف الكلام إلى نهاية الأمر، يؤيد ذلك مقارنة ما ورد في السياق البعدي: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ بموضع الإقبال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ فإذا كانت الرسالة مقصورة على الرحمة فقط، فلا بد من أن يعان عليها أعلى العون؛ لذا جعل كل مواجهاته بقيدية النجاة، فطواها وركزّ القول على الوعد بالنهاية، وهذا من المجازاة بالإحسان من وجه، ومن حسن عاقبة المتقين من وجه آخر.

كما أنّها مرحلة مفصلية في الدعوة، فقد ترك قوما ولجأ إلى آخرين، فاستلزم الحال زيادة التسكين والاطمئنان في الإقبال؛ لعلوّ مغرسه، وأتى البيان عليه بأعلى الوجوه؛ من توكيد، وورود الربوبية المضافة إلى ضميره، وطيٌّ للأحداث الجزئية في حادثة إخراجه، وتأكيدٍ للمرحلة الأخيرة؛ لأنّها الأهم، والأدخل للأمن النفسي للنبي-ﷺ-.

زاده علوًا تمحض الإنعام لذاته -ﷺ- فمراعاته فيها إشارة إلى السببية، كأنّ هذا الرجوع والفتح لأجله هو -ﷺ-.

أما موضع سورة التوبة فكان أقل رتبة على الرغم من أنّه في ذات المرحلة لكنه لم يمحض الخطاب للنبي- ﷺ- بل كان الخطاب موجهًا للصحابة - رضوان الله عليهم-.

ومغرس الإقبال الذي صبغ بيان الإقبال بصبغته في قوله- تعالى -: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٩]﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٤٠] فجاء بيان نصرته في الهجرة كالاستدلال على قدرة الله على نصره في مراحل الدعوة، كما نصره عند الخروج، فالإقبال مفرّع عن قدرته -تعالى- على ذلك، ومن ثم صبغ بصبغته في البناء، فهو استدلال على قدرته على ما ذكر من تهديد سابق، ومن ثم تكررت الألوهية حتى في خطاب النبي لأبي بكر -ﷺ- مع أنّه في موقف طلب الرحمة.

وفي إنزال السكينة - وما فيها من طمأنة قلب وترويح نفس= دلالة علوّ في الإقبال؛ فالأقرب إليها غير علم الذات، سواء في صفات الرحمة أو الربوبية، لكن القدرة في الألوهية هي الملائمة لصد الأعداء وتحقيق الوعد، فتكررت وشاع معها التوكيد ونون العظمة.

أما موضع سورة الحجر: ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩ ﴾ [الحجر: ٩٥-٩٩] فكان في بداية الدعوة في مقام يستلزم التطمين والتسكين، وهو أقل رتبة من سابقيه لتقدم المواجهة والاستهزاء من الكافرين هنا، وتمحض الإنعام هناك دون تقدم صريح مواجهة.

ومغرسه الذي صبغ الإقبال بصبغته في قوله -تعالى-:﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] فمغرس الإقبال عليه بإكفائه إياهم: ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥] والأمر بالإعراض عنهم، وهذا مسبَّبٌ عما سبق من فضله -ﷺ- على سائر الخلق، ومنهم الأنبياء فقد صرح سابقًا بمواجهتهم لأعدائهم أما هو -ﷺ- فكفاه الله إياهم .

فالإقبال مصبوغ بالحفظ والرعاية الذي هو سمت للسورة، فهي بين حفظ الرسول -ﷺ- وحفظ الذكر، ومنه إيحاءات السورة، وهذا ما يوحي به الحجر، ومن ثمّ فالحفظ مقصد رئيس للإقبال؛ ولذا صبغ النظم بالوعد والضمان، وماستلزمه من أساليب؛ كالتوكيد، وضمير العظمة، وامتداد وسائل الحفظ من سجود وتسبيح، وكلها داخلة في الكفاية.

ووردت التنجية في شأن إبراهيم -عليه السلام- في موضعين:

١- قوله -تعالى- في سورة الصافات: ﴿ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨ ﴾[الصافات: ٩٧-٩٨].

٢- قوله -تعالى في سورة الأنبياء-: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٩-٧٣].

ونجي في الموضعين من الإحراق، لكن لمّا اختلف المغرس فيهما اختلفت صبغة الإقبال في كل منهما، فالمغرس في موضع سورة الصافات من قوله: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[الصافات: ٧٤] وقوله: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٤] فالسلامة في قلبه من إخلاصه فكانت صبغة الإقبال في سورة الصافات من السلامة، ومن ثمّ شاع: (سلام على ....) في الدعاء في كل قصة في الختام التعقيبي؛ لإبراز الغرض الرئيس من القصص فيها وهو السلامة، كما ذكر في غير القصص سلامة السماء من الرجم عن طريق حفظها بالشهب وتناسق كل ذلك مع فاتحتها بأحوال وصفات الملائكة، وهذا سمت التنجية في السورة كلها كمقصد رئيس لها، سواء في شأن نوح-عليه السلام- المتقدم على موضع تنجية إبراهيم- عليه السلام- أو شأن موسى-عليه السلام- المتأخر عنه؛ فمن: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[الصافات: ٧٤] إلى﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ٨٣] المتقدمة تنسلُّ هذه النتيجة؛ فبقاء ذرية نوح وأهله هو تنجية إسماعيل -عليه السلام- من الذبح، والسلامة في الإقبال على إبراهيم-عليه السلام- هي ذاتها السلامة في شأن نوح، وذاتها في سلامة موسى-عليه السلام- في هذا الموضع؛ لذا ركز سمت الإقبال في التنجية على السلامة فقط، وطوى مراحل المواجهة معهم من إعراض واستهزاء، أوأمر الطوفان في شأن نوح، أوالاغراق في البحر في شأن موسى-عليه السلام- وكانت النعم مترتبة على الترقي؛ لإخلاصهم؛ ولذلك اطرد وصفهم بالمحسنين.

فعلًا الإقبال في الموضع في شأنهم جميعًا من هذا الوجه، ومن وجه آخر، فالسورة فيها ثناء ومدح لهم بصفات عالية جمعهاالإخلاص:﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات: ٧٤] والإحسان: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[الصافات: ٨٠]، وسلامة القلب في شأن إبراهيم: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الصافات: ٨٤] وعظيم المنن المترتبة على هذه الصفات الدّالة على علو الشأن في أمر موسى -عليه السلام- كما سيرد تفصيله لاحقًا.

وصُبغ الإقبال بالشدة في الابتلاء والمواجهة في موضع سورة الأنبياء؛ لأنّ سمتها العام ابتلاء يعقبه نصر وتنجية، ومن ثم ورد ختامها بقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٧٦] فعلا الإقبال من هذا الوجه، فلما كانت المواجهة مع الأصنام أشد استلزم تنجية أعلى؛ لذا ذكر –هنا– ما طوي في سورة الصافات حيث ذكر الكيد وتنفيذه –هنا–: ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾[الأنبياء: ٧٠] في حين ذكر –هناك– إرادته فقط، ورتب عليه الجزاء وطوى ما عداه: ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾[الأنبياء: ٩٨]، وصرح–هنا– بالإحراق بالنار، بينما لم يصرح –هناك– بالإحراق، فعلا الإقبال بالتنجية في كل موضع باعتبار: في سورة الصافات باعتبار السلامة النابعة من سلامة قلبه، وهنا باعتبار قوة مواجهتهم الذي استلزم إقبالًا أعلى في صدهم وردهم.

أما ما ذكره د. فاضل السامرائي في كتابه التعبير القرآني[1] من أنّ المواجهة في سورة الصافات كانت أعلى لورود الاستفهام من إبراهيم بـ: (ماذا) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾[الصافات: ٨٥] في الصافات وبـ: (ما) في الأنبياء ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢] والاستفهام بـ: (ماذا) أعلى من الاستفهام بـ: (ما) لورود (ما) واسم الإشارة، فصحيح في أصله، لكن ماذكره من العلّة بأنّ المواجهة أعلى في الصافات جانبه الصواب؛ لأنّه نظر إلى اعتبارٍ واحد في كلا الموضعين، هو اعتبار إبراهيم–عليه السلام– وغفل عن اعتبار قومه، فالصافات ركزت على صفات إبراهيم–عليه السلام– وحاله هو: ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٤] وسليم القلب لا يتصور أدنى نوع من المخالفة، فإنكاره يكون أشدّ، فبهذا الاعتبار الإنكار هنا أقوى وأعلى من موضع سورة الأنبياء، لكن مواجهتهم أقل من موضع سورة الصافات؛ لأنّ الإقبال ورد بالسلامة.

أما في سورة الأنبياء فمواجهتهم هم أشد وكيدهم أقوى؛ ليتلاءم مع الابتلاء الذي تعرض له الأنبياء؛ لأنه هو الذي سيق من أجله قصص الأنبياء في السورة.

---

(١) ينظر: التعبير القرآني: ١٠٢، ١٠٤.

فالسمت العام في سورة الصافات مركز على صفات الأنبياء أنفسهم وطاوٍ لحال غيرهم – كما تقدم – لكن في سورة الأنبياء التركيز عليهم هم، وماذا فعلوا؛ لذلك كانت التسلية للرسول – ﷺ – من هذا الوجه؛ بأنّ الأنبياء تعرضوا لمثل ما تعرض له وأكثر، يؤيد ذلك أول السورة: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾[الأنبياء: ٢]، فالشدة في الابتلاء سمت عام في السورة، والمغرس هنا من قوله –تعالى–: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١] وله شقان :

١) إقامة الحجة عليهم التي استلزمها رشده – عليه السلام –.

٢) علمه – ﷻ – به.

فكل ما ورد مفسرٌ للرشد، من حجة عليهم، وإقناعهم بباطلهم، وأنّهم حين عذبوه بالنار كان انتكاسًا على رؤوسهم عنادًا وجحدًا، ومبينٌ للشق الثاني المتصل بعلمه – ﷻ – سواء في علمه باستحقاق إبراهيم – عليه السلام – لما أوتي، أو في علمه به حين ألقي في النار، ومن ثم تنجيته؛ لأنّ علمه كان علم عناية ورعاية.

وصُبغ الإقبال بقوة الرشد مقابلة لقوة كيدهم بقوة ردعهم وخسرانهم؛ لذا اطردت فيه نون العظمة، وأفعل التفضيل وغيرها من سمت القوة في الأسلوب – كما سيرد –.

وفي شأن موسى –عليه السلام– علا الإقبال في موضع سورة الصافات من وجه – كما تقدم – وعلا في سورة الشعراء من وجه آخر، وذلك في موضعين:

١) قوله –تعالى– في سورة الصافات: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[الصافات: ١١٤-١٢٢].

٢) قوله –تعالى– في سورة الشعراء: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ

كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[الشعراء: ٦١-٦٦].

فالتنجية في موضع سورة الصافات مغرسها السلامة ؛ لذا تمحض فيه الإنعام: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا ﴾ [الصافات: ١١٤] من غير ذكر للخوف، أو تقدم طلب ودعاء، فقد جاء في معرض الأمن؛ لذا ختم بالسلام عليهما، وترقت النعم في الموضع بالعطف بالواو والإسناد إلى نون العظمة.

أما موضع سورة الشعراء فللإقبال بالتنجية فيه سمت خاص، يؤخذ من قوله -تعالى-: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[الشعراء: ٩] الذي جمع بين صفتي العزة والرحمة؛ العزة في الهلاك، والرحمة في التنجية، وقدم العزة؛ لذا قدم الإهلاك قبل الإنجاء:﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[الشعراء: ٦٤].

أما تقديم الإنجاء على الهلاك في الإقبال على نوح- عليه السلام - فليس خروجًا عن السمت العام لسورة الشعراء، بل لأنه تقدم طلب صريح منه بالتنجية: ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٨] فاستلزم طلبه تقديم التنجية؛ لذا ورد فيها العطف بـ:(ثم) للتراخي الرتبي لعلوّ مرتبة الإقبال بإهلاك أعدائهم.

ومغرس الإقبال على موسى- عليه السلام - في الشعراء من قوله -تعالى-: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٢] ودلّ هذا المغرس على التنجية: (عباد) من وجه؛ لأنها تدل على الرضا عنهم حينئذ، وهذا يدل على عنايته بهم، ومن وجه آخر لأمر متصل بغرور فرعون بقوته واستضعافه لبني إسرائيل، وهذا سبب من أسباب إهلاكهم لما كانت العبودية سببًا لنجاة قوم موسى -عليه السلام- على سبيل التضاد، ومن ثمّ ذكر في الإقبال تراثي الجمعين، فصيغ الإقبال بما يدل على اليقين من التوكيد، وظهور تباين القوة، ووضوح الفرق بينهما -قوة بني إسرائيل التي استهزأ بها فرعون، وقوة فرعون التي اعتد بها- ومن ثم أيقنوا بإدراكهم، فجاء الإقبال مضاداً لسخرية فرعون بتكريم موسى -عليه السلام- بيقين النجاة، وبأنْ جعل له مدخلًا في التنجية من وجه، وبالرد؛ سخرية منهم من وجه آخر ؛ لذا وصفوا:(بالآخرين) في حين وصفوا بالباقين في شأن نوح -عليه السلام- لأنه لا مدخل للسخرية، ولا للذم هناك كما هو -هنا-.

أما في شأن نوح -عليه السلام- فقد تقدم وجه علوّ الإقبال في سورة الصافات، ومغرسه من السلامة وكيف أتى الإقبال مصبوغًا بالسلام، فأورد النجاة وطوى ما عداها من أحداث، وأتى النظم بالتوكيد والعطف بالواو وبإسناد الأفعال لنون العظمة، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ (٧٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ (٨٢) ﴾ [الصافات: ٧٥-٨٢].

وعُلم في سورة الشعراء السمت العام المنبث من: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فكان الإقبال بين إهلاك مقدم -مناسبة للعزة- وإنجاء مؤخر -مناسبة للرحمة وتأخرها- سوى أنه قدم هنا الإنجاء لتقديم طلب نوح -عليه السلام- النجاة قال -تعالى- : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ (١٢٠) ﴾ [الشعراء: ١١٧-١٢٠] ومغرسه من تقدم تكذيبهم الصريح وتهديدهم نبيهم:

﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦]، فورد الإقبال بتنجيته-أولاً- ثم إهلاكهم -ثانياً- على سبيل العزة؛ لذا ورد وصف الفلك بالمشحون؛ لأنّ الإنجاء والحال هذه أدلّ على الرحمة،وأتى التراخي الرتبي ملائمة للعزة في إغراقهم:﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾[الشعراء: ١٢٠].

أما موضع سورة القمر: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) ﴾ [القمر: ١٠-١٤].

فمغرس الإقبال من تقدم تكذيبهم وسخريتهم: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ (٩) ﴾ [القمر: ٩]، ثم دعائه عليهم ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ (١٠) ﴾ [القمر: ١٠]؛ لذلك صبغ الإقبال بنصرته أعلى النصر ملاءمة لطلبه من وجه، ومن وجه آخر لسمت السورة الذي فيه إعجاز في تنجية الرسل؛ لذا وردت الكناية من دون التصريح. وعلا الإقبال فيها للتصريح بجعله ذاته سببًا لإهلاك أعدائه: ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾، [القمر: ١٤] فكل ما حصل لذاته مراعاة له، وليس من أجل تكذيبهم، ومخالفتهم بالدعوة، فالنص على أنّ هذه التنجية لأجله أعلى إقبالًا من

موضع سورة الصافات الذي غلبت فيه السلامة، أو موضع سورة الشعراء الذي تقابل فيه جانب الرحمة والعزة.

وعلوُّ المواضع بعضها على بعض له أثر في تفاوت البيان، وهذا ما نصَّ عليه الحرالّيّ كأساس من أسس الإقبال[1] ويتجلى ذلك في ستة معالم هي:

المعلم الأول: التعريف والتنكير وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

تفاوت تنوع التعريف -تبعًا لاختلاف الرتبة- على سبيل اطراد نوع من أنواع التعريف مع النبيّ من دون غيره، أو في سياق دون آخر، أو على الاختلاف فيها في شأن الأنبياء، واختلاف السياق.

ويلاحظ تكاثف التعريف وعلو دلالته تبعًا لعلوّ رتبة الإقبال؛ فلما كان أعلى الإقبال على النبي- ﷺ - في موضع سورة القصص كان أعلى التعريف في هذا الموضع دلالة، وتعاضداً بين دلالات أنواعه المتقاربة، فاطرد معه الخطاب -أولاً- ولم يأت التعبير عنه بالغيبة، وهذا أدخل في الإقبال وأليق بعلوّ الإقبال بالمجازاة الحسنة أو جعل العاقبة له -ﷺ - فهو أعلى المتقين، وعلى الرغم من اشتراك موضع سورة التوبة معه في هذه المرحلة إلا أنّ تعريفه كان بضمير الغائب:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٤٠] ملاءمة لمغرسه وسمته، فلم يكن إنعامًا متمحضًا على النبي -ﷺ- بل هو لإظهار قدرة الله بعد التهديد المتقدم لمن تثاقل عن الجهاد؛ لذا لاءمت الغيبة كون الإقبال أدنى مرتبة منه في سورة القصص.

يؤيد ذلك اختلاف التعريف بالذات العلية في كلا الموضعين تبعًا لذلك؛ ففي موضع سورة القصص وردت الربوبية ملاءمة لتمحض الإنعام؛ لذا أضيفت إلى ضميره على وجه المتكلم: ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ [القصص: ٨٥] تارة، وتارة أخرى على وجه الخطاب: ﴿ إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ ﴾ [القصص: ٨٦]، وهما أعلى إقبالاً من الغيبة، وأدلّ على إكرامه والعناية به، فأضيفت له حال كونه متكلمًا أو مخاطبًا، وهذا أليق بجزاء الإحسان بالإحسان من وجه، ومن وجه آخر بكون العاقبة للمتقين.

في حين وردت الألوهية في سورة التوبة: ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٤٠] حتى على لسان النبي- ﷺ- في خطاب تأنيسه لأبي بكر: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[التوبة: ٤٠] وهذا

---

(١) ينظر: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

فيه ملاءمة لمغرس طلاقة القدرة الذي انطلقت منه: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[التوبة: ٣٩]، ودالٌ على نزول رتبة الإقبال فيه عن موضع سورة القصص، فالربوبية أعلى دلالة على الرعاية والإنعام من القهر والغلبة في الألوهية.

وعاضد علوّ الإقبال بالربوبية في موضع سورة القصص، تعريف الذات العلية بالموصولية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥]، والتعريف بالموصولية أدخل في علو الإقبال؛ لما يحوي من علوّ الضمان والوعد لدلالته على وجه الخبر[1] فالذي فرض عليه القرآن -وفيه ما فيه من الإعجاز والإلزام- هو الذي سيرده إلى معاده؛ وهذا أعلى وعداً، وأقوى ضماناً، وأليق بمغرس الإقبال في سورة القصص فهو أحسن مجازاة وأعلى عاقبة.

وورود الخطاب في موضع سورة الحجر معه -ﷺ- بالخطاب لايعلي رتبته على رتبة موضع سورة التوبة؛ لتقدم المواجهة والإعراض فيه، بينما لم تتقدم في سورة التوبة مما يعلي الإقبال فيها على هذا الموضع.

كما أنّ المرحلة مختلفة، ففي الحجر كانت في بداية الدعوة، والخطاب أليق بالتسكين والتطمين في هذه المرحلة، كما أنّ الإقبال بالتنجية ورد في سياق الحفظ والرعاية، والخطاب أدلُّ عليه للمباشرة فيه، وهذا يتلاءم مع الربوبية: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الحجر: ٩٨]، ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٩] فالحفظ والرعاية من مستلزماتها.

وتعريف الربوبية بإضافتها إلى ضمير المخاطب أعلى في الإقبال عليه علوّاً لا يتجاوز علوّ موضع سورة القصص الذي ورد فيه إضافتها بأكثر من وجه: إلى ضمير المتكلم: (ربي) وعلى وجه الخطاب: (ربك) وهذا التنويع يلائم -أيضاً- تعريف: (القرآن)، و(الكتاب) بـ(أل) في موضع سورة القصص الدّالة على كمال الوصف، وهو من المنن عليه ومن وسائل النجاة وسلوك الطريق الآمن.

وتكاتف تنوع التعريف في موضع سورة القصص في شأن النبي-ﷺ- فيه تكامل يدل على علوّ الإقبال في هذا الموضع من دون المواضع الأخر من وجه، وعلا الإقبال على سائر الأنبياء في المواضع التي ورد فيها الإقبال عليهم بالتنجية من وجه آخر؛ حيث اطرد معهم التعريف بالغيبة سواء بضمائرهم أو بأعلامهم، عدا موضع تنجية عيسى -عليه السلام- فقد ورد معه الخطاب لا الغيبة؛

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٥٠.

﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ ﴾ [آل عمران: ٥٥] فوروده بالخطاب وبتمحض التنجية لذاته -عليه السلام- أعلى رتبة عمن خوطب بالغيبة علوًّا لا يجاوز رتبة الإقبال على سيدنا محمد -ﷺ- في سورة القصص لتعاضد الخطاب هناك مع الربوبية وتعريفها بالإضافة إلى ضميره -ﷺ- في حين وردت هنا الألوهية ملاءمة لرد مكر من مكر بعيسى ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٥٤] من وجه، ولسلطان الألوهية الشائع في السورة من وجه آخر.

أما خطاب الأنبياء كما تقدم فقد اطرد بالغيبة سواء كان بضمير الغائب، أو بأعلامهم التي تقوم مقام ضمير الغيبة، وهذا ملائم لحكاية التنجية عنهم، وملائم للإقبال عليهم بالتنجية.

ووردت الربوبية معهم بما يلائم علوّ كل موضع، فوردت مضافة إلى ضمير المتكلم في شأن إبراهيم-عليه السلام- في موضع سورة الصافات: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات: ٩٩] لملاءمة سلامة القلب لمغرس الإقبال، فإضافة الربوبية إلى ضمير المتكلم أدلّ على الخلوص لله.

ووردت مضافة – أيضًا– إلى ضمير المتكلم في شأن موسى -عليه السلام- في موضع سورة الصافات: ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢] ملاءمة ليقين موسى–عليه السلام– بقرب ربه منه الدّال عليه المغرس الذي عبر عنه قومه بعباد: ﴿ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ [طه: ٧٧] الدّالة على العناية والرعاية التي لم تكن لهم إلا لمنزلتهم وشأنهم عنده.

ووردت معرّفة بضمير الغيبة في شأن نوح -عليه السلام-: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ ﴾[القمر: ١٠] في موضع سورة القمر ملاءمة للحكاية عنه، ولدنوّ الإقبال –هنا– عن الإقبال في موضعي سورة الصافات؛ حيث تقدمت فيها الشكوى وطلب النصرة في حين تمحض الإنعام هناك دون طلب.

وعُرّف نوح – عليه السلام– في هذا الموضع بالموصولية :﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر: ١٤]، وهذا التعريف ملائم للربوبية والمنّ والرعاية الكامنة فيها، فكأنّ نجاته ومن معه وإهلاك أعدائهم لأجله وذاته – عليه السلام – وهذا علوّ في الإقبال عليه ملائم لسمت التيسير والإكرام للأنبياء في هذه السورة، هذا على قراءة من قرأ بضم الكاف " كُفِرَ"، أما على قراءة من قرأ بفتح الكاف "كَفَر"[1] فإقبال؛ إذ المعنى: فعل هذا الإهلاك لمن كفر به فإهلاكهم لأجل كفرهم به.

(١) (كُفِرَ) مبنيًا للمفعول قراءة الجمهور، و(كَفَرَ) قراءة زيد بن رومان وقتادة وعيسى، فـ(مَن) يراد به قوم نوح. ينظر: تفسير البحر المحيط: ٨/١٧٦.

هذا، وفي اطراد التعريف بالذات العلية بنون العظمة: "نجينا"، "حملناه"، "أعيننا" علوّ في الإقبال، خاصةً أنّ السياق سياق تنجية تستلزم عظمة في الإنجاء وقوة فيه، كما أنّها مواطن ضمان ووعد يلائمها نون العظمة؛ لتسكين قلب الموعود، لاسيما وأنّه في موقف شدة.

وكما لاءم التعريف رتب الإقبال في المواضع باعتبار، لاءمها التنكير -أيضًا- باعتبار آخر، فورد التنكير للمعاد: ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥] وللرحمة: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[القصص: ٨٦] في موضع سورة القصص في شأن الرسول- ﷺ - وهو تنكير تعظيم للرحمة والمعاد ملائم للإقبال بالجزاء بالحسنة، ولعلوّ العاقبة وتمحضها للمتقين الذين أعلاهم محمد-ﷺ- فتنكير:(معاد) في وعد الرسول- ﷺ- أفاد أنّه عظيم الشأن، فهو معاد فيه من الكرامة التي لا تعادلها كرامة، ولا تُعطى لأحد غيره -ﷺ- وترتبه على الصلة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[القصص: ٨٥] أفاد أنّه خير الكرامة والتأييد، أي: الذي أعطاك القرآن ما كان إلا مقدرًا نصرك وكرامتك؛ لأنّ إعطاء القرآن شيء لانظير له؛ فهو دليلٌ على كمال عناية الله بالمعطى [1] وهذا التعظيم اقتضاه تمام الوعد والبشارة المتضمنة في الموضع.

المعلم الثاني: التقييد والإطلاق وأثرهما في رتب الإقبال:

التقييد له أثر في رتب الإقبال على تنوع القيود بما يتلاءم مع رتبة الإقبال والسياق الواردة فيه.

ومن ذلك تنوع القيود في أداة نجاة نوح-عليه السلام- فقيدت بالوصف في موضع سورة الشعراء: ﴿ ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [الشعراء: ١١٩] وفي هذا القيد علوّ إقبال يلائم مغرسه في الرحمة لأنّ السلامة في فلك مشحون أغرب[2]. وكون الأمر أغرب يستلزم أن يكون صادرًا عن رحمة من الله به، كما أنّ في ذلك ملاءمة للتصريح بطلبه الفصل بينه وبين المكذبين، فكانت الإجابة عليه خاصة لعلوّ طلبه، في حين لم يرد التقييد في موضعي سورة الأعراف: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٤] وموضع سورة يونس: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ

---

(١) ينظر : التحريروالتنوير : ١١٩/٢٠.

(٢) ينظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ٣٧٦/٥.

كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[يونس: ٧٣] لعدم ورود شكوى ولا طلب صريح للنصرة فيهما.

وقيدت بوصفها: ﴿ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر: ١٣] في موضع سورة القمر، وفي هذا ملاءمة لغرابة الإعجاز في هذه السورة، وعلوّ الإقبال عليه في هذا الموضع، سواء صرفت دلالة الوصف إلى تعظيم شأنها، فتكون الكناية مشيرة إلى أنّها سفينة محكمة بالدُّسر والألواح، فهذا يلائم سياق الموقف الصعب، ويتأتى الإقبال من عنايته لصنعها وعونه على ذلك، ويمكن أن تكون الكناية تهوينًا لشأنها، فيكون الإقبال بأنّ الله هو الذي حفظه بعنايته من دون أن يكون هناك وسيلة لذلك، وهذا تكريم له[1] يعلي منه -أيضًا- تقييده بالحال: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ بالمضارعة الدّالة على الاستمرار، بالتعدية بـ: (الباء) من دون: (على أعيننا) لدلالة الباء على المصاحبة والملازمة لها في كل مراحلها، ولجمع: (أعين) علوّ إقبال -أيضًا- لدلالته على تنوع الرعاية وإحاطتها.

ويلاحظ تكاثف القيود -في هذا الموضع- في وصف السفينة مما يعلي الإقبال عليه بتنجيته، وهذا ملائم لموضع سورة القمر الذي علا فيه التيسير على الأنبياء مقابلًا للتشديد على المكذبين.

كما أنّ تقييد ما أنجي منه نوح وموسى -عليهما السلام- بالجار والمجرور: ﴿ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الصافات: ١١٥] علوٌ في الإقبال يلائم السلامة الشائعة في سمت الإقبال بالتنجية في سورة الصافات؛ ففيه دلالة عموم لكلّ همّ وضيق سواء كان الماء أو غيره وهذا أعلى من التقييد بالبحر أو الطوفان، لأنّ السلامة في السورة تدل على شمول التنجية، فورد الإقبال بقيد يناسبها عمومًا وشمولًا، لذلك لم يرد القيد في التنجية في موضع سورة الشعراء بـ: ﴿ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[الصافات: ١١٥]، بل ورد تقييده بـ: ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٥] فهناك قيدت التنجية بأنّها من الكرب العظيم، وهنا قيدت بأنّها شاملة لموسى و من معه ملاءمة لمغرس الإقبال في سورة الشعراء، فالرحمة في: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ هي المغرس، والرحمة فيها شمول للأفراد المؤمنين مع موسى، لذلك وردت بـ: (الرحيم) رحمة خاصة للمؤمنين شاملة لهم، في حين لاءم السلامة في سورة الصافات التقييد لعموم الكرب وأنواعه لا الأشخاص.

---

(١) ينظر: "التصوير البياني: دراسة تحليلية لمسائل علم البيان" د. محمد محمد أبو موسى، ط٥، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م: ٤٢٤.

وفي اطراد تقييد النجاة بالأنبياء من أولي العزم بالمفعول أوالجار والمجرور – وهذا سمت عام في جميع الإقبال بالتنجية– علوٌّ في الإقبال عليهم بأنْ قصدوا بها لذواتهم، فكانت التنجية خاصة بهم كما في شأن النبي – ﷺ– ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾﴿ فَرَضَ عَلَيْكَ ﴾[القصص: ٨٥] ﴿ كَفَيْنَٰكَ ﴾ [الحجر: ٩٥] ﴿ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٤٠] وفي شأن إبراهيم–عليه السلام– ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩] وفي شأن عيسى – عليه السلام – ﴿ مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ ﴾ [آل عمران: ٥٥] وفي شأن نوح – عليه السلام – حيث وردت التنجية به: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر: ١٣]، وقد حمل هو وغيره، ولكن –إكرامًا له وتشريفًا– أفرد ضميره فهو سبب فيها ولأجله كانت.

ويعاضد هذا العلو في التقييد في شأن عيسى– عليه السلام– تقييده بالجهة المرفوع إليها بالجار والمجرور إلى: ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وهذا القيد فيه قرب من الله هو أدخل في علو التنجية فلا جوار أعلى من جوار الله، وزاده علوًّا امتداد زمنه: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[آل عمران: ٥٥] وفي هذا ضمان استمرارية.

المعلم الثالث: تناسق الإقبالات وأثرها في رتب الإقبال:

تقدّم أنّ علوّ الإقبال عند الحرالّيّ يرجع إلى أمرين: حال المخاطب– وقد سبق – وتناسق الإقبالات مترتبة وهو ما نحن فيه، وقد تناسقت الإقبالات في هذه المواضع على نمطين هما:

أ) العطف.
ب)التتابع في الإقبالات.

أ . العطف وأثره في بيان رتب الإقبال:

تنوعت الحروف المعطوف بها في الإقبال بالتنجية، وكان لاختلاف دلالة كل حرف عن الآخر أثر في رتبة الإقبال، والتناسق مع سياق الإقبال الوارد فيه، فيلاحظ أنّ العطف ورد بالفاء، وقد نص العلماء على دلالة الفاء على السرعة، والترتيب والسببية[1].

---

(١) ينظر: مغني اللبيب من كتب الأعاريب: ١٨٠، ١٨٢.

أما الواو: فدلالتها على إلغاء الزمن من مطلق الجمع ظاهر من كلام العلماء[1]؛ حيث لا دلالة فيها على سرعة أو تراخٍ بل إنّها تقرن زمنين معًا.

وعلى هذه القاعدة في دلالة الفاء والواو يترتب الإقبال؛ فالعطف بالواو أعلى إقبالًا من العطف بالفاء؛ ولذا تناسبت مع المواضع الأعلى والمنن الأعلى؛ لذا كثر ورودها مع النبي -ﷺ- وعُلِم أنّه أعلى رتبة في الإقبال من سائر الأنبياء، فكان عطف المنن أعلى، قال -تعالى-: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ﴾[التوبة: ٤٠] وهنا فيه دلالة على حدوث النعم معًا، ولذا كان أعلى إقبالًا وأنسب لسياق طلاقة القدرة في النصرة في التوبة.

ولاءم الواو علوّ الإقبال في مواضع سورة الصافات مع نوح وإبراهيم وموسى – عليهم السلام-.

وحدوث هذه المنن مرة واحدة علوٌّ في الإقبال، لذلك وردت في موضع سورة الصافات الذي كانت التنجية فيه إنعامًا محضًا من الله لم يتقدمه طلب ولا استغاثة.

ووردت -أيضًا- في عطف المنن على سيدنا عيسى -عليه السلام- ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) ﴾ [آل عمران: ٥٥] فكونه يُتوفى ويُرفع ويُنصر معًا، هذا علوٌّ في الإقبال يلائم العلوّ الظاهر في الإقبال عليه في سائر النظم من تعريف وقيد وغيره، فالعطف بالواو -إذن- أدخل في علوّ الإقبال وأليق به.

وتجد العطف بالفاء قد ورد في المواضع الأدنى رتبة في الإقبال من سياقات العطف بالواو فاطرد ورودها في المواضع التي تقدم فيها طلب واستغاثة، أو تقدمه كيد .

فتجد العطف بـ(الفاء) ورد في شأن نوح -عليه السلام- في موضعي سورة القمر: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) ﴾ [القمر: ١٠-١٤]،

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٢٢٤.

والشعراء: ﴿ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الشعراء: ١١٨-١٢٠] .

وفي موضع سورة الأنبياء في شأن إبراهيم -عليه السلام-: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٩-٧١] وقد لامست :(الفاء) الإقبال في هذه المواضع من وجهين:

١) دلالة السببية فيها: فالإجابة مسبّبة عن طلب متقدم، وكون التنجية أتت مسبّبة عن طلب فهذا أدل على الإقبال عليهم والعناية بشأنهم؛ لمراعاة السببية حينئذ.

٢) أن دلالة السرعة فيها دليل على الإقبال، فاجتزاء الزمن فيها ضروري لمباشرة الهلاك للجسد سواء كان بالإحراق أو الغرق، ولذلك وردت في السياقات الدّالة على الواقع والحال، ولم ترد فيما هو مستقبل كشأن النبي -ﷺ- وشأن عيسى -عليه السلام-.

ويلاحظ – من خلال ما تقدم- تلازم كل من الواو والفاء لسياقهما ورتبتهما؛ فالواو في المنّ المحض الذي لم يتقدمه طلب؛ لأنّها تدل على حدوث النّعم مرة واحدة بدلالة مطلق الجمع فيها، فوردت في المواضع الأعلى إقبالًا، ومع المخاطبين الأعلى رتبة.

ووردت الفاء فيما تقدمه طلب؛ للفاصل الزمني فيها بما يلائم الفاصل بين الطلب والإجابة من وجه، ولدلالة السرعة فيها على إدخال المسرة والإقبال في إجابة الطلب.

كما وردت: (ثم) في موضع سورة الشعراء في عطف إغراق المكذبين: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٠] في شأن قوم نوح -عليه السلام- وقوله -تعالى-: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأٓخَرِينَ ﴾[الشعراء: ٦٦]، وذلك لملامسة دلالة التراخي الرتبي فيها على علوّ الإقبال والإنعام بإهلاكهم، فقد ترقت النعم في الموضعين بإنجائهم، ثم إهلاك المكذبين؛ لتتم له النجاة والاستقرار، فلا تمام للمنّ عليهم بإنجائهم مع وجود أعدائهم، فوردت هذه المنّة معطوفة بـ:(ثم) ترقيًا في الإنعام معهم.

ب . تتابع الإقبالات وأثره في بيان رتب الإقبال:

مما يعلي رتب الإقبال في سياق التنجية أنّ المنّ لم يقف على ذكر التنجية فقط، بل تتابعت الإقبالات فيه متناسبة مع بعضها، دالةً على علوّ الإقبال متلائمة مع قدرة الله في النّعم التي دلت عليها نون العظمة المفردة في الأفعال في جميع السياقات.

ورد النظم بطريق الوصل، كما في شأن موسى ونوح – عليهما السلام– في موضع سورة الصافات؛ للتناسب في الإقبالات المتتابعة، دلالة على علوّ الإقبال، سواء كان التناسب بآخر الموضع:﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الصافات: ٧٩] ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[الصافات: ١٢٠] أوبدايته:﴿ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات: ٧٥]﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[الصافات: ١١٤] باعتبارين:

١) باعتبار عظمة المنّة الماثلة في التوكيد والثناء من الله على نفسه: ﴿ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾[الصافات: ٧٥] والماثلة في التصريح بلفظ المنّ وإسناده لنون العظمة في شأن موسى– عليه السلام – فعظمة المنّة كامنة في التنجية –ها هنا –مع قومهم؛ لذلك أتبعها في شأن نوح– عليه السلام –بضمان بقاء ذريته وحفظ ذكره. وأتبعها في شأن موسى– عليه السلام– بالنصرة، وجعلها بالجمع لا بالتثنية فلم يقل:(ونصرناهما) بل:﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ ﴾[الصافات: ١١٦] وهذا العموم أدخل في عظيم المنّ والإنعام.

٢) باعتبار السلام الوارد في آخر كل موضع، فأعلى السلامة والأمن ما اتصل بالتنجية؛ لأنّ التنجية فيها سلامة حتى من الخطر والمواجهة مع الأعداء.

المعلم الرابع: تنوع التوكيد وأثره في تفاوت رتب الإقبال:

تنوعت طرق التوكيد وتفاوتت أدواته في الإقبال بالتنجية، تبعًا لتفاوت الرتب، فأكدت أعلى المواضع بـ: (إنّ)؛ لكونها أصلًا في التوكيد وهي أعلى دلالة على التوكيد من غيرها [(١)]؛ لذا وردت في شأن الرسول – ﷺ – في موضع سورة القصص قال –تعالى–:﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥]، فصدّر الضمان والوعد بـ: (إنّ) وهي الأصل في التوكيد، وتكون جواب نفي مقدر، وهذا أدخل في علوّ الإقبال.

ويعضد هذا العلوّ زيادة التوكيد بـ:(اللام)، فاجتماع هذين المؤكدين ملائم لعلوّ الإقبال الذي طويت فيه كل مراحل العناء وأكدت فيه عاقبة المتقين وجزاء الإحسان بالإحسان.

وفي موضع سورة الحجر –الذي كان في مرحلة بداية الدعوة– ورد توكيد الإقبال فيه بـ:(إنّ) ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥] وعلو التوكيد بـ: (إن) – كما تقدم – يلائم ورودها

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٣٢٥.

مع الفعل: (كفيناك)؛ لأنَّ الفعل لا يدل على الزمان في نفسه بل للمعنى الذي يخبر به[1]. وأريد به -هنا- الوعد فهو مخبر بأن الكفاية متحققة له في كل زمانه، وهذا يتلاقى مع توكيد: (إنَّ) التي تنفي الشك في الأمر، ونون العظمة المسند إليها الفعل: (كفيناك) مؤيدة لذلك فهي ترد في سياق الوعد والضمان[2].

كما وردت: (إن) في موضع سورة الشعراء في شأن موسى -عليه السلام- ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[الشعراء: ٦٢] ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١] ولاءم التوكيد بها الإقبال على موسى-عليه السلام- حيث تقدمت رائحة إنكار قومه للتنجية، فأتى التوكيد بـ: (إنَّ) التي تؤكد الأمر المنكر والمشكوك فيه؛ ليقطع شكهم بيقين موسى بعون ربه، وكونه -عليه السلام- على هذا اليقين وقد تراءى الجمعان=علوٌ في الإقبال عليه.

كما ورد التوكيد بـ: (إنَّ) في شأن عيسى-عليه السلام-:﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾[آل عمران: ٥٥] والتوكيد بها ملائم للحال؛ فرفعه أمر شُكّ فيه وأنكر، فجعله الله يقيناً بهذا التوكيد؛ ردًّا على إنكار من أنكره، باعتبار غير المخاطب، ويمكن أن يكون التوكيد لعظمة الخبر بالنسبة للمخاطب؛ حيث أهمه ماأحسه من قومه من الكفر، وماكيد له، فكان الإشعار له بالتنجية خبرًا مهمًا في ذاته، فمن ثمَّ أكده له.

والملاحظ أن التوكيد بـ: (إن) هنا تلاقى مع الخطاب في الدّلالة على علوّ الإقبال، فكما علا الإقبال بالخطاب علا التوكيد بـ: (إن) على بقية المؤكدات.

وورد التوكيد بـ: (قد) في موضع سورة التوبة: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[التوبة:٤٠] لملاءمة التوكيد بها الإقبال في هذا السياق؛ حيث أريد تحقيق حدوث الفعل ليقاس مالم يكن عليه، فـ: (قد) تدلُّ على تحقق حصول الحدث في الماضي[3]، وهذا ملائم لسياق الاستدلال بالقدرة في

(١) ينظر: السابق: ٥٦٩.

(٢) ينظر: تعبير الحق عن ذاته: ٢٣.

(٣) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني: ٣٩٢.

هذا الموضع، ووردها في الماضي يؤكد تحقق الأمر، فكلٌّ من الماضي و (قد) يحويان تحقق وقوع الأمر، فكأنه دلَّ على النصرة بأكثر من دليل وكرر لتوكيد ذلك، وهذا أدخل في علوّ الإقبال.

ووردت: (قد) في شأن موسى –عليه السلام– في موضع سورة الصافات: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الصافات: ١١٤] مسبوقة بـ: (اللام) الدّالة على القسم، وهذه قوة في التوكيد تلائم الإقبال في موضع سورة الصافات؛ فتحقق الأمر بالتوكيد بـ:(قد) والقسم في: (اللام) يتلاقى مع السلامة في الصافات، وفيه دليل على عدم وقوع أدنى ضرر، بل الأمر كل سلامة وأمن.

ووردت:(اللام) في إجابة دعاء نوح في موضع سورة الصافات من دون غيرها: ﴿ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات: ٧٥]، وتوكيد جواب القسم المحذوف في: (اللام)[1] يلائم ارتفاع صوت نوح بالنداء والاستغاثة، لذا أكدت بعلوّ يلائم علوّ صوته –عليه السلام– في النداء.

المعلم الخامس: دقة الكلمة وأثرها في تفاوت رتب الإقبال:

تخيَّر النظم الحكيم ألفاظًا رئيسة دالة على التنجية والإقبال بها تبعًا لرتبة كل نبي والسياق الوارد فيه، فورد: (رادك) في موضع سورة القصص في تنجية الرسول –ﷺ– والوعد والضمان له بعود أحمد، قال –تعالى–: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[القصص: ٨٥] .

"الرد لا يكون إلا إلى خلف"[2]، وهو "الرجوع في الطريق الذي جاء منه"[3]، وفي هذا المعنى زيادة إنعام لأنَّ التناقض بين الحالين: حال خروجه من مكة خائفًا ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ [التوبة: ٤٠] –كما أخبر القرآن– وحال عودته –ﷺ– فاتحًا منتصرًا، فيتذكر –ﷺ– الأحداث التي جرت وما بين الحالين تأييد له –ﷺ– ونصرة، وكونه –ﷺ– يعود من ذات الطريق الذي جاء منها وما لابس هذا الطريق من أحداث =علوٌّ في الإقبال عليه –ﷺ– وإبراز الإنعام بإدراك الفرق بين الحالين.

كما أنَّ في دلالة الردّ على الرجوع بسرعة [4] علوٌّ في الأقبال ؛لأنه أدخل في الإنعام، حيث يطوى له الزمن ويعجل بعودته سالمًا غانمًا إلى بلده الحرام.

---

(١) ينظر: التفسير الكبير: ٩/ ٢٣٩.

(٢) الفروق اللغوية:الفرق بين الرد والدفع: ١٣٠.

(٣) المفردات في غريب القرآن: كتاب الراء:١٩٩.

(٤) ينظر: الفروق اللغوية: الفرق بين الرد والرجع:١٣٠.

وإذا يممت النظر إلى معنى الرفق في الرد -فالرَّدُّ: صرف ولكن برفق[1]- فعلوٌّ في الإقبال بوجه آخر؛ فالرسول -ﷺ- لمّا رجع إلى مكة رُدَّ هاديًا، مبلغًا، فاتحًا بالخير، وإذا قارنًا رَدَّه إلى مكة برجوع سيدنا موسى -عليه السلام- الوارد في موضع سورة القصص ظهر جليًا علوّ رده -ﷺ- تبعًا لعلوّ رتبته، فالرسول رجع رحمة ونجاة لمشركي مكة، في حين كان رجوع موسى -عليه السلام- مؤذنًا بهلاك فرعون وملئه الكافرين، لذا ورد مع موسى -عليه السلام- في سورة القصص الرجوع لا الرد.

كما أنّ دلالة العون والاعتماد في الرد فيه إقبال -أيضًا- وإكرام للرسول - ﷺ - في تنجيته من الكفار، فالرِّد: ما كان عمادًا للشيء يدفعه ويرده[2]، وهذا يلتقي مع الإقبال - ﷺ - بإسناد الفعل لضميره: (لرادك) فلم يرد: (تُرد) أو غير ذلك.

وكل ذلك يتلاقى مع المجازاة بالحسنة الدائرة في السياق: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ ﴾[القصص: ٨٤]، ويتلاقى مع حسن العاقبة؛ فدلالة الردّ على زيادة اللبن في ضرع الإبل بعد شرب الماء[3]، وما فيه من دلالة حسن للمآل والعاقبة = يلتقي مع مغرس الإقبال عليه -ﷺ- بحسن العاقبة ﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]،، وتمام المنة علوًا في الإقبال عليه؛

وتتجلى الدقة في تخير اللفظ في موضع سورة التوبة مع الرسول -ﷺ- في كون: (تنصروه) في قوله -تعالى-: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠ ﴾[التوبة: ٤٠] = دالًا على الإقبال في التنجية، فالنصر: إيتاء الخير[4]، ومنه تسمية المطر بالنصر، ففيه معنى العطاء، كما أنّ النصر عون على الظالم[5]. فاجتماع دلالة عطاء الخير، مع العون، مع دلالة العلو = يتلاقى مع ما دار

---

(١) نفسه.

(٢) لسان العرب: باب الراء: ١٦٢٢/٣.

(٣) نفسه.

(٤) معجم مقاييس اللغة: كتاب الصاد، باب النون والصاد وما يثلثهما: ٥٦٣/٢.

(٥) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب النون: ٤٩٧.

في النّظم من تأييد بالملائكة: ﴿ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا ﴾، ويلتقي مع رفعة وظهور شأنه مع تصريح الله برفع كلمته على كلمة الكافرين: ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾، ويؤكد هذا العلوّ ورود: (كلمة الله) بالاستئناف الذي فيه استقلال عن كلمتهم، وكلّ ذلك العون والنصرة يلتقي مع الاستدلال على قدرته -ﷻ- الذي هو مغرس للإقبال عليه -ﷺ-.

أما موضع سورة الحجر فيلائم الإقبال عليه بالتنجية في أول مراحل الدعوة كفايته: ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥] فالكاف والفاء والحرف المعتل أصل صحيح يدل على الحسب الذي لا مستزاد فيه" [1]. فكون الله كافيه علوّ في الإقبال عليه، ويلتقي هذا مع التخفيف عنه من ضيق صدره - ﷺ - فكفاه بمعنى: قام بالأمر، وكفاه ما أهمه وأغناه[2]. وكل هذا إقبال عليه -ﷺ- استلزمته عناية الربوبية بتفضيله بها -ﷺ- فلما كان الخطاب مع الرسول-ﷺ- مخبرًا عن حال المشركين: ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾[الحجر: ٩٥-٩٦] وردت الألوهية معهم ملاءمة لحالهم ولتهديدهم بـ: ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٩٦]، ولما انتقل الخطاب إليه مرشدًا إلى حاله الملائمة له- ﷺ - خوطب بالربوبية: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾ [الحجر: ٩٨] ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ ﴾ [الحجر: ٩٩] فالربوبية تلتقي مع الكفاية في الرعاية والعناية، وهذا علوٌّ في الإقبال عليه -ﷺ- في مرحلة بداية الدعوة. هذا في شأن النبي -ﷺ-.

أما في شأن سيدنا إبراهيم -عليه السلام- فنجد في تخير الكون:(كوني) في قوله -تعالى-: ﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩] ملاءمة لعلوّ الإقبال عليه في موضع سورة الأنبياء؛ إذ دار الإقبال بالتنجية على هذه اللفظة الدّالة على أن النار قد غيرت خصائصها لأجله، فـ: (الكون) هو خلق جديد، وهذه خصوصية لإبراهيم -عليه السلام- فكأنّ النار كونت بهذه الصفة: ﴿ بَرۡدًا وَسَلَٰمًا ﴾ له خاصة، يؤيد ذلك ورود الوصف بالمصدرية: (بردًا وسلامًا)، وهذا مبالغة في صفتها يتلاقى مع علوّ الإقبال عليه؛ لذلك وردت :(كوني) وهذا التضاد في المعاني بين النار

(١) معجم مقاييس اللغة: كتاب الكاف، باب الكاف والفاء وما يثلثهما: ٢/٤٤٨.

(٢) ينظر: لسان العرب: باب الكاف: ٥/٣٩٠٨.

والبرد يعلي من الإقبال أن يتحول الشيء إلى تنجية وإكرام لإبراهيم -عليه السلام- من وجه، ويلتقي مع طلاقة القدرة التي جعلت في كل مخلوق الشيء وضده من وجه آخر.

وورود: (الرفع) لفظًا رئيسًا في تنجية عيسى -عليه السلام- قال -تعالى-: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[آل عمران: ٥٥] والرفع: نقيض الخفض في كل شيء، ومنه الرفعة: نقيض الذلة[١]. فالإقبال عليه علوٌ بما يحوي دلالات الرفع من رفع معنوي يتلاقى ويتلاءم مع المنّة بالتطهير ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ وملائم لحال عيسى-عليه السلام- بأن جعله مطهرًا مشرفًا لا كما يقولون، كما يدل على الرفع الحسي الذي يتلاءم مع تعليق الفعل بضمير يعود على الذات العلية ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وهذه الرفعة حسية ومعنوية ضمان لسلامته -عليه السلام- من كل مكر يمكرونه، فالتنجية له -عليه السلام- كانت إقبالاً عليه مقابلة لمكرهم، ويؤيد هذه الدّلالة على السلامة عطفّها على: (متوفيك) بما في التوفي من دلالة استيفاء الأجل[٢]، ففي ذلك تطمين له من الله أن يعصمه من الناس، وتطمين له ألا يموت مقتولًا أيًا كان مكرهم، فالأخطار التي سيتعرض لها من اليهود أو من غيرهم لا تؤدي إلى قتله البتة.

وفي التوفي دلالة أخرى تلائم الإقبال بأن يوفيه كل خير، ويوفي له العطاء، وهذا يلتقي مع استمرار هذا الإنعام وامتداده حتى مع الذين اتبعوه؛ لأنّه سبب في أن تمتد لهم الرفعة والإنعام إلى يوم القيامة :﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فهذا الامتداد من وفاء العطاء له -عليه السلام-.

ووردت الهداية لفظًا رئيسًا في تنجية موسى -عليه السلام- في موضع سورة الشعراء، وكل دلالات الكلمة دالة على علوّ الإقبال عليه -عليه السلام- فالهداية أصلان: أحدهما تقدم الإرشاد، والآخر بعثة لطَف[٣].

وورودها مؤكدة على لسان موسى-عليه السلام- بالسين: (سيهدين) الدّال على سرعة في الهداية فيه طمأنة نفس ويقين بالتنجية بتعدد وجوه الهداية مع موسى -عليه السلام- سواء كانت الهداية في آلة

(١) ينظر : معجم مقاييس اللغة: كتاب الراء، باب الراء والفاء وما يثلثهما: ١/٤٧٩.

(٢) ينظر : السابق: كتاب الواو، باب الواو والفاء ومايثلثهما: ٢/٦٤٠.

(٣) السابق: كتاب الهاء، باب الهاء والدال وما يثلثهما: ٢/٦٠٣.

النجاة ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ [الشعراء: ٦٣]، أو في الطريق بأن يسلك البحر، أو في الهداية المستقبلية بعونه في كل شأن من شؤون حياته، فهذا امتداد في دلالات الهداية يؤكد علوّ الإقبال عليه بالتنجية، فكل ما جاء بعد الهداية من وحي وسلوك البحر تفسير لرجاء موسى -عليه السلام- الهداية كأنّها وقعت وفق ما رجى، وهذا أدخل في المنّ عليه بأن تحدث على مسمع منهم ومرأى لا يمكن المماراة فيه الجدل أو الإنكار له، كما أنّ تتابع الأحداث فيه دلالة ترقٍّ في الإنعام؛ حيث بدأت الهداية بإرشاده ﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ [الشعراء: ٦٣]، ثم ترقت بعد ذلك إلى عونه حيث تولى الله -عز وجل- بعد ذلك الأمر ونجاه هو ومن معه، فأزلف ثم الآخرين ونجاه هو ومن معه : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴾[الشعراء: ٦٤].

وتخير: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ ﴾ في تنجية نوح -عليه السلام- في موضع سورة القمر: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر: ١٣] ملاءمة للتيسير الذي ورد مع الأنبياء في التنجية في هذه السورة؛ فالحمل: فيه معنى الكفالة[1] وهذا يتلاءم مع شكواه -عليه السلام- لربه: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠] حيث كفل الله هذا المغلوب فكان هو ناصره ومؤيده، يؤكد ذلك قيد الحمل بأنه ﴿ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر: ١٣] فهذا علوٌّ في الإقبال سواء كانت الكناية بالألواح والدسر للتعظيم، أو للتحقير، فالمنّة عظيمة أن ينجى من هذا الطوفان الهائل على ألواح ودسر[2].

وورود الإنعام بالتنجية بصيغتي: (نجى، أنجى) مشترك في المواضع، وفي كل منهما علوٌّ في الإقبال ملائم لسياقه، فلما كان السياق في قوله -تعالى- في شأن نوح: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ ﴾[الشعراء: ١١٩] يستلزم الإسراع في التنجية لتقدم طلب الفتح من نوح، والتصريح بطلب التنجية يلائمه صيغة :(أفعل) من دون تشديد لأنّه أدل على السرعة.

ولما علا تأكيد الإنعام في موضع سورة الصافات، وكان السياق في السلامة حث من أدنى ضر = ورد الإنجاء بصيغة: (فعّل) بالتشديد: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ [الصافات: ٧٦] ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الحاء: ١٣٩.

(٢) ينظر: البحث:١٩٥

﴿ وَقَوْمَهُمَا ﴾ [الصافات: ١١٥]؛ لأنّها أدلُّ على التثبت وعدم الإسراع في التنجية، وهذا ملائم لعدم التصريح بطلب النجاة في شأن نوح - عليه السلام - وتمحض الإنعام في شأن موسى - عليه السلام -.

المعلم السادس: المعنى بين المباشرة والتصوير، وأثرتلك في بيان رتب الإقبال:

اطّرد مجيء لفظ التنجية: "نجينا، أنجينا" على وجه تصوير الواقع الحقيقي في صريح حالّ التنجية وموضعه الرئيس، في حين أتى التصوير في اللفف بيانيًا؛ وذلك لأنّ الحقيقة أقرب إلى القطع بوقوعها؛ تحقيقًا لتسكين النفس وطمأنة المخاطب، وهذا يتلاءم مع الإقبال.

أما ورود الصورة في اللفف على وجه البيان فلتقريب الأمر للمتلقي، لأنّها وقعت على وجه مخالف للمعهود كحال السفينة في شأن نوح - عليه السلام - ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [القمر: ١٣] وحال النار في شأن إبراهيم - عليه السلام - ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩] وحال البحر في شأن موسى - عليه السلام - ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٣].

المطلب الرابع: صريح الإقبال في سياق التسلية والتصبير:

أ- الإينـــاس في أول الدعوة.

أكرم الله الأنبياء بالإقبال عليهم في مراحل عمرهم: من الطفولة، مرورًا بلحظة الوحي بالرسالة، حتى آخر مراحل رسالاتهم.

ومن وجوه الإقبال عليهم: إيناسهم من الوحشة التي تصيبهم- عليهم السلام-حال الشدة، فالوحشة المستلزمة للإيناس لها وجوه مختلفة منها: ما هو مسبَّبٌ عن الخوف من استعلاء الباطل، ومنها ما هو مسبَّبٌ من فجأة تلقي الرسالة، وأخرى مسبَّبَةٌ عن وحشة انقطاع الوحي وخبر السماء فترة من الزمن ...

و قد جاء الإيناس إقبالًا في خطاب الأنبياء من أولي العزم من الرسل في مقامين:

أولهما: مقام تلقي الرسالة، ففي اللحظة الأولى اعترت الرسل من أولي العزم وحشة وخوف عظيم؛ فذلك خبر السماء، وتلك رسالة عظيمة كُلِّفوا بها، فاستلزمت شدة الخوف والوحشة فخوطبوا- عليهم صلوات الله- بتطمين قلوبهم والتلطف بهم؛ إيناسًا لهم وعلوًّا في الإقبال.

آخرهما: مقام انقطاع الوحي، ووحشة الانقطاع بعد الوصل وحشة عظيمة، فكيف إذا كان الانقطاع عن خبر السماء من وحي وإرشاد واتصال بالله - ﷻ -؟

المقام الأول: مقام وحشة اللحظة الأولى في تلقي الرسالة:

اشترك في هذا المثير للإيناس نبينا محمد- ﷺ - وسيدنا موسى - عليه السلام - حيث جاء الإقبال عليهما كسمت عام في لحظة التلقي، وقد وصفت في نظم القرآن وصفًا دقيقًا، فالسياق الحالي في لحظة تلقي موسى- عليه السلام - من فجأة المناداة من النار في ظلام الليل وهو غريب وتائه في الصحراء، فشعوره بالوحشة والغربة مثير للإقبال عليه بالإيناس -خاصة- لملاءمة الإيناس للقلب في هذه اللحظة، وهذا أساس معتمد عند الحرالّي للإقبال[1].

---

(١) ينظر: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

وكذلك السياق الحالي للرسول - ﷺ - من وحدة في الغار في الليل البهيم حين يظهر له جبريل - عليه السلام - بعظمة خلقه، ويكلّمه ويطلب منه ما لا يعرفه، بل يلزمه به، كل ذلك وحشة تستلزم الإيناس، فكان الإقبال الملائم للقفه وحاله أن يخاطب خطاب إيناس وتلطف.

١ - إيناس سيدنا موسى - عليه السلام -:

ورد الإيناس لموسى - عليه السلام - في مواضع ثلاثة هي:

أ- ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ ﴾ [طه: ٩-٢٦].

ب- ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [النمل: ٧-١٢].

ج- ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن

شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين (٣٠) وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين (٣١) اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين (٣٢) قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون (٣٣) وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون (٣٤) قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون (٣٥) ﴾ [القصص: ٢٩-٣٥].

تعددت جوانب إيناس موسى -عليه السلام- في لحظة تلقي الرسالة تبعًا لتنوع حاله -عليه السلام- والسياق الذي ورد فيه، فعلت رتب الإقبال في كل موضع من مواضع الإقبال بإيناسه باعتبار مختلف عن الموضع الآخر، ومن ثَمّ كان لكل موضع منها علوٌّ باعتبار معين، وفي ذلك يتجلى علو البيان لعلوّ الحال، وتعاضد النسق اللفظي مع النسق المعنوي كما اشترط الحرالّيّ لبلاغة الإقبال [(١)].

فعلا الإقبال بالإيناس في موضع سورة طه: ﴿ وهل أتاك حديث موسى (٩) إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى (١٠) فلما أتاها نودي يا موسى (١١) إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى (١٢) وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى (١٣) إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري (١٤) إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى (١٥) فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى (١٦) وما تلك بيمينك يا موسى (١٧) قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى (١٨) قال ألقها يا موسى (١٩) فألقاها فإذا هي حية تسعى (٢٠) قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى (٢١) واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى (٢٢)

(١) ينظر: قول الحرالّيّ: "ويعلو الإفهام والبيان بحسب رتبة من توجه إليه الإقبال" مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

لِتُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ ﴾ [طه: ٩-٢٦] باعتبار نفي الشقاء؛ لأنّه نفى عنه الشقاء بتأنيسه وتطمينه وضمان السعادة له؛ لذا امتد فيه السياق وبسط فيه الكلام وعددت المنن؛ لأنّ هذا أدخل في نفي الشقاء وضمان السعادة.

وعلا الإقبال في موضع سورة النمل باعتبار البشارة؛ فكون البشارة بإرساله أهم ما ورد له السياق، علوّ الإيناس في سياقه؛ لذا كان جانب الإيناس بالبشارة مقدمًا، فكان أول ما صك سمعه- عليه السلام - ﴿ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ [النمل: ٨].

وعلا الإقبال في موضع سورة القصص باعتبار التركيز على أساليب متعددة لرفع الخوف؛ زيادة في التطمين ورفعًا للتردد الذي دلّ عليه تكرار الرجاء بـ(لعل) ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ [القصص: ٢٩-٣٠] فكان موسى -عليه السلام- في هذه المرحلة خائفًا مترددًا، فالإيناس برفع الخوف أعلى في سياقه؛ لأنّ الخوف في السورة كان شديدًا، فالرحلة أطولُ والمعاناة أشدُّ.

فإذا كان جانب نزع الخوف في لحظة ذروة الخوف مؤنسًا، فالتركيز على جانب البشرى أعلى إيناسًا في سياقه، وجانب بسط الكلام وذكر المنن والنعم مؤنس في سياقه، لنفي الشقاء بطريق الأولى، فمن رُعي قبل الرسالة فهو أولى بالرعاية بعدها.

وقد تفاوتت الأساليب في بيان علوّ رتب الإقبال في كل موضع بحسب الحال والسياق، ويظهر ذلك في ثلاثة معالم هي:

المعلم الأول: تنوع التعريف وأثره في بيان رتب الإقبال:

تنوع التعريف في هذه المواضع باعتبارات ثلاثة: باعتبار المُقبِل-عز وجل- والمقبَل عليه، وأساليب الإقبال، ولهذا التنوع تناسب مع السياق الوارد على النحو التالي:

١- **أما تعريف الذات العلية:** فورد تعريفها بضمير الإفراد: ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ ﴾ ﴿ إِنَّهُۥٓ أَنَا ﴾ واطرد في جميع المواضع، وهذا أدعى لإيناس موسى- عليه السلام - لأنّ في ضمير المتكلم المفرد دلالة قرب وتحنن تلائم إيناس فجأة تلقي الرسالة، قال صاحب تعبير الحق عن ذاته: "ولا يأتي الإفراد في مقام تعريف المخاطب بذات الحق إلا للإيناس والتلطف؛ لئلا تأخذ المخاطب رهبة

التعبير بضمير الجمع المشعر بالعظمة والفخامة ورفعة المكانة، وقد يجتمع هذا مع التوحيد في مقام واحد، ويتجلى في خطابه -تعالى- للرسل في ابتداء الرسالة، حيث يكونون في حاجة للإيناس والتلطف وتخفيف وقع المفاجأة"[1].

وهذا داخل في أساس علوّ البيان بعلوّ رتبة المخاطب الذي ذكره الحرالّيّ.

وفي تقديم ضمير الإفراد للمتكلم علوٌّ في الإيناس والتلطف: ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ﴾ ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴾ لأنّه في مقام الوعد والضمان، وهو أدعى إلى التوكيد، وهذا ما نصّ عليه عبد القاهر الجرجاني[2] ودلالة التوكيد برفع الشك والتردد عن المخاطب في هذا المقام علوٌّ في الإقبال والإيناس وطمأنة قلبه في هذه اللحظة.

أما ضمير الشأن :﴿ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ ﴾فبعلو الإيناس به في سورة النمل؛ لأنّ سياقها في البشرى، والدلالة على عظمة المبشِّر دلالة على عظيم البشارة وعلوّ شأن المُبشَّر بها، وهذا ملائم لنوع البشارة؛ فهو بشارة بالرسالة، وملائم للتنزيه المتقدم في السياق: ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وللوصف بالعزة والحكمة: ﴿ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وهذا من التناسب في النَّظم؛ حيث لاءم عظمة ضمير الشأن تنزيهه -تعالى-: ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ ووصفه بالعزة والحكمة.

وورد تارة أخرى تعريف المُقبِل - ﷻ - بالإضافة؛ فقد أضيف ربوبيته تارة لموسى خاصة في موضع سورة طه: ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ وأخرى لعموم العالمين في سورتي القصص والنمل ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.

ولدلالة التخصيص في الإضافة علوٌّ في الإيناس؛ فتخصيص موسى -عليه السلام- بالربوبية في موضع سورة طه فيه دلالة حظوة وتشريف، فرتبة المضاف من رتبة المضاف إليه، وهذا تكريم لموسى بقربه من الله؛ لأي شيء خلقه ورباه من وجه، ومن وجه آخر أليق بخصوصيته بالإنعام المستلزم للربوبية، وهذا أدعى لنفي الشقاء عنه، قال ابن عاشور: "والإخبار عن ضمير المتكلم بأنّه رب المخاطب لتسكين روعة نفسه من خطاب لا يرى مخاطبه، فإن شأن الرب الرفق

(١) تعبير الحق عن ذاته: ٨.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٣٤.

بالمربوب"[1]ويلائم هذا ما ورد في السياق من نعم متتابعة متتالية، اختص بها موسى- عليه السلام- فاختصاصه بالربوبية استلزم اختصاصه بنعمها.

أما العموم في الإضافة إلى العالمين في الموضعين الآخرين - القصص والنمل - فله مدخل آخر في علو الإيناس ولكن باعتبار آخر، فكون الذي أنعم عليه بالرسالة وبشره رب العالمين في موضع سورة النمل أعلى إيناسًا له باعتبار أنّه اختير لهذه البشارة من دون غيره من العالمين، ويؤيد ذلك الوصف الثاني لله بالعزة والحكمة، فرب العالمين المنزه عن كل نقص وخطأ اختصه هو من ضمن العالمين بالرسالة لعزته وحكمته التي تضع الأمور في مواضعها، فكونه رَبِيَ للرسالة خاصة هذا أعلى إيناسًا له .

أما دلالة العموم على علوّ الإيناس في موضع سورة القصص فملائم لنفي الخوف عنه، فالذي خاطبه رب العالمين قاطبة بما فيهم فرعون فلا خوف عليه - إذن- ورب العالمين معه ومخاطبه ومرشده يؤيده، فهذا ضمان الأمان له: ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴾.

وكما لاءم تنوع التعريف علوّ الإيناس كذلك لاءم تتابع الضمائر علوّ الإقبال، وذلك ما ورد في موضع سورة طه: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾[طه: ١٤] وهو ملائم للإيناس ببسط الكلام لنفي الشقاء في موضع سورة طه فهو السمة الغالبة فيه، كما أنّ تنوعها فيه توكيد للإنعام يستلزم أنس الفؤاد وطمأنته.

التعريف بالربوبية والألوهية وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

اشتركت جميع المواضع في اجتماع الربوبية والألوهية تعريفًا للذات العلية بما يلائم الإقبال في كل منهما، فتقدمت الربوبية على الألوهية في موضع سورة طه، وأفرد لكل منهما إسناد بمفرده، قال -تعالى-: ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه: ١٢-١٤].

وتقدمت الألوهية على الربوبية في سورتي النمل والقصص ووردتا في إسناد واحد:﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[النمل: ٨] ﴿ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠].

والإيناس بتقديم الربوبية في سورة طه أعلى باعتبار، كما أنّ تقدم الألوهية في سورتي النمل والقصص أعلى باعتبار آخر، فتقدم الربوبية في سورة طه أعلى إيناسًا؛ لأنها في نفي الشقاء

(١) التحرير والتنوير: ١٦/١٠٣.

ابتداء فحين يعلم أنّ مناديه ومختاره هو المنعم عليه، وهو الذي ربّه وربّاه لما أبداه وجوده يوقن أن لا شقاء في الرسالة، وهذا أعلى إيناسًا.

كما أنّ في التقديم إيذانًا بتقديم الإنعام عليه والمنن؛ ومنها الرسالة وتوحيد الله، لذا أخر الألوهية ليعلم بعد الإنعام لأي شيء ربّي؛ لذا عقب بوصف الذات العلية بالوحدانية: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ [طه: ١٤] وأرشد إلى وسائل تحقيقها: ﴿ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ [طه: ١٤] فتحقيقها أتم للسعادة وإزالة الشقاء.

أما ورودها في إسنادين فهو ملائم للإيناس ببسط الكلام؛ لما للإطالة من إسعاد المخاطب، وهذا سمت عام في إيناس موضع سورة طه.

أما اجتماع الألوهية والربوبية بتقديم الأولى في إسناد واحد فعلا الإقبال به في سورة النمل باعتبار التنزيه، فمغرس الإقبال: (سبحان) ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل: ٨] والملائم للتنزيه أن تتقدم الألوهية، وهذا ملائم لعلوّ الإيناس بعظمة البشارة، ولذلك ذكر جانب الرسالة وقدم ذكر البركة، فهي بشارة وبركة على أعلى وجه وأكمله فلا مثيل له -ﷻ- ولا مثيل لبشارته وبركته، فتقدم الألوهية -إذن- أليق بالدلالة على عظمة البشارة من الربوبية.

أما في سورة القصص فمغرس تقديم الألوهية التعريف بضمير المتكلم المفرد:(إني) وفي التعريف هنا دفع لذروة الخوف، فتعريف الحق -ﷻ- بنفسه بالألوهية وتحديد مصدر الكلام هو الأعلى إيناساً هنا؛ فالتركيز على التعريف بالألوهية أدعى للأمان والركن إلى الجانب، فمن ركن إلى قوة الإله فلا خوف عليه.

لذا حدد مصدر الكلام وقدمه ليؤمنه من خوف سماع الكلام من مصدر ليس مظنة للكلام فمحدثه هو إلهه وخالقه - ﷻ- فلا مقتضى للخوف إذن.

٢- تعريف المقبل عليه:

اطرد تعريف موسى- عليه السلام - بالعلمية في المواضع الثلاثة؛ لدلالة إحضار المذكور بعينه وتمييزه عن جميع من سواه[١]، ففي العلمية علوٌ في الإيناس بكل اعتبار وردت فيه المواضع؛ حيث إنّ تسميته بعلمه تخصيص له بالفضل وتمييز له به، سواء كان بنفي الشقاء عنه أو ببشارته

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٤٩.

بالرسالة أو بدفع الخوف عنه، كما أنّ في النداء بالعلمية تعظيمًا لشأنه هو، وهذا أدلّ على إيناسه وتطمين قلبه فلعلوّ شأنه علا إيناسه وسُمي باسمه.

والعدول عن تعريفه بعلمه أو بضميره إلى الصلة في البشارة التي تقدمت في النمل: ﴿ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾[النمل: ٨] -إيناسٌ له وتلطفٌ بذكر بعض ما تلبس به المتلطف من أحوال، وهذا أعلى إيناسًا له؛ فتعريفه بالموصولية بيّن بأنّ حاله بركة أمرٌ معلوم، وهذا أدخل في الإيناس بالبشارة الذي هو سمت سورة النمل؛ لذا ولي ذلك البشارة بالرسالة: ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[النمل: ١٠].

٣- التعريف في أساليب الإيناس:

اطرد في المواضع الثلاثة تعريف آليات إيناسه من عصا، ويد، وأخ بالإضافة إلى ضميره-عليه السلام- ﴿ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ ﴾ ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ ﴾ ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ ﴾ ﴿ جَنَاحَكَ ﴾ ﴿ جَيْبِكَ ﴾ ﴿ بِأَخِيكَ ﴾ وخصها بالإضافة إلى كاف الخطاب من دون التعريف بـ: (ال) أو التنكير مثلًا؛ لأنّ هذا أدل على الإيناس والتبسط حيث أضافها إلى ذاته فهي له هو، كما أنّها قريبة منه ولصيقة به، فحين يحدث الإعجاز بما هو له ولصيق به، فهذا أدعى للإيناس والتلطف.

المعلم الثاني: النداء وأثره في بيان رتب الإقبال:

اشتركت المواضع الثلاثة في ذكر مادة النداء: (نُودِيَ) وبنائها للمفعول، وهذا ملائم للإيناس عمومًا ففي البناء للمفعول تعظيم للفعل[1] يستلزم علوّ الإيناس فعظمة النداء من عظمة المنادِي، وعظمة المنادِي تدلّ عظمة شأن من ناداه وعظمة ما نُودِيَ من أجله، وهذه العظمة -ولا شك- دليل علوّ إيناس وكرامة لعلوّ شأنه.

(١) ينظر: المبني للمجهول تراكيبه ودلالاته في القرآن الكريم، شرف الدين الراجحي، ط من دون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩م: ٢٢٣، إذ نص في نتائجه على أن الفعل المبني للمفعول يرد في القرآن في مقام العزة والتفخيم بحسب السياق والمقام.

كما اطرد النداء فيها بِعَلَمه: (موسى) وهذا دليل علوّ في الإيناس والتلطف؛ فتفسير النداء بعلمه مباشرة فيه تفخيم لشأنه واعتناء به خاصة فلا يفسر النداء إلا للاهتمام بشأن ما فسر به، كما علل الزمخشري لتفسير النداء[1]، وذلك لما للتعريف بالعلمية من دلالة الاعتناء والتمييز .

هذا ما اتفقت فيه، المواضع، أما ما اختلفت فيه فكان في أسلوب النداء والجمل المفسرة له في كل موضع بما تلاؤمَ مع علوّ الإقبال فيه.

أما الأسلوب فقد ورد النداء في سورة طه والنمل بلا تفسير: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ وورد مفسراً في سورة القصص: ﴿ أَن يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ لملاءمة التفسير للإيناس فيها؛ فالتفسير يتلاءم مع إزالة الخوف والتردد والشك لدى الخائف، فاستلزم علوّ الإيناس على موسى -عليه السلام- في هذا الموضع أن يرد بالتفسير ليقابل خوفه وتردده بما يضاده من تحقيق للأمن وتوكيد له.

أما في سورة طه فنفي الشقاء ورد ابتداء فلا تردد ولا شك و سورة النمل كان السياق للبشارة وقد تقدمت لطمأنته - عليه السلام -.

أما تقدم الجمل المفسرة، فقد تقدمت في سورة النمل البركة ملاءمة للبشارة، فالمعاجلة بالبشارة أعلى إيناسا من تأخيرها؛ لذا تقدمت على النداء: ﴿ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾ على المنادى ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ وأكدت البشارة بجملة مفسرة أخرى متعقبة: ﴿ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ فقدم تفسير النداء بالتبشير بالبركة وأخر تفسيره بالرسالة، فكأن تفسير هذه البركة هي الرسالة.

وكما اختلفت جهة تفسير النداء أسلوبًا وموقعًا كذلك اختلفت معانيها التي فسرتها تبعًا لكل موضع باعتباره، فكان ورودها بالأمر بخلع النعلين وبيان قداسة المكان في سورة طه: ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾[طه: ١٢] أكثر إيناسًا في مقام نفي الشقاء؛ لما فيه من دلالة تبسط وقرب وإنعام بقداسة المكان الذي لا يمكن أن يحل فيه شقاء؛ لذا أرشد بخلع نعليه لما في ذلك من إدراك بركة المكان والتبسط في المكوث فيه، وهذا بث للسعادة والطمأنينة في قلبه -ﷺ-

---

(١) ينظر: تفسيره لقوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾[آل عمران: ١٩٣] حيث قال: فإن قلت : فأيّ فائدة في الجمع بين المنادي وينادي؟ قلت: ذكر النداء مطلقًا ثم مقيدًا بالإيمان تفخيمًا لشأن المنادي؛ لأنه لا منادي أعظم من مناد ينادي للإيمان... فإذا قلت ينادي للإيمان: فقد رفعت من شأن المنادي وفخمته' الكشاف: ١/٦٧٨.

وحَمَل النداء معنى البركة والبشارة بالرسالة ملائمٌ لسياق البشرى في سورة النمل.

وحمل النداء في سورة القصص معنى شمولية الألوهية والربوبية لكل العالمين أعلى إيناسًا؛ لأنها أدلُّ على الأمن وامتناع الخوف، لاسيما وقد ادعى فرعون الألوهية فيها صريحًا، ونص موسى -عليه السلام- على خوفه من اقتصاصهم منه جزاء قتله القبطي...

المعلم الثالث: أسلوب الإيناس بين الطي والبسط، وأثر ذلك في بيان رتب الإقبال:

تفاوت الإيناس في المواضع الثلاثة بسطًا وطيًّا تبعًا لما يلائم سياق كلٍّ، فكان البسط هو الظاهر في سورة طه والقصص على اختلاف وجهه في كل موضع، في حين كان الطيُّ هو السمت العام في سورة النمل.

فلاءم بسط النعم والمنن التي تستلزم السعادة نفي الشقاء في سورة طه، كما لاءم البسط التلذذ بالكلام والمحاورة بين المقبِل والمقبَل عليه، وهذا إيناس أدخل لنفي الشقاء.

كما لاءم البسط الإقبال بالإيناس في سورة القصص من وجه دفع عوامل الخوف، فكلما ورد داعٍ للخوف لدى موسى- عليه السلام- قوبل بدفعه بما يضاده فكان البسط علوًّا في الإقبال عليه في هذا الموضع من هذا الوجه.

فنفي الشقاء وضمان الأمن مقامان مستلزمان للبسط وإن اختلفت وجوهه؛ لذا كان علو الإقبال بالتطويل والبسط في الإيناس في كل موضع باعتباره.

ولاءم الطيُّ الإقبال بالإيناس في سورة النمل؛ إذ ركز السياق على البشارة بالرسالة ثم هلاك المكذبين ولم يعن إلا بهما من دون العناية بالمرحلة البينية وما فيها من شقاء أو خوف، والبشارة فيها تعجيل بالكلام يقتضي الطيّ وعدم البسط، فكان علوّ الإيناس في هذا الموضع من هذا الوجه.

وقد ورد البسط بأساليب متنوعة، منها ما اشترك في الموضعين، ومنها ما اختص به كل موضع باعتبار. أما ما اشتركا فيه فهو مايلي:

١- البسط في الأمر والنهي:

ورد الأمر لموسى -عليه السلام- بإلقاء العصا في سورة طه بقوله -تعالى-: ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه: ٢١] في حين ورد في سورة القصص بـ: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾ [القصص: ٣١] ولم يرد هذا البسط في موضع سورة النمل بل طوى الأمر وذكر النهي عن الخوف فقط.

فذكر الأخذ: "خذها" في سورة طه إيناس له ملائم لنفي الشقاء، فمباشرة العصا بيده بعد أن رأى ما رأى، ووعده بعد ذلك بأنها ستعود على ما كانت: ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾[طه: ٢١] أدخل في إسعاده، حيث تعود عصاه على ما ألف منها فلا تتغير عليه بعد طول مكثها معه واعتماده عليها، وأدل على تأنيسه وتسكين قلبه بعد الخوف يتلاءم مع أخذها ومباشرته لها.

كما أنّ في الأمر بالإقبال في سورة القصص: ﴿ أَقْبِلْ ﴾ إيناسًا برفع دوافع الخوف، فالإقبال أمر بالعودة بعد الإبعاد في الهرب مع لطفٍ ومودة[1] فكونه يؤمر بالإقبال دليل على أنّ الأمر آمن فلا مقتضى للإبعاد في الهرب؛ لذا ورد التعليل بعد ذلك: ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴾ [القصص: ٣١] وفي زيادة:(من) هنا بسط فيه تأكيد على ضمان الأمن ملائم للإيناس برفع شدة الخوف الشائع في السورة.

٢. البسط بذكر التقييد في المكان:

ورد البسط في سورة طه بتحديد المكان في قوله -تعالى-: ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه: ١٢] وفي سورة القصص في قوله: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [القصص: ٣٠] وهذا التقييد الذي حدد المكان علوّ إقبال في الموضعين كل باعتباره؛ حيث دلّ ذكر المكان في سورة طه على شرف المكان الذي نودي فيه ومكانته، وهذا أليق بإكرامه وتعداد النعم عليه نفيًا لشقائه؛ فالمكان الذي نودي فيه مقدس لا مظنة للشقاء فيه؛ لذا بسط في إرشاده إلى خلع نعاله ملامسة لشرف المكان وإنعامًا له لينال بركة الوادي[2] وهذه التهيئة في الظاهر تهيئة لداخله.

ودلّ تحديد المكان في سورة القصص على تأمينه؛ حيث إنّ المصدر الذي سمع منه الكلام لم يكن مظنة الكلام، وهذا مثير للخوف الشديد فحين يحدد له المكان ويعلمه أنّه هو - ﷻ- المتكلم هذا دفع لخوفه.

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن: كتاب القاف: ٣٩٣

(٢) ينظر : التفسير الكبير : ٨/١٩.

٣. البسط بالتكرار:

تكرر تعريف سيدنا موسى -عليه السلام- بالعلمية في كلا الموضعين من غيرهما أكثر ما كرر ملاءمة للإيناس، كما تكرر تعريف الذات العلية بضمير الإفراد، وفي البسط بتكرارهما علوٌّ في الإيناس والتلطف على ما تقدم من دلالتهما.

٤ـ البسط في مستتبعات نظم الإيناس: حيث روعي الإطناب في لفف الإقبال في الموضعين، سواء من ذكر النعم الجليلة المتتابعة في سورة طه بدءاً باختياره: ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾[طه: ١٣] وما في الاختيار من الجد في طلب الشيء وتفضيله على ما سواه لخير فيه[1]. وانتهاءً بذكر المنن المتقدمة عليه في الصغر:﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٣٧] وكل هذا البسط مقابل لبسط سيدنا موسى -عليه السلام- في الطلب، فاستلزم الإيناس له أن يبسط المقبل عليه في تعداد النعم بما يلائم نفي الشقاء عنه جوابا لطلبه وتقريبًا لأخيه إسعادًا له.

وورد بسط الطلب في سورة القصص؛ ليكون دافعًا من دوافع عوامل الخوف، وعلى ذلك سار الإيناس في بسط جميع النعم له، فأتت إما لرفع خوفه من ناحية الرسالة، فأعطي من هو أفصح منه وضمن له سلامة رسالته وغلبتها على الظالمين: ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص: ٣٤] أو دفعًا لخوفه على ذاته فجعل أخاه عضيدًا له يشد عضده ويقويه في مواجهة الباطل: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص: ٣٤].

وقد قوبل البسط في الطلب في -كلا الموضعين- بالبسط من الله في تعداد النعم الملازمة لسياق كل منهما، فبسط بذكر نعم نفي الشقاء في سورة طه منذ صغره وحتى إرساله، وبسط في ذكر عوامل دفع الخوف في سورة القصص بدءًا بذاته وانتهاءً بقومه.

أما ما اختص به كل موضع من البسط في المستتبعات ملاءمة لاعتباره فكما يلي:

ورد البسط بالتصدير والتوكيد في سورة القصص من دون سورة طه:﴿ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ ﴾ [القصص: ٣٠]، ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ [القصص: ٣١] وهذا البسط ملائم -كما تقدم- لنزع

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الخاء: ١٦٨.

خوف التردد والشك من المخاطب؛ لذلك لم يرد الإيناس به إلا في سورة القصص؛لأنّ سياقها سياق نفي لعوامل الخوف.

وورد البسط بالاستفهام في سورة طه من دون سورة القصص، فقد تقدم إلقاءَ العصا في موضع سورة طه استفهامٌ عن عصاه: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾[طه: ١٧] والاستفهام يطلب جوابًا، وطلب الجواب فيه إطالة في الحديث ملائمة للسعادة بالخطاب لعلوّ شأن مخاطِبه -ﷻ- ولأمور متعلقة بالمخاطَب -عليه السلام- ففيه تثبيت لموسى ودفع للشك عن نفسه حتى إذا انقلبت عصاه حية لا يشك.

"فالاستفهام مستعمل في تحقيق حقيقة المسؤول عنه والقصد من ذلك زيادة اطمئنان قلبه بأنّه في مقام الاصطفاء"[1]، وفيه ترفيه عن نفس موسى -عليه السلام-؛ لذلك أتى الجواب مبسوطاً، فأجاب بذكر المسند إليه : ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴾ [طه: ١٨] ولا استلزام له -هنا- من تأكيد وغيره- إلا إطالة للكلام والتذاذاً به، كما أنّه -عليه السلام- بسط في ذكر صفاتها وهو لم يسأل عنها؛ استئناسًا بالكلام وسعادة به، وهذا ملائم للإقبال بنفي الشقاء هنا.

(١) التحرير والتنوير: ١٠٩/١٦.

٢- إيناس النبي -ﷺ-

أهم ما يواجه الأنبياء التحول الذي ينتقلون به من عامة الخلق إلى خاصة الرسالة والنبوة، وكما رجف فؤاد موسى - عليه السلام - من هذه اللحظة الفارقة كذلك رجف فؤاد النبي -ﷺ- فيها، فاستلزم الإقبال عليه بأول آيات أنزلت أن تكون إيناسًا وتطمينًا بإرشاده وتوجيهه إلى المنهج القويم لبناء أمته، فكانت آيات ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ [العلق: ١] هي أول ما نزل، قال -تعالى-: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ ﴾[العلق: ١-٦].

ثم تلا هذا الإيناس في لحظة التلقي تأنيسٌ آخرُ لما استتبع هذه اللحظة، وهذا علوٌّ في الإقبال عليه-ﷺ- فامتداد الإيناس له -في لحظة التلقي واللحظات القريبة منها والتالية لها- زيادةً اهتمام وعناية به -ﷺ- قال -تعالى- في موضع سورة المزمل-: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾[المزمل: ١-٥] وموضع سورة المدثر: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ ﴾[المدثر: ١-٦].

وبالنظر إلى مدرجة المصحف نجد تلاؤمًا وتناسبًا بين مواضع السور بتلاقي والإقبال بالنعم؛ فسورة التين المتقدمة على العلق كانت في منن ونعم، فالبيت أمين والإنسان مخلوق في أحسن تقويم وهكذا، وما ورد في العلق -من الأمر بالقراءة المربوطة بالربوبية- نعمٌ تتدرج مع هذه النعم، وإذا مدّ النظر إلى سورة : الشرح والضحى تبين امتداد الإنعام الذي اختص به النبي-ﷺ- كما أنّ سورة: (القدر) التي وليت العلق في الإنعام -أيضًا- بليلة القدر.

فموضع العلق بما ورد فيها من البدء بالإقبال بالقراءة وتفريغ خاطر النبي- ﷺ- مما يشغله عن الدعوة وطلب الترقي والقرب، كل هذا يتلاءم مع جليل النعم المتقدمة في سور: التين، والشرح والضحى، والمعقبة في سورة القدر، وهذا الإنعام متلائم مع حال الإقبال عليه -ﷺ-.

وموضع سورة (المزمل) متناسب مع آخر سورة (الجن) في الدلالة على الإقبال، فكان ما ختمت به سورة (الجن):- قوله -تعالى-: ﴿ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن: ٢٧].

هذا الارتضاء السابق والتبليغ للرسالة- هو ما ابتدأت به سورة المزمل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ ﴾ [المزمل: ١-٢]، وما فيها من تبليغ وتصريح بلفظ التبليغ: ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ [الجن: ٢٨]- هو بعينه مضمون الأمر: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ ﴾ [المزمل: ٢] وما يتعلق به من أمر التبليغ: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ [المزمل: ٥].

فهذا التوجيه إلى ما يعينه ويقويه للقيام بالدعوة تأنيس لقلبه وإقبال عليه، يؤيد ذلك اطراد ورود كفاية الله لنبيه -ﷺ- فلم يؤمر -ﷺ- في جميع المواضع التي وردت في فرط القرآن بالمواجهة مع المشركين، بل أرشد إلى اللجوء إلى الله بالسجود والقيام والاستمرار فيه: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩] ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل: ٢] ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾ [المدثر: ٢-٤] وفي ذلك إقبال من وجهين:

١) مدح الرسول -ﷺ- وسيلة النصرة، وهي التقرب من الله، فالله يكفيه عدوه. وهذا الأمر بالتقرب أعلى الإقبال عليه، فهو إقبال من الله عليه وطلب منه أن يقبل على الله -ﷻ- ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩].

٢) تفريغ خاطره -ﷺ- من كل العوارض الخارجية، وعدم الاهتمام بها وعدم مواجهتها، فهذه المرحلة تثبيت له -ﷺ- وما يعرض من عوارض التبليغ من مواجهة وصد لم يؤمر بها؛ لأنّ الله كفاه: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ ﴾ [العلق: ١٤] ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ ﴾ [العلق: ١٧-١٨] ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ ﴾ [المزمل: ١١] ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ ﴾ [المدثر: ١١] وهذا إيناس أي إيناس بسمت مطرد في أول مراحل الدعوة.

تنوعت أساليب الإقبال بإيناسه - ﷺ - بما يتلاءم مع حاله، فهو أعلى الناس فهمًا، فكان أعلى البيان معه -ﷺ- وأعلى الإقبال عليه، فسنّ قلبه أرفع أسنان القلوب، ويتجلى ذلك في ستة معالم منها:

المعلم الأول: الإنشاء وأثره في بيان رتب الإقبال:

ورد الأمر والنداء في الإقبال على النبي -ﷺ- في لحظة التلقي وكان أول أمره -ﷺ- بالأمر مباشرة من دون، نداء ثم ورد في مستتبعات الأمر بالنداء بالمزمل والمدثر، فكان أول ما أنزل

عليه -ﷺ- أمرًا محضًا دون أن يتقدمه نداء بخلاف ما ورد مع سيدنا موسى-عليه السلام- الذي تقدم فيه النداء على الأمر؛ وما ذلك إلا علوٌ في الإقبال عليه -ﷺ-؛ لدلالة ذلك على شدة القرب فلم يحتج إلى نداء.

أما النداء بالوصف الذي ورد في سورتي المزمل والمدثر فكان بعد ورود الأمر له، كما أنَّه في حال وحشة وخوف تستدعي التأنيس والملاطفة، فكان الوصف: المزمل، والمدثر أدلَّ على هذه المعاني من غيرهما.

كما أنَّه -ﷺ- لم ينادَ باسمه البتة في القرآن الكريم كما نودي موسى-عليه السلام- وغيره من الأنبياء؛ إكرامًا له -ﷺ- فالنداء بالاسم أقل رتبة من النداء بالوصف، فلما لم يكن هناك شيء يليق بحاله ورتبته لينادى به صدر بالأمر.

ولما كان في الموضع الثاني: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ ﴾ [المزمل: ١-٣] والثالث ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ ﴾ [المدثر: ١-٤] على حال تتلاءم مع التلطف والإيناس في النداء نودي بها قبل الأمر مع أنَّ المقصود هو الأمر؛ فتقدم الأمر في موضع سورة العلق -إذن- أدخل في التلطف والإيناس للنبي- ﷺ -.

ولاختلاف مادة الأمر مدخل في علوّ إيناسه ملاءمة لحاله، فكل مخاطب يخاطب بحسب لغته، وهذا أساس من أسس الإقبال[٢]؛ لذا كان أول أمر خوطب به النبي- ﷺ - إقبالًا عليه الأمر بـ:(اقرأ) ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ ﴾ [العلق: ١] فكانت القراءة أساس أول خطاب مع الرسول - ﷺ - مع أنَّ مقتضى الظاهر أن يؤمر بالتوحيد، أو بمعالجة الأخطاء الشائعة زمانًا ومكانًا، كالظلم فهو أظهر ما كان في تلك العصر.

لكن لعلوّ شأنه وحاله- ﷺ -علا الإقبال عليه بالأمر بالقراءة لما فيها من إرشاد إلى الطريق الأمثل في قضايا الدعوة ولم تكن قراءة مطلقة بل مرتبطة بالربوبية:﴿ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ ومضافة إلى ضميره:﴿ رَبِّكَ ﴾ وجَعَلَ ذلك أساس معالجة الأحداث التالية التي ستعرض في مراحل الدعوة =علوٌ في إيناسه والإقبال عليه بالسير بالربوبية في نهجه لا بفلسفات البشر، أو ما سواه مما كان في الأديان السابقة، هذا من وجه.

(١) ينظر: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

ومن وجه آخر في الأمر بالقراءة من دون غيرها إيناس وعلوّ إقبال عليه؛ لأنّها خرق لما كان عليه النبي -ﷺ- وبداية الإشارة إلى أنّ حجته أمر خارق باهر، وأول هذا الخرق هو خرق ما هو عليه من أميّة[1]. ومجيء الإعجاز في أمر خارج عن حاله الأول -إيناس أعلى وتلطف أقوى.

ومن وجه ثالث فيه إيناس ببشارته أنّه سيكون تاليًا [2] للقرآن، وهنا علوّ في الإقبال عليه، سواء قصد بالقراءة التلاوة أو تهجية الحروف، فكلاهما ترقٍّ به عن حاله السابق، وهذا إكرام وإيناس بإعداده للمهمة.

وبمقارنة بدء الإرشاد للرسول- ﷺ - بـ(اقرأ) مع ما بُدئ به موسى - عليه السلام - من الأمر بالعبادة :﴿ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾[طه: ١٤] يتحقق أساس علوّ الإقبال لعلوّ رتبة المقبل عليه؛ ليطابق الكلام مقتضى الحال[3]، فالإيناس له ورد بالأمر الأعم والأشمل والأمثل للأمة - تبعًا له - وربط كل شأنها بالربوبية التي اتصلت بضميره تشريفًا له وتكريمًا: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾[العلق: ١]؛ فالأمر بالقراءة أعلى من الأمر بالأخص كالعبادة التي أمر بها سيدنا موسى - عليه السلام - والتي أتت في شأن الرسول -ﷺ- مرتبة ثانية عن مستتبعات الإيناس في لحظة التلقي: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[المزمل: ٢] ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر: ٣]في موضعي سورتي المزمل والمدثر.

يزيد علوّ الإقبال تكرارُ: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ المبني على اختلاف معانيها، سواء كان القصد بالقراءة الأولى أنْ تكون لنفسه والأخرى للتبليغ، أو أنّ الأولى في صلاته والأخرى خارجها [4]. أو أنّ تكرارها أدعى للتقرب من النداء[5] فكلها ترق لحاله -ﷺ- في الكمالات، ترقٍ يؤنس قلبه ويطمئن فؤاده خاصة أنّها من ربه الأكرم الذي أكرمه بلا طلب عوض.

كذلك لاءم علوّ الإقبال -أيضًا- أن يرد في مستتبعات الحال الأمر بقيام الليل كما ورد في سورة المزمل: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[المزمل: ٢] وبالنهوض بالدعوة، كما ورد في المدثر:﴿ قُمْ

---

(١) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول' محمد محمد أبوموسى، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٣٢هـ-٢٠١٠م: ٧٤.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٨٣/٣٠.

(٣) وهو أساس تعريف البلاغة عند القوم.

(٤) ينظر: التفسيرالكبير: ٢١٧/١١.

(٥) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول: ٧٦، ٧٧.

فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر : ٢]؛ حيث بُدئ بالأمر بالقراءة إرشادًا له إلى الطريق الأمثل والمنهج القويم في علاج قضايا أمته، وثنّى بتعليمه وسيلة التقوّي للقيام بالدعوة بالتقرب إلى ربه بقيام الليل، وثلّث بأمره للنهوض بالدعوة وأعبائها مباشرة بعد إعداده، وهذا علوٌّ في إيناسه وترقٍ فيه، فلم يفجأ بالأمر بالنهوض بالدعوة، بل أُرْشِد أولًا، ثم قُرِّب ثم أُمِر – ﷺ –.

زاد علو الإيناس في هذه الأوامر أن وردت بعد النداء الدَّالّ على علوّ الإيناس أيضًا من وجوه هي كما يلي:

١) ملاءمة الوصف الذي نودي به لما ورد بعده من الأوامر، فالمزمل: من حمل ثقلًا، "وهو الذي إذا حزبه أمر تزمّل، أي ضاعف عليه الثياب" [١]، والمدثر: "من ضاعف شيئًا على شيء وجعل بعضه على بعض"، [٢] والدثار: هو الثوب فوق الشعار، والشعار: ما يلبس على الجسد.

وفي إلقاء الدثار وبقاء الشعار لا غير مزيد من التجرد للأمر والانقطاع له؛ لذا لاءم أنْ يأتي بالأمر بالإنذار بعده: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر : ٢] والمزمّل -وإن كان معناه: لطرح ما تزملت به من أجل قيام الليل- يعني بقاء الثوب شعاره ودثاره؛ لذا أمره بالقيام إلى الصلاة، والقائم للصلاة غير القائم للإنذار [٣].

٢) اختصاصه – ﷺ – بهذه الطريقة في النداء، فلم يناد نبي سواه بوصف حاله.

٣) خصوصية النداء بالوصف؛ فلا يكون إلا لقصد يقصده المنادي من تعظيم أو تكريم "فإن نودي المنادى بوصف هيئته من لبسة، أو جلسة، أو ضجعة كان المقصود في الغالب التلطف به والتحبب إليه ولهيئته" [٤]، ومنه قول النبي – ﷺ – لعلي رضي الله عنه- وقد وجده مضجعًا في المسجد وقد علق التراب بجنبه –: " قُمْ أبا تُرابٍ، قُمْ أبا تُرابٍ" [٥]، [٥]. فناداه – ﷺ – بحال خوفه تأنيسٌ له بالاطلاع على حاله والاهتمام بكل شأنه.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: كتاب الزاء، باب الزاء والميم وما يثلثهما: ١/٥٣٣.

(٢) السابق: كتاب الدال، باب الدال والثاء وما يثلثهما: ٢/٣٢٤.

(٣) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول: ٩٨.

(٤) التحرير والتنوير: ٢٩/٢٣٨.

(٥) صحيح البخاري: كتاب: الصلاة، باب: نوم الرجال في المسجد، رقم الحديث ٤٤١: ١/٩٦.

٤) يؤكد علوّ الإيناس بالنداء بالوصف دون الاسم -أيضًا- تخيُّر أداة النداء:(يا) وهي تكون للبعيد وتستعمل للقريب[١]، واستعمالها للقريب -هنا- فيه دلالة عظمة لشأنه، وعلوّ قدره والعناية به - ﷺ - لما فيها من البعد الرتبي، وهذه المدة في الياء والإطلاق فيها، فيه دلالة تحنن وتقرب، وهو الأليق بالإيناس.

كما صدرت جملة النداء بـ: (أي) الدّالة -أيضًا- على القرب وعظمة الشأن، فلم تصدر باسم الإشارة:(يا هذا) لأنّه ليس فيها من التعظيم ما هو في:(أي)[٢]. وهذا أليق بعلوّ الإيناس زاده تعظيمًا المدة في هاء: (أيها) فالصوت دالٌّ على التعظيم كما دلت الدلالة عليه.

كما أنّ في الأوامر ذاتها علوًّا في إيناسه - ﷺ- فقيام الليل خير معين له على الدعوة؛ لأنّه يقربه من الله وليس أعظم منه استعانة على كل أمر.

وفي الأوامر في موضع سورة المدثر: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر: ٣] ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[المدثر: ٤] ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [المدثر: ٥] إيناس له وتقوية للقيام بأعباء الدعوة ؛ لما فيها من شمول وترق في الكمالات،" فجماع الأمر في الدين تعظيم للرب يثبت اليقين، وطهارة للنفس بالتحلي بكل صالح والتخلي عن كل عمل غير صالح بهجره، وهي ثلاثة داخل بعضها في بعض، فالإيمان أصل الطهر، والطهر أصل ترك الرجز[٣]، وكلها إكرام له - ﷺ - وتلطف به.

المعلم الثاني: التعريف وأثره في بيان رتب الإقبال:

اطّرد تعريف الذات العلية بالربوبية المضافة إلى ضميره -ﷺ- وهذا علوّ في التأنيس والملاطفة: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[العلق: ١] ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾[العلق: ٣] ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ﴾ [المزمل: ٨] ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر: ٣] فكل ما سيأتي من ربه الذي رباه وأنعم عليه فتخيرت الربوبية؛ عناية به وولاية له، وأعلى الإيناس أنْ أضافها إلى ضميره -ﷺ-.

وقابل تعريف الذات العلية بالربوبية المضافة إلى ضميره -ﷺ- الدّالة على العناية والولاية - تعريفها بالألوهية الدّالة على القهر والغلبة حين وردت مع غيره من المكذبين: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ

---

(١) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني: ٤٥١.
(٢) ينظر: معاني النحو: ٤/٢٨٤.
(٣) شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول: ١٠٠.

يَرَىٰ ﴾[العلق: ١٤] ،وفرق بين الرعاية بالربوبية وخطاب القهر بالألوهية، ويؤيد دلالة كل منهما سياقها، فالإنعام والتلطف مع تلك، والتهديد والوعيد مع هذه.

كما عُرّفت صفاته -ﷻ- بالموصولية: بـ: (الذي) خاصة الدالة على أنّ ذلك معروف إلا على من جانب الصواب، وفيها -كما ذكر ابن عاشور- إيماء إلى علة الخبر[1].

فعلة الدعوة للإقبال على الله دون سواه أنّه خالق وذلك لا شك فيه وهذا إيناس له -ﷺ- بأن علل للإقبال على الله بأظهر شيء وأكثره معرفة عند أمته وأكثر إجماعًا عليه عندهم، وفي تخصيص ذكر خلق الإنسان تكريم للإنسان وأعلاهم سيدنا محمد -ﷺ-.

وعـرِّف بـالإضافة مـا اتصل بـشأنه -ﷺ- كثيابه: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ٤] وفي هذا-أيضًا- علوّ إيناس له بالاهتمام بشأنه خاصة، سواء قصد بالثياب ظاهر اللفظ أو طهارة النفس[2] يؤكد هذا العلوّ في الإيناس بإضافة الثياب له مقابلتُها بإطلاق الرجز عنه وعدم تعليقه به، فلم يقل -تعالى-: "ورجزك فاهجر"، بل : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾[المدثر: ٥] بالتعريف بـ: (اللام) من دون الإضافة تكريمًا له -ﷺ- من أن يضاف إلى الرجز مباشرة ، وتعميمًا لكل أجناس الرجز، فرتبة الرسول -ﷺ- تستلزم ترك كل أنواع الرجز، صغيره وكبيره، وما ذاك إلا لعلوّ رتبته-ﷺ-.

المعلم الثالث: التقديم وأثره في بيان رتب الإقبال:

اطرد تقديم المفعول في أوامر موضع سورة المدثر:﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾[المدثر: ٣] ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ٤] ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [المدثر: ٥] ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾[المدثر: ٧].

وهذا التقديم فيه دلالة الخصوص، فربك لا سواه هو من تكبر وله تعبّد، وثيابك خصوصًا -على التجوز فيها لعلاقة المجاورة أي: الذات- هي ما تطهّر، وما يوجب عذاب الله خصوصًا اهجر، ودلالة التخصيص آكد في الدلالة على الإقبال؛ حيث خصص له في كل أمر ما هو أدعى لرقيّه وتقريبه من ربه وهذا تأكيد العناية به. يعضدها الفاء الفاصلة بين المتعلّق ومتعلّقه بما فيها من معنى الشرط، ومعنى الشرط يزيد الكلام توكيداً؛ لأنّ المعنى يفسر بـ: ومهما يكن من شيء فكبّر ربك، ومهما يكن من شيء فطهّر ثوبك، ومهما يكن من شي فاهجر الرجز، ومهما يكن من شي

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٨٨/٣٠.

(٢) ينظر: التفسير الكبير: ٦٩٨/١٠.

فاصبر لربك [1] كأنّه يقول: الزم هذه الأربعة في الحالات كلها، ولا يشغلك عنها شاغل. وما هذا التوكيد على لزومها إلا تثبيتٌ له على ما يؤنسه في دعوته -ﷺ-.

المعلم الرابع: الإطلاق والتقييد وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

أطلق وصف الأكرم في موضع سورة العلق من القيد:﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾[العلق: ٣] فحث على القراءة معتمدًا على رب هو الأكرم، والإطلاق في الإكرام له اعتباران:

١) إطلاق في الوصف، فكرمه -تعالى- لا حد له ولا مقدار.

٢) إطلاق من القيد، فلم يذكر أكرم من؟ وأفعل التفضيل يذكر فيها (من) لكن الله له المثل الأعلى لا يدانيه أحد في كرمه ولا يقاربه، فحين يؤمر بالقراءة - ﷺ - ويوكل إلى من هذا وصفه فهذا أعلى الإيناس والتلطف، فلا خوف من نقص ولا تأخر.

وتعاوز الإطلاق والتقييد في زمن السجود بين موضعي سورة العلق، وسورة المزمل فأطلق في بدء لحظة التلقي: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩]؛ لزيادة التقرب والدنو من الله في أول اللحظات وقيّد بـ:﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ ﴾ [المزمل: ٢] في مستتبعات الأمر وحال الإرشاد إلى وسائل التقوي على الدعوة، وهذا الإطلاق وما تبعه فيه تدرج موافق لحاله- ﷺ - فابتدأ بالتحقيق -أولاً- فلم يحدد زمنًا، ثم ترقى في الإلزام فحدده لاتصال أثر ذلك بالدعوة:﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥] فهذا مما يعين على الدعوة، وهذا من طرق الإرشاد وكلّها متصلة بوسيلة التقرب إلى الله - ﷻ- فـ: "أقربُ ما يكونُ العبدُ مِن ربه وهو ساجدٌ"[2].

المعلم الخامس: العموم والخصوص وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

لما كان السياق إنعامًا، وإرشادًا، وإيناسًا، وترقيًا اختص -ﷺ- بالخطاب في لحظة تلقي الوحي: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ﴾ [العلق: ١-٣] وهذا علوٌّ لشأنه، فلما توجه السياق للتوطئة لحال مضادة لحاله -ﷺ- في الإكرام وفي الالتزام بأمر الله ورد العموم بقوله:﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٥] ثم ورد بعدها :﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ

---

(١) ينظر: معاني النحو: ٤/٢٨٤.

(٢) "صحيح مسلم"، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبدالباقي، ط من دون، دار إحياء التراث، بيروت: كتاب:الصلاة ، باب: مايقال في الركوع والسجود، رقم الحديث ٤٨٢: ١/٣٥٠.

لَيَطْغَىٰٓ ﴾[العلق: ٦] فلم ترد: (علمك ربك ما لم تعلم) [١]، بل عمم بتخير لفظ الإنسان وما فيه من دلالة النسيان[٢] وصلًا له بحال الإنسان الذي ورد وصفه بعدها: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦] فالطغيان الآتي من الإنسان في أفعاله وصفاته ؛ لأنه نسي خلقه. وهذا ليس حاله - ﷺ - فترفع به أن يضاف إليه بتعميم الخطاب فيه ... وهذا التقابل بين الحالين أدلُّ على إيناسه -ﷺ- من وجه تفضيله على غيره، والعناية به، ورفعه عما لا يليق برتبته -ﷺ-.

المعلم السادس: الترقي وأثره في بيان رتب الإقبال:

الترقي في وسائل القرب على وجه الكمال أدلُّ على الإيناس وعلو الإقبال على النبي- ﷺ- وقد اطرد ذلك في المواضع الثلاثة، سواء في موضع لحظة تلقي الوحي بالأمر بالسجود والاقتراب ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩]، ففيه دلالة على شدة التقرب من طرفيه من جهة المولى-ﷻ- ومن جهة النبي -ﷺ-.

فتدرج من الأمر بالسجود الذي فيه يكون العبد أقرب من ربه، إلى التضرع بالأمر بتقربه -ﷺ- ﴿ وَٱقْتَرِب ﴾ أو في موضع الأمر بذكر الله، والترقي إلى التبتل إليه في سورة المزمل:

﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٨] فتقرب إليه -أولًا- بذكر اللسان، وترقى في القرب بالذكر بالقلب كما فسرها الرازي[٣].

أو في موضع الأوامر في سورة المدثر: ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر: ٣] ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ٤] ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ [المدثر: ٥] ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر: ٦] ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [المدثر: ٧] التي تكامل فيها طهر القلب واليقين بالرب والصبر له تكاملاً هو أدعى للذة القرب من الله، فكل هذا الإرشاد للتقرب إنما منبعه إيناسه والتلطف به -ﷺ-.

---

(١) أما قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء: ١١٣] في سورة النساء فهو مرحلة تالية، وهذه كانت في بدء الدعوة المستلزم الإيناس، ومن ثم كان نفي العلم عنه صراحة أولى، فالحال -إذن- مختلف، فزيادة الإيناس أولى بموضع: (اقرأ).

(٢) ينظر: لسان العرب: كتاب الألف: ١/١٤٧.

(٣) ينظر: التفسير الكبير: ١٠/٦٨٦.

المقام الثاني: مقام انقطاع الوحي

لانقطاع خبر السماء بعد الاتصال وحشة عظيمة تستلزم إقبالًا عظيمًا، وقد ورد الإقبال بالإيناس في هذا المقام خاصًا بالرسول -ﷺ- في حين اشترك معه سيدنا موسى -عليه السلام- في المقام الأول للإيناس في لحظة تلقي الوحي، واختص -ﷺ- بهذا الإيناس من دون غيره؛ لأنّ تتابع الأمر مع موسى -عليه السلام- أو غيره من الأنبياء -صلوات الله عليهم- دليل على تتابع الوحي وعدم انقطاعه عنهم؛ لذا لم يؤانسوا بهذا، أما الرسول -ﷺ- فقد انقطع الوحي عنه فترة من الزمن زيادة تشويق له؛ لذا اختص بهذا النوع من الإيناس.

مغرس الإقبال المعنوي:

اختص النبي بهذا الانقطاع الذي ترتب عليه علوّ في الإقبال عليه -ﷺ- وإيناسه؛ فانقطاعه رحمة له لإعداد فؤاده على تحمل التكاليف العظيمة لرسالته، وإيناسه بعودة الوحي بهذه الطريقة المفرحة المميزة علوّ آخر؛ فمغرس الإقبال باعتبار المقام والحال الذي استدعاه، حيث ردٌ على اتهامات المشركين، ومعايرتهم له بانقطاع الوحي كما روي أنّ امرأة من قريش قالت له -ﷺ- لما انقطع عنه الوحي: "ما أرى شيطانك إلا قد تركك"[1] فأنزل الله -ﷻ- ﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) ﴾ [الضحى: ١-٤] مؤنسًا له بنفي ذلك ومبشرًا له بخيرية مستقبله وعلوّ شأنه عند ربه.

يؤيد هذا العلوّ تصاعد الإقبال الوارد في السياق القبلي في سورة الليل؛ فالوعد بالرضا الذي تقدم في سورة الليل لأبي بكر -رضي الله عنه- في قوله -تعالى-: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١) ﴾[الليل: ١٧-٢١] يستلزم زيادة الرضا على سببه وأصله محمد -ﷺ- ثم إنّ سبب الرضا على أبي بكر -رضي الله عنه- أدنى وأقل من سببه لدى النبي -ﷺ- فهناك العطاء؛ ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) ﴾ [الليل: ١٨-١٩] وهنا القيام بالرسالة والنهوض بأعبائها.

---

(١) صحيح البخاري: كِتَاب: فَضَائِلِ القُرْآنِ، بَاب: كَيْفَ نَزَلَ الوَحْيُ وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ، رقم الحديث ٤٩٨٣: ٦/١٨٢.

وقد دلَّ على علوّ الإقبال علوّ الأساليب الدّالة عليه، فعلا البيان لعلوّ رتبة المقبل عليه- ﷺ- وهذا أساس في الإقبال كما ذكر الحرالّيّ [1] ويتجلى ذلك في أربعة معالم رئيسة:

المعلم الأول: تنوع أساليب التوكيد، وأثرها في بيان رتب الإقبال:

تنوعت أساليب التوكيد بما يتناسب مع كل أسلوب بين:

١) القسم:

فأقسم في موضع سورة الضحى لإيناس الرسول -ﷺ- والتلطف معه بعد انقطاع الوحي بآيتين هما: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ [الضحى: ١-٢] والقسم لون من ألوان التوكيد وإفراد الأمر، وهذا التوكيد بالقسم فيه تثبيت وتطمين لقلب الرسول -ﷺ- بعد الوحشة التي اعترته لانقطاع الوحي.

وعاضدت دلالة التوكيد في القسم تخيُّر المقسم به، فالضحى: انبساط الشمس وامتداد النهار، وضاحية كل شيء: ناحيته البارزة [2]. أما سجوّ الليل: فهو سكونه وهدوؤه [3]، والقسم بتقابل معاني الظهور والوضوح والبروز في الضحى بسكون ظلمة الليل وهدأته متلائم مع علوّ إيناسه -ﷺ- "فهي صورة مادية وواقع حسي يشهد به الناس في كل يوم: تألق الضحى في ضحوة النهار، ثم فتور الليل إذا سجى وسكن دون أن يختل نظام الكون، أو يكون في توارد الحالين عليه ما يبعث على إنكاره، بل دون أن يخطر على بال أحد أن السماء قد تخلت عن الأرض وأسلمتها للظلمة والوحشة... فأي عجب أن يجيء بعد أنس الوحي وتجلي نوره على المصطفى -ﷺ- فترة سكون يفتر فيها الوحي على نحو ما نشهد من الليل الساجي يواتي بعد الضحى المتألق"[4].

فالقسم -إذن بما يدل على أن تعاقب العسر بعد اليسر كتعاقب الظلمة والنور سنن من سنن الكون- أعلى إيناسًا للنبي -ﷺ- فإدخاله في عموم سنن الكون دليل على أنّ الانقطاع لم يكن لسبب في ذاته -ﷺ- ولا لخطأ ارتكبه بل هي سنن الله في كونه[5].

ويزيد الإيناس علوًّا دلالة التعظيم في القسم للمقسم به أو عليه أو المخاطب، وهذا التعظيم يتلاقى مع الإقبال بوجه عام فوق التوكيد والتقرير.

---

(١) ينظر: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الضاد: ٢٩٦.

(٣) السابق: كتاب السين: ٢٣١.

(٤) التفسير البياني للقرآن الكريم: ١/٢٦.

(٥) ينظر: التفسير الكبير: ١١/١٩١.

وفي تقديم القسم بالضحى على الليل -هنا بخلاف ما كان في سورة الليل الذي قدم فيه القسم بالليل- علوّ إيناس له -ﷺ- فلمّا كان السياق عن الرسول -ﷺ- قدم القسم بالضحى فضياؤه ووضوحه ملائم للوصل والإيناس وبهجة اللقاء وسعده، ثم إن انبثاق النور من الرسالة ملائم لانبثاقه من الضحى، ولما كان القسم في شأن غيره قدم القسم بالليل وجعل جوابه: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ [الليل: ٤] لأنّ اختلاط سعيهم ملائم لاختلاط الليل وعدم وضوحه، أو لتضاده صفة وحالًا مع النهار، كما تضادت أعمال المتحدث عنهم في السياق.

٢) التوكيد بتكرار النفي:

كرر النفي بـ(ما): ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ٣] وتكرار النفي هنا نوع من التوكيد بما يحوي من دلالة استقلال كلٍّ بمعناه، وهذا آكد للنفي وأدخل في الإيناس.

كما أنّ النفي: بـ: (ما) من دون غيرها أعلى إيناسًا له -ﷺ- فالنفي بها آكد وأقوى من النفي بغيرها من أدوات النفي؛ وقد نص سيبويه على ذلك بقوله: "وإذا قال: لقد فعل فإنّ نفيه مافعل؛ لأنّه كأنّه قال: والله لقد فعل، فقال: والله مافعل"[1] بمعنى أنهّا تكون نفياً لإثبات مؤكد، فمن ادّعى توديع وقلى ربه له أثبته على وجه التوكيد، فأتى نفي ما قالوه على وجه التوكيد.

يؤيد هذا العلوّ الترقي في المنفي؛ حيث نفى الوداع أولًا والقلى ثانيًا، وهذا ترقٍ من الأدنى إلى الأعلى آكد لإيناسه -ﷺ- قال الألوسي: "ولما كان المقصود إيناسه -ﷺ- وإزالة الوحشة - عنه جيء بما يتضمن نفي ما زعموه على أبلغ وجه، كأنّه قيل: إن هذا النوع الغير المخل بمقامك من الترك لم يكن، فضلًا عما زعموه من الترك المخل بعزيز مقامك"[2].

وتسلط النفي على الماضي المبهم المطلق أقوى من تسلطه على الحال أو الاستقبال أو الماضي المعلوم، وهذا أدخل في الإيناس من وجه، ومتلاقٍ من وجه آخر مع التحقيق الآتي بعده، سواء في سورة الضحى أو الشرح لأنهما جميعًا في ماضٍ تحقق فيه، وصلة ما بعدها صلة، وإقبال ما بعده إقبال فهي كالاستدلال على النفي في قوله -تعالى-: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ٣].

٣) التوكيد باللام:

قال -تعالى-: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ [الضحى: ٤] مؤكدًا ضمان خيرية الآخرة له بـ(اللام) وهذا ملائم للإيناس، ففيه تأكيد على أنّه لا يزال في ترقٍ من عالٍ إلى أعلى منه؛ فاللام

---

(١) الكتاب: ٣/١١٧.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ١٥/٣٧٤.

موطئة لقسم محذوف توكيدًا وتعظيمًا، فذكر المرادي أنّها ترد جوابًا للقسم للمبالغة في التوكيد[1]، وهذا ملائم للمبالغة في النفي المتقدم لما اتهمه به المشركون، كما أنّ فيها معنى: (إنّ) المؤكدة، وكل دلالات التوكيد هذه ملائمة لردّ اتهام المشركين وأدخل في إيناسه -ﷺ-.

المعلم الثاني: العدول وأثره في خصوصية إقبال الإفهام:

لا شك أن العدول إلى ألفاظ فيها إيحاءات ودلالات ثانوية أدلّ على الإيناس، فهو من علوّ الإفهام الذي يعلو بعلوّ شأن المخاطب؛ لذا اختص به -ﷺ- فهو الأعلى فهمًا. قال الحراليّ: "فخطاب الإقبال على النبي -ﷺ- أعظم إفهام في القرآن"[2].

فعدل معه النظم إلى ما هو أعلى من الألفاظ، كعدوله عن تسمية الحياة الدنيا بـ:(الدنيا) إلى تسميتها بـالأولى، قـال -تعـالى-: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحى: ٤] لكـون دلالـة:(الدنيا) لا تلتقي مع حاله -ﷺ- سواء كان من الدنوّ والنزول، أو من القرب، فلا تلاؤم لها مع النبي -ﷺ- فترفّع به النظم عن أن يذكر معه ما يدل على الدنوّ حتى لو شاعت تسميتها بذلك، كما أنّه -ﷺ- لم يكن قريبًا من الدنيا ولم تكن مقرّبة له، فقد جعلت قرة عينه الصلاة.

فعدل إلى ما يلائم حاله ويكون أدخل في الإيناس والتلطف، فوردت: (الأولى) وهي لفظة لم ترد في القرآن إلا مع متكلّم أومـخاطب رفيع الشأن، فلم ترد إلا مـع الله -ﷻ- كـما في قوله-تعالى-: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص: ٧٠]، ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ [النجم: ٢٥]، ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾[النازعات: ٢٥]، ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾[الليل: ١٣].

فورودها مع الرسول -ﷺ- في هذا الموضع واختصاصه بذلك = علوٌ في إيناسـه والتلطـف به- ولا شك-.

كما أنّ في عدول النظم عن ذكر الموصوف : (الدار) إلى الصفة : (الآخرة أو الأولى) علوًا في الإيناس؛ فتسميتها بالآخرة والأولى فيه إطلاق تلزمن بأنّ ما يستقبل من شأنه كله سيكون أفضل مما استدبره[3]، وبالتالي كل ما يرد فيه من الأحوال فهو إلى خير وترقٍّ، وهذه بشارة أدخل في إيناسه وتثبيت فؤاده -ﷺ-.

(١) ينظر : الجنى الداني في حروف المعاني: ١٣٠.

(٢) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

(٣) ينظر : دلالة القرآن المبين على أنّ النبي أفضل العالمين: ١٢.

المعلم الثالث: بين الإطلاق والتقييد وأثر ذلك في رتب الإقبال:

ورد الليل مقيدًا بـ: (إذا سجى) ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ [الضحى: ٢] في حين أقسم بالضحى مطلقًا ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ ﴾ [الضحى: ١] ولهذا التقييد والإطلاق مدخلٌ في علوّ الإيناس؛ فالضحى وصفه في ذاته وهو مرحلة واحدة ليس لها أجزاء، بخلاف الليل فهو ذو مراحل وأحوال، فمرحلة الوحشة بانقطاع الوحي تقابل الليل؛ لذا اختار لحظة سكونه، إذ بدأ انقطاعًا ما وامتدّ أيامًا كان آخرها أعلاها وحشة. ولأنّ الليل إذا سجى يكون أكثر وحشة؛ لعدم المؤنس خاصة، ولمشابهة ذلك لحال اشتداد وحشة النبي -ﷺ- بعد امتداد الأيام قيد الليل بـ:(إذا سجى) بخلاف الضحى فالنور فيه مرة واحدة لا مراحل فيه فأطلق، وهذا ملائم لحال الوصل بالوحي والاستبشار به، فالبشرى فجأة مرة واحدة والنور في الوحي دفعة واحدة.

كما أنّ تعليق الفعل :(ودّع) بضميره -ﷺ- ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ [الضحى: ٣] وإطلاق الفعل: (قلى) عن ضميره ﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ٣] ملائم للتلطف معه -ﷺ- فلم يخاطب في مقام الإيناس بقلاك؛ لما في القلى من الطرد والإبعاد وشدة البغض[1] وهذا لا يليق -أبدًا- برتبته-ﷺ- أمّا التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل إنّه يكون في ترك الشيء مع سبق عناية به [2]. وإطلاق القلى وتقييد التوديع كلاهما أدخل في علو الإقبال عليه -ﷺ-.

وقيدت خيرية الآخرة بـ: (لك) ﴿ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ [الضحى: ٤] وهذا أدخل في الإيناس والتلطف لما فيه من دلالة الخصوصية بهذه الخيرية له -ﷺ- من دون غيره، كما أنّ في الجر بـ: (اللام) علوًا في الإيناس حيث محضت كل ما يأتي من الخير له ومحضت المستقبل للخير، فما سيكون في مستقبله خير له على وجه الإنعام وليس على وجه الاختبار والابتلاء، بل هو محض في الخير على سبيل الضمان، وهذا من خصوصية تكريمه -ﷺ- فلم ترد التعدية بـ: (اللام) في الخيرية إلا له -ﷺ- ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾ [الفتح: ١] حتى في البركات والإيمان والتقوى وردت مع سواه بـ: (على) من دون: (لك) كقوله -تعالى-: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب القاف: ٤١٢.

(٢) ينظر: الكليات: فصل الياء: ٩٨٦.

يَكْسِبُونَ ﴾[الأعراف: ٩٦]، فتفاوت المرتبتين تفاوت الأسلوبان بين: (اللام) و(على) ومن ثم جعل الحرالي تفاوت المخاطبين أساسًا رئيسًا لتفاوت الإقبال بين الأساليب المتقاربة[1].

المعلم الرابع: التعريف وأثره في بيان رتب الإقبال:

تنوع التعريف في الإقبال عليه -ﷺ-: فعرف بـ: (ال) تارة (الضحى، الليل، الآخرة، الأولى) وعرف بالإضافة أخرى: (ربك) وتنقل هذا التنوع من اللام إلى الإضافة بأسلوب العدول الذي هو أدخل في الإيناس والتلطف، حيث بدأ بالتعريف بـ (ال) في: (الضحى، الليل) ثم عدل إلى الإضافة في تعريف الربوبية: (ربك) فلم يعرف بـ: (ال) لخصوصية المضاف إليه، وكون السياق لإيناسه خاصة، فعدل إلى الإضافة إلى ضميره -ﷺ- ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ٣] لما تستلزمه الربوبية من رعاية وإنعام أريد اختصاصه بها من دون سواه، ثم عاد النظم إلى التعريف بـ:(ال) في (الآخرة) و(الأولى) ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحى: ٤] لأنّ التعريف بها في كل ما تقدم بدءًا وختامًا أدخل في الإيناس لدلالة الاستغراق وكمال الوصف فيها، فهذا أليق بحاله وآكد في الردّ على ما اتهم به من ترك ربه له، فأورد كل شيء معه -ﷺ- على وجه الكمال والتمام تلطفًا معه وإيناسًا له- ﷺ-.

(١) ينظر: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

ب- التسلية والتصبير على مشاق الدعوة

عُني الإقبال على النبي -ﷺ- برعاية روحه وقلبه، ومن ذلك تكفله بإزالة الحزن عن قلبه مما أصابه من أذى وإعراض في مراحل دعوته، فورد الإقبال بتسليته وتصبيره على ذلك.

وهذا الإقبال مما اختص به النبي -ﷺ- من دون الأنبياء من أولي العزم؛ لأنه هو من أمر من دونهم بالاقتداء بهدي من سبقه فهو خاتمهم -ﷺ- وكل من سبقه كان مرحلة مؤقتة ولعلاج داء معين لقوم معينين ولكن لما كان -ﷺ- مرسلًا للعالمين كافة ومعالجًا لكل الأدواء، كان لابد أن ترد تسليته من كل هذه الداءات، وهذا علوٌّ في رعايته والإقبال عليه، فلم يعن الإقبال برعاية جسده فقط بل عني -أيضًا- بقلبه وخاطره -ﷺ-.

والتسلية من الإقبال عليه -ﷺ-؛ لأنها ترضية للمُقبَل عليه -ﷺ- فلم يتركه للأحزان، بل امتن مباشرة بتسليته بوجوه متعددة من إنعام وعناية؛ ولذا اطّرد الربط بين السياق -مثير الحزن- وبين الإقبال برابط؛ (الفاء) غالبًا وغيرها قليلًا كما سيأتي.

ولسياق التسلية والتصبير مغرس مشترك، فأيُّ موضع للتسلية والتعبير لا بد أنْ يتقدمه مثير لحزن الرسول -ﷺ- على تعدد وجوه هذا المثير من أقوال صريحة في اتهام الرسول -ﷺ- والإساءة إليه، كما في موضع سورة الطور: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الطور: ٢٩-٣٠] ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الطور: ٣٣] وزاد على هذه الاتهامات صريح إنكارهم للبعث وإعراضهم عن الدعوة، حيث تكاثفت الاعتراضات منهم والأقوال في هذا الموضع؛ مما زاد حسرته على فعلهم.

أو إعراضهم الذي يستلزم عذابهم كما عُذِّب الذين من قبلهم، فاستحقوا العذاب لفعلهم وهذا محزن للرسول -ﷺ- كما ورد في موضع سورة طه: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه: ١٣٠-١٣١].

أو صريح كفرهم وجعلهم مع الله شريكًا، كما في موضع سورة الحجر: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٨-٩٩].

أوما ذكر عن حالهم وإنكارهم للبعث واستبعادهم له، كما في موضع سورة النمل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[النمل: ٦٧-٦٩].

أوحزن الرسول-ﷺ- لجحدهم بعد ظهور الحق عنادًا، كما هو في موضع سورة الأنعام: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٤].

أو ما تقدم من مكرهم وكيدهم له – ﷺ – كما ورد في موضع سورة الأنفال: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٢].

كل هذه مغارس للإقبال على النبي -ﷺ- اشتركت في كونها مثيرةً حزنه -ﷺ- وإن تعددت وجوه هذا المسبب للحزن.

وهذه المثيرات تتفاوت تكاثفًا وقوة في إثارة الحزن ويترتب عليها علوّ الإقبال بالتسلية، فكلما كان مثير الخوف أعلى استلزم إقبالًا أعلى للتخفيف عنه -ﷺ-، فتعلو بذلك رتبة الإقبال. ويدل على علو رتبته الأسلوب الدّال على ذلك، وهذا ما نص عليها الحرالّيّ: " **فيعلو البيان والإفهام بحسب رتبة من توجه إليه الإقبال** " [1].

فأعلى المواضع رتبة في الإقبال موضع سورة الطور، لعلوّ مثير الإقبال، فالمواجهة فيها أشدُّ وقد تتابع فيها حال المشركين وعنادهم مع النبي -ﷺ- فاتهموه بالجنون: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الطور: ٢٩] وقالوا بأنّه شاعر: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الطور: ٣٠] وأنّه افترى القرآن وتقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[الطور: ٣٣].

ومفتتح السورة -ابتداءً من قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الطور: ٧] -مسوق مساق التسلية، فنظمها بهذه الخصوصية هو توطئة للإقبال ومغرس له؛ حيث سيق الكلام في بداية

---

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

السورة على تأكيد العذاب، وتحققه على هؤلاء، ثم بدأ المقطع الثاني كأنّه يبين سبب هذا العذاب من وجوهه المختلفة.

فالربوبية وإضافتها إلى ضميره مراع فيها جانب ترضية النبي -ﷺ- الذي هو وجه الإقبال في التسلية ابتداءً، فهو في نعمة الرحمة بعيدًا عن هذا الذي يذكر، وهذا العذاب لهم إنّما كان لمعاندتهم له، فكان بدء السورة بـ: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الطور: ٧] إقبالًا عليه -ﷺ- بأمرين:

١. أمر تكريم له بإنعامه عليه . ٢. أمر جبر لخاطره بتعذيب هؤلاء لكفرهم به.

ومن هنا تبدأ بقايا الإقبال في الانسلال من النظم حين يبدأ في حكاية أحوالهم معه من بداية ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ [الطور: ٣٣] ومن هنا -أيضًا- يأتي ﴿ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾[الطور: ٤٨] بالربوبية وبإضافتها إليه أيضاً.

فتجد الربوبية مضافة إلى ضميره -ﷺ- وردت في أول السورة: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الطور: ٧] وفي آخرها: ﴿ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [الطور: ٤٨] لكن الأولى استعلى فيها جانب الربوبية، كعقاب من كذب به، والثانية استعلت فيها الربوبية، كإنعام عليه بالكلأ والرعاية والقرب، وما بينهما مثير وموطئ للإقبال، فكأنّ سورة الطور كلها وإن تعددت سياقاتها الجزئية خلصت له - ﷺ - [1]، وكأن إيثار الطور؛ وهو المكان الذي أنعم الله به على موسى وخوف به بني إسرائيل ملائم للإنعام على النبي-ﷺ- من وجه، ولتخويف المشركين من وجه آخر.

ودل الأسلوب الذي ورد به الإقبال على ذلك، فاختص بتعليل الأمر بالصبر بقوله: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ كناية عن الحفظ وطلب القرب، والكناية أبلغ من التصريح لأنّها سوق للأمر بدليله[2]، وورد التوكيد بـ: (إنّ) وهي أعلى في التوكيد، وغير ذلك مما سيرد في بيان التركيب لاحقاً.

ويلي هذا الموضع علوًا في التسلية موضعُ سورة طه، و مغرس الإقبال حزنه -ﷺ- على إسراف قومه في أمرهم وعدم إيمانهم، غير أن إقبال هذا الموضع أدنى من الإقبال في موضع سورة الطور؛ لأنّ ما ذُكر من تكذيب لم ينسب لقومه صراحةً، بل ضرب لهم مثلاً بغيرهم للدلالة على حالهم، وعدم التصريح أقل إثارة لحزنه -ﷺ- من التصريح، ومن ثمّ يكون الإقبال أدنى، وهذا التعريض متساوق مع السياق العام للسورة في نفي الشقاء، وحقه ألا يورد عنادهم صراحة، فكان

---

(١) أشار إلى مثل هذا ابن عاشور وإن لم يفصل، لكنه ذكر أن كل ما ورد في السورة مسوق مساق التسلية. ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠/٩١.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ٦٦.

أدنى من هذا الوجه، ودلّ الأسلوب على ذلك حيث قُدر فيه تعليل الصبر الذي هو مناط التسلية، كما أنّ متعلق الصبر وأحوال التقرب المذكورة هنا أدنى منها هناك في الطور.

ويأتي بعده في الرتبة موضع سورة الحجر: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٨-٩٩] على الرغم من أنّ المثير في الحجر كان تكذيبًا صريحًا، بينما ورد سياق سورة طه العام تعريضًا، فإنّ سياق نفي الشقاء في سورة طه أدخل في التسلية من سياق الحفظ في الحجر من وجه، ومن وجه آخر كثافة وسائل التسلية والتقرب في سورة طه أعلى منها في سورة الحجر؛ حيث ركز الأسلوب على تعريفه بالصلاة والتسبيح، ثم تفضيله بالرزق عنهم.

وعلا موضع سورة الحجر على موضع سورة النمل مع اتفاقهما في ورود التكذيب من قومه صراحة، وفي المثير العام للتسلية، لكن سياق الحفظ العام في موضع سورة الحجر أعلى في الإقبال، كما علت فيه وسائل القرب عنها في سورة النمل، ودلّ على ذلك أسلوب الترقي من الجزء إلى الكل في ذكر أحوال التقرب والتأييد، بالإضافة إلى ورود مادة العلم التي لازمها الحفظ والرعاية.

وتقدم موضع سورة النمل موضع سورة الأنفال رتبةً في الإقبال؛ لتمحض التسلية والإنعام للنبي -ﷺ- في حين اشترك مع الرسول -ﷺ- غيره من المؤمنين، كما أنّ تفصيل الرد والتسلية في موضع سورة النمل يعلي من الإقبال فيه، يدل على ذلك وروده بأسلوب التوكيد سواء كان بالحرف، أو بالتقديم .

وعلا موضع سورة الأنفال موضع سورة الأنعام؛ لأنّ الإقبال والتسلية للرسول فيها ورد قياسًا بنصرة الأنبياء السابقين، فوعده بالنصر لم يرد مباشرة بل قياسًا على حال الأنبياء السابقين، في حين ورد التأييد مباشراً وصريحاً للنبي -ﷺ- في موضع الأنفال، حيث ورد بالخطاب لهوأفرد ضميره بهذا الخطاب:(يخدعوك ... حسبك... أيدك)

وهذا العلوّ المعنوي في المغارس يستلزم -ولا بدّ- علوًا في التركيب والأسلوب، وهذا أساس في الإقبال كما نص الحرالّيّ: "فيعلو البيان والإفهام بحسب رتبة من توجه إليه الإقبال"[1].

فتعلو الأساليب بعلو رتبة المقبل عليه، ويتجلى ذلك في معالم خمسة هي:

---

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

المعلم الأول: التوكيد وأثره في رتب الإقبال:

اطرد أسلوب التوكيد في مواضع تسلية الرسول -ﷺ- وتصبيره، لأنه أدعى إلى تطمين قلبه فموقف الحزن يحتاج إلى تحقيق الوعد وتثبيت العدّة؛ فالنفس -حينئذ- قلقة، فيأتي التوكيد -على عمومه- لإفادة هذا التثبيت والتقوية للنفس.

ثم يختلف ورود التوكيد بطرق وأدوات تختلف باختلاف السياق، فيلاحظ أنّ التوكيد بـ (إنّ) ورد في أعلى المواضع إقبالاً لتسلية الرسول -ﷺ- حيث ورد في موضع سورة الطور: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨] وفي موضع سورة الأنفال: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنفال: ٦٢] وتكرر ورودها في موضع سورة النمل.

و(إنّ) أصلٌ في التوكيد، وفيها دلالة على إثبات الأمر بتحقيقه[1]، وهذا التحقيق ملائم لنفس الرسول -ﷺ-.

وعلوّ التوكيد ملائم لهذا الموضع الذي تعددت فيه مزالق المشركين في مواجهتهم للنبي -ﷺ- سواء في تربصهم به ريب المنون ابتداءً: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الطور: ٣٠] أو في دعوى تقوّله القرآن وافترائه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الطور: ٣٣] أو في غير ذلك. وهذا التعدد يستدعي شدة الحفظ وتحقيقه ولا سيما في أول الدعوة.

كما أنّ ورودها ملائم لتأكيد النصرة في موضع سورة الأنفال: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢] والحال في غزوة بدر يوحي بخلاف النصر، فالتوكيد كان ملائمًا لحال النبي -ﷺ- تجاه خداع المشركين وكيدهم له -ﷺ- ويعضد ذلك ويزيده علوًا تخصيصه -ﷺ- بهذه الكفاية بإضافتها إلى ضميره: ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ ﴾ وهذا تشريف له، وعلوّ في الإقبال عليه.

ولابن القيم رأي في هذه الواو العاطفة في قوله -تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤] يخالف رأي الجمهور، حيث يمنع أن تكون عطفت من اتبعك من

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٣٢٥.

المؤمنين على اسم الجلالة، معللًا بأنّ (الحسب) لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة، ويجعل العطف على الضمير العائد على النبي -ﷺ- أو يجعل الواو بمعنى مع... [1].

ولرأيه وجه إذا نظرنا للسياق البعدي؛ حيث نجد فيه توطئة وتمهيدًا لتأييد المؤمنين لئلا يقع الخوف في نفوسهم، وليكون مدخلاً للأمر بالتحريض على القتال، ابتداءً بأنّهم هم -أيضًا- مؤيدون معانون، ومن ثمّ فلا يقع خوف عند نقص العدد، وهذا يلتقي مع الإقبال عليه -ﷺ- حيث أعينوا من أجله ولنصرته -ﷺ-.

ولكن إذا نظرنا إلى السياق القبلي نراه ممتنعًا؛ لأنّ السياق لم يكن في تأييد المؤمنين بل كان ممحضًا لتأييد الرسول -ﷺ- ومن بينها كفايته بالمؤمنين .

زاد ذلك توكيدًا إظهارُ الضمير: (هو) ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٦٢] فذكر الضمير هنا أدخل في توكيد النصر وهو متعاضد مع دلالة التوكيد في: (إنْ) .

في حين ورد التوكيد: بـ: (قد) في موضع سورتي الحجر والأنعام، والتوكيد بها فيه دلالة تحقيق الأمر، سوى أنّه أدنى رتبة من التوكيد بـ: (إنّ)؛ ذلك أن: (إنّ) أصل في التوكيد كما ذكر الإمام عبدالقاهر[2] ولا تبارح هذه الدلالة في حين أنّ: (قد) تأتي للتشكيك والتقليل[3] إذا وردت مع المضارع، وفي ذلك ملايمة للسياق الحالي كما تقدم.

وتلاءم التوكيد بـ: (قد) مع فعل العلم: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ ﴾ [الحجر: ٩٧] ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]؛ فالعلم من لازمه الحفظ، فإذا علم حالهم معه كفاه أمرهم، ومن لازمه مجازاة الكافرين من وجه آخر، و: (قد) هنا لتحقيق هذين اللازمين، فليست هنا للتشكيك- أبدًا- بل هي للتحقيق. قال ابن عاشور: "ومعنى التحقيق ملازم له، والأصح أنّه كذلك سواء كان مدخولها ماضيًا أو مضارعًا... والتحقيق أن كلام سيبويه لا يدل إلا على أنّه" (قد) يستعمل في الدلالة على التقليل لكن بالقرينة وليست بدلالة أصلية [4] فما ظاهره التقليل إذن هو عين التحقيق والتثبت بدلالة المقام من وجه، ومن وجه آخر أنّ أقل العلم بذلك كافٍ في وقوع الأمرين من المجازاة والرعاية، فكيف إذا كان من فاعل محيط -ﷻ-؟

---

(١) ينظر: "زاد المعاد في هدي خير العباد" ابن قيم الجوزية، ط٢٧، دار الرسالة، بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م: ١/٣٦، ٣٧.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ٣٢٥.

(٣) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ١/١٩٢.

(٤) التحرير والتنوير: ٦/٧١.

وكما أكد بأدوات التوكيد أكد بالتقديم في موضع سورة النمل: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ ﴾[النمل: ٨١] فتقديم المسند إليه على المسند الفعلي فيه دلالة التوكيد على عدم إمكان ذلك توكيدًا فيه إيناس وتسلية لرسوله- ﷺ - فليس منه أي تقصير في الدعوة، ولكن حال من دعاهم هو العمى.

المعلم الثاني: تساوق الإقبال، وأثره في بيان رتب الإقبال:

يُعلي تساوق جمل الإقبال ودفع بعضها بعضًا- تعاضدًا وتكاتفًا= الدلالة على الإقبال بتسليته - ﷺ - سواء كان من طريق العطف، أو من تكاتف المعاني.

أ- **العطف:** يتجلى لنا دفع الإقبال بعضه ببعض عن طريق العطف في موضع تسليته-ﷺ- في سورة الطور؛ إذ لم تقف التسلية على الأمر بالصبر على أذى المشركين، بل عطف عليه دعوته -ﷺ- إلى التقرب والمؤانسة، قال -تعالى-: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾[الطور: ٤٨-٤٩].

فهنا زاد على التسلية والتصبير الدعوة إلى أمور التقرب، وقد ذكر ثلاثة أحوال للتقرب معطوف بعضها على بعض: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾[الطور: ٤٨-٤٩]، وهذا أعلى إقبالًا؛ لأنه أكمل حفظًا وأتمّ عناية، فكأنّه يدعوه إلى مواضع العناية، وقد اختص بها هذا الموضع فلم يذكر في سورة أخرى غير سورة الطور: ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾،﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ ﴾، ﴿ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ فهذه الأوقات الثلاثة أدعى لتسليته-ﷺ- لأنّ أوقات الليل يعظم فيها الاتصال بالله واطمئنان النفس.

وحين نقارن تساوق هذه الأحوال الثلاثة في عطفها على الأمر بالصبر- هنا- مع موضع سورة طه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾[طه: ١٣٠] نلحظ علوّ الإقبال -هنا- عنه في موضع سورة طه؛ حيث حدد الزمن من الليل هنالك: ﴿ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا ﴾ وأطلقه هنا: ﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ ﴿ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ وفي دلالة طول الأوقات عناية وشمول لكل وقت من

أوقاته، وهذا علوٌ في الإقبال في موضع سورة الطور يتساوق مع علوّ المثير فيه وعلوّ التوكيد-أيضًا-.

ويظهر تساوق الإقبال بالعطف في موضع سورة الحجر في الترقي في عطف حاله -ﷺ- على حال أعلى منه: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٨-٩٩] حيث ترقى من الجزء إلى الكل، فأمر أولاً بالتسبيح الذي هو جزء من السجود: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾، ثم عطف عليه السجود: ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ وترقى بأن عطف على ذلك أمره بالعبادة: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ وهذا الترقي من الجزء إلى الكل علوٌ في الإقبال يؤيده الترقي في التأبيد إلى لحظة موته ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ فالرعاية والتقرب له حتى يموت -ﷺ- أدخل في تأنيسه وتسليته.

وبمقارنة علوّ الإقبال في هذه المواضع بتساوق العطف بما ورد في موضع سورة الأنفال:

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٢] يتجلى لنا علوه هناك لتمحض هذا التساوق للنبي -ﷺ- في تقريبه وتطمين نفسه وتعليقه بالله-ﷻ- في حين عطف هناك على تأييده -ﷻ- للرسول -ﷺ- تأييد المؤمنين له على اختلاف نوع التأييد ووجهه الذي دل عليه وجود حرف العطف، وتكرار حرف الجر، فكل تأييد مستقل بدلالته عن الآخر[1] -ﷻ- وهو أعلى في الطمأنة والتأييد وأعم وأشمل.

قال ابن عاشور: "وفي عطف:(المؤمنين) على اسم الجلالة هنا: (الله) تنويه بشأن كفاية الله النبي-ﷺ- بهم، إلا أن الكفاية مختلفة، وهذا من عموم المشترك لا من إطلاق المشترك على معنيين فهو كقوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾" [الأحزاب: ٥٦][2].

(١) دلالة تكرير حرف الجر على استقلالية كل جملة هو ما نص عليه أبو حيان عند قوله تعالى﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾[البقرة: ٧]: تكرير حرف الجر يدل على أن الختم ختمان" ينظر البحر المحيط: ١/١٧٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٦/٧١.

ب . تساوق الإقبال بتكاثف المعاني والدلالات، وأثر ذلك في بيان رتب الإقبال:

تتفاوت رتب الإقبال بتفاوت تكاثف المعاني من سياق إلى سياق، فكلما تناسقت متتابعة علا الإقبال، وهذا ما نص عليه الحرالّيّ: "وربما تناسقت الإقبالات مترتبة فيعلو البيان والإفهام" [1] وجعله أساسًا من الأسس التي يقوم عليها الإقبال.

وبالنظر إلى مواضع التسلية نجد أن أعلاها موضع سورة الطور؛ لتكاثف المعاني فيها وتساوقها حيث تناسقت الإقبالات فيه أكثر من تساوقها في المواضع الأخرى فمع اشتراكه مع موضع سورة طه في الأمر بالصبر: ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ إلا أنّ المعاني كانت أعلى في سورة الطور؛ حيث بدأ بالرعاية والحفظ من أول السورة – كما سبق أن بيّنت–ثم زاد على ذلك بالتقرب: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أما في سورة طه فقد بدأ مباشرة بالتقرب: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه: ١٣٠].

والسبب هو اختلاف السياق بين السورتين فلم يتقدم في سورة طه هذا العذاب أو هذا التكذيب الذي تقدم في سورة الطور، فمن ثم كان الذي يشغل المخاطب هو الحفظ أكثر فقدمه في سورة الطور، على حين تقدمت الصلاة والتقرب في سورة طه وبيّن أثرها، وتقدم جانب الرضا ونفي الشقاء صراحة :﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾[طه: ٢] فلا يتأتى ذكر الحفظ هنا، فبدأ بتحقيق عكس الشقاء وهو السعادة والاطمئنان القلبي والنفسي والجسدي في الصلاة، وحدد أوقاتها.

فتتابع الإقبالات في سورة الطور بين حفظ ثم قُرب، وهذا يعلي من الإقبال فيه.

وتساوق أول السورة مع آخرها علّ –أيضًا– في الإقبال فختم السورة، بقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور: ٤٨–٤٩] = فيه دليل على تدرج القرب إلى منتهاه حال السجود: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾[الطور: ٤٨–٤٩].

وتنامى هذا التقرب حيث ذكر له أحوالًا ثلاثة لم تذكر في غيرها من المواضع، وهي أدخل من غيرها في التقرب – كما سبق أن بينت– فتكاثف الإقبال.

---

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل:٣٠٤

وإذا نظرنا إلى ما ضمنت به سورة القلم -مع اشتراكها مع سورة الطور في الأمر بالصبر لحكم ربك في قوله -تعالى-: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾[القلم: ٤٨]= تبين أنَّ ختمها بـ: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [القلم: ٥٢] متساوق مع سيل التهم التي تقدمت للنبي - ﷺ - بأنه مجنون: ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ [القلم: ٢] وبين وجه الملاطفة عنه - ﷺ - في الرد عليهم بإثبات شرفه ونباهته بما يناقض ما اتهم به من الجنون فالذكر: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[القلم: ٥٢] له معنيان: التذكير أو الشرف سواء كان -ﷺ- شرفًا لهم أو مذكرًا لهم، فهذا رد على تهمتهم له بالجنون وأدخل في تسليته -ﷺ- ورفع شأنه.

ويلي رتبة سورتي الطور وطه في الإقبال، الإقبال في سورة النمل؛ حيث تكاثف المعاني بما يلائم سياق السورة من تبشير له -ﷺ- حيث تكاثف المعاني عن طريق تفصيل الردود عليهم وتكرار التذكير، قال -تعالى-: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾[النمل: ٧٣-٧٤] ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النمل: ٧٦-٧٨] وكان الرد في بيان أن كذبهم هو جحد وكفر متأصل فيهم لا دخل للنبي - ﷺ - فيه؛ لذا تعاضد مع هذا التفصيل في الرد النفي الصريح لأي هداية لأنهم عُمي، وقدم المسند إليه على المسند الفعلي تأكيدًا لذلك وتقوية له: ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي ﴾.

كما نلحظ هذا التكاثف في تعاضد دلالة الحفظ في العلم: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ ﴾ في موضعي سورة الحجر والأنعام بما يليها من الإقبال تبعًا لرتبة كل منهما، فلما علت الرتبة في سورة الحجر كان التعاضد مع وسائل التقرب من الله التي ترقت من الجزء إلى الكل من تسبيح إلى سجود إلى عبادة، قال -تعالى-: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ ولما كان أدنى في سورة الأنعام تعاضد مع بيان سبب جحدهم بأنهم: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٣] إذن هو جحد متأصل في نفوسهم، وفي هذا تسلية وتثبيت له.

ويلاحظ علوّ الإقبال بتكاثف المعاني في موضع سورة الأنفال بتعدد وجوه التأييد بدءًا بتأييده بنصره بالمؤمنين: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢] وتثنية بتأليف قلوب المؤمنين: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٣] وختمًا بالتصريح أنه هو - ﷻ - كافيه وناصره: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٤].

المعلم الثالث: التعليق والتقييد وأثرهما في بيان رتب الإقبال:

لاختلاف المتعلق في مواضع التسلية أثرٌ في الإقبال وعلوّه تبعًا لهذا المتعلق، ومن ذلك اختلاف متعلق فعل الصبر في موضعي سورة الطور وطه: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور: ٤٨] ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه: ١٣٠] فكان متعلق سورة الطور أعلى إقبالًا: ﴿ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ وأدناها موضع سورة طه: ﴿ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ ففي التصريح أن المأمور بالصبر عليه: (حكم ربك) علوٌ في الإقبال؛ فالحكم فيه داع للصبر في ذاته؛ لأنّ فيه معنى النفاذ والإلزام وهو ما يستدعي الصبر. وإضافة ضميره إلى الربوبية مع ظهور المشقة والمكابدة مع المشركين فيه علوٌ في الإقبال، فهو حكم ربوبية واقع في مقام البسط، فهو إحسان من الله إليه وتدريب له - ﷺ - للترقي[1].

ويعلي منه تمحضه في موضع سورة الطور للربوبية دون ورود الألوهية كما هو في موضع سورة القلم الذي عطف فيه: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [القلم: ٤٨] بـ: ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [القلم: ٤٨] فهذا حكم ألوهية واقع في القبض، وفي هذا تلاؤم مع افتتاح السورة بكلمة: ﴿ نٓ ﴾ لأنه من أسماء الحوت.

فالبسط في حكم الربوبية: (حكم ربك) في حد ذاته إنعام من الله وتطمين لقلبه - ﷺ - وإن وردت في مقام تكذيب.

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٧/ ٣١٠.

ومتعلق: ﴿ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ أعلى في الإقبال والسكينة من: ﴿ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أو ﴿ ٱلَّذِي يَقُولُونَ ﴾ الوارد في المواضع الأولى لتضمنه العناية والرعاية والتكريم في حين يشير: ﴿ مَا يَقُولُونَ ﴾ إلى إساءتهم وإن عبر عنه في الموضع باسم الموصول: (ما) الدالة على علو الإبهام.

ويؤيد علوّ دلالة الإقبال في: ﴿ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ التعدية بـ: (اللام) من دون :(على) الدّالة على الاستعلاء المتضمن معنى الجهد والمشقة في الصبر في حين دلت: (اللام) على أنّ الحكم له ولخيريته لا للمشقة عليه.

وتقييد هداية القرآن بالمؤمنين ووصف الحق بالمبين في موضع سورة النمل: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧ ﴾ [النمل: ٧٧]= علوّ في تسليته -ﷺ- حيث أكد أنّ إعراض المكذبين عيب في أنفسهم، فهم ليسوا مؤمنين ليهتدوا، والحق مع القرآن بيّن واضح لا يخالفه إلا أعمى وهذا أدخل في تسليته -ﷺ- وتبرئته من القصور في الدعوة.

وفي تقييد التأييد بالنصرة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ ﴾ و ﴿ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ علوٌ في الإقبال لما في النصرة من دلالة المعونة والتقوية [1] وإتيان الخير[2]. وهما دلالتان فيهما تسلية له -ﷺ- بإعلاء شأنه عليهم، وهذا يتلاءم مع علو الألوهية في: ﴿ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ ﴾.

المعلم الرابع: التعليل وأثره في بيان رتب الإقبال:

اطرد تعليل الأمر بالصبر على مكاره الدعوة في سياق تسليته -ﷺ- لعلل هي أدخل في طمأنة فؤاده وأدعى إلى تسكين نفسه -ﷺ- وتعلو العلة بعلوّ سياق الموضع الواردة فيه، فكان أعلاها علّة تصبيره في موضع سورة الطور: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ بـ: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾؛ لدلالته على قوة العناية والرعاية والبسط في تسليته حتى وإن كان السياق في تكذيبهم له واتهاماتهم إياه .

فقوله: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ تفريع العلة على المعلول: ﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ لأنك بأعيننا أي: لأجل العناية والكلاءة منا، نحن نعلم ما تلاقيه وما يريدونه بك [3].

---

(١) ينظر : الفروق اللغوية: الفرق بين النصير والولي: ٢١٤.

(٢) ينظر : معجم مقاييس اللغة: كتاب النون، باب النون والصاد وما يثلثهما : ٢/٥٦٣.

(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ٢٧/٩٢.

وفي العين دلالات تلتقي مع دلالة الربوبية المستلزمة للعناية والرعاية؛ حيث إنّ في العين دلالة إحاطة بشأنه وعلمًا بحاله، وبالتالي العناية به تبعًا لذلك وهذا يلتقي مع القيُّومية في معنى الربوبية بما فيها من ملاحظته ساكنًا ومتحركًا في كل حال.

كما أنّ في العين دلالة الرعاية والإنعام والتربية له -ﷺ- على عين الله -ﷻ- ورعايته وهذا يلتقي مع الربوبية ومستلزماتها من رعاية وعناية، يؤيد هذه المعاني ورودها بالجمع مبالغة في العناية، أو للدلالة على تعدد متعلقات الملاحظة وشمولها لكل حال من أحواله[1].

وقد اطرد في القرآن الكريم ورود العين جمعًا للمبالغة في العناية والرعاية، فلا تجمع إلا عند الكرب الذي يستلزم علوّ الإقبال، ومن ذلك جمعها في سياق تنجية نوح -عليه السلام- من الطوفان ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾، وهذا يستدعي زيادة في الإقبال.

يؤيد هذا تعديتها بـ: (الباء) من دون: (على) ؛ لما في الباء من دلالة الإلصاق والملابسة والمصاحبة التي هي أدل على العناية أي: لا يغفل عنك في كل حال، كما أنّ فيها معنى الاستعانة – أيضًا –[2] فكأنّه يذكره به -ﷺ- ومن هنا يوطئ لما بعده: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾، في حين وردت مفردة في شأن موسى -عليه السلام- ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩] وعلل لذلك ابن عاشور: بأنّه أفرد؛ لأنّ له تعلقًا وبُعدًا هو مشي أخته إلى فرعون[3]، وهذا صحيح بالإضافة إلى عدم شدة الأمر عليه حينها، فهو لا يزال صغيرًا ولم يواجه فرعون بمخالفة، فضلًا عن تناسب الإفراد ﴿ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ مع الافراد اللاحق: ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴾ ففي الإفراد معنى الخصوصيه الشائع في السياق، وهذا متساوق مع نفي الشقاء سياقًا عامًا لسورة طه.

كما أنّ التعليل لعدم الحزن على خداعهم في موضع سورة الأنفال بـ: ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ [الأنفال: ٦٢] ملائم لتسليته بالكفاية والنصر، فمن الله كان حسبه وكافيه فلا خوف عليه من خداعهم؛ لأنّ الله بما له من علو وقهر هو كافيه.

وبمقارنتها بقوة العناية في موضع سورة الطور: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ يظهر علو علّة موضع سورة الطور؛ فهو أدل على القرب والتبسط والعناية.



(١) و(٢) و(٣) نفسه.

كما أنّ في تعليل نهيه عن الحزن -في موضع سورة الأنعام ببيان حقيقتهم بأنّ الجحد متأصل فيهم وإلا فالحق بيّن لا مراء- فيه تسلية له -ﷺ- فلا عيب فيه ليكذبوه، ولا في الحق الذي معه إنما هو الجحد والكبر.

ويلاحظ أنّ كل موضع جاء فيه التعليل صريحًا إلا موضع سورة طه أتى التعليل فيه مقدرًا؛ لأنّه معلوم بدهي لعدم تقدم أذى صريح، على حين علل الأمر بالصلاة؛ لأنّها موضع نفي الشقاء وهو الغرض الرئيس. ويفهم تقدير التعليل من الآية المتقدمة على الموضع في قوله -تعالى-: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [طه: ١٢٩] حيث يفهم من ذلك أنّ تأخير العذاب عنهم كان لأجله، إذن فاصبر على ما يقولون، وتقرب إلى ربك بالصلاة والتسبيح، ولا تلتفت إليهم، فلهم موعد سيجازون فيه على ما قالوه.

المعلم الخامس: الخطاب وأثره في بيان رتب الإقبال:

اطرد الخطاب في مواضع تسليته -ﷺ- لأنّ المباشرة بالخطاب أدخل وأدعى لتطمين النفس وتسكين الفؤاد، ولذا اطردت كاف الخطاب العائدة على النبي -ﷺ- في كل المواضع.

وورد ضمير الخطاب: (أنت) مقدماً في موضع سورة النمل، وهذا علوٌ في الإقبال عليه -ﷺ- لذا لم ترد الغيبة في أي موضع من المواضع؛ لأنّها لا تتلاءم مع الإقبال بالتسلية والتصبير.

ولعلوّ موضع سورة الطور عن المواضع الأخر ورد مع ضمير خطابه -ﷺ- ضمير المتكلم نون العظمة خاصة: ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ مع الربوبية ظاهرة: ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ فجمع موضع سورة الطور بين الربوبية، ونون العظمة الدّالة على عظيم الإنعام والرعاية بخلاف بقية المواضع، لأنّه أعلاها تسلية وإقبالًا.

وورد اسم الجلالة صريحًا في موضع سورة الأنفال: ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ﴾ مع خطابه -ﷺ- ملاءمة لعلوّ النصرة الملائمة للعلوّ والقهر.

المطلب الخامس: صريح الإقبال في سياق رتب المقبل عليهم بين تنوع الصفات والثناء

أولًا: رتب الأنبياء: إبراهيم وموسى وعيسى -عليهم السلام-

لما ربى الله الأنبياء لما أبداه وجودهم كما ذكر الحرالّي[1] نشّأهم على صفات عليا وأخلاق مثلى أقبل عليهم بمقتضاها.

وهذا الوصف مستلزم من التربية لغرض معين يتلاقى مع حال الرسول، والرسالة، والمرسل إليهم، والسياق الذي يرد فيه الوصف، فتجد الصفات وإن تقاربت أو تكررت إلا أنّها تحوي في رحمها تفاوتًا تبعًا لمغرس الإقبال بها وسياقه، وهذا التفاوت في الصفات يستلزم تفاوتًا في رتب الأنبياء ولا بد . فكل صفة ترد ملائمة للرتبة من وجه، ومتلائمة مع سياقها ومغرس الإقبال بها في كل موضع من وجه آخر.

فوصف إبراهيم -عليه السلام- بالإمامة، وأمّة، وصديق، ونبي، وأواه حليم، ومنيب.

ووصف موسى -عليه السلام- بالكليم، وعيسى بالرسالة.

ووصف النبي -ﷺ- برؤوف رحيم، وشاهد، ومبشر، ونذير وغير ذلك [2].

ففي شأن إبراهيم -عليه السلام- ورد وصفه بـ (إمام) في موضع سورة البقرة: ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ ﴾ [البقرة: ١٢٤-١٢٥].

ووصفه بـ: (أمّة) في موضع سورة النحل: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

---

(١) ينظر : مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤١.

(٢) الصفات المعنية: صفات الإقبال في هذه المواضع.

وفي الصفتين تقارب؛ فالإمام والأمّة من أصل واحد هو: أمّ، وكل شيء يُضم إليه ما سواه مما يليه فإن العرب تسمي ذلك أمّاً [1]. ومعاني الإمام والأمة تدور حول ذلك على اختلاف بينها، فالإمام: الذي له الرياسة العامة، فهو رئيس القوم الذي يقتدى به، وإمام كل شيء: قيمه والمصلح له وهو المتقدم، فبذلك يضم إليه ما سواه مما يليه [2].

والأمة: الرجل المنفرد الذي لا نظير له، ومن ومعانيها: القصد، والطريقة، والدّين يجتمع عليه الناس[3]. ومن ثمّ أطلق على الرجل أمّة لاشتماله على صفات كثير من الناس تجتمع فيه، وعلى هذا فالتضام والاجتماع يعطي تشابهًا من جهة، واختلافًا من جهة تبعًا لخصوصية كل صفة وخصوصية السياق الخاص لكل منهما ومغرسه بتعدد الجوانب بين الإمام والأمة، فلكل اعتبار.

أما المغرس في سورة البقرة فمن قوله -تعالى-: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [البقرة: ٤٠] فقد ورد الإقبال عليه بوصفه بإتمامه وتوفيته مقابلًا لجحد بني إسرائيل للنعمة، فلاءم الإقبال عليه بهذا الوصف المغرس باعتبارين:

الأول: اعتبار توافق مع سياق الإنعام الذي حقُّه الشكر وتوفية الأداء.

الثاني: اعتبار التناقض بينه وبين بني إسرائيل في استقبالهم للنعم فهم جحدوا في حين وفّى -عليه السلام- ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ ويفسرها قوله: ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم: ٣٧] وهذا أعلى التكريم له -عليه السلام- وأعلى الثناء بوصفه: ﴿ إِمَامٗا ﴾، فالسياق العام لذكر القصص في سورة البقرة سياق إنعام فيه تكريم؛ لذا لاءمه الإقبال بأعلى الصفات :﴿ إِمَامٗا ﴾ فالسياق تكريم ابتداءً من سيدنا آدم -عليه السلام- ومراعاة شأنه بداية من سجود الملائكة له ووصولًا إلى إبراهيم وإمامته، ثم تحويل القبلة لأجل النبي -ﷺ-.

أما مغرس موضع سورة النحل: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣] فمن قوله -تعالى-: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا

---

(١) ينظر: لسان العرب: كتاب الألف: ١/١٣٣.

(٢) السابق: كتاب الألف: ١/١٣٣، ١٣٤.

(٣) السابق: كتاب الألف: ١/١٣٥.

عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [النحل: ١١٨] فهم ظلموا أنفسهم فعوقبوا بحرمانهم من النّعم، وهذا تقارب بين المغرسين من جانب مقابلة النعمة بالجحد، كما في الحديث عن بني إسرائيل، ولكن لما كان الإنعام في البقرة إنعام تكريم استلزم التكريم علوًّا في الوصف والرتبة تبعًا لذلك عنه في موضع سورة النحل الذي كان الإنعام فيها منهجًا في الدعوة ومقابلة الناس له ومن ثم أتبعها في سورة النحل بقوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[النحل: ١٢٣] فكان الوصف الرئيس في موضع البقرة: الإمام وهذا أعلى من أمة، لأنّ فيه معنى الرياسة في حين يغلب على الأمة التفرد[١]، والرياسة أعلى – ولا شك– من التفرد، ومن ثم علي في سورة البقرة بما يهم الرئيس من أمر قومه سواء فيما يتعلق بمعاشهم أو مآلهم.

وأيّد النظم علوّ هذا الوصف –الذي ترتب عليه علوّ في الرتبة– بخصوصيات في التركيب في أربعة معالم كما يلي :

المعلم الأول: تخيُّر ألفاظ الوصف الرئيس وما جاوره معنى ومبنى:

فالوصف في موضع سورة البقرة ورد: ﴿ إِمَامًا ﴾ ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾[البقرة: ١٢٤] والإمام –كما تقدم– هو: رئيس القوم، وقيم الأمور، والمصلح لها، وهو المتقدم على غيره[٢]. وهذا نص صريح في علوّ رتبته – عليه السلام – وتقدمها على من سواه وهو تقدم فيه إكرام له –عليه السلام– دال على الإقبال .

ويؤيد معناها بنيتها؛ حيث وردت نكرة ومطلقة عن القيد، والتنكير للنوعية[٣]؛ لأنّ المراد بالإمامة هنا إمامة الدين فهو أبو الأنبياء، وليست إمامة الملك في الدنيا، ولذلك فرّق الله بين رزق الربوبية الذي عممه للجميع: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾[البقرة: ١٢٦]

---

(١) التفرد لايستلزم الرياسة؛ فكم من متفرد مغيب في قومه؛ لاسيما وقد جاءت (إمام) نكرة لتعظيم الإمامة فيه، وأنها ليست كغيرها.

(٢) ينظر : لسان العرب: كتاب الألف: ١/١٣٣، ١٣٤.

(٣) المراد النوعية المقابلة للجنسية، وليس المراد أنّه نوع غير متعارف. ينظر : مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ضمن شروح التلخيص: ١/٣٤٨.

ورزق الألوهية الذي خصصه ومنه إمامة الدين، فللتنكير هنا معنيان: النوعية والتعظيم فإمامته عظيمة الشأن لإقامة الدنيا -أيضًا-.

وإطلاق الإمامة عن القيد للدلالة على امتدادها زمنًا ومكانًا. أما امتدادها زمنًا، فباعتبار قوله ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ بدلالتها على العموم المستغرق للزمن كله من لدن خطابه إلى آخر الزمن، فالناس: من النوس الدّال على شموله لكل الأطراف المتضادة ؛ لأنّ كل من أتى بعد إبراهيم -عليه السلام- انتسب إليه، وكذلك لم تأت أمة بعده إلا نسبته إليها: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) ﴾[البقرة: ١٤٠] ومن هنا أتت كلمة الناس . كما أنّها عُرفت بـ" ال" الدّالة على الاستغراق .

أما امتدادها مكانًا فلأنه تنقل بين فلسطين، ومصر، ومكة فحيث حلّ فهو إمام -عليه السلام-.

ومما يزيد الوصف ثباتًا أنّه جيء به في جملة اسمية: ﴿ جَاعِلُكَ ﴾ فلم ترد:(جعلتك) أو: (أجعلك)، فضلاً عما في الجعل من دلالة أنّ إمامته كانت وصفًا قبل مجيئه إلى الدنيا، وهذا يعلي من قدر الوصف، ومن ثم اختار بنية اسم الفاعل: "جاعل" من دون غيره.

كما أنّ نسبة الفعل لله زيادة تكريم واستلزام لثبوته له - عليه السلام - إذ إنّ المطرد في القرآن إسناد الأفعال لله - عز وجل - في سياق التكريم والمدح والتشريف؛ فالله يظهر نفسه في مقام التفضل والتكريم[1].

المعلم الثاني: التوكيد وأثره في بيان علوّ الوصف الرئيس:

ورد إثبات الوصف بأداة التوكيد: (إنّ) ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ وهي أعلى أدوات التوكيد دلالة، لأنّه كلما كانت النعمة عظيمة أكدت بـ: (إنّ)، وهذا مطرد في كل نعمة في القرآن؛ فالتوكيد فيه مراعاة لعظمة الخبر من وجه، وملائم لعلوّ المخاطب من وجه آخر، إذ يخصه بهذه الدرجة العالية من الوصف، فالإقبال بالتوكيد مراعاة لعظمة الخبر في نفسه، وعلوه في ذاته سواء من دلالته على مرتبته عند ربه أو على درجته بين الناس، وهذه من المنن العالية والنعم العظيمة[2]

---

(١) ينظر : التعبير القرآني: ٢٨٦.

(٢) بالنظر إلى اطراد النظم القرآني فالمنن العظيمة تؤكد بـ:(إنّ) مع أنّ المخاطب بها غير منكر؛ لأن المراد تعظيمها في ذاتها وتحقيقها في نفس المخاطب، زيادة في المنّ عليه وانبساطًا في النفس.

المعلم الثالث: التعاور بين الخبر والإنشاء في الدلالة على الرتبة والمكانة:

جيء بالوصف الرئيس خبرًا محضًا، والخبرية فيها دلالة على الثبات وعدم النسخ، فإمامته أمر كوني ثابت، بخلاف ما تبعه من أساليب مستلزمة له لتعظيم مقامه، والدلالة على رفعة شأنه كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥] فقد جيء به جملة إنشائية.

ومجيء الوصف الرئيس جملة خبرية يتلاقى مع الدوام والثبات؛ إذ إنّ الخبر لا يدخله نسخ، ومن ثم صار كالأمر الكوني في رسوخه على مر الأزمنة وتغاير الأمكنة.

وهذا مطرد في مواضع وصف إبراهيم - عليه السلام - سواء في موضع سورة النحل: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠] أوصفاته في موضع سورة هود: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [هود: ٧٥]، ومستلزماتها حيث وردت البشارة برحمته بالخبر: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [هود: ٧٣]، وهذا مشابه لتطهير أهل بيت رسول الله في موضع سورة الأحزاب: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فهناك صلة بين النبيين من حيث اختصاصهما بعناية مخصوصة تلائم شرف بيتيهما، وقد ورد هذا التكريم لهما بحذف حرف النداء: ﴿ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ الدّال على القرب، وتخيُّر: (البيت) بما فيها من معاني السكينة والهدوء وتعريفها بـ: (ال) الدّالة على الكمال، كل ذلك ينبئ عن علوّ رتبة هذا البيت النابعة من علوّ رتبة عموده إبراهيم -عليه السلام-.

المعلم الرابع : التقديم والتأخير، وأثرهما في بيان رتبة الوصف الرئيس:

قدم اسمه -عليه السلام- في تقديم المفعول على الفاعل في قوله: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ ﴾ [البقرة: ١٢٤] وفي التقديم دلالة إقبال عليه وعناية به؛ إذ إنّ الكلام سيق له دلالة على رتبته.

ويتولد الإقبال عليه في التقديم من اعتبارين:

أ – أنّ في تقديم ذكره دليلَ عنايةٍ به واهتمامٍ، وبيان أنّه المقصود والمعنيُّ بالتكريم ابتداءً .

ب– أنّ في عود الضمير في: ﴿ رَبُّهُۥ ﴾ عليه إقبالًا؛ فإضافة الربوبية لضميره -عليه السلام- -خاصة- تشريف له وإكرام واعتناء بذاته، وهذا علوٌّ في الإقبال، كما أنّ فيه زيادة تأكيد، فكأنّه ذكره مرتين: مرة باسمه الظاهر، ثم بالضمير الدائر عليه ﴿ رَبُّهُۥ ﴾، وكل هذا العلوّ في الوصف مستلزم لعلوّ رتبته التي دلت عليها -أيضًا- مستلزمات هذه الإمامة المذكورة بعد هذا الوصف الرئيس.

وكما تعاضد النسق اللغوي مع النسق المعنوي في بيان الإقبال بالوصف الرئيس، تعاضــدا-أيضًا- في مستلزماته، ويتجلى ذلك في أمور:

أ- التقديم والتأخير في مستلزمات الوصف الرئيس، وأثرهما في بيان الرتب:

قدم المتعلق تارة وأخره أخرى، وفي كل ملاءمة لعلوّ الإقبال، فلما كان علوّ الإقبال بتقديم: ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ على: ﴿ إِمَامًا ﴾ قدمه ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾[البقرة: ١٢٤] ولما كان علوّ الإقبال في تأخيره أخره: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾[البقرة: ١٢٥] ففي تقديم القيد في: ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ على: ﴿ إِمَامًا ﴾ دلالة على العموم والتكريم، فعلو الرتبة كامن في عموم إمامته للناس؛ لذا قدمه. ولما كانت المثابة خاصة ولا مدخل لتقديم المتعلق في علوّ الإقبال أخّرها.

ومن ذلك تقديم المتعلق: ﴿ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ على: ﴿ مُصَلًّى ﴾ في قوله -تعالى-: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥]؛ وذلك أنّ تحديد المكان لأجل رفعته وعظيم مكانته هو؛ إذ إنّ الكلام قد سيق إقبالًا عليه فلزم أن يقدم: ﴿ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ على ﴿ مُصَلًّى ﴾ مع أنّ مقتضى ترتيب الجملة تقديم المفعول على الجار والمجرور.

وكذلك في قوله: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ﴾ [البقرة: ١٣١] قدم الجار والمجرور: ﴿ لَهُۥ ﴾ على الفاعل خلافًا للأصل؛ لأنّ الكلام قد سيق لأجل إبراهيم -عليه السلام- وهذا القول إعلاء لمكانته وبيان لمدى طواعيته لأمر ربه، وكيف وفّى وأتم الأمر، فلم يلتزم بوجه الكمال فقط في نفسه وإنّما وصى به ذريته من بعده: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾[البقرة: ١٣٢] وهذا بيان لرتبته ومتعلق بقوله: ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾.

ب- التوكيد في مستلزمات الوصف الرئيس، وأثره في بيان الرتب:

تنوعت أدوات التوكيد في إثبات رتبة سيدنا إبراهيم -عليه السلام- بما يلائم الوصف الرئيس؛ فورد إثبات الإمامة له بالتوكيد بـ(إنّ)؛ لأنّها أعلى أدوات التوكيد وأقواها توكيدًا وبيانًا لعظمة النعمة وعلو المنعم عليه -كما تقدم- وأكدت لوازمه بـ: (لقد) كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا[1] ﴾[البقرة: ١٣٠] وفي التوكيد بـ:(قد) و(اللام) التي فيها القسم -دليل علوّ في رتبته -عليه السلام- إذ يطرد مع لام القسم تقدير اسم الجلالة خاصة: (الله) ولا يقدر غيره، وهذا من التعظيم، فكلما كان القسم عظيمًا كان المقسم عليه عظيمًا، وهذا تلازم بين عظمة القسم وعظمة المقسم عليه، ومتلائم مع الإسناد إلى: (نا) الفاعلين، ومتلائم مع الوصف من صفة القهر والعلوّ في صفات الألوهية.

وورد توكيد صلاحه في الآخرة بـ: (إنّ) ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠] ووردت بـ (إنّ) من دون: (قد)؛ لأنّ الأمر غيبي فيلائمه قوة التوكيد. وكل ذلك التوكيد مما يعلو به الإقبال.

ج - الإظهار وأثره في بيان الرتب:

للإظهار والتصريح عظيم أثرفي النفس، كما ذكر عبدالقاهر الجرجاني: فـ"الإعادة للفظ... من الحسن والبهجة، ومن الفخامة والنبل ما لا يخفى موضعه على بصير"[2] وهذا ملائم لكل غرض

---

(١) يلاحظ كيف وردت لفظة (الدنيا) في شأن اصطفائه -عليه السلام- في الدنيا في حين لم ترد مع النبي -صلى الله عليه وسلم- بل وردت لفظة (الأولى) ﴿ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحى: ٤] وهذا دليل على علوّ رتبة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- لخصوصية اصطفائه.

(٢) دلائل الإعجاز: ١٧٠ ولايريد الإمام أنه دائم حيثما جاء واتفق، بل حيث اقتضاه السياق وتطلبه المقام.

ورد فيه، فالتصريح في المدح أدخل في المدح، والتصريح في التكريم والإقبال أعلى وأدخل كما هو هنا.

ويتجلى أثر الإظهار في بيان علوّ رتبة إمامته -عليه السلام- في أمور ثلاثة:

أولها: التصريح باسمه -عليه السلام- في معاقد جمل التكريم، فلم يأت فيها بالضمير البتة، فهو بذاته السبب في الإمامة، وامتدادها، فأساس الإقبال ورود اسمه صريحًا :﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[البقرة: ١٢٤] ويلحظ جانب التكريم في هذا التصريح بتكرار ذكر اسمه صراحة فيما تشمله هذه الإمامة من صفات، ففي امتداد الإمامة في الخضوع لله ورد اسمه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾[البقرة: ١٢٦] حيث جعل الإيمان شرطًا حتى في نعم الربوبية، وهذا علوّ في الخضوع ، وكرر اسمه -عليه السلام- عند توفيته الأمر في قوله-تعالى-: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾[البقرة: ١٢٧] حيث أمر بتهيئة المكان للعبادة وما فعله -عليه السلام- أعلى وأوفى حيث رفع البناء ثم اتجه بالـدعاء بالقبول بعـــد ذلك: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[البقرة: ١٢٧] ودعا لذريته ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾[البقرة: ١٢٨] وكونه يدعو لذريته التالية هذا تمام الإمامة .

وأظهر اسمه -عليه السلام- في إمامته في ملته: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٠] فمن جانب ملة إبراهيم-عليه السلام- فقد سفه نفسه، ففي إظهار اسمه تكريم له.

ثانيها: إظهار الربوبية وتكرارها: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ﴾ ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ مع سيدنا إبراهيم - عليه السلام - مع أنه يغني عنها أول موضع؛ لما فيها من ابتهال وتقرب ففيها كشف تضرعه وخضوعه لله وهذا من تمام التوفية وتمام أمره - عليه السلام-.

ثالثها: إظهار الصفات المتلائمة مع السياق وعلوّ رتبته، حيث أظهر من صفاته ﴿ ٱصْطَفَيْنَٰهُ ﴾ و ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ و ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ مع أنّ الإمامة كافية عنها، ولكن في إظهار هذه الصفات بعد الإمامة التي تشملها اعتناء بها، فكأنّه من باب ذكر الخاص بعد العام، أو الإفصاح بعد الإفهام؛ لأنها مفهومة من الإمامة.

واختص ذكر الاصطفاء في الدنيا بالتصريح والابتداء به لتناسبه مع ابتلاء إبراهيم -عليه السلام- فالابتلاء يترتب عليه صفاء يقتضي الاصطفاء، فهناك تلازم سببي ومسببي بينهما، ثم ترقى الوصف من أمر الدنيا إلى أمر الآخرة، حيث اصطفاه في الدنيا ثم ترقى فكان من الصالحين في الآخرة، والملاحظ أن الاصطفاء هنا ورد خاصًا بإبراهيم -عليه السلام- ﴿ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ في حين ورد في موضع سورة آل عمران عامًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣] فكأن الاصطفاء هنا للفرع ﴿ وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ في حين كان الاصطفاء في موضع سورة البقرة للأصل، وهذا ملائم لتقدم موضع سورة البقرة حيث قدم اصطفاء الأصل، ثم وليه اصطفاء الفرع.

د- العطف وأثره في بيان في علو الرتبة:

عطفت الصفات المثبتة لسيدنا إبراهيم -عليه السلام- بالواو للتشريك، فلم تأت منفصلة، ويستلزم هذا العطف اجتماع الصفات له على الوجه والوصف الأول: ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ فينصرف التمام إلى كل الصفات المعطوفة: من خضوع، وطاعة، وعلوّ ملة، واصطفاء وصلاح في الآخرة وإسلام لله ومن تمام: ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أنّه -عليه السلام- تجتمع معه الصفات المذكورة في الحالة الواحدة، فحين يبني البيت يدور في ذهنه الرزق وصلاح ذريته،... وهكذا، وهذا ملائم لمطلق الجمع والتشريك بالواو.

ولابن عاشور نظر في عطف: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ بالواو "إن موقع هاته الآيات من سوابقها موقع النتيجة بعد الدليل، فإنّه لما بيّن فضائل إبراهيم من قوله: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ ﴾ إلى هنا علم أن صاحب هاته الفضائل لا يعدل عن دينه والاقتداء به إلا سفيه العقل أفن الرأي ، فمقتضى الظاهر أن تعطف على سوابقها بالفاء، وإنّما عدل من الفاء إلى الواو ليكون مدلول هذه الجملة مستقلًا بنفسه في تكميل التنويه بشأن إبراهيم -عليه السلام-" [1].

---

(١) التحرير والتنوير: ١/٧٠٤.

وفي العطف بالفاء في: ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ دلالة على سرعة استجابته -عليه السلام- وعدم تردده، مع أنَّ الابتلاء فيه صعوبة في الاستجابة، فالعادة أن تتوقف النفس عند الابتلاء ولكنه لتمام إمامته عاجل بالتمام .

ويلاحظ أنّه عطف التمام لا الأداء وهذا أعلى مرتبة، فلم يقل: (فأداها) وفي ذلك دلالة على أن الأداء مسلم به فعطف التمام والمسارعة إليه مباشرة على الابتلاء.

ويلاحظ أنّ العطف لم يرد مع وصف: (أمة) في موضع سورة النحل ؛ لأنّ الأمة تجتمع فيها صفات متعددة ولا يلزم فيها أن تكون في وصف واحد وفي حالة واحدة، كما أنّ الإمام -أيضًا- يجمع ما بين صفته في ذاته، وصفات الاهتمام بغيره.

فالسبب الرئيس لوجود العطف هنا وعدمه في موضع سورة النحل راجع إلى الاختلاف بين الإمام والأمة كما تقدم ذكره، فالإمام يستلزم اجتماع هذه الأحوال؛ لأنّه لا بد أن يعنى بكل صغيرة وكبيرة، أما الأمّة ففيه صفات أناس كثر، لكن لا يشترط أن تكون معًا، كما أنّها تركزت في ذاته هو، وهذا ملائم لأن يكون أمّة في ذاته.

هـ - دقة الكلمة في مستلزمات الوصف وأثرها في بيان الرتب:

تقدمت دقة الكلمة في الوصف الرئيس ويعضد هذه الدقة دقة أخرى في مستلزمات الوصف، منها: غلبة لفظ الربوبية في الصفات: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ ﴾ ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ﴾ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ ﴾ ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وهذا دليل على أنّ الابتلاءات كانت إنعامًا، وهذا تكريم وعلوّ في رتبته -عليه السلام- ومن ثم اختار الربوبية في النداء والتضرع.

كما وردت الأفعال في الإنعام عليه بالمضي: (جعلنا، اصطفينا) وفيه تحقيق للإكرام.

كما ورد جوابه لربه بالمضي -أيضًا-: (أسلمت) وهذا تمام في الطاعة والإمامة، فقد أسلم قبل أن يوجه إليه الأمر فأمره كله إسلام وخضوع.

أما موضع سورة النحل: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ فالوصف الرئيس: **(أمة)** ومعناه اللغوي ابتداءً يظهر تأخر رتبة الإقبال به عن وصف الإمام،

فـ:(أمّة) فيه معنى التفرد، أما (الإمامة) فهي الرياسة، ولاشك أن الرياسة أعلى، كما أنّ التفرد يدخل في الإمامة ضمنًا.

كما أنّ مبنى أمّة معاضد لمعناها فقد ورد منكرًا، وهذا أدلّ على عظمته وعلوّ شأنه و أدل على التفرد.

وكما دق النظم في الوصف الرئيس الدّال على الرتبة دق كذلك في بيان الصفات المستلزمة له ويتجلى ذلك في ثلاثة أمور:

أ- فصل الصفات وتناسبها، وأثر ذلك في علوّ الإقبال:

تتابعت صفات إبراهيم -عليه السلام- المنسلة من كونه: (أمّة) من دون عطف، فلم ترد مشتركة بالواو وذلك لأنّه لم يرد جمعها هنا له مرة واحدة لاختلافها، فالقنوت غير البعد عن الشرك، وهذا غير شكر النعم الحسية، فهي أنواع من النعم المختلفة لا يراد اجتماعها. وهذا يؤكد أنّ الرتبة في موضع سورة البقرة أعلى لعلوّ الوصف الرئيس: الإمامة واستلزامه اجتماع الصفات فيه في مقام واحد -كما تقدم- وكون ذلك من التوفية والتمام، فالصفات في موضع سورة البقرة متعدية للخلق في حين كانت هنا ذاتية.

وقد ترتبت هذه الصفات ترتيبًا متناسقًا مع الوصف الرئيس المتقدم، حيث تقدم وصفه-عليه السلام- بأنّه: (أمّة) وهذا الوصف دال على الرتبة باعتبارين:

١- أنه كان في الفضل والكمال بمنزلة أمّة كاملة.

٢- أنه كان أمّة واحدة في الدين؛ لأنّه لم يكن في وقت بعثته موحد لله غيره[1].

وبالاعتبارين فرتبته عالية لم تتأت لأحد غيره.

والأول عندي أقوى وأنسب؛ لانسلال بقية الصفات منه، حيث استجمع الصفات الرئيسة من كل جماعة من الناس وأخذ أفضلها؛ لذا فقد بلغ الغاية في الطاعة، فوصف بـ: (القانت) أولاً، ثم بـ: (حنيفاً) أي: مائلاً عن الشرك، ثم نُفيَ عنه الشرك.

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٣/٢٥٤.

ووجه اتصال هذه الصفات بالوصف الرئيس: ﴿ أُمَّةً ﴾ البدء بأهمها بالنسبة للسياق الخاص:

﴿ قَانِتًا ﴾ فالقنوت: هو الخضوع لله والسياق -هاهنا- في الخضوع للأمر إثباتًا ونفيًا[1].

وقد ترتبت هذه الصفات ترقيًا إلى الأكمل، فكأنه ذكر أخص صفات الخير المتصلة بسياق الإقبال عليه، ثم ثنّى بقوله: ﴿ حَنِيفًا ﴾، تصحيحًا للخضوع على وجهه، ثم نفى عنه أية شائبة بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وهذا أكمل القنوت، ومن ثم يكون تعدد الصفات على وجه الترقي؛ لذا ختمها بقوله: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾.

وكلّ هذه الصفات متأصلة في ذاته وإن كانت نعمًا من الله، ثم تلاها بعد ذلك صفات أخر كانت جزاءً وسببًا عن هذه الصفات، وهي: (اجتباه، هداه، ثم أوحينا إليك) بـ: (ثم) الدالة على التراخي الرتبي الذي فيه تنويه بجليل شأن النبي -ﷺ- وزيادة في التنويه بإبراهيم -عليه السلام-[2].

وفي كل صفة من صفات الجزاء تناسب مع صفاته الذاتية؛ فخصوصية الاجتباء ورفعته تتناسب مع علوّ درجة القنوت، والهداية متناسبة مع: (حنيفًا) ولم يك من المشركين، والإيتاء ملائم مع كونه شاكراً لأنعم الله، وهذا أقرب إلى اللف والنشر، فـ: (أمة) أساس لكل من الصفات الذاتية أو صفات الجزاء التي ذكرت بعد ذلك؛ فلأنّه أمة قانتة اجتباه، ولأنّه أمّة حنيفًا غير مشرك هداه، ولأنّه أمّة شاكرًا آتاه من نعمه، فكان جزاؤه من جنس عمله، وهذا إقبال عليه حيث وهب أعلى الصفات الذاتية، وأنعم عليه بأعلى الجزاء عليها.

ب- دقة الكلمة وأثرها في بيان الرتبة:

وُصِفَ سيدنا إبراهيم -عليه السلام- بأنّه شاكر لأنعم الله في قوله -تعالى-: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾[النحل: ١٢١] ولتخير: (شاكر) و(أنعم) دقة في بيان رتبته -عليه السلام- فاستعمال الاسم: (شاكر) من دون الفعل: (يشكر) دليل على ثبات هذا الوصف له ودوامه في كل حال، وهذا متصل من وصفه بـ: ﴿ أُمَّةً قَانِتًا ﴾ فهو متفرد في شكره وملازم للطاعة، وهذا التفرد والملازمة للطاعة استلزما دوام شكره -عليه السلام- وهذه رتبة عالية في الشكر.

---

(١) نفيًا: حال اليهود في عصيانهم للدعوة، وإثباتاً في الدعوة إلى اتباع نهج إبراهيم -عليه السلام- في الخضوع لله ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل: ١٢٣].

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٣/٢٥٦.

ووردت النعمة بجمع القلة:(أنعمه) لأنَّ شكر النعمة ليس في مقدور أحد، بل إن إحصاءها ليس في مقدور أحد فكيف بشكرها[1]؟ قال -تعالى-: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[النحل: ١٨] فإبراهيم -عليه السلام- كان شاكرًا للأنعم بالقلة، فكيف حاله مع النعم الكثيرة، قال البقاعي: "فقال مشيرًا إلى ذلك بجمع القلة؛ وإلى أنَّ الشاكر على القليل يشكر إذا أتاه الكثير من باب الأولى"[2] وهذا علوٌ في رتبته -عليه السلام-.

ومما دلّ على علوّ رتبته ورود الاجتباء معه والهداية مع غيره جزاءً لطاعتهم، قال -تعالى- في شأن الأمم غيره في زمانه -عليه السلام-: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[النحل: ٩٣].

وقال في شأن الأمة إبراهيم -عليه السلام-: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١]
فالأمة التي ابتعدت عن الشرك هداها... والأمة التي قنتت اجتباها، والاجتباء رتبة عالية في الإنعام فهو جمع على طريق الاصطفاء، فكأنّه مرحلة ثانية بعد الاصطفاء، فالاصطفاء: صفو الشيء، والاجتباء: جمع على طريق الاصطفاء، بمعنى أنّه بعد اصطفائه يجتبى أي: يخصص بفيض إلهي يتخلص له منه أنواع النعم بغير سعي منه[3] وهذا ولا شك علوٌ في الإقبال عليه، فكأنه اختصه بمرتبة في الهداية لم تحصل لغيره، فالهداية مراتب اختص إبراهيم -عليه السلام- بأعلاها.

جـ - النفي والإثبات وأثرهما في بيان الرتب:

تنوع الإقبال بوصفه -عليه السلام- بين إثبات للصفات ونفي لبعضها، ويلاحظ أنّه تقدم الإثبات على النفي؛ حيث أثبت له وصف أمة: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ ووصف القنوت: ﴿ قَانِتًا ﴾ ووصف حنيفًا: ﴿ حَنِيفًا ﴾ وهذا أدخل في إثبات الكمال لإبراهيم -عليه السلام- فالبدء بإثبات الوصف أعلى من نفي ضده، حيث أثبت له الخير على سبيل تحققه وكماله لديه -عليه السلام- بما يستفاد من اللفظ على وجه مخصوص بكل وصف وصف به من: (أمة) و(قنوت) و(حنيفاً).

(١) ينظر: التعبير القرآني: ٤١.
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٤/٣٢١.
(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الجيم: ٩٥.

ثم يلاحظ أنّه ترقى في نفي الشرك عنه خاصة، حيث قال: ﴿ حَنِيفًا ﴾ ثم أتبعها بـ:﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وهذا تأكيد على الخلوص من أية شائبة من شوائب الشرك عنه -عليه السلام-.

ويلاحظ الترقي في النفي ترقيًا يبين رتبته -عليه السلام- وأنّه كان أمّة منفردًا، حيث ورد نفي الشرك عنه أولاً بـ: ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ قال -تعالى-: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ثم ورد بـ: ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ قال -تعالى-: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[النحل: ١٢٣] وقد نفى الكون فيهما جميعًا، وفي نفي الكون علوٌ في نفي الشرك عنه -عليه السلام- فنفيه أبلغ، وقد ارتقى سيدنا إبراهيم -عليه السلام- المرتبة الأولى من نفي الكون، فلم يُرِد الشرك ولا ينبغي له، ولم يرد في حقه ولا حتى احتمالاً.

وقد نفى المضارع: بـ: (لم) في الموضع الأول، ونفى الماضي بـ: (ما) في الموضع الثاني وهذا ترقٍ في الوصف؛ حيث إنّه حين وصف حاضره نفى الشرك عنه نافيًا أي حدوث له ما دام حيًا ولما وصف للنبي -ﷺ- ما كان عليه سيدنا إبراهيم -عليه السلام- نفى الماضي بـ: (ما) وهذا ترقٍ في النفي.

فلم يكن للشرك حدوث في حياته؛ لذا نفى بـ: (لم) لدخولها يدل على أنّ الحدث لم يحصل في الماضي على تطاول المدة واستمرارها[1]. ونفي المضي دلّ على انقضاء الأمر على ذلك.

كما أنّه أتى بالمضارع: (ولم يكن) عندما كان في تصوير شخصيته حال حياته -عليه السلام- فكأنه ماثل أمام المخاطب، أما حين حكى وصفه للنبي -ﷺ- للامتثال به فحكاه على وجه التحقق بالماضي.

وفي الماضي معنى آخر وهو أنّه بعد وفاته -عليه السلام- وتطاول الزمن لم تَشُبْه رائحة الشرك على الرغم من كثرة معانديه ومناوئيه من المشركين.

أما في موضع سورة هود فقد وصف -عز وجل- بقوله-تعالى- : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [هود: ٧٥].

ومغرس الإقبال على سيدنا إبراهيم -عليه السلام- في هذا الموضع من البسط بالتبشير، حيث روعي في هذا البسط جانب الرضى، ومن ثمّ تأتى فيه الإقبال بالمدح والثناء لسيدنا

(١) ينظر: معاني النحو: ١٦٧.

إبـــــراهيم-عليه السلام- وجملة الصفات: (حليم- أواه- منيب) ملائمة للبشرى التي تكررت في قصة إبراهيم في موضع سورة هود قال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾[هود: ٦٩] وقال: ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾[هود: ٧١] وقال: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) ﴾[هود: ٧٤]؛ ولذا لم ترد هذه الأوصاف في قصته في سورة العنكبوت؛ لأنّ سياقها سياق ابتلاء، أو في سورة الذاريات؛ إذ إنّ السمت العام للقصص في الذاريات هو في ذكر خاتمة القصص ونهاية المكذبين وليس الإقبال على المرسلين، في حين كان سياق سورة هود تبشيرًا وتفصيلًا، وذكر قصة إبراهيم- عليه السلام- مقصودة لذلك، وليست توطئة لذكر ابتلاء قوم لوط- عليه السلام-وهلاكهم في حين كانت في سورة العنكبوت توطئة لقصة لوط-عليه السلام- لذا كان موضع سورة هود موطئًا للإقبال من دون موضع سورة العنكبوت[1].

وقد تعاضد النسق اللفظي مع النسق المعنوي في بيان رتبة سيدنا إبراهيم -عليه السلام- بهذه الصفات ويتجلى ذلك في أمرين هما:

أ- بناء الإقبال في موضع سورة هود، ومقابلته لموضعي سورتي البقرة والنحل:

يلاحظ أنّ الإقبال في موضعي سورتي البقرة والنحل بدأ بالوصف الرئيس: (إماماً – وأمة) ثم انسلت منها كل مستلزمات هذا الوصف متأخرة عنه، أما هنا فقد تقدمت مستلزمات صفاته من بشارة وهبة ولد، ثم جاء الوصف متأخرًا عنها، وكأنّ الوصف أتى هنا للعلة[2].

---

(١) إذا كان بيان مرتبة سيدنا إبراهيم بالثناء على صفاته نابعًا من البشارة، فإن قصته التي وردت في سورة العنكبوت لا يأتي فيها بيان رتبته -عليه السلام- وذلك لمراعاة أمرين يختصان بموضع سورة العنكبوت خاصة هما:

١- بناء سياق سورة العنكبوت على الابتلاء والفتنة.

٢- أن ذكر أمر تبشير إبراهيم ورد عرضًا في معرض سوق قصة لوط بخلاف موضع سورة هود فقد وردت البشرى ذاتها واتسقت مع سمت التفصيل في السورة.

(٢) بين المواضع افتراق في التقديم والتأخير للوصف الرئيس لموضع الإقبال فابتدأ به في سورة البقرة والنحل وختم به في هود.

ب- تناسب الصفات مع مستلزماتها المتقدمة مادة وبنية، وأثر ذلك في بيان الرتب:

وردت بنية الصفات التي أثنى بها الله -ﷻ- على سيدنا إبراهيم بالبناء على صيغة المبالغة: (حليم، أوّاه، منيب) وفي بنيتها على صيغة المبالغة علوٌّ في رتبته فيها، فهو أعلى فيها من غيره.

وتلاءم معناها -أيضًا- مع الإقبال عليه في هذا الموضع خاصة، فالحلم: إمهال وفيه صفة مدح، وهذا ملائم لما تقدم من وصف زوجه بالعقر وصبره على ذلك؛ لذلك ورد وصفها:(بامرأته) وهو وصف لا يدل على إنجاب منها، وفي تعامله مع ضيوفه حين رأى أيديهم لا تصل إليه.

كما أنّ الحلم صفة ثناء من وجه آخر لأنها تكون مع مستحق للانتقام[1]، وكونه -عليه السلام- يتصف بهذه الدرجة مع الحلم فهذا علوٌّ في رتبته -عليه السلام- يتلاءم مع وصفه بـ: (أوّاه) بدلالتها على التحزن، أو بالدعاء إلى الخير والتضرع يقينًا بالإجابة[2] الذي يلتقي مع الحلم؛ فالحلم مرتبة عالية الصبر عليها يقتضي التأوه، وهكذا كان إبراهيم -عليه السلام- كما أنّ في دلالتها على الدعاء إلى الخير والتضرع متيقنًا بالإجابة ملائمة لحاله ورغبته في الذرية والولد.

ثم وصف بـ:(منيب) من الإنابة والرجوع إلى الله[3] وكل ما تقدمها فيه رقة وخضوع وخشوع لله أكدته صفته: (منيب)، فالترتيب بينها على وجه الترقي.

وهذه الصفات متلائمة مع السياق البعدي الذي نص على مجادلته في شأن لوط، قال- تعالى-: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود: ٧٤-٧٦] ففيها تعليل لمجادلته في شأن لوط-عليه السلام- فما عليه من الصفات التي وهبها الله له جعلت له من الحظوة ما يجعله يجادل؛ لذا وردت الآية بعد ذلك تنبيهًا له: ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ﴾ من دون عتب؛ لعلوّ مقامه؛ فورود الصفات على هذا الترتيب، وبهذه المادة، وهذه البنية ملائمٌ للسياق ودالٌّ على رتبته -عليه السلام-.

ثم ورد وصفه في موضع سورة مريم بأنّه صدّيق ونبيٌّ، قال- تعالى-: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ ﴾ [مريم: ٤١] ومغرس علوّ رتبته بوصفه: ﴿ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ نابع من

(١) ينظر: الفروق اللغوية: الفرق بين الحلم والإمهال: ٢٢٨.
(٢) ينظر: لسان العرب: الألف: ١/١٧٨، ١٧٩.
(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب النون: ٥٠٩.

الذكر: ﴿ وَٱذْكُرْ ﴾ وما في كلمة: (الذكر) من دلالة على العلوّ والاعتداد به، كما أنّها سبقت في موضع التشريف، وسياق سورة مريم العام يتلاءم مع هذا التكريم فهو مبني على التشريف والرحمة، كما أنّه متلائم مع قوله -تعالى- بعد الانتهاء من قصص الأنبياء-: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ﴾[مريم: ٥٨]، فالختام التعقيبي -هنا- ملائم للتشريف، فكل ما ذكر كان على سبيل الإنعام وهذا من الإقبال.

وقد تلاءم هذا الوصف الرئيس مع مستلزماته التي وردت بعده فهو صدّيق نبيّ -عليه السلام- وقد قدمت الصدّيقيّة. فهل ورود الصديق خاصة في موضع سورة مريم له تعلق بوصف مريم بالصدّيقة؟...؛ حيث إن قصة مريم في السورة وردت للدلالة على صدقها خاصة، ولذلك أنطق وليدها في المهد، فالسورة بنيت على تصديقها ولا أبلغ من إنطاق الوليد.

أم أنّ ورود هذا الوصف ملائم لصدقه -عليه السلام- مع الله في اعتزاله لقومه ودعائه لربه ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى ﴾ [مريم: ٤٨] ؟ ... حيث رجى الإنعام عليه بأمرين: الاعتزال والدعاء، فكأنه ذكر هذين الأمرين ليتحقق رجاؤه وقد صدق الله فيهما فصدقه الله ووهبه الذرية: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) ﴾ [مريم: ٤٩].

والأول عندي أولى؛ لأنّ الصدّيقية ذكرت وصفاً مع سيدنا إدريس -عليه السلام- مع عدم تقدم تصديقٍ صريحٍ له في الآيات -كما تقدم- مع سيدنا إبراهيم -عليه السلام-.

وتتجلى الرتبة في البناء التركيبي لهذا الوصف في أمرين:

أ- دقة الكلمة وأثرها في بيان الرتبة:

ورد الوصف الرئيس لسيدنا إبراهيم بـ:(صدّيق) بصيغة المبالغة، وهذا دليل على أنّه فضّل غيره بهذه الصفة، كما أنّ في مادتها ملاءمة للسياق، ولعلوّ الإقبال في هذه السورة -كما تقدم- ثم وليه وصفه بـ: (نبيًا) وفي هذه الصفة دلالة على علوّ رتبته خاصة أنّها وردت بلا عطف فكأنّ معنى الوصف أنّه صديقٌ عالي الصدّيقية، وهذا أدلُّ على الرتبة.

ب - تناسب وصفي الصدّيقية والنّبوة مع جزئياتها، وأثر ذلك في بيان الرتبة:

لما علت صدّيقيته -عليه السلام- تجلت في صدق تبليغه، حيث بلّغ والده بصراحة الحق وحذره ولم يبال -عليه السلام- بالأذى والسخرية، قال -تعالى-: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾[مريم: ٤٢].

وتلاءمت صدّيقيته مع صدق دعائه واعتزاله قومه الذي ترتب عليه أن صدقه الله فوهبه الولد: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ [مريم: ٤٨-٥٠].

كما تلاءمت الرفعة في النّبوة مع ترفعه عن شرك قومه واعتزاله لهم، وفي عطفه على والده الذي ظهر في تحننه معه، وعطفه في خطابه وكل ذلك دليل صدّيقيته مع والده: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾[مريم: ٤٢-٤٥] فهو صادق على كل اعتبار في عبوديته لله وفي بنوته - عليه السلام - لأبيه.

وكما أشار صفات دلت على علوّ رتبة سيدنا إبراهيم – ﷺ – كذلك اختص سيدنا موسى – ﷺ – وسيدنا عيسى – ﷺ – بصفات دلت على علوّ رتبتهما بما يتلاءم مع ما أبداه وجودهما وما رباهما له ربهما، ومن ذلك قوله –تعالى– في سورة البقرة:

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾[البقرة: ٢٥٣].

ومغرس الإقبال عليهما ببيان الرتبة هنا –الإشارة بـ: (تلك) باسم الإشارة لجماعة الإناث فهم جماعة واحدة مما يستلزم أنهم اجتمعوا على وصف واحد عالٍ عما سواهم وهو النبوة والرسالة، ومع هذا فقد اختص من بين هذه الجماعة بالتفصيل موسى وعيسى –عليهما السلام– إقبالًا بالنص عليهما، ومجيء الإشارة للتبعيد: (تلك) دليل آخر على أنّ الإقبال لبيان علوّ الرتبة.

والنص على تفاوت الرتب لا يتعارض مع قوله –تعالى– في آخر السورة: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ فباعتبار أصل الإيمان بهم لا فرق بينهم فكلهم أنبياء، ولكن باعتبار تفاوت بعضهم على بعض في علوّ الرتبة فيعلو بعضهم على بعض وخيرهم نبينا محمد –ﷺ– [1].

وكما دل المغرس على أنّ الإقبال في الرتبة، دلّ السياق القريب على ذلك، حيث تقدم قوله–تعالى–: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾[البقرة: ٢٥١] فهذا فضل عام، ثم ورد في الموضع الفضل الخاص للرسل، فالتفضيل في السياق القبلي من تفضيل داود وطالوت –عليهما السلام– كان مبنيًا على علوّ رتبتهما، باعتبار سياق القصة والغرض منها.

قال –تعالى– في شأن طالوت: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ

(١) قال –ﷺ– في الحديث الصحيح: "أنا سيد ولد آدم" ينظر صحيح البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله –تعالى– {إنّا أرسلنا نوحًا إلى قومه}، رقم الحديث ٣٣٤٠ : ٤/١٣٤.

وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٧] وقال في شأن داود: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾[البقرة: ٢٥٠]. وبعد هذا الفضل العام ذكر الفضل الخاص بالأنبياء ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾[البقرة: ٢٥٣] فقوله -تعالى-: ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ موطئ وممهد لاختلاف المراتب، فكأنّه لا يعني تفضيلاً مطلقًا، بل هو تفضيل مبهم؛ أي كل مفضل منهم هو فاضل ومفضول في ذات الوقت وهذا مقتضى الاستواء؛ لذا دلّ على علوّ رتبة الرسول -ﷺ- على سائر الأنبياء التفضيل المطلق الذي ورد معه: ﴿ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ فإطلاق الصفات فيه دلالة على أنّه شاهد، ومبشر لجميع الثقلين الجنّ والإنس بما فيهم الأنبياء. لذلك جاءت صفاته مطلقة عن القيد بما يفيد العموم، ولم يأت هذا الإطلاق مع غيره، وهذا دليل على أنّه -ﷺ- أعلى إقبالاً من غيره.

ويتجلى علو الإقبال من خلال التركيب فيما يلي:

أ- دقة الكلمة وأثرها في بيان رتب الإقبال:

تخير: (الرسل) من دون غيرها من الصفات كـ: (أنبياء) -مثلاً- تلائم -بمعنى العلوّ فيها- علوّ الرتبة . لكن اختصاص الرسالة بالذكر بسبب ما سيق بعدها من امتثال أقوام لأنبيائهم، وكفر بعضهم، فالسياق الممتد كله في التبليغ وكفر المعاندين بهذا التبليغ كما أنّه تقدم في السياق القبلي: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ومن ثم فتخير: (الرسل) ملائم من وجوه ثلاثة:

أولها: ملاءمتها لقوله -تعالى-: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ المتقدمة في السياق القبلي.

ثانيها: اطراد الرسالة في السياق وموقف المرسل إليهم منها.

ثالثها: تلازمها مع التلاوة في قوله -تعالى-: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ فالتلاوة ليست مجرد كلام، بل تتابع التبليغ، فالتلاوة متلائمة مع الرسالة لا النبوة.

كما تخيرت: (الإيتاء) في الإنعام على سيدنا عيسى -عليه السلام- ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ وفي دلالتها على اليسر والعطاء دليل على علوّ رتبته -عليه السلام-.

ب- تنوع التعريف وأثره في بيان الرتب:

عرف سيدنا موسى - عليه السلام - بالموصولية: ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ لاشتهار هذا الوصف له، وتخير التعريف بالموصولية معه دليل على رتبته - عليه السلام - وعلوها فلم يخص بالكلام إلا هو.

بينما عُرِّف سيدنا: (عيسى) بالعلمية؛ لأنّ التأييد بالثبات وبروح القدس إنما كان لذاته المختلف فيها بين الإفراط والتفريط فكان ماأوتيه من البينات وروح القدس فارقًا في هذا الاختلاف، فنصّ على علمه، والنص عليه بعلمه فيه تعيين له وتمييز لعلوّ مرتبته -عليه السلام-.

كما أنّ لإضافة علمه إلى: (مريم) ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ مدخلًا في الإقبال عليه لورود الاختلاف فيه، فالنص على بنوته لمريم قاطع لهذا الاختلاف وهذا من الإقبال عليه.

وفي تعريف الوصف المشترك: (الرسل) بـ: (أل) الدّالة على كمال الوصف دليلٌ على علوّ الرتبة؛ لاسيما وفي ذكر الخاص بعد العام تناسقٌ مع هذا العلوّ وتعضيد له.

وفي تغاير التعريف بالذات العلية دليل على علوّ الرتبة؛ حيث عُرِّف في تكليم موسى-عليه السلام- باسم الجلالة الدّال على العلوّ والقهر والتنزيه: ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾ وكون الكلام ممن كان هذا علوه -جل جلاله- فهذا دليل على علو مرتبة من كلّمه.

في حين عرف بنون العظمة في إيتاء عيسى -عليه السلام- ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ وفي تعظيم المعطي علوٌ لرتبة المُعطَى ولا شك.

وهما -وإن اشتركا في علو الرتبة-قد اختلفا في جهة العلوّ، ومن ثم اختلفا بين علم الذات وضمير العظمة، فجهة العلوّ مع موسى-عليه السلام- في الاختصاص بالكلام وما فيه من القرب والشرف، ولاريب أن تكليم الله لا كتكليم غيره، بينما كانت جهة العلوّ مع عيسى-عليه السلام- في الفرق بين الحق والباطل، فمن ثم تناسب مع نون العظمة.

كما أنّ في تعريف جبريل -عليه السلام- بروح القدس دليلًا على علوّ رتبة عيسى -عليه السلام-؛ حيث اطرد في القرآن وصف جبريل بـ: (روح القدس) عند إرادة النص على العون والتكريم، وكون جبريل-عليه السلام- هو المعين لعيسى -عليه السلام- دليلٌ على علوّ مرتبته -عليه السلام-.

جـ- الخصوص بعد العموم وأثره في بيان علوّ الرتبة:

ويفهم الخصوص في هذا الموضع باعتبارين:

١) اختصاص فضل الرسل بعد عموم الفضل الوارد في السورة، وهذا الخصوص بالفضل بعد الفضل العام دليل علو رتبة الرسل على من سواهم.

٢) اختصاص ذكر موسى وعيسى – عليهما السلام – من بين سائر الرسل علوٌّ أرقى من العلو السابق؛ حيث اختص ذكرهم من بين الخواص، فكونهم من خواص الخواص دليل على علوّ رتبتهم – عليهم السلام – وتخصيصهم من دون من سواهم متلائم مع ذكر الاختلاف الوارد في الموضع: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾[البقرة: ٢٥٣]؛ لأنّ اتباعهم اليهود والنصارى هم أكثر الأمم بدعًا للاختلاف والتفرق.

ثانيا: رتبة النبي (ﷺ)

ربى الله نبيه – ﷺ – تبعًا لما أبداه وجوده من عموم رسالته ورحمته، ومن ثم جاءت الصفات على وجه الإطلاق في الشهادة أو التبشير، ولأنه خاتم المرسلين جاءت صفاته على وجه الكمال المطلق، ولما كان أفضل المرسلين رباه على صفات فضلى تعلو صفات من سواه من عامة الناس وخاصتهم.

وهذه الخصوصية مرتبطة بالإقبال عليه من وجوه:

- علو مكانته، كجعله شهيداً على الأنبياء.
- إظهار صفاته الملائمة لهذه المكانة، كوصفه بـ:رؤوف رحيم.
- الإنعام عليه نعمًا مخصوصة تتلاءم مع قدره عند الله، كاختصاصه بالصلاة من دون غيره من الأنبياء، واشتراكه معهم في السلام مع زيادة المصدر فيها ﴿ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٥٦] وغير ذلك.

والقرآن الكريم مسور لعلوّ رتبته وصفاته –ﷺ– في مواضع كثر، ويمكن عرض تشريفه وعلو رتبته في هذا المبحث من وجهين:

أولهما : الاستطراد إلى بيان صفاته –ﷺ– وما يستلزمها من علوّ الإقبال عليه.

ثانيهما : بناء السورة على علوّ رتبته، وبيان صفاته وما يستلزمها من علوّ الإقبال عليه.

الوجه الأول في بيان رتبة النبي –ﷺ–:

الاستطراد إلى بيان صفاته –ﷺ– وما يستلزمها من علو الإقبال عليه:

استطرد في القرآن كثيرًا إلى بيان صفاته – ﷺ– إلا أن أكثرها ربطٌ بين هذه الصفات، وعلو الإقبال مواضع ثلاثة هي:

١) موضع سورة التوبة، في قوله –تعالى– ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ ﴾[التوبة: ١٢٨].

٢) موضع سورة الأعراف في قوله –تعالى–: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ

الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُۥ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٣) موضع سورة يس، في قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [يس: ٣-٤].

ويلاحظ أنها اشتركت في أمور ثلاثة:

أولها: أن الإقبال عليه فيها -ببيان رتبته- استطراد لغرض رئيس لبيان التباين بين رتبتين، فالغرض الرئيس في مواضع هذا القسم لم يكن تعداد صفاته -ﷺ-، بل في صفات غيره من المكذبين به، فشاع في سياق سورة التوبة بيان أحوال المنافقين وفضح أعمالهم، وأدمج معهم غيرهم من المشركين وأهل الكتاب إدماجًا، ثم ختم السورة ببيان صفاته -ﷺ- إقبالًا عليه فتناسب بدؤها وختامها من وجه التضاد؛ فأولها براءة من صفات خسيسة، وآخرها إقبال بصفات عالية سامية.

وكان مغرس بيان رتبته مجيئه -ﷺ- على هذا الوصف مقابلة مع هذه الشدة منهم، فالسياق العام الذي ورد فيه تكريمه هنا مقابلة الشدة بهذه الصفات، وورودها في: (براءة) فيه علوٌّ في الوصف يستلزم علوَّ الرتبة، فهذه الصفات لو وردت في سورة أخرى -ترشح على ورود هذه الصفات- لكان ورودها فيها أقلَّ دلالة على علوّ الرتبة، لكن مجيء الجو العام مضادًا لها -من استهزاء وسخرية وتخلٍّ عنه وقت الشدة والكذب عليه -ﷺ- ويأتي اتصافه بهذه الصفات على الرغم من ذلك دليلٌ على أنها جبلّة وطبع له -ﷺ- .

أما موضع سورة الأعراف فقد كان السياق في قصة موسى -عليه السلام- والهود إلى الله والعود له فالمغرس من قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٦] ولكن هذا العود والهود من قوم موسى لا يكفي وحده لرحمة الله -عز وجل- بل كان الشرط اتباعه -ﷺ- ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾[الأعراف : ١٥٦]، فاستطرد الإقبال على النبي -ﷺ- من جانب أنه شرطٌ لتحقق الرحمة، وعلى هذا الوصف أتت رتبته في هذا الموضع.

قال البقاعي: "ساق -ﷻ- هذه الآيات هذا السياق على هذا الوجه الذي بيّن أنّ أعلاهم مراتب وأزكاهم مناقب الذي خص برحمته من يؤمن به من خلقه قوة أو فعلاً، وجعل -ﷻ- ذلك في أثناء قصة بني إسرائيل اهتمامًا به وتعجيلًا له مع ما سيذكر مما يُظهر أفضليته ويُوضح أكمليته بقصة مع قومه في مبدأ أمره وأوسطه ومنتهاه في سورتي الأنفال وبراءة بكمالها"[1].

أما الإقبال على النبي -ﷺ- في موضع سورة يس فتأتّى من دلالة القرب في ندائه -ﷺ- بـ(يس) بحذف حرف النداء الدّال على زيادة القرب، فاطرد الإقبال عليه هنا من القرب والاعتناء بالمخاطب؛ لذا فضل على غيره من جانب، ونصر على من عاداه من جانب آخر. وتأتّى علوّ رتبته من استعلائه على الصراط المستقيم: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[يس: ٣-٤].

ثانيها: بناؤها على وصف رئيس واحد هو الرسالة:

اتفقت المواضع الثلاثة على مادة الرسالة فهو الوصف الذي انسلت منه الصفات من دون النبوة، ففي موضع سورة التوبة تصدر وصف الرسالة، قال -تعالى-: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾[التوبة: ١٢٨] فدلالة الرسول على التبليغ ملائمٌ لخطابهم بذلك من وجه، وتنويه بشأن هذا الرسول من وجه آخر ... فكيف يكذب من بلغ وهو عظيم الشأن؟.

وهنالك تناسب بين الرسالة وما يستلزمها من تبليغ وبين تلك الصفات الدّالة على نوع العلاقة الاجتماعية بينه وبينهم، ومن ثَمّ أثر من الصفات وصف الرحمة سواء كان بصريح لفظه أو بمعناه، فقوله -تعالى-: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ ﴾[التوبة: ١٢٨] هذه رحمة عامة لكل مخاطب وردت بمعناها، فكونه يشق عليه كفرهم ومخالفتهم ويحرص عليهم هذا من الرحمة، وقد دلت عليه كل الأحداث المتقدمة معهم؛ فهم على استهزائهم وكذبهم رحمهم، فترك الاستقصاء عنهم وسؤالهم حتى لا يفضحهم: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٣] وكذلك استغفاره لعمه من رحمته: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾[التوبة: ١١٣] حتى في عقابه لمن تخلف عن

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٣/١٣٠.

الجهاد كان فيه رحمة، ولما جاءت الرحمة مع المؤمنين وردت صراحة بلفظها: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة: ١٢٨] .

وبنيت الصفات في موضع سورة الأعراف على: (رسول) ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[الأعراف: ١٥٧] لأنّها الوصف الأخص الأهم، وما بعدها كله تشريع، والتشريع يلائمه وصف الرسالة، كما أنّها الوصف الذي تجلت فيه الرحمة التالية التي ترتب عليها علوّ مرتبته هنا.

والرحمة إما أن تكون تأسيسًا أو تأكيدًا على رحمة متقدمة، والتأسيس أعلى، وهكذا كانت رسالة النبي - ﷺ - تأسيسًا لرحمة جديدة أخرجتهم من الظلمات إلى النور على أكمل وجه؛ لذا ترتبت رحمة الله للناس على اتباع شرعه ورسالته، وهذا داخل في الإقبال عليه ببيان علو رتبته- ﷺ - وعظيم شأنه.

وكذلك بنيت الصفات المقبل بها عليه - ﷺ - في سورة يس على مادة الرسول: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[يس: ٣] لتلازمه مع مستلزمات التبليغ والتشريع ومع ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[يس: ٤] الذي فيه بيان رتبته حيث استعلى على الصراط المستقيم وبلغ الغاية فيه.

ومع اشتراك المواضع في بناء الرتبة على وصف رئيس واحد هو الرسالة، إلا أنّ هناك اختلافًا في بنية هذه المادة ملائمًا لسياق كل موضع، والسمت العام للسورة التي ورد فيها.

فيلاحظ أن المادة أتت في موضع سورة التوبة: ﴿ رَسُولٌ ﴾ بالتنكير، وبالتعريف بـ:(أل) في سورة الأعراف: ﴿ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ﴾ وبإدخاله في المرسلين في سورة يس: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

فالتنكير في سورة التوبة يقتضي التعظيم والتفخيم، وهذا مضاد للتولي منهم والإعراض عنه، سواء المحقق في السياق القبلي: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٧].

أو التولي المفترض في السياق البعدي ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾[التوبة: ١٢٩] فصرف الله قلوبهم لجهلهم بقيمته.

أما موضع سورة الأعراف فوردت معرفة بـ: (ال) وهي هنا للعهد سواء كان عهدًا علميًا محققًا أو ذهنيًا فهم يعرفونه؛ لأنه معهود عندهم ومعلوم، وتتلاءم اللام مع قوله -تعالى-: ﴿ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فهو محقق مكتوب عندهم.

وفي سورة يس سلكه في زمرة المرسلين: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ لإرادة سلكه في جملة الأنبياء الذين ذكر قصصهم والذين كُذِبوا فهو من بينهم في حقبة الرسالات، لكنّه أعلى منهم وأفضل، فهو على: ﴿ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

ثالثها: تناسق صفات المواضع على أساس بناء لغوي واحد:

اعتمدت المواضع -غالبًا- على أساس بناء لغوي واحد في بيان صفته الدّالة على علوّ رتبته، وهذا البناء هو الاعتماد على ذكر الصفة وحذف الموصوف، فالتركيب في المواضع قائم على الصفة من دون الموصوف، ففي موضع سورة التوبة:﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[التوبة: ١٢٨] الفعل: ﴿ جَآءَكُمْ ﴾ هو الذي استلزم الصفات بعده، واستلزمها على وجه معين، بأن حذف الموصوف وبنى الكلام على الوصف كأن الذات مكونة من تلك الصفات، فاستلزم وصفه بالرسالة أولًا: ﴿ رَسُولٌ ﴾ بياناً لنوع الجائي ثم أتبعها بكونه منهم

﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ وهذا أدعى للبيان حيث يرسل كل رسول بلسان قومه، وأدعى للاتباع؛ لأنّه معروفٌ لهم، ثم دارت الصفات حول الرحمة صريحة أو بمعناها.

وهذه لها اعتبارات كثيرة، سواء من الرسالة ذاتها لأنّها تتطلب الرحمة، أو من السياق، فالسياق المتقدم يستلزم التغليظ عليهم وقد أمر به -ﷺ- ولكنه -ﷺ- كان متعاملًا معهم على أساس

الوصية لا على أساس الكتاب كما ذكر الحرالّيّ[1]، أي: على ما غلب على جبلته من الرحمة ومن ثم كانت هذه الصفات هي الغالبة سواء كان على وجه العموم أوالخصوص .

وفي موضع سورة الأعراف حذف الموصوف محمد -ﷺ- وأبقى الصفات، وللحذف في الموضعين دلالة تعيين الموصوف[2]، وهذا التعيين يعلي من تكريمه والإقبال عليه، أي أنّ هذه الصفات لا تكون إلا له ولا تنطبق إلا عليه، وهذا التعيين حقيقي وليس ادعائيًا؛ لأنّ النبي -ﷺ- وحده هو من اختص بهذه الصفات المذكورة.

ثم يأتي لكل موضع دلالته الخاصة، ففي موضع سورة التوبة دلّ: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ على العلم به، فهو منهم وما ذكر من التعيين في الدّلالة العامة يؤكده كونه من أنفسهم فلا تنصرف إلا إليه.

وفي موضع سورة الأعراف دلّ على العلم به: ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾[الأعراف: ١٥٧] ؛ فهو معروف لديهم ومنصوص على صفته في كتبهم، والحديث عن موسى- عليه السلام - ليس عنه - ﷺ- فمقتضى الظاهر أن يسميه ويذكره باسمه، لكن لتعينه حقيقة في كتبهم بأنّ هذه صفاته حذف وبقيت صفاته، وهذا علوٌ في الإقبال والتكريم والخصوصية التي لا تكون إلا له.

وقد تناسقت الصفات في كل موضع وترتبت ترتيبًا منبئًا عن علوّ رتبة الإقبال عليه -ﷺ- بما يلائم كل موضع وسياقه الوارد فيه، فيلاحظ أنّ تناسق الصفات وتناسجها دل على علوّ رتبته - ﷺ- في موضع سورة التوبة باعتبارين:

---

(١) الوصية عند الحرالّيّ :هي ما جبل الله عليه رسوله -ﷺ- من الرحمة والعفو ووصّاه به، قال الحرالّيّ: فكان فيما أوصاه به ربه - ﷺ - من غير ترجمان ولا واسطة بأن يصل من قطعه، ويصفح عمن ظلمه، ولا أقطع له ممن كفر به وصد عنه، فكان هو -ﷺ- بحكم مابعث له، وجبل عليه ووصّى به، ملتزمًا للعفو عمن ظلمه، والوصل لمن قطعه "، والكتاب: هو الأخذ بالعدل والتزام ما أمره الله به وإن غاير جبلته، قال الحرالّيّ: " ومن القرآن ما أنزل على حكم العدل والحق المتقدم فضلة في سنن الأولين، وكتب المتقدمين، وإمضاء عدل الله -ﷺ- في المؤاخذين، والاكتفاء بوصل الواصل، وإبعاد المستغني، والإقبال على القاصد، والانتقام من الشارد، وذلك خلاف ما جبل الله عليه نبيه، وماوصى به حبيبه". التوشية والتوفية: ١٢١، ١٢٢.

(٢) وهو ماالشترطه البلاغيون في الكناية عن موصوف من كون الصفات "مختصة بالمكني عنه لا تتعداه ليحصل الانتقال منها إليه" وهو ماعنيته بتعيين الموصوف. ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة: ٣١٤.

أ – **البدء بالأولى فالأولى**، حيث بُدئ في صفاته بدفع الضر: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾، ﴿ رَءُوفٌ ﴾، ثم ثنَّى بجلب المصلحة: ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ والاتصاف بهذه الصفات على هذا الوجه فيه علوٌّ لرتبته -ﷺ- إذ اتصف بما هو أكمل لخيرية أمته، وهذا علوٌّ في الإقبال عليه والثناء عليه ولا شك.

ب – البدء بالعموم ثم الخصوص من وجهين:

١- في الصفات ذاتها: حيث بدأ بعموم الرأفة والرحمة في وصفه بـ: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ ثم خصصها بـ: ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

٢- العموم والخصوص فيمن تقع عليه الصفات: فبدأ بالصفات التي تشمل أمته برّها وفاجرها، ثم ثنَّى بالصفات الخاصة بالمؤمنين منهم: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذا ولا شك إثبات للوصف على أعلى الرتب وأتمها.

ويلاحظ أن تناسق الصفات ورد بلا عطف، وهذا أنسب لكمال علوّ الرتبة، فليست الصفات مستلزمة في مقام واحد ومرة واحدة، بل هي متوافرة فيه -ﷺ- بما يتلاءم واختلاف الحال فيها.

أما تناسق الصفات في موضع سورة الأعراف فلها اعتباران آخران:

أ – التناسق بين الصفات بترتيبها؛ حيث دلّ على علو رتبته في صفاته في نفسه أولاً، ثم علوّها في شريعته -ﷺ-.

ب – تناسق الصفات في الاعتبار الواحد، ويتجلى ذلك في البدء بوصفه بصفة بالرسالة في صفات ذاته، قال -تعالى-: ﴿ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فبدأ بالرسالة؛ لأنها – كما تقدم – الوصف الأخص الأهم؛ فما بعدها كله تشريع والتشريع يلائمه وصف الرسالة، ثم ثنى بالنبوة؛ لما فيهامن دلالة التكريم والعلوّ، فهو رسول عالي الشأن قد نبا على من سواه من الأنبياء، فكيف بعامة الناس؟

ثم كانت آخر الصفات في ذاته: ﴿ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ حيث دلل على الكمال في الرسالة والنبوة بهذا الوصف "فجعل الأمية وصفًا ذاتيًا له، ليتم بها وصفه الذاتي وهو الرسالة ليظهر أنّ كماله النفساني كمال لدنّيٌّ إلهي، لا واسطة فيه للأسباب المتعارفة للكمالات، وبذلك كانت الأمية وصف

كمال فيه مع أنّها في غيره وصفُ نقصان... صارت أميته آية على كون ما حصل له إنما هو من فيوضات إلهية" [(١)].

وهذا التمام في صفات ذاته إنباء عن علوّ رتبته -ﷺ- ولا شك.

وكما تناسقت صفات ذاته ودلت على علو رتبته، كذلك تناسقت صفات شريعته وتضافرت إنباء عن علوّها وعلوّ شرعته على شرعة غيره لعلوّ شأنه -ﷺ- كما تلاءمت مع جانب الرحمة الذي هو مناط الإقبال -هنا- فتقدم جانب الأمر بالمعروف على النهي عن المنكر، وجانب حل الطيبات على تحريم الخبائث تأسيسًا لرحمة جديدة، ثم عقّب بوضع الإصر والأغلال التي كانت عليهم قبلًا، فجدد لهم رحمة وخفف عنهم عذابًا منقضًا؛ لذا سميت شريعته بالنور: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فقد أضاءت لهم جانب حياتهم المظلم.

وقد اقتضت خصوصية كل سورة اختلافًا في الصفات، فالحديث عن اليهود وأهل الكتاب في سورة الأعراف اقتضى التركيز فيها على الصفات التي عندهم؛ لذلك ذكر: ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

في حين ذكر: ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ في سورة التوبة؛ لأنّ المخاطبين عرب هو منهم؛ خؤولة وأصلًا، وتقدمت صفة الأميّة في سورة الأعراف على الرغم من بعدها عن الرحمة؛ لأن في ذلك تلازمًا مع ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ ﴾ فهو في كتبهم موصوف بالأمية.

وقد جاءت معاني الرحمة في سورة الأعراف مغايرة لما في سورة التوبة، ففي سورة الأعراف تلاءمت الرحمة مع حال المخاطبين من وجه ومع شرعهم من وجه آخر.

أما التناسب مع حالهم فذكر معه: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[الأعراف: ١٥٧]، فأحوالهم في السبت وعبادة العجل دالة على أنهم على منكر: ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ [الأعراف: ١٦٣] ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

(١) التحرير والتنوير: ٣١٤/٨.

أما التناسب مع شرعهم؛ فلأن فيه -ﷺ- رحمة تخالف الإصر والشدة التي كانت في شرعهم فوردت الرحمة بـ: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فجاءت الصفات بخلاف حالهم و شرعهم رحمة لهم .

أما في سورة التوبة فوردت الصفات مضادة لصفاتهم، وهذا متلائم مع السورة ومع التضاد في بدئها بالبراءة من خسيس الصفات وختمها بالعالي من صفاته -ﷺ- فحرصه عليهم-ﷺ- مضاد لإعراضهم فهو: ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ [التوبة: ٦١] ورحمته لهم مضادة لشدة مخالفتهم له واستهزائهم به، وهذا علوٌّ في وصفه يستلزم علوّ الإقبال عليه -ﷺ-.

ودل التركيب على علوّ الرتبة بأربعة أمور:

أ- دقة الكلمة بنية ومادة وأثرها في بيان علو رتبته في المواضع الثلاثة:

ففي موضع التوبة إيثار: (جاء) منبئ عن رتبته -ﷺ- من وجه الامتنان عليهم بتوصيل المنّة العالية لهم، فالأصل أنّه يُذهب إليه لعلوّ رتبته، فمجيئه -ﷺ- إلى مكانهم من غير أن ينتقلوا نعمة عالية... فالإقبال عليه جاء من هذا الإطار، أي: بتعظيم المنّ به وعلوّ رتبته.

كما أنّ اطراد ورود صفاته المبينة عن رتبته بصيغة المبالغة: (عزيز، حريص، رؤوف، رحيم) منبئ عن علوّ الرتبة باعتبار اكتمال الصفة وتمامها فيه، حيث اتصف بها -ﷺ- على الوجه الأكمل فصيغة المبالغة :(فعيل) فيها دلالة على الاستمرار والتكرار حتى يصير الوصف سجيةً وطبيعةً ملازمة للموصوف[1]، ووجه التكرار في هذه الصفات يكون بتكرار الخطأ منهم وتعدده، سواء من الجماعة أو من الشخص نفسه وهذا بيّن في أفعال المنافقين المنصوص عليها في السورة، فتكرر عفوه -ﷺ- وحرصه ورحمته معهم، ووجه الاستمرار أشبه بالثبات للوصف، لأنّه قد يتكرر الوصف لكنه ينقطع، فالاستمرار احتراز عن انقطاع التكرار وصفات الرسول لا تنقطع، وهذا أدلّ على كون الصفات فيه سجية فهو مستمر-ﷺ- في رحمته لهم مع إصرارهم على المخالفة، حتى حين تخلفوا عن الجهاد: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة: ٤٣]، وهذا علوٌّ في الرتبة أن يتصف بمجمل هذه الصفات من وجه، وعلى هذا الوجه من التمام من وجه آخر.

(١) ينظر: "صيغ المبالغة وطرائقها في القرآن الكريم دراسة إحصائية صرفية دلالية" كمال حسين صالح، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٥م: ٢١٣.

وهذا الإنباء عن الرتبة كان من بنيتها، فإذا يممت النظر إلى مادة الصفات ذاتها تراها تنبئ عن هذا العلو -أيضًا- معاضدة معناها بمبناها فوصفه بـ: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾[التوبة: ١٢٨] علوٌّ في رتبة اتصافه بإشفاقه على أمته؛ فالعزيز: هو الغالب الشديد[١] البالغ الشدة، فلم ترد: (يشق عليه) أو (يصعب على نفسه) وكونه يعزُّ عليه عنتهم بهذه الصورة الكاملة إنباء عن بلوغه الغاية في الشفقة، وما هذا إلا لعلوّ رتبته -ﷺ- في محاسن الأخلاق، وعاضدها معنى حريص؛ أي شديد الرغبة والحرص على إيمانكم وهدايتكم[٢].

ثم وصفه بـ: ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة: ١٢٨] قال ابن عباس -رضي الله عنهما- سماه الله -تعالى- باسمين من أسمائه[٣]، والرأفة: منزلة عالية في الحرص على دفع الضر عن المرؤوف به[٤] "والرحمة: رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم" [٥].

كما أنّه -ﷺ- ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾[التوبة: ١٢٨] بقراءة ضم الفاء[٦] وبفتحها علوّ إقبال، فالضم فيه علوّ رتبة باعتبار أنّه منهم وهم أكرم العرب، فتكريمه على أكرم العرب دلالة على علوّ رتبته علوًا متناهيًا.

وفي فتح الفاء دلالة أكثر صراحة على علوّ رتبته؛ فهو من النفاسة وبلوغ الغاية في علوّ الشأن والقدر[٧]، ففيها معنى خصوص الخصوص، وهذا -ولا شك- إقبال عليه بعلوّ رتبته -ﷺ-.

أما أثر الدقة في تخير اللفظ في موضع سورة يس في قوله: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ ﴾ [يس: ٣-٤] فتتجلى في تخير الصراط من دون الطريق أو الشريعة؛ لما في

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة:كتاب العين، باب العين وما بعدها في المضاعف والمطابق والأصم: ٢/١٢٣.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٠/٢٣٩.

(٣) ينظر: "شرح مشكل الآثار" أحمد بن محمد الطحاوي، ت: شعيب الأرنؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة، لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م؛ باب: بيانُ مُشكِل ما رُوِيَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسمائه: ٣/١٨٥.

(٤) ينظر: الكليات:فصل الراء: ٤٧٩.

(٥) المفردات في غريب القرآن: كتاب الراء: ١٩٧.

(٦) عن ابن محيصن: "من أنفسكم" بفتح الفاء من النفاسة أي: من أشرفكم، والجمهور بضمها صفة للرسول أي: من صميم العرب. ينظر: "إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر" شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي، ت: أنس مهرة ، ط١، دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٩هـ١٩٩٨م: ٣٠٨.

(٧) ينظر: لسان العرب: كتاب النون:٦/٤٥٠٣ .

الصراط من إيحاءات تدل على الإقبال عليه – ﷺ – بهذه الشريعة السمحة، فالصراط هو: الطريق السهل[1] وهو الطريق الرحب الواسع الممتد الذي لا يضيق عن أحد[2].

ويعضد الإقبال بالصراط وصفه بالمستقيم واختصاصه – ﷺ – بهذا من دون سواه، وهذه الخصوصية هي علوُّ الإقبال، كما يعلو الإقبال في موضع سورة يس بالمقابلة بين عظمته –ﷺ– وإعراضهم عنه، فالأصل أنّه إذا جاءهم رسول بهذه العظمة فهذا إنعام يستلزم الشكر، لكن أن تقابل بهذا العناد والإصرار على الكفر فهذا ثم بالغ لهم مقابل المبالغة في الثناء عليه –ﷺ–.

ب– التوكيد وأثره في بيان رتبته –ﷺ–:

ورد التوكيد في موضعي سورتي التوبة ويس؛ لورودهما في سياق مخالفة وإصرار على الكفر وقد بدئت آية التوبة بالتوكيد بـ: (قد) الدّالة على تحقق الأمر وتقدمتها: (لام) القسم وهذا علوٌّ في توكيد صفاته الدّالة على علو رتبته حيث لم يكن هناك إنكار لصفاته –ﷺ– فهذه صفات مشتهرة عنه.

وورود التوكيد –على الرغم من هذا الاشتهار للصفات– يمكن حمله على الإنكار باعتبار المخاطبين، حيث ورد النظم بـ: "**جاءكم**" من دون "جاء" لأنّ التولي حتى لو كان مفترضًا إلا أنّه محقق موجود في السياق القبلي.

ويمكن حمله على أهمية الخبر في ذاته أو إنزالهم منزلة المنكر، كما ذكر ابن عاشور أنه لقصد الاهتمام بهذه الجملة لأهمية غرضها؛ حيث إنّها وردت للتنويه بشأنه –ﷺ– كما أنّه قد يكون تعريضًا بهم فأنزلهم منزلة المنكر حيث عرفوا هذا الوصف عنه وخالفوه وهذا التعريض فيه إعلاء لشأنه –ﷺ–[3]؛ لذا ورد الشرط بعدها بـ: (إنْ) ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ١٢٩]؛ لما في ذلك من دلالة: (إنْ) على استبعاد تكذيبهم، فهذا الشرط يتلاءم مع علوّ مكانته، فبعد أن بيّن –تعالى– هذه المكانة فالتولي يكون مقدرًا ومشكوكًا فيه، لكن قبل بيان منزلته كان التولي مؤكدًا، كما ورد في السورة، فلا يتولى بعد ذكر صفاته إلا سقيم الفطرة الذي جهل قدره – ﷺ – وهذا كله بيان لعلوّ رتبته– ﷺ –.

---

(١) ينظر: الفروق اللغوية: الفرق بين الصراط والطريق والسبيل: ٣٣٤.

(٢) ينظر: لسان العرب: كتاب السين: ٣/١٩٩٣.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٠/٢٣٧.

وتنوع التوكيد في موضع سورة يس بين بدءٍ بالقسم: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾[يس: ٢] واقتران جواب القسم بـ:(اللام) مؤكدٌ على علو الرتبة، وزاد العلوَّ التوكيد بـ:(إن)﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ ﴾ [يس: ٣] وتكاثف التوكيد هنا منبئ عن عناية بالمخاطب ومبين لرتبته -وما هذا إلا لعلو شأنه -ﷺ- لذا علا الإقبال عليه.

جـ- التقييد وأثره في بيان رتبته -ﷺ-:

قُيدت رسالته -ﷺ- في موضع سورة يس بالجار والمجرور: ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ ﴾[يس: ٤] ثم بالوصف ثانياً: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ ﴾ [يس: ٥]، وتقييد رسالته بالاستعلاء على الصراط المستقيم، وبوصفه بالتنزيل من رب جمع بين العزة والرحمة نعمة عالية الشأن اختص بها من هو أعلى ممن سواه من الخلق، وهذا أدخل في بيان علوّ رتبته.

د- تنوع التعريف وأثره في بيان رتبته -ﷺ-:

تنوع التعريف به -ﷺ- في موضع سورة الأعراف تنوعًا هو أدخل في علوّ الإقبال عليه -ﷺ- بين:(ال) المعرفة: ﴿ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] الدالة على كمال الأوصاف فيه، والتعريف باسم الموصول: (الذي) ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ ﴾[الأعراف: ١٥٧] الدال على اشتهاره بهذا الوصف حتى صار علمًا له، ثم عُرّف ببيان حاله معهم: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وتضافرُ أنواع التعريف دالٌ على كمال الأوصاف له، وعلو رتبته فيها.

الوجه الثاني في بيان رتبة النبي – ﷺ–

بناء السورة على علوّ رتبته وبيان صفاته وما يستلزمها من علوّ الإقبال عليه

أما الوجه الثاني في بيان رتبته –ﷺ– ببناء سورة كاملة على علوّ رتبته، وما يلزمها من علوّ الإقبال، فيتجلى في سورة الأحزاب والفتح والشرح والكوثر.

وقد اشترك الإقبال على رسول الله –ﷺ– في سورتي الأحزاب والفتح في سمت عام واحد هو تكريمه –ﷺ– ببيان رتبته وخصوصية هذه الرتبة، ولكل من الموضعين اعتبارٌ في التكريم يختلف عن الآخر، وتبعًا لذلك اختلفت الخصوصية في الرتبة.

فالتكريم ببيان رتبته – ﷺ – في سورة الأحزاب سيق لدفع الأذى عنه –ﷺ– وتشنيع عقاب من يؤذيه؛ لأنّ له هذه الرتبة العالية. لذلك يعقّب النظم بعد كل خصوصية بالنهي عن إيذائه كما في قوله –تعالى–: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٧] بعد تفضيله بالصلاة والسلام عليه، وبقوله :﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾[الأحزاب: ٦٩] في النهي عن إيذائه كما آذى بنو إسرائيل موسى – ﷺ – ثم كان الختام النهائي في حمل الأمانة، قال–تعالى–: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وأعظم الأمانة حسن التعامل معه.

أما موضع سورة الفتح فالتكريم فيه كان من جانب المنّ والعطايا؛ ولذلك افتتحت بالفتح: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ [الفتح: ١] وختمت به وبإظهار الدين: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾[الفتح: ٢٨–٢٩] فذكر صفاته وصفات صحابته الكرام وما بينهما يتعلق بالنصر والتأييد وزيادة تطمينه.

وكان لكل سورة معاقد رئيسة في خصوصيته ورفعته -ﷺ- ترتب عليها علوّ رتبته.

فسورة الأحزاب دارت معاقدها على بيان مرتبته العالية، التي ترتبت عليها خصوصيته في التعامل والتشريع، الذي ترتب عليه -أيضًا- تشنيع إيذائه في أي أمر؛ إعلاءً لهذه الخصوصيات.

أما سورة الفتح فقد دارت معاقدها على إظهار رتبته من جانب المنّ والعطايا له -ﷺ-.

وهناك ثلاثة معاقد رئيسة من سورة الأحزاب تدلّ على علوّ:

المعقد الأول: بيان رتبة ورفعة درجته على الأنبياء بتقديمه عليهم، قال -تعالى-:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ [التوبة: ٧] يلاحظ أنّ الإقبال في سورة الأحزاب جاء من جانب التكريم ورفعة الشأن، وهذا يستلزم التفضيل على الأنبياء، وأول صورة من صور التفضيل متعلقة بالتقديم هنا، وهذا وجه دخولها في الإقبال وهذا التقديم من خصوصياته -ﷺ- الذي تعددت وجوهه في السورة وكان أوله تقديمه في الذكر، وهو نابع عن رفعته وعلوّ شأنه ومن هنا تأتّى الإقبال عليه.

ومغرس الإقبال عليه -ﷺ- والموطئ لتقديمه على سائر الأنبياء قوله -تعالى-: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [التوبة: ٦]؛ حيث إنّ الأنبياء يدخلون في جملة المؤمنين الذين أمروا بأن يكون النبي أولى بهم من أنفسهم؛ لذلك أخذ منهم العهد لنصرته والإيمان به، فدخول الأنبياء في زمرة المؤمنين يمهد تمهيدًا لطيفًا لتقديم النبي -ﷺ- عليهم.

وقد دلّ التركيب على علوّ الرتبة بمعلمين:

المعلم الأول: بلاغة الخصوص بعد العموم:

يتجلى الإقبال على النبي -ﷺ- بخصوصه من العموم بأمور:

أولها: تخير: (ٱلنَّبِيِّـۧنَ) ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ ﴾[الأحزاب: ٧] ففي النبوة دلالة عموم هي أدخل في زيادة التكريم في الخاص بعده؛ إذ هي أعم من الرسالة وأشمل، فكأنّه أراد أن يخصصه -ﷺ- بعلوّ الرتبة من استغراق النبوة التي خُصّص منها أولو العزم، ثم اختصه منهم، وهذا أعلى وأرفع إقبالًا عليه ببيان منزلته.

كما أنّ السياق في رفعة الشأن والتكريم، والنُّبوة -هنا- ألصق بالرفعة؛ فمادتها مأخوذة من نبا، أي: ارتفع وعلا[1] فالسياق استلزم المادة في الدّلالة على العلوّ والاستغراق معًا - كما تقدم-.

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة:كتاب النون، باب النون والباء وما يثلثهما: ٢/٥٣٩.

ثانيها: تقدم ضميره -ﷺ- ﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧] وهذا خصوص حيث تقدم العام (ٱلنَّبِيِّـۧنَ): ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٧] ثم جعل ضميره خصوصًا ﴿ وَمِنكَ ﴾ وقدمه على غيره من أولي العزم، على تقدم رسالتهم زمناً على رسالة النبي -ﷺ- ولكن لكونه أخصهم وأرفعهم شأناً قدمه -ﷺ-.

ثالثها: العطف: وكل المعطوف في الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧] معطوف على أخذ الميثاق، فكأن لكل من هؤلاء ميثاقه الخاص، فها هنا ذكرهم على وجه الخصوص لخصوص الميثاق لكل منهم، وكونه يختص منهم فهذا دليل على خصوصية مكانته وميثاقه خصوصيةً دالّة على علوّ رتبته -ﷺ-.

المعلم الثاني: خطابه بضميره من دون علمه كما ورد مع الأنبياء، وأثر ذلك في علق الإقبال عليه:

خوطب -ﷺ- بضمير المخاطب للمفرد: (الكاف) ولم يذكر بعلمه كما ذكر بقية أولي العزم من الأنبياء نوح، إبراهيم، موسى، عيسى -عليهم السلام-: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾[الأحزاب: ٧] وهذه حظوة له -ﷺ- لما في الخطاب من دلالة قرب أعلى من العلم، ومن عناية واهتمامه متولدة من المباشرة له بالخطاب -ﷺ-.

المعقد الثاني: الترقي في المدح والثناء لسيدنا محمد -ﷺ-:

قام المعقد الأول في بيان رتبته -ﷺ- على تقديمه على سائر الأنبياء، أما المعقد الثاني فيبين تفضيله، وعلوّ رتبته بوجه آخر من وجوه الإقبال عليه -ﷺ- وهو الترقي في الثناء والمدح ترقيًا يبيّن منزلته -ﷺ- قال -تعالى-: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٣٩] فوصف الأنبياء بهذا التبليغ هو ثناء ومدح لهم أن تغلب عليهم هذه الصفة من دون غيرها، ثم ترقى الثناء: ﴿ وَيَخْشَوْنَهُۥ ﴾[الأحزاب: ٣٩] فهم لا يبلّغون فقط بل يبلّغون بخشية، وهذا وجه أعلى من مجرد التبليغ فقط، ثم ترقى في الثناء بـ: ﴿ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾[الأحزاب: ٣٩]

فكونهم يخشون الله وحده من دون سواه هذا أعلى من الخشية المجردة فقط، ثم يترقى بأن يختصه -ﷺ- من بينهم ويصفه بخاتمهم: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٤٠] فهذا أتم وأعلى.

دلالة القران وقد تولدت هذه الخصوصية من السياق السابق فله أيضا -ﷺ- حكمٌ يجب أن يطاع، وأمرٌ هو من أمر الله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦] ومن ثم أدخل اسم الجلالة في البين: ﴿ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا ﴾؛ إذ إن أصل الكلام : (إذا قضى رسول الله) فالحكم كان من الرسول -ﷺ- وليس من الله- ﷻ- ودلّ التركيب على هذا العلوّ في الإقبال في خمسة معالم:

المعلم الأول: الترقي من العموم إلى الخصوص فـ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٣٩] أول جانب في الرتبة فهو مدح للمرسلين بتأدية الرسالة وهو عام، ثم ذكر من التبليغ -زيادة في المدح- أنهم يبلغون الرسالة بخشية، والخشية فيها تعظيم للمخشي منه[1]، وهذه أخص وأعلى من الرتبة الأولى؛ لأنّ فيها دلالة على تأدية الرسالة على أكمل وجه، ثم نفى-ثالثًا- أيّ لا مخشـــــي إلا الله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾[الأحزاب: ٣٩] وأتى بها على القصر: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾[الأحزاب: ٣٩] ثم أدخله فيهم بصريح الوصف: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ وخصه ليدخل في كل هذا الترقي، ثم رقّاه عليهم بأن اختصه منهم بوصفه خاتم: ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ وما يستلزم هذا اللفظ من خصوصية ورفعة -كما سنرى- فكل ذلك إقبال عليه بعلوّ رتبته.

المعلم الثاني: القصر بأسلوب العطف: (لكن) ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[الأحزاب: ٤٠].

وبناء القصر على طريق العطف: بـ(لكن) يستلزم عدم مشابهة النبي لهم مشابهة كاملة، وهذا يمهد للرفعة والخصوصية؛ إذ إنّ في القصر نفي المشابهة العامة عنه -ﷺ- وإثبات الخصوصية

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الخاء: ١٥٥.

كان كل أمره مخصوص بالتكريم في قوله: ﴿ رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ فالمنفي أن يشبههم من أمرهم والمستدرك هو الخصوص، وآثر: (لكن) على غيرها لإرادة قصر القلب؛ لدفع توهم أن يكون تبنيه لزيد مانعًا من زواجه من زينب – رضي الله عنها –.

المعلم الثالث: تخير: (خاتم) من دون غيرها، وقد قرئت بفتح التاء (خاتَم) وبكسره (خاتِم)[1] ولكل من الفتح والكسر إيحاءات ودلالات تدل على علوّ الإقبال عليه -ﷺ- بهذا الوصف، فبعد أن اشترك معهم في فضل تبليغ الرسالات على أكمل وجه علت رتبته وترقى الثناء عليه فوصف بـ: ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ فالختم ينبئ عن إتمام الشيء، وهو آخر ما يُفعل للحفظ[2]. كما يدل على الاستيثاق من الشيء[3]، وكونه – ﷺ – ختمًا للنبوة دليل علوّ رتبته، فهو تمامها وأشرفها.

وفي بنائه للفاعل -بكسر التاء: (خاتِم) على قراءة الجمهور- رفعة له بأن أسند فعل الحدث له-ﷺ- وهذا إقبال عليه حيث جعل هو من أتم النبوة واستوثق من حفظها، كما أنّ في جعل الختم صفة له-على قراءة من فتح التاء: (خاتَم)- دليلَ علوّ؛ فالختام في كل شيء: أبهجه وأعلاه وأشرفه، ومنه قوله – تعالى –: ﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦ ﴾ [المطففين: ٢٦].

ويعضد هذا الإقبال عليه بهذا الوصف إضافته إلى النبيين: ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ لما في النُّبوة من دلالة الرفعة والشرف، والنبي -ﷺ- ختام هذا الزمن فهو أعلى أهل الرفعة، وذكر البقاعي أنّ لاسمه: (محمد) المصرح به في الآية مدخلًا في ذلك، فاختصاصه بالأحمدية والمحمدية علمًا وصفةً برهان جليٌّ على ختمه؛ إذ الحمد مقرون بانقضاء الأمور مشروع عنده ﴿ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠] ومدار الحمد على بلوغ الغاية وانقضاء النهاية[4]. وهذا أرقى الإقبال بالثناء والمدح.

المعلم الرابع: الفاصلة في الآية: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٤٠ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] فجعل لختم الرسالة فيها ﴿ وَكَانَ

---

(١) قرأ بالفتح عاصم، والباقون بالكسر. ينظر: "القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدّرة": ٤٢٣.

(٢) ينظر: الفروق اللغوية-الفرق بين الرسم والختم: ٨٥.

(٣) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب، مادة ختم: ١٤٩.

(٤) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٦/١١٤.

ﭐللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾ دليل إقبال على النبي -ﷺ- بعلوّ رتبته فقبها دلالة أنّه لما علم الله-ﷻ- ما اختصت به كل نفس علم خصوصيات النبي -ﷺ- فجعل الرسالة فيه؛ لأنّه أحسنهم وأتمهم وأعلاهم رتبة، فحوى بذلك الكمال في التبليغ المتقدم الثناء به على الرسل وزاد عليه، فكأن الفاصلة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾ تعليل لموضع الثناء والمدح العام للمرسلين، حيث مدحهم بأنهم بلّغوا بخشية خالصة لله، ثم جعل أعلى هذا العلو والكمال في خاتمهم محمد -ﷺ-.

المعلم الخامس: الإطلاق في الوصف الوارد في السياق البعدي؛ إذ وصف -ﷺ- بقوله-تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ ﴾[الأحزاب: ٤٥].

فكل الصفات اطرد سمت بنائها على الإطلاق من القيود : قيد الخطاب، أو الزمن، أو المكان، وهذا دليل عموم وشمول لها سواء كانت شهادة، أو بشارة، أو نذارة، أو دعوة، أو نورًا للأمم، في حين كانت عند الأنبياء محصورة مقيدة بأقوامهم، فالعموم في موضع سورة الأحزاب فيه خصوصية لرفعة شأنه -ﷺ- وهذا الإطلاق زيادة في الترقي في الثناء عليه -ﷺ- وكأنّ هذا الإطلاق في صفات الخيرية شرح لوجه كونه -ﷺ- خاتم النبيين؛ لأنّه أرسل بهذه الصفات: ﴿ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦] عموماً، ثم خصوصاً للمؤمنين: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٧] فهذه الصفات بإطلاقها وعمومها هي إتمام للخير واستيثاق منه، وهي أعلى وأشرف الصفات، وقد اختص بها-ﷺ- من دون غيره، وهذا يتلاءم مع تمام الختام وشرفه.

المعقد الثالث: خصوصيته -ﷺ- بأحوال لا تكون لغيره تكريمًا وتشريفًا له -ﷺ-.

اختص - ﷺ - بخصوصيات كثر يُعدُّ أعلاها اختصاصه بالصلاة عليه، في حين ورد السلام فقط مع غيره من الأنبياء ومن أولي العزم، قال -تعالى- : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٦] وهذا المعقد هو أعلى المعاقد خصوصية، وقد ورد متأخرًا عن سابقيه وهو أعلاها إقبالًا و رتبة؛ فأعلى التكريم له هو أن يصلي الله عليه ويأمر بالصلاة عليه ويجعلها خاصة له من دون سواه- ﷺ -.

ومعرس الإقبال في هذا المعقد من قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾[الأحزاب: ٥٥] المتقدم على موضع المعقد مباشرة، فالشاهد وما يستلزمه من تحقق العلم والإحاطة بالمشهود عليه [1] هي التي أهلت له - ﷺ- دوام الصلاة والسلام عليه على وجه التحديد من الله - ﷻ - أي أهلت له هذه الخصوصية.

ويؤكد هذه الخصوصية السياق الوارد فيه هذا الموضع من سياق إيذاء سواء كان قبلًا ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٨] أو بعديًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾[الأحزاب:٥٧] فالإيغال في تقبيح هذا الإيذاء - بأن جعل إيذاءه إيذاءً لله- ﷻ- تكريم له وعلوٌّ لرتبته؛ حيث جُعل أذاه من أذى الله [2].

كما أنّ العقاب المترتب على ذلك -من لعن في الدنيا والآخرة وعذاب مهين- دليلٌ آخر على علوّ رتبته -ﷺ-لذا عظم عقاب من يؤذيه، وكل ذلك مندرج في سياق التكريم العام له -ﷺ- ورفعة منزلته عند الله فأذاه عند الله عظيمٌ، والعقاب عليه شديد.

وقد دلّ التركيب على علوّ الرتبة في هذا المعقد في أربعة معالم كما يلي:

المعلم الأول: التناسب بين أسلوبي الخبر والإنشاء:

وطّأ الخبر في قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ ﴾ للإنشاء في قوله-تعالى-﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾[الأحزاب: ٥٦] فألزم به المخاطبين، فمهد للأمر بالخبر مقدمًا له؛ لأنّه أهم في بيان علوّ الإقبال، وإن كان الغرض من الكلام ينصرف-انتهاء-إلى الأمر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٥٦].

ووجه المناسبة أن الثاني مستلزم من الأول فما دام فعلاً يفعله الله وملائكة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٦] إذن فيلزم به باقي المؤمنين، فبناء التناسب على

(١) ينظر: الفروق اللغوية: الفرق بين الشاهد والحاضر: ١٩٠.

(٢) ينظر: "الصارم المسلول على شاتم الرسول" محمد بن عبدالحليم بن تيمية، ت: محمد عبدالله عمر الحلواني، محمد كبير شودري، ط١، دار ابن حزم بيروت، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م: ١/ ٤٥٠.

الاستلزام بين جملة الخبر والإنشاء جعل الخبر كأنّه إغراء وحث، ثم إلزام باتباع الأمر في الإنشاء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فكأنّ جملة الإنشاء تصوير لقدوة وأسوة يجب أن تتخذ من جملة الخبر.

المعلم الثاني: بناء جملة الخبر وبناء جملة الإنشاء:

بُني معقد الإقبال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٦] أولاً على مسند إليه: (الله) و(ملائكته): ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ ﴾ خبره جملة فعلية: ﴿ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ وكان من الممكن أن تكون جملة فعلية ابتداءً يصلي الله وملائكته على النبي ... لكن ورودها على هذا البناء يعلي من قدر الصلاة عليه؛ لأنّها بنيت -أولاً- على جملة اسمية مؤكدة، ثم جاء خبرها جملة فعلية كي تجمع بين دلالتي الاسمية والفعلية، فالجملة الاسمية تدل على ثبوت الخبر، والفعلية على تجدده، فهذا الخبر ثابت له- ﷺ - أولاً- ومتجدد له على مر الزمن -ثانيا-... هذا من وجه.

ومن وجه آخر كي يكون علمُ الذات: (الله) بكل إيحاءاته ومستلزماته أول ما يقع على الذهن وفي هذا إعلاء للإقبال من وجهين:

أ - تربيةُ المهابة التي تتضمن زيادة حض على التكريم.

ب -إعلاء التكريم؛ لأنّ علم الذات: (الله) شامل لكل صفات الجمال والجلال.

ومن ثم كانت جملة الخبر بهذا البناء موطئة وملزمة للاتباع في جملة الإنشاء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ فما دام أمرًا وصف به نفسه وملائكته فحقيق على المخاطبين اتّباعه، وكل ذلك علوٌّ في الإقبال عليه -ﷺ- بهذه الخصوصية.

المعلم الثالث: الحذف وأثره في بيان علو رتبته – ﷺ -:

طُوي السلام من الخبر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ فلم يرد النظم بـ: (يصلون ويسلمون) قال البقاعي: "ولما كانت ثمرة المراد بهذا الإعلام التأسي، علم بآخر الكلام أن المعنى:

ويسلمون عليه؛ لأنّ ذلك من تمام الوصلة التي يدور عليها معنى الصلاة، فأنتج ذلك قطعًا تفسير المراد بـ(يصلون)" [1].

وهذا أدلّ على علوّ الإقبال عليه بإعلاء رتبته، فصلاة الله عليه تستلزم ما هو أدنى منها – السلام – فكأن ترك ذكره بدهي لا يحتاج إلى نص عليه؛ لأنّ صاحبه يستحق ما هو أعلى؛ ولذا نبه بالأعلى على الأقل، على حين أنّه ذكره في الأمر للمؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ زيادة تأكيد، قال البقاعي: "ولذلك فسر البيضاوي "يصلون" بقوله: يعتنون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه، و"سلموا" بقوله: قولوا السلام عليك، أوانقادوا لأوامره، فلما تأخيا في هذا المعنى، وكان هو المراد أكد بلفظ السلام تحصيلاً للتمام المقصود بدلالته على الانقياد، فهو مؤكد يصلوا بمعناه ويسلموا بلفظه" [2].

كما أنّ هناك ملمحًا آخر في الآية، حيث قال –تعالى–: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ ﴾ بفعل واحد لفاعلين، فالله يصلي عليه والملائكة –أيضًا– يصلون، والحذف هنا لدلالة الثاني على الأول وما بين الجملتين الأولى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ ﴾ والثانية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ ﴾ من إغراء يتلاءم مع الحذف هنا؛ لأنّ ضم الملائكة إلى الله في فعل واحد فيه حث للمؤمنين لكي ينضموا إلى هذا الفعل، وفي ذلك تقوية لدرجة الإقبال عليه – ﷺ –.

وزيادة الصلاة هنا صريحة في علوّ رتبته –ﷺ– على سائر أولي العزم؛ حيث ورد السلام–فقط– معهم في مواضع سورة الصافات: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الصافات: ١٢٠] وعيسى في سورة مريم: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٣].

ويحيى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١٥].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٣٣/٦.

(٢) نفسه.

المعلم الرابع: التوكيد وأثره في بيان علوّ الرتبة:

بدأ التوكيد بـ:(إنّ) وهو توكيد مبني عن عظمة النعمة وإقرارها في نفس المخاطب- كما تقدم-[1]﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾وختم بالتوكيد بالمصدر: ﴿ تَسۡلِيمًا ﴾.

والتوكيد بالمصدر طريق لتأكيد الخبر ووقوعه مطلقًا؛ مبالغة في تحقق وقوعه على أي كيفية[2] فمن ثم هو دالّ على الاستغراق لكل أنواع السلام، وهذا يفيد زيادة التكريم والتكرار والتكثر منه فليس هو سلام واحد، وهذا يتلاءم مع تنكير المصدر:(تسليما)، سواء أريد به النوعية أو التعظيم، فالنوعية في التنكير تؤدي إلى التعظيم؛ لأنّ السلام إذا كان معه -ﷺ- غير الذي مع غيره من الناس وجوبًا وشمولًا لحياته وبعد مماته، كل هذا يؤكد خصوصيته الدّالة على علو رتبته.

كما أنّ نفي توهم المجاز[3] يدل على علوّ الإقبال؛ لأنّ السلام يقتضي الحضور والرسول-ﷺ- اختص بأنّه حاضر ولو كان ميتًا، فهناك ملك يبلغه السلام، كما ورد في الحديث الصحيح.[4] فالتسليم عليه حقيقة؛ لأنّه ليس كالتسليم على غيره، وكل هذه الدلالات للمصدر هي أدخل في علوّ الإقبال، وبيان علوّ الرتبة.

وكل ذلك من علوّ خصوصيته، وعلوّ الإقبال عليه بهذه الخصوصية في هذه السورة.

وإذا كان الإقبال في سورة الأحزاب مبنيًا على التكريم واختصاصه بخصوصيات تجعله مقدماً على من سواه من الخاصة والعامة فإن هناك مواضع أخر قدّم -ﷺ- فيها بتمحض جانب الإنعام عليه من دون مقارنة في هذا الإنعام بينه وبين غيره.

وتتجلى خصوصية الإقبال عليه بالإنعام في سورة الفتح والشرح والكوثر على اختلاف وجه النعمة بينها، فالنعمة في سورة الفتح متصلة بالتأييد والنصر، أما في سورة الشرح فهي نعمة متصلة بتأنيس قلبه – ﷺ- وفي سورة الكوثر كانت بجزيل العطاء بالمقابلة بين أعلى العطاء الذي أوتيه – ﷺ- ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ ﴾[الكوثر: ١] وأدنى مرتبة للتحقير لشانئه؛

(١) ينظر البحث:٢٣٩.

(٢) ينظر: اعتراضات الشيخ محمد الطاهر بن عاشور البلاغية في التحرير والتنوير: عرض وتأصيل ودراسة (علم المعاني) علي عبد الحميد عيسى، أطروحة دكتوراه، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية بأسيوط، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م: ٤٦٦.

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٦/١٣٢، ١٣٣.

(٤) "وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم" شعب الإيمان للبيهقي، ت: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٤١٠هـ باب: فضل الحج والعمرة، رقم الحديث ٤١٦٢: ٣/٤٩١ .

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾ [الكوثر: ٣] سواء كان هذا الشانئ منافقًا صريح النفاق، كما نصت سورة الماعون التي تقدمت على سورة: (الكوثر)، أو كافرًا صريح الكفر كما نصت سورة: (الكافرون) التي عقبت سورة الكوثر.

فكان السمت الرئيس للإقبال في سورة: (الأحزاب) التقديم، وذكر الخاص بعد العام؛ لأنه روعي فيه خصوصية رتبته – ﷺ – مقابلاً لغيره من البشر، فالتقديم يستلزم العناية والاهتمام ومن ثم التكريم، وذكر الخاص بعد العام فيه دليل على أن هناك عمومًا المختص هو منه، وهذا دليل علوّ رتبته.

أما في سورة الفتح والشرح والكوثر فقد غلب إثبات النعمة لذاتها فوردت مؤكدة:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾ [الفتح: ١]﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ ﴾ [الكوثر: ١] ومعظمة ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾ [الشرح: ٤] وليست في مقابلة غيرها، بل لتعظيم النعمة وإثباتها لذاتها.

ومعاقد الإقبال عليه –ﷺ– في سورة الفتح ثلاثة مواضع، ومغرسها واحد هو توهم عدم نصرته –ﷺ– والتولي عنه ممن تقدم ذكرهم في سورة محمد: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد: ٣٨] فورد إقبال الله – ﷻ – عليه في سورة الفتح بتأييده ونصرته بعد التخلي عنه – ﷺ –.

فكان المعقد الأول تمام المنّ عليه بالفتح والمغفرة: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ ﴾[الفتح: ١-٢].

وقد دل التركيب على علوّ رتبته بهذه المنّة والعطاء في ثلاثة معالم:

المعلم الأول: التوكيد وأثره في بيان علو رتبته – ﷺ –:

أكد هذا التأييد بـ: (إنّ) تأكيدًا للنعمة في نفس المخاطب وتعظيمًا لها وتحقيقًا لوقوعها في نفسه– ﷺ– وزاده فخامة وعظمة إسناد التوكيد إلى: (نا) الدالة على العظمة: (إنّا)، كما ورد التوكيد بالمصدر الموصوف: (فتحاً مبيناً) و فيه إعلاء لشأن النعمة؛ لما في المصدر من دلالة الاستغراق الذي يفيد تعظيم هذا الفتح وزيادة التكريم به، وهذا التعظيم المتولد من المصدر يتلاءم مع حال المخاطبين ونظرتهم إلى صلح الحديبية، حيث عارضه كثير وكان فيه الخير العظيم[1]، فكان التأكيد بالمصدر أدخل في الإقبال به.

---

(١) سيرة ابن هشام: عبد الملك بن هشام، ط من دون، مصطفى السقا وآخرون، تراث الإسلام، القاهرة: ٢/ ٣١٩.

المعلم الثاني: التقييد وأثره في بيان علوّ رتبة النبي - ﷺ -:

قيد نعمة الفتح بـ: (لك) من دون: (عليك) وفي هذا دلالة اختصاصه بالنعمة -ﷺ- ولم يرد مثل هذا النظم في القرآن إلا معه، فلم يَقيد الفتح بـ:(لك) إلا تكريماً له -ﷺ- فكأنّ هذا الفتحَ إكرامٌ لذاته -ﷺ- ويلاحظ هذا بمقارنة: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾[الفتح: ١] بقوله -تعالى-: ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الأعراف: ٩٦] فعلى الرغم من اتفاقهما في الإنعام إلا أنّه اختلفت التعدية تبعًا لاختلاف المخاطب واختلاف رتبته، فعدى بـ: (لك) معه -ﷺ- وبـ:(عليهم) مع غيره، فلعلوّ رتبة النبي -ﷺ- على غيره سوغت: (لك) معه و:(عليهم) مع أهل الكتاب، ومن ثم أتبعه بقوله: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ﴾[الفتح: ٢] ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ [الفتح: ٢] في حين أتبعهم بقوله: ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٩٦ ﴾[الأعراف: ٩٦].

كما أنّ في التعدية بـ: (لك) دلالة أخرى، هي تمحض الأمر للإنعام من دون ابتلاء أو اختبار؛ لأنّ هذا من النعمة، والنعمة داخلة في إطار الابتلاء:﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۝٣٥ ﴾[الأنبياء: ٣٥]، ولكن لما كان المخاطب على هذه الرتبة وفي حال علوّ الإقبال عليه محضها له، فلم تكن من الفتنة في شيء، ومن ثم أتبتها بما يدل على هذا الأمر الأخروي الذي يتصل بغفران الذنب مطلقًا وتمام النعمة، وهذا يستلزم: (لك) من دون: (عليك).

وفي تقييد الفتح بالوصف: ﴿ مُّبِينًا ﴾ إعلاء من الرتبة في الإقبال؛ إذ فيه دلالة على أنّ ما اختص به من الفتح كان بيّن الإنعام، وهذا يعاضد التمحض في: (لك).

ويعضد هذا العلو في الإقبال عليه إسناد هذه النعم لـ: (نا) العظمة ﴿ إِنَّا ﴾﴿ فَتَحْنَا ﴾ وعظمة المنعم -ﷻ- دلالة على عظمة النعمة وعظمة المُنعَم عليه بها -ولا شك-.

المعلم الثالث: دقة الكلمة وأثرها في بيان علوّ رتبة المقبل عليه:

تخيرت: (فتحنا) من دون غيرها كـ:(نصرنا) أو: (أدخلناك مكة) في بيان نعمة التأييد له -ﷺ- ونصرته ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾ [الفتح: ١]؛ وذلك لأنّ الفتح يدل على الفصل بين شيئين ليظهر ما وراءهما، ففيه معنى الكشف[1]. وهذا ملائم لخصوصيته -ﷺ- وعلوّ رتبته من وجه

---

(١) ينظر: الفروق اللغوية: الفرق بين الفصل والفتح: ١٦٩.

ظهور الإنعام في الفتح وتمحضه وكشفه، ومن ذلك سميت الأمطار فتوحاً[1] لظهور الإنعام وتمحضه فيها. بخلاف النصر الذي يحوي في رحمه دلالة المقاتلة، ثم الانتصار، ففيه إشارة إلى مسهم القرح كما مس عدوهم، لكنّ الفتح ممحض في الإنعام.

كما أنّ في الفتح معنى إزالة الإغلاق والإشكال[2] وهذا تمام للنعمة بأن يزول أي إغلاق على الرسول -ﷺ- حسيًّا كإغلاق مكة عليه، أو معنويًّا كإغلاق الهمّ والغمّ، فالفتح شامل للجانبين معًا.

كما أنّ فيه دلالة التوسيع[3] عليه -ﷺ- فهو إنعام واسع بكل نواحيه، وهذا من تمام الإنعام وعلوّ الإقبال عليه -ﷺ-.

المعقد الثاني: تعدد صفاته -ﷺ- وأثرها في علوّ رتبة الإقبال عليه على تلك إقبالاً عليه:

تعددت صفاته المقبَل بها عليه -ﷺ- بين نبوة وشهادة وتبشير وإنذار: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الفتح: ٨] وقد ترتب عليها بيان علوّ مرتبته، فذكر التعزيز والتوقير مشتجراً مع ما يجب لله من تسبيح: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفتح: ٩] ثم أعلى في الرتبة فجعل مبايعته مبايعة لله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠].

ومغرسه – كما تقدم – نابع من التأييد والنصرة في السورة، حيث جعلت هذه الصفات أقرب إلى العلة في علوّ نصرته -ﷺ- سواء كانت غائية أوتعليلية.

وقد دل التركيب على علوّ الرتبة في هذا المعقد في أربعة معالم تتجلى فيما يلي:

المعلم الأول: اشتجار الضمائر في نصرته -ﷺ- ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾[الفتح: ٩] فقد اشتجر ضميره -ﷺ- بالضمير العائد على الذات العلية: ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ وهذا الاشتجار علوّ لشأنه ورفعة رتبته -ﷺ- فعطفُ ضميره على اسم الذات العلية تشريف له بشرف من عطف عليه.

---

(١) السابق: ١٦٩.

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب: ٣٧٢.

(٣) نفسه.

ومن ثم فهو علوٌ في الإقبال؛ إذ إنّ ذكر منزلته بعد منزلة الله – ﷻ – مع العطف بالواو فيه دلالة على اشتراك الحقين والمنزلتين، وأنّهما لا يتأتى أحدهما دون الآخر، فهذا التلازم بينهما يعلي من مكانته –ﷺ– فهي بعد منزلة الله – ﷻ – وحقه في العبادة.

وما يترتب على المنزلتين –معًا– من جزاء سابق، وإقبال على المخاطبين.

المعلم الثاني : الترقي في بيان رتبته – ﷺ– :

ويتمثل في الترقي من النصرة: ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾، إلى توقيره :﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾، إلى قرنها بتسبيح الله – ﷻ– ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ فبدأ بالتأييد بالنصرة وما فيها من فداء له بالروح، ثم ترقى بها إلى التوقير، فهي نصرة نابعة من احترام ومحبة ومودة وليست إجبارًا ورغمًا عنهم. ثم جعلها مقترنة برضى الله وحقه. وكل ذلك ترقٍّ في الدلالة على سمو رفعته –ﷺ– وعلوٌ في الإقبال عليه ولا شك.

المعلم الثالث: التعريف وأثره في بيان رتبة المقبل عليه:

عرّف الذين يبايعونه –وهو من مستلزمات وصف الرسالة المتقدم – باسم الموصول :(الذين) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ وهذا التعريف فيه تنويه بشأنهم ودلالة على معرفتهم بشرف هذه البيعة، حيث إن أصحاب هذه البيعة كانوا محصورين بأسمائهم، وهذه رفعة لهم نابعة من رفعة من بايعوه–ﷺ– ومن ثم بدأ بهم المقطع.

المعلم الرابع: الخطاب وأثره في بيان رتبة المقبل عليه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح: ١٠] وفي هذا الخطاب إعلاء لشأنه–ﷺ– فالكلام في شأن المخاطبين إلا أنّه جعل أصل الجزاء مرتبطًا بالنبي –ﷺ– فخاطبه هو، فلم يرد النظم: (الذين يبايعون الرسول) لكونه أصلًا في هذه المبايعة لذاته لأنها في حمايته، فالخطاب مراعى فيه الخصوصية بجانب العلوّ والتكريم، فكأنّ الجزاء العالي في إتمامهم لهذه البيعة ليس عامًا بمبايعة أي أحد، بل لا بد أن يكون هو – ﷺ – الذي يبايع لتتحقق مبايعتهم لله.

المعقد الثالث: في قوله -تعالى-: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾[الفتح: ٢٩] ومغرسه -أيضًا- من التأييد والنصرة في السورة، فمغرسه إعلاء أمره على الدين كله؛ لأنّ من كانت هذه صفاته، وصفات أتباعه ومراتبهم العالية فيتأتى الإعلاء لهم ولا بد.

وقد دل التركيب على علوّ الرتبة في هذا المعقد في أربعة معالم:

المعلم الأول: حذف المسند إليه في قوله -تعالى-: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾[الفتح: ٢٩] وهو من الحذف لظهور الشأن وعلوّه، فالتقدير: (هو محمد) فلما كان ماتقدم من صفات عالية الرتبة لا تتأتى إلا له حُذف المسند إليه؛ لظهور ذلك فيه وعدم انصرافه لغيره، وهذا من علوّ رتبته -ﷺ- [١] ويؤيد هذا النصّ على اسمه صراحة -ﷺ-.

المعلم الثاني: غلبة المضارعة في وصفهم: ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ وهذا فيه دلالة تكرر هذه الفعال منهم، أي: تراهم كلما شئت أن تراهم ركعًا سجدًا، وهذا تنويه بشأنهم فيه إقبال عليهم ببيان رتبتهم، فإذا كان هذا حال الصحب فكيف بحاله هو -ﷺ-؟

(١) ويمكن أن يكون الكلام على ذكر المسند والمسند إليه فيكون: "محمد رسول الله" مبتدأ، وجملة "أشداء على الكفار" خبرًا؛ لأنّ القصد بيان صفته لا بيان من هو.

المعلم الثالث: الإشارة إليهم باسم الإشارة للبعيد: (ذلك) فيه بيان لعلوّ رتبتهم، وهذا ما ذكر من خصائص الإشارة بالبعيد؛ إذ يدلُّ على البعد الحسي والمعنوي، ويكون المعنوي لتفخيم الشأن وعلوه[1] .

المعلم الرابع: التصوير الذي عقب الحقيقة فكأنّه أثنى عليهم لبيان رتبتهم بأسلوب الحقيقة أولاً، ثم بالتصوير تأكيداً وتقوية لها في نفوس السامعين من حضر ومن غاب منهم، كالزرع المعجب لكل من يراه، وهذا العجب تولد من تميُّزهم وعلو منزلتهم على من سواهم.

يؤكد ذلك أمران :

١) التعليل الوارد للصورة: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ فهو متولد من علو الرتبة -أيضًا-.

٢) الختام التعقيبي، فختم وصفهم وعلوّ رتبتهم -التي أصلها ولا شك رفعة منزلته هو -ﷺ- وعلو رتبته= يبين الجزاء على ما اتصفوا به من الصفات: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ فهذا الأجر العظيم متولد من عظمة من اختص به، وهذا إقبال بعلوّ الرتبة.

أما علوّ رتبته في سورة الشرح فنص عليه صراحة بقوله -تعالى-: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾[الشرح: ٤] والرفع صريح في الإقبال بعلو رتبته -ﷺ- خاصة، وطريقة نظم هذا التصريح دالة على علوّ الرتبة خصوصًا أنّه ورد في سورة عددت أتمّ الإنعام على النبي -ﷺ- من شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، وضمان اليسر بعد العسر.

حيث ورد فعل الرفع بالمضي: (رفعنا) دلالة على تحققه وتبيانًا لعظمة هذا الرفع أسند إلى نون العظمة: (نا) وعطف بـ: (لك) فهذا الرفع إكرامٌ لذاته -ﷺ- لا من أجل الرسالة، كما أنّ هذا الذكر مطلق قال: ﴿ ذِكْرَكَ ﴾ ولم يقيده فكان مطلقًا في زمنه في الأولى والآخرة، وهذا متضافر مع علوّ المرتبة المنصوص عليه في سورة الضحى: ﴿ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ ﴾[الضحى: ٤] حيث اختص -ﷺ- بعلوّ مرتبة اللحظة المتأخرة فجعل الخيرية فيها على اللحظة المتقدمة.

وكما يفهم إطلاق الزمن يفهم منه كذلك إطلاق النوع والكم، وهذا الإطلاق أدخل في بيان علوّ الرتبة فهو أشمل وأعم، وهذا شائع كثير في شأن الرسول، حيث تنوع علوّ ذكره بين اقتران اسمه -ﷺ- باسم المولى - ﷻ - في شهادة التوحيد، ورفعه في الأذان في كل صلاة،

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٥٣.

وشهرته -ﷺ- في الأرض والسماء[1]...، وقد ذكر في الكتب المتقدمة كما نص موضع سورة الأعراف: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[الأعراف: ١٥٧] وغير ذلك كثير.

كما نص على علو رتبته باختصاصه بالكوثر من وجه، والدفاع عنه من وجه آخر.

ومغرس الإقبال عليه -ﷺ- في هذه السورة يمكن أن يفهم من ترتيبها في درج المصحف وورودها وسطًا بين سورتي: (الماعون) -التي ذكرت المنافقين- وسورة: (الكافرون) التي اختصت بالكافرين، فورودها واسطة بينهما فيه إعلاء له بقطع ذكر من يعاديه وبتره سواء كان من المنافقين أو اليهود، فقابل حرمانهم الخير بإعطائه -ﷺ- أعظم الخير من بقاء ذكر وهبة الكوثر على تعدد معانيه.

ويتجلى علوّ رتبته - ﷺ - في بيان هذه السورة في أربعة معالم في التركيب هي:

المعلم الأول: الإسناد إلى نون العظمة وأثره في بيان رتبة النبي - ﷺ-:

ورد النظم بقوله -تعالى-: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ ﴾[الكوثر: ١] بإسناد الفعل إلى نون العظمة الدال على علوّ رتبته -ﷺ- التي ترتب عليها علوّ هبته؛ فعلو الهبة لعلو شأن الموهوب، وفي هذا الإسناد دلالة على أنّه لا يستطيع أحد أن ينزعه منه أو يسلبه إياه، وكيف يمكن لأحد أن ينزعه منه والله هو الذي اختصه بهذا العطاء الكثير[2]. وهذا أدخل في الإقبال عليه -ﷺ-.

كما أنّ النظم ورد ببناء الفعل على الاسم المتقدم، ويفيد هذا التقديم الاختصاص أو التأكيد[3]؛ إذ يقتضي هذا التقديم ذكر المسند إليه مرتين: (إنا) و(أعطينا) وهذا التكرار بهذا السمت - نون

(١) ينظر: صحيح البخاري حديث الإسراء والمعراج: كتاب: الصلاة، باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم الحديث ٣٤٩: ١/٧٩.

(٢) ينظر: "على طريق التفسير البياني" فاضل صالح السامرائي، ط من دون، جامعة الشارقة، الشارقة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م: ٧٦.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٢٨.

العظمة – أدخل في العناية والاهتمام به -ﷺ- واختصاصه بهذه العناية، وهذا أعلى إقبالًا وتكريمًا له -ﷺ-.

المعلم الثاني: التقابل وأثره في بيان علو رتبته -ﷺ-:

عَقَدَ الإقبال في سورة الكوثر على بيان رتبة النبي – ﷺ- على المقابلة بينه وبين شانئه؛ ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ ﴾ [الكوثر: ١] مقابلة لـ ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾ [الكوثر: ٣] فقابل إعطاء الرسول -ﷺ- الخير العظيم إعلاءً لشأنه وإبقاءً لذكره، ببتر شانئه والمبتور: المقطوع بعضه، وغلب على المقطوع ذنبه، ويستعار لمن نقص منه ما هو من الخير في نظر الإنسان[1].

ويلاحظ كيف أسند الله الإعطاء إلى ذاته العلية فقال: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ ﴾ ولم يسند البتر إلى ذاته فلم يقل: (وجعلنا شانئك هو الأبتر) بل أسنده إلى الشانئ نفسه، فإنه أبتر من غير جعل جاعل، وإنما ذلك وصفه هو وذلك أذم له وأقبح [2]. والإيغال في ذم شانئه تكريمٌ له -ﷺ- فمن ثمّ جاء بضمير الفصل: "هو" ليدل على قصر شانئه على الوصف من دونه-ﷺ- وهذا فيه مدح له -ﷺ-.

المعلم الثالث: دقة الكلمة وأثرها في بيان علو رتبة النبي – ﷺ-:

ورد المنُّ بإعلاء رتبته بـ: (أعطيناك) أي خولناك مع التمكين ولم يقل: (آتيناك) لأنَّ الإيتاء؛ أصله الإحضار وإن اشتهر فيه معنى الإعطاء، والإعطاء يفيد التمليك[3] ولما كان العطاء تمليكًا فهو يوجب الاختصاص، أي أنّ لصاحبه أن يتصرف فيه كما يشاء من وجه، فمن ثم كان -ﷺ- هو الذي يقف عليه يسقي في الآخرة.

ويفيد عدم انتزاعه منه من وجه آخر، وهذا أدخل في الإقبال بهذا العطاء، كما أنّه لو قال:(آتيناك) لاحتمل أن يفهم أنَّ ذلك إيتاء آية لا إيتاء تمليك [4].

---

(١) ينظر: لسان العرب: كتاب الألف:١/٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) ينظر: على طريق التفسير البياني: ٩٧.

(٣) ينظر: الفروق اللغوية:الفرق بين الإعطاء والهبة: ١٨٩.

(٤) ينظر: على طريق التفسير البياني: ٨١.

وقال: ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ معلقة بضمير خطابه من دون وصفه كـ: (أعطينا الرسول، أو النبي أو العالم، أو المطيع) لأنّه لو قال ذلك لأشعر أنّ تلك العطية وقعت معللة بذلك الوصف، فلما قال: ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ علم أنّ تلك العطية غير معللة بعلة أصلاً، بل هي محض الاختيار والمشيئة[1] وهذا أدخل في الإقبال عليه -ﷺ- فهذا العطاء لذاته -ﷺ- إكرامًا له، وليس لوصف آخر.

ووردت الهبة له بـ:﴿ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ والكوثر: فوعل من الكثرة، وهو وصف يفيد المبالغة والإفراط، والعرب تسمي كل شيء كثير العدد أو القدر أو الخطر الكوثر[2]. والكوثر يكون صفة للمبالغة نحو قولهم: رجل كوثر: كثير العطاء والخير، ويكون ذاتًا موصوفة بكثرة الخير كما ورد في اللسان والكوثر: السيد الكثير الخير، وعلى هذا يكون الكوثر صفة وموصوفاً.

والكوثر: يجمع بين معنى الكثرة والخير، وكل هذه الإيحاءات أدخل في علوّ العطاء والإقبال عليه به، فكون ما أعطيه خيرًا كثيرًا وكونه هو -ﷺ- خيرًا كثيرًا = إعلاءٌ لرتبته -ﷺ-.

وقد ورد التفسير أنّ الكوثر نهر في الجنة، وقيل: هو الخير الكثير[3]، والثاني عندي أولى، لمناسبته لرتبة النبي -ﷺ- ولدخول النهر فيه ضمنًا.

وتخيُّر: (رب) ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ فيه إعلاء لرتبته؛ لما فيه من معنى العناية والتربية، وهذا من اهتمامه به -ﷺ- وفي إضافته إلى ضمير الخطاب الخاص به -ﷺ- تكريم لا يخفى وهذا مناسب للعطاء وتخصيصه به، فالسورة مختصة بالرسول -ﷺ- ومبنية على خطابه: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ وهذا أدخل في الإقبال عليه وتكـــريمه-ﷺ-.

(١) ينظر: التفسير الكبير: ٣١١/١٠، ٣١٢.
(٢) ينظر: لسان العرب: باب الكاف: ٣٨٢٨/٥، ٣٨٢٩.
(٣) ينظر: التفسير الكبير: ٣١١/١٠، ٣١٢.

المعلم الرابع: التوكيد وأثره في بيان رتب الإقبال عليه -ﷺ-:

ورد التوكيد بـ(إن) مرتين متقابلتين، حيث أكد العطاء له -ﷺ- ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾[الكوثر: ١] وأكد البتر لشانئه ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾[الكوثر: ٣] وبضمير الفصل: ﴿هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ الدال على قصر البتر حقيقة على من كره الرسول -ﷺ- مرة واحدة. وتنوعُ التوكيد في جانب عقاب شانئه أدَلُّ على حظوته -ﷺ- وعلو مكانته على الله- ﷻ-.

والتوكيد هنا بأحد اعتبارين:

أ- اعتبار الحدث نفسه باعتبار عظمته من غير النظر إلى منكر به.

ب- اعتبار إنكار هذا الفضل، لاسيما أنَّ السياق في ذكر حال الشانئ له، ومن مقتضيات هذا الكره إنكار فضله، فكان التوكيد باعتبار هذا.

المبحث الثاني: العدول في صفاء الإقبال

اطرد العدول في الإقبال عند الحرالّيّ باختصاصه بالرسول - ﷺ - من دون غيره من أولي العزم، ونص على ذلك في كلامه عن تعاضد الوصيَّة والكتاب في القرآن بقوله: "وهذا الوجه من المنزل خاص بالقرآن العظيم الذي هو خاص به - ﷺ - لم يؤته أحد قبله" [1].

وكما نص الحرالّيّ على أنّه خاص بالنبي محمد - ﷺ - نص على أنّه أعلى مراتب المدح والثناء وإن ظنه الجاهلون خلاف ذلك، قال: "فيكون له في خطاب التشديد عليه في أخذه أعظم مدح ، وأبلغ ثناء من الله، ضد ما يتوهمه الجاهلون".

فمما أنزل إنباء عن مدحه بتوقفه عن إمضاء حكم العدل والحق، رجاء تدارك الخلق واستعطاف الحق ما هو نحو قوله -تعالى-: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [2]

وهذا العلوّ في الإقبال يتلاءم مع علوّ رتبته - ﷺ - فلا يرد معه النهي- على مايرى الحرالّيّ- لتلبس بالمنهي عنه على المعنى الأول، بل رفقًا به - ﷺ - ولا يرد التنبيه معه لغفلته - ﷺ - فلا يتصور هذا منه ولا يتلاءم مع حاله، بل إرشادًا إلى مروءته وسلامة طويته - ﷺ -.

وقد تناسب الإقبال مع العدول في المعنى والتركيب معًا، كما نص الحرالّيّ سابقا من التقابل بين المعنى المراد ومقتضى ظاهر اللفظ.

أما العدول في التركيب فيتجلى في صرفه النهي في قوله -تعالى-: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ إلى معنى الاستعارة التمثيلية، "أي: لا تتوقف لطلب الرحمة لهم كما يتوقف الممتري في الشيء أو الشاك فيه" [3].

ومن ثم اطرد مجيء الباب-عنده- على خلاف مقتضى الظاهر في النظم، فلا ترى في النهي أو الشرط أو الإخبار أو الاستفهام أو .... إلى آخر الأساليب التي جاء عليها هذا الباب -معنى أصليًا له، بل جاء على خلاف مقتضى الظاهر تركيبًا ودلالة على ما سيأتي.

---

(١) التوشية والتوفية: ١٢٢.

(٢) السابق: ١٢٢ – ١٢٣. وهذا خلاف ما عليه جمهور العلماء في هذه المواضع؛ إذ يرونها من عتابه -صلى الله عليه وسلم- ومبنى الخلاف بينهم وبين الحرالّيّ في فعل الرسول -صلى الله عليه وسلم - هل هو من قبيل مخالفة الأولى كما يرى جمهور العلماء ، أم من الثناء عليه -صلى الله عليه وسلم- بسمو خلقه وعظيم رحمته كما يرى الحرالّيّ. وما أعرضه في الفصل على مايفهم الحرالّيّ، والمسألة لاتزال محل تحرير أنهض به لاحقًا بعون الله.

(٣) السابق: ١٢٣ . ولم يقل -فيما أعلم- بالاستعارة التمثيلية في الآية غير الحرالّيّ.

والعدول -وإن توافق مع شوب الإقبال في ظاهر معنييهما ؛ حيث إن في كليهما ما هو ظاهر في مخالفته للمعلوم وما يقتضيه حال المخاطب- يخالف الشوب؛ حيث إنَّ مخالفة مقتضى الظاهر في العدول إنما هي لمراعاة حال الغير براً به أو رحمة وشفقة عليه وإن كان ليس أهلاً، إلا أنَّ علوّ وصف المخاطب بالصفات الحميدة جعله يفيض بها على غيره، ومن ثمّ وصل الحرص به – ﷺ– والرأفة والرحمة مبلغًا كاد أن يُذهب بنفسه حسرات عليهم، وبلغت مروءته – ﷺ – مبلغًا منعه أن يستقصي عن حال المنافقين فيعلم كذبهم.

فحمّل – ﷺ – نفسه فوق طاقتها كلفًا ببلوغ صفاته إلى أعلى درجة الكمال؛ وهذا يخالف شوب الإقبال؛ لأنّ كل موضع جاء فيه الشوب قد اطرد أن يكون للنفس فيه حظ، ومن ثم عوتب عليه، سواء كان الأمر لذاته، كطلب موسى الرؤية: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أو في قريب له لأجل قرابة الرحم، كما في طلب سيدنا نوح– ﷺ – إنجاء ابنه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[هود: ٤٥-٤٦].

وكما افترق الشوب عن العدول في المعنى افترق عنه في الأسلوب –أيضًا– فشوب الإقبال يمده أسلوبان؛ أسلوب فيه صفاء إقبال، وأسلوب فيه إعراض، ويغلب أحدهما تبعًا للرتبة والسياق، بينما يمد العدول لون واحد من الأساليب منبته الأساس من صفاء الإقبال؛ فهو في إعلاء المدح حتى ما جاء في مذمة الكفار يرد في إعلاء صفته – ﷺ – مقابل خسة صفاتهم.

ولذا غلب سياق الوصف في العدول، فجلُّ أطر العدول لدى الحرالّيّ ترجع إلى وصفه – ﷺ – سواء فيما جبل عليه، أو ما وصي به، أو ما بعث له، قال الحرالّيّ: "اعلم أنّ الله – ﷻ – بعث محمداً – ﷺ – بالرحمة لجميع العالمين، وخلقّه بالعفو والمعروف.... فكان هو – ﷺ – بحكم ما بعث له، وجبل عليه، ووصي به ، ملتزمًا للعفو عمن ظلمه، والوصل لمن قطعه، إلا أن يعلن عليه بالإكراه على ترك ذلك والرجوع إلى حق العدل ، والاقتصاص، والانتصاف المخالف لسعة وصيته

الموافق لما نقل من أحكام سنن الأولين في مؤاخذتهم وأخذهم بالحق والعدل إلى جامع شرعته، ليوجد فيها نحو مما تقدم من الحق والعدل[1].

فمما جُبل عليه - ﷺ -: الرحمة، فوصي بها وبعث من أجلها: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] لذا غلبت على صفاته، فغلبت على مواضع العدول في الإقبال؛ لأنَّ مقتضى الظاهر أن يؤاخذ من كفر بالعدل لا بالفضل، فكونه يتفضل عليهم إنما هو نابع من رحمته بهم، ومن هنا جاء العدول شائعًا في صفة الرحمة باعتباره وصفه هو - ﷺ - لا هم فهؤلاء ليسوا أهلاً لهذه الأخلاق الكريمة منه - ﷺ - .

وتعدد الإقبال عليه بصفاته- ﷺ - في صورتين ورد الإقبال فيها بالعدول وهما:

١) رحمته وحزنه الشديد حرصًا على هداية قومه، وفرض السؤال للأمم السابقة، وطلب آيات غير معتادة التماسًا لإيمانهم.

٢) شفقته- ﷺ - على أهل بيته وصحابته والمخالفين له.

وتتجلى رحمته في المواضع التالية:

١) ﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة: ٤١].

٣) ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [لقمان: ٢٣].

٤) ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [النمل: ٧٠].

---

(١) التوشية والتوفية: ١٢١.

٥) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف: ٧].

٦) ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٣].

٧) ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر: ٨].

أما شفقته فمن مواضعها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [التحريم: ١-٤]

وقوله -تعالـــــى-: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾[عبس: ١-١٠]،وقوله-تعالى-: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقوله -تعالى-: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة: ٤٣]،﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[التوبة: ٨٤].

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ [التوبة: ١١٣].

والعدول -وإن غلب في بيان صفاته – ﷺ – قل في غيره كما في سياق التوجيه والإرشاد؛

كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ ﴾[النساء: ١٠٥-١٠٦]

المطلب الأول: العدول في الإقبال في سياق صفاته – ﷺ –:

أ- العدول في بيان صفة رحمته – ﷺ –:

لرحمته – ﷺ – كما تقدم صور عدة: أولها حزنه الشديد حرصًا على هداية قومه هداية معونة، فأحب إعانتهم عليها بل حملهم إليها. فنفاها عنه – سبحانه – وأثبتها لنفسه لتعلقها بخصوصية ﴿ مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ قال –تعالى–: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾[القصص: ٥٦] مع ما في الحب من ميل الطباع واقتضاء الحكمة[1]، ومن ثم زاد هذا الحب عنده لهم إلى أن أثر عليه ابتداءً بالحزن وانتهاءً بإذهاب نفسه حسرات عليهم، على الرغم من أنهم ليسوا أهلاً لهذا، ومن هنا جاء العدول في الإقبال في المواضع التالية:

١) ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

٢) ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾[المائدة: ٤١].

٣) ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [لقمان: ٢٣].

٤) ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [النمل: ٧٠].

٥) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف: ٧].

٦) ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٣].

٧) ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر: ٨].

---

(١) ينظر: الفروق اللغوية: الفرق بين الحب والود: ١٤٠

والمواضع كلها بيان لأحوال المخالف لا لصفاته-ﷺ- ومع ذلك جاءت صفاته ابتداء، فالنظم تتابع على خسيس صفاتهم التي لا تستحق ابتداءً مجرد الحزن عليهم، ومن ثم جاء الإقبال عدولًا وليس صريحًا، فكل صريح صفاء الإقبال سيق فيه النظم- كما ظهر في المبحث الأول- لأجله هو- ﷺ- وليس بيانًا لأحوال المخالفين، لكنه هنا سيق في صفاتهم كأنّ من كان على هذه الصفات لا يستحق هذا التعامل؛ ولكن لأنّه - ﷺ - جُبل على وصف الرحمة والرأفة، ورسالته تتناسب مع هذا الوصف عاملهم هكذا؛ فجاء الإقبال عليه -كما هو مقتضى ما حرره الحرالّيّ في كلامه السابق- إعلاءً لوصفه ومكانته من جانبين:

١) تكريمه أن وصل إلى هذا الخلق.

٢) تسليته بتحقير شأنهم.

لذا نجد أنّ المغرس في كل هذه المواضع متعلقًا بشأنهم وإن اختلفت درجة الحزن باختلاف السياق الوارد فيه، فاختلف تبعاً لذلك اللفظ علوًا في بيان درجة الحزن والحرص.

فكان مغرس العدول في الإقبال في موضع سورة آل عـــــمران: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾[آل عمران: ١٧٦] من قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[آل عمران: ١٧٥]. فهم أولياء للشيطان، بما في لفظ الشيطان من دلالة البعد والاحتراق، والدلالة على كل خلق ذميم[1] فكونهم أولياء لمن هذا وصفه -وما يستلزم الولاية من نصرة الشيطان والموالاة له وتأييده- يعلي من خستهم؛ لأنّهم نصروا الأبعد، وذكر الشيطان -هنا- دالٌّ على ذلك.

كما أنّ السياق الذي ورد فيه العدول - هنا- سياق مناوأة للرسول - ﷺ - وصلت إلى حد القتـــال وأذى المســـلمين؛ لـــذا ورد فــــي آخــــــرها: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ ﴾[آل عمران: ١٩٦]؛ وجاءت العلة هنا ﴿ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾[آل عمران: ١٧٦] مؤكّدةً لوصف رحمته بنهيه عن الحزن الدالّ على رحمته الجبلية؛ إقبالًا عليه وتسلية له ببيان عدم بلوغ مرادهم.

ولكون سياق سورة آل عمران في المناوأة المباشرة له - ﷺ - فقد علا إقبالًا على موضع ســورة المائـدة: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الشين: ٢٦٤.

﴿ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المائدة: ٤٣] التي مغرس الإقبال فيها ما تقدم من صفات اليهود التي تؤكد عدم استحقاقهم للأسى والحزن عليهم .

ودار سياقها على أفعال اليهود عمومًا؛ لذا جاءت العلة معلقة بالشرط ولم تؤكد كما في موضع سورة آل عمران.

وأتى ثالثها موضع سورة النمل: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[النمل: ٧٠]الذي مغرسه من قوله: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[النمل: ٦٩] وقد دار سياق الإنذار في السورة على بيان تكذيب الكفار، ومعارضتهم للحق فمن كانت صفته الكفر وفعله التكذيب لا يحزن عليه.

ثــم يعقبه مــوضع سورة لقمــان: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [لقمان: ٢٣] الــذي كــان مــغرس العــدول فيه مـن قـولـه – تعالى –: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾[لقمان: ٢٠]

ثم قوله: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ [لقمان: ٢١] ودار السياق على تكذيبهم ومعارضتهم، فمن كانت هذه صفاتهم –كما تبين في المواضع– وتلك فعالهم فلا يحزن عليهم ولا أسى، ومقتضى الظاهر أن يؤخذوا بالعدل لا بالرحمة، ولكن لغلبة جبلته في الرحمة عاملهم بما ليسوا أهله، وإن كان هو أهله، ومن هنا أتى العدول في الإقبال عليه.

ويزداد حزن الرسول – ﷺ – عليهم مع علوّ السبب المقتضي عدم التكذيب، فيعلو العدول في الإقبال تبعًا لذلك؛ لأنّ الحزن زاد على من لا يستحق، وعلى من علت أسباب الإيمان أمامه ولم يسلم . فكان النهي عن بخع النفس أعلى من النهي عن الحزن، كما هو في موضعي سورتي الكهف والشعراء.

وعلا موضع سورة الكهف على موضع سورة الشعراء: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾[الشعراء: ٣] لقوة الأسباب المانعة للتكذيب الـتي كانت مــغرسًا للعدول، حـيث قال – تعالى –: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾ [الكهف: ١–٢]، فإذا كان الكتاب المنزّل عليه هذا وضعه وتلك مهمته، فكيف يتأتى منهم الإعراض؟ وكونهم كـفروا بهذا الحـديث

– مع ما في لفظ الحديث من دلالة الانتشار والتواصل[1] والكمال من:(ال)، واشتهار القصص الواردة فيه حتى عند أهل الكتاب– مرشح لشدة الحزن واختلاطه بالغضب لدلالة البخع على الحزن المشوب بغضب[2]، ولذلك تناسب في البداية مع وصفه بعده: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ فهو يغضب لسيده حين يُكفر به ويجحد حقه .

أما موضع سورة الشعراء فهو –وإن كان قد علا عن مواضع الحزن المتقدمة وشارك موضع سورة الكهف في الارتقاء عن النهي عن الحزن إلى بخع النفس: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾[الكهف: ٦] وشاركه في معنى المغرس: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٢] فالمغرسان نابعان من وصف الكتاب –أقل إقبالًا، فموضع سورة الكهف أعلى؛ فالوصف لأسباب الإيمان التي جانبوها أعلى في الكهف؛ حيث وصف هنا الكتاب في الشعراء بـ:(المبين) فقط أما في سورة الكهف فهو كتاب: ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ و ﴿ قَيِّمًا ﴾، كما أن وصفه ورد بتركيب أعلى، حيث نفى عنه وصف العوج وأثبت ضده، وهذا أقوى في الدلالة على علوّ الوصف.

ولما انتكست الفطرة منهم فرأوا ما ليس بحسن حسنًا كادت نفسه – ﷺ – أن تذهب عليهم حسرات، قال –تعالى– : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾[فاطر : ٨].

فبلغ الحزن به مبلغه؛ لذا ورد وصف الحزن أعلى في موضع سورة فاطر عن جميع ما تقدم فوصف حزنه بـ: ﴿ حَسَرَٰتٍ ﴾.

ومغرس العدول من: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر : ٦] فهم حزب الشيطان، ومن أصحاب السعير، والسياق في تكذيبهم –أيضًا– فحزب الشيطان المكذبون هل يحزن عليهم؟ وهل تهلك النفس أسىً لأجلهم؟ إنما ذلك نابع من جبلته – ﷺ – على الرحمة، لذا ورد الإقبال عليه –هنا– عدولًا.

---

(١) ينظر : الفروق اللغوية:الفرق بين القصص والحديث: ٥٣، ٥٤.

(٢) ينظر : لسان العرب: باب الباء: ١/٢٢٢.

فترقي الحزن منه - ﷺ - يدل على جبلته، ومن هنا أتى الإقبال عليه ببيان وصفه، ولأنهم لا يستحقون ذلك أتى الإقبال عليه عدولاً.

وترتّب علوّ الإقبال في كل موضع تبعًا لعلوّ مستلزمات الإقبال، وأيها أدلُّ على تطمين قلبه سواء كان ذلك من الإيحاء في بيان صفاته أو إزاحة بأله أو تأييده ونصرته.

ونرى أنّ أكثرها في موضع سورة الكهف فالإقبال فيها أعلى؛ لأنّ الكلام الرئيس كان له، وسورة الكهف كانت في حكاية المصطفين من عباده - ﷺ - الذين أووا إلى كهف الله فآواهم، أوفي تنوع الاصطفاء ، فطبيعة الكهف في مراتب وأحوال الصفوة ابتداء من الفتية وانتهاء بذي القرنين، كما يلاحظ فيها وصف العبودية الذي ابتدئ به في وصفه مع إنزال الكتاب عليه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾ [الكهف: ١] ففيه علوٌ في إثبات صفة الرأفة والحرص عليهم في بخع نفسه.

وتتابع الخطاب معه في القصص المذكور من قوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾[الكهف: ٩] داخلٌ كله في الإقبال عليه؛ لأنّ له بعدًا خارجيًا في أنّه جاء ردًا على سؤال من قبل اليهود أو المشركين، ففي ذلك إعانته من وجه آخر .

ويليه مرتبة في الإقبال موضع سورة الشعراء: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾[الشعراء: ٣] فجانب التسلية فيها ظاهر؛ حيث أعلمه بأنّ أكثرهم لا يؤمنون: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٨] وخبّره بمشابهتهم في الكفر بالأمم السابقة .

كما أنّ السورة مساقة للمرسلين لا للمكذبين، وإن كانت من وجه تكذيب أقوامهم لهم، ومن ثمّ علت التسلية والتصبير لهم.

ويلاحظ وصف الربوبية مع بداية كل قصة؛ ففيه تأنيس له من هذا الجانب فكان الخوف عليه من شدة الحزن وتسليته من الإنعام عليه؛ لذا علا الإقبال فيها.

ويليه موضع سورة آل عمران؛ فالتسلية بيّنة فيه لكنها أقل صراحة من الموضعين السابقين.

أما موضع سورة المائدة فكان في بيان أفعال اليهود وورد ذكر الحزن تبعًا لذلك، كما أنّ التسلية فيها كانت أقل ظهورًا مما هو في موضع سورة آل عمران.

ويليهما موضع سورة النمل رتبة ويعلو على موضع سورة لقمان؛ لأنّ البشرى فيه ظاهرة كما تتابعت الربوبية فيها: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[النمل: ٧٣]، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾[النمل: ٧٤] وشد أزره ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[النمل: ٧٩]، ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ

ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ [النمل: ٨٠] ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ ﴾ [النمل: ٨١] كلها تدور في فلك تأكيد نفي الحزن وأسبابه وهذا يعلي من الإقبال في هذا الموضع.

أما موضع سورة لقمان فلم يكن هناك تكذيب أو مناوأة -كسابقتها- يستلزم تسلية، بل وردت في معرض تقسيم الناس بين من يسلم وجهه ومن كفر، فقلّت لوازم الإقبال فيها فأتى الإقبال أقل رتبة من المواضع السابقة.

وكان موضع سورة فاطر- وإن قوي الوصف فيه – أقلها؛ لكون السياق القبلي والبعدي ممحضًا في شأن المكذبين لا في شأنه- ﷺ-

ودلت بالتالي التراكيب على هذا العدول-على مقتضى فهم الحرالّيّ لها بأنها من أعظم المدح- معاضدة المعاني في السياق والمعارس، ويتجلى ذلك في ستة معالم كما يلي:

المعلم الأول: العدول بين الإنشاء الطلبي وغيره:

تفترق دلالة الإنشاء الطلبي عن غير الطلبي؛ فغير الطلبي هو في الحقيقة خبر، أوفي معنى الخبر. أما الطلبي فهو في مرتبة أولى من المعنى يُتلبَّس به ويمكن ردعه أو دفعه؛ ولذا تلاءم أسلوبهما مع التعبير عن الترقي في شدة الحزن، فلما كان الحزن أعلى وردت المواضع بالإنشاء غير الطلبي، لأنّ فيه دلالة على مرحلة أبعد في المعنى؛ لذا لما ورد الإقبال لم يرد بالنهي عن الحزن فهي مرحلة قد طويت واستفرغ منها، والحديث على ما بعدها؛ لذا ورد بالترجي بـ: ﴿ لَعَلَّكَ ﴾ ولذا ترتبت مراتب الحزن تبعًا لهذين الأسلوبين فكانت أعلى المواضع تعبيراً عن الحزن ما ورد بالإنشاء غير الطلبي، وأخفها ما ورد بالإنشاء الطلبي وبالنهي خاصة.

وكلا الأسلوبين يقصدان إلى رده – ﷺ – عما جُبل عليه من الرحمة إلى العدل إقبالاً عليه فهؤلاء لا يستحقون ابتئاءة الحزن عليهم، فكيف ببخع النفس أو إذهابها عليهم حسرات؟

والنهي دخل في المواضع على المضارع، وهذا أدخل في الثناء لاشتمال المضارع على الحال والاستقبال، فالتنبيه على رده عما وقر في جبلته مستمر؛ لأنّ كفرهم مستمر، وهذا أدخل في الحفاوة به – ﷺ – .

ونبع العدول من أنّ النهي ليس مرادًا منه الردع في النهي[1] –عند الحرالّيّ- بل هو للدلالة على ما هو في جبلته من الرحمة من وجه، ومن وجه آخر ثناء عليه – ﷺ – باتصافه بأعلى درجات

---

(١) ولعل لمقتضيات الأحوال واختلافها من تأنيس المخاطب أو الإنكار عليه أثرًا في اختلاف معنى النهي بين الثناء أو الردع، فاستلزام التأنيس وتسكين القلب بالثناء بيّن. بخلاف الإنكار على المخاطب خلاف الحق فإن له أثرًا في اعتبار النهي والزجر.

الرحمة والحرص فهي تحوي في رحمها معنى قوله -تعالى-:﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾[التوبة: ١٢٨] فما حزنه إلا لحرصه ومشقة كفرهم عليه.

ويلاحظ أنه في الموضع الذي علا فيه الحزن إلى ذهاب النفس في قوله -تعالى- في سورة فاطر ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر: ٨] عاضد النهي تقدم إنشاء آخر هو الاستفهام ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾، والاستفهام هنا مصروف للإنكار، وهذا أدخل في تسليته - ﷺ - فحالهم لا يحزن قلبه، فكيف بإذهاب النفس من أجلهم؟!

كما أنّ في النهي تسلية له على أبلغ وجه؛ فالنهي عن أسباب الشيء ومبادئه المؤدية إليه نهي عنه بالطريق البرهاني وقطع له من أصله [1].

ولذا عدّ ابن عاشور كل نهي عن الحزن من المجاز العقلي؛ لأنه لا يتأتى النهي عن الحزن في ذاته[2]. وهذا ولا شك من صفاء الإقبال؛ إذ فيه تسلية وتصبير له بأنْ يقطع كل طريق مؤدٍّ لحزنه- ﷺ-.

وفي تقدم: ﴿ لَعَلَّكَ ﴾ ردٌّ له إلى العدول عما في جبلته بأسلوب أقوى؛ لقوة أسلوب الإنشاء غير الطلبي في الدلالة -كما تقدم- فـ(لعل) تأتي للترجي في الأمر المحبوب وللشفقة في الأمر المكروه[3] وكون الإنشاء غير الطلبي كالخبر -فإن: ﴿ لَعَلَّكَ ﴾ هنا تخبر عن الشفقة العالية عليه- ﷺ - من شدة الحزن- يعلي من العدول ويبين وجهه، فالعدول فيها نابع من التنبيه على شدة حرصه ورحمته.

وكأنّ الترجي هنا على ترك الأسف على ضلالهم على طريقة تمثيل شأنه بشأن من يستقرب هلاكه إذا استمر على ما هو عليه من الغم[4].

ويلاحظ أن بناء موضع سورتي الكهف والشعراء على الترجي أدخل وأعلى دلالة على الإقبال لأنه أكثر صراحة في الإشفاق عليه - ﷺ - وهذا ملائم لشدة الحزن المعبر عنه ببخع النفس الدّال على حزن أعلى مما في المواضع التالية كما سيرد في تتمة الكلمة...

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٥/٤٠١.
(٢) نفسه.
(٣) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ٥٨٠.
(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ١٩/١٠٩.

المعلم الثاني: التوكيد وأثره في بيان العدول:

للتأكيد في مواضع سورة آل عمران، ولقمان، وفاطر: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾[آل عمران: ١٧٦]، ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾[لقمان: ٢٣]، ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾[فاطر: ٨] دلالات متعددة، فإما أنْ يدل على التعليل للنهي السابق، أو يدل على الضمان والوعد.

أما الأول فدلالته ما ذكر البلاغيون من استشراف النفس لعلة النهي، فيرد التعليل مؤكدًا تثبيتًا للنفس[1] وهذا أدخل في تسليته - ﷺ - من وجه، وأقوى ذمًّا لهم من وجه آخر؛ حيث يبين له أنّهم ليسوا أهلاً لهذه الرحمة وهذا الإشفاق منه - ﷺ - وهذا التوكيد مبني على عدول -أيضًا- إذ إنه لم يكن شك الرسول أو تردده سببًا له، فما كان من شك ولاتردّد منه- ﷺ- إنما عدل إلى التوكيد تسلية له، وطمأنة لفؤاده بعد النهي المتقدم؛ ولذا وردت أقوى أدوات التوكيد بـ:(إنّ) كما سبق بيانه فيما تقدم.

أما الثاني فدلالة على الضمان والوعد؛ لأنّ النهي وقع عن سبب الحزن، والنهي عن السبب ضمان له عن امتناعه، وهذا وعد له وضمان لصلاح أمته، وقد نص الإمام على هذا فجعل من مقامات التوكيد الضمان والوعد[2] وهذا فيه تسرية عن النفس وإكرام له يدل على صفاء إقبال عليه.

ولابن عاشور[3] نظر آخر للتوكيد بـ:(إنّ) في قوله -تعالى-: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر: ٨] بأنّه تمثيل لحال الرسول - ﷺ - بحال من أغفله التحسر عليهم من التأمل في إمهال الله إياهم فأكد له الخبر. وهذا لا يتلاءم مع جانب الإقبال عليه - ﷺ - لأنّ التنزيل يكون لمراعاة أمر يتناسب مع أمر المخاطب وهو بعيد عنه - ﷺ -.

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: ٣١.
(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٣٤.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٢٣/٢٢.

المعلم الثالث: تنوع بنية المسند إليه وأثره في بيان عدول الإقبال:

تنوع من المسند إليه في النظم فتارة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾ كما في قوله -تعالى- في سورة آل عمران: ﴿ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾[آل عمران: ١٧٦]، وفي سورة المائدة: ﴿ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾[المائدة: ٤١] وأخرى :﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ ﴾ [لقمان: ٢٣] ؛ وذلك لأنه لما أريد الوصف الذاتي اعتقادًا داخليًا عبر بالمصدر : (كفره) كما في موضع سورة لقمان وهو أليق بسياقها،لأنه جاء مقابلا لإسلام الوجه إلى الله، وحين أريد الحركة الفعلية في المجتمع تأثيرًا وأحداثًا صرح بالفعل على وجه صلة الموصولية، وهذا أدخل في ذمهم، وهو الملائم لسورة آل عمران والمائدة نظرًا لتقدم أحداث وأفعال تصرف عن الإيمان وتصد عنه.

كما أنّ في الموصولية معنًى آخر هو الامتداد في الحدث والتؤدة فيه زمنًا؛ لذا كان الفعل المضارع أوقع في هذا من الماضي مع الموصولية فلم يرد المسند إليه: (الذين سارعوا) بل (يسارعون) لأنه أراد أنهم في حال النزول وبعده يحدث منهم على وجه التجدد، ومن كانت هذه حاله فمقتضى الظاهر أخذه بالعدل لا بالرحمة.

وأسند الفعل له – ﷺ – في المواضع الأخرى في سورة الكهف: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾ [الكهف: ٦] والشعراء: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ ﴾[الشعراء: ٣] وفاطر: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨ ﴾[فاطر: ٨] لأنه لم يتقدم ذكرهم ولا أفعالهم في السياق المتقدم كما هو فيما سبق من المواضع، حيث تقدمت مناوأتهم وتكررت الأحداث الدالة على كفرهم.

أما في سورة الكهف فغرض الكلام الرئيس له هو – ﷺ – وأهليته لإنزال الكتاب عليه، فهو أكرم من أن يبخع نفسه من أجلهم.

وكذلك في سورة الشعراء لم يكن الكلام عن المكذبين بل عن الرسل ومنهجهم في الدعوة وأن عليهم البلاغ فقط.

وتصدير المقابلة في سورة فاطر: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر:٨] يغني عن ذكرهم وإسناد الأفعال لهم فأسندها له – ﷺ – .

المعلم الرابع: تنوع القيد وأثره في علو الوصف:

قيّد حزنه على الكافرين بـ (على): ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ ﴾ ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ وفي ذلك إقبال عليه وثناء أيما ثناء بأن تجعل نفسه الكريمة الرحيمة مقابلة مضادة لأنفسهم الخسيسة، فهذا إقبال عليه ولكن عن طريق العدول–عند الحرالّيّ– ، فلم يصرح بالثناء بل عدل إليه من خلال المقابلة بين ذاته – ﷺ – وذواتهم، وهذا أعظم الثناء والمدح عليه، فالضد يظهر حسنه الضد، وكرامته لا تقارب ولا تداني خسة أخلاقهم.

ولما علا حزنه في موضع سورة الكهف عاضده في العلوّ المتعلق به حيث قيد حزنه بـ: ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ ﴾ وهذا أدلُّ على الرحمة، فلم يقف بخع النفس عليهم، بل على آثارهم –أيضًا– وهذا أدلُّ على امتداد الزمن وتقاربه في الحزن عليهم. والأثر: كل ما يخلفه المرء وراءه من طلل وأثر[1] فشمل بخع نفسه – ﷺ – الكفار وكل ما تركوا خلفهم من عقب، وهذا أدخل في وصفه بالرحمة وامتداد زمنها؛ لذا ورد بعدها الفناء اللاحق بأمر الدنيا: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف: ٧] ليناسب هذه الآثار.

وعدّى مسارعتهم في الكفر بـ: (في) ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ﴾ التي دلت على سرعتهم سرعة طالب التمكن والتوغل بدلالة الظرفية: (في) فجعل الكفر ظرفًا لهم [2]. وفي كل هذا دلالة على الثناء عليه بعلوّ رحمته التي شملت حتى من لا يستحق.

المعلم الخامس: التعريف وأثره في بيان عدول الإقبال:

اختص النبي – ﷺ – وهو المقبل عليه بتعريفه بالخطاب في حين لم يذكروا هم إلا بالغيبة وهذه مقابلة بين علوّ شأنه – ﷺ – وخستهم، فاطرد معه الخطاب: (لا يحزنك)، (لعلك)، (نفسك)

---

(١) ينظر: لسان العرب: باب الهمزة: ٢٥/١.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٠٤/٥.

حفاوة به وإقبالًا عليه ليناسب علوّ الشأن، في حين اطرد معهم الغيبة أو الاسم الظاهر الذي يقوم مقام الغيبة لهوان شأنهم بما يناسب الخسة.

وعاضد علوّ صفاء الإقبال عليه بالخطاب تعريفه بوصف الرسالة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ فمناداته بهذا الوصف للتشريف والإشعار بما يوجب عدم الحزن [1]، إذ فيه تكريمه – ﷺ – من جانب وتسليته من جانب آخر بتذكيره أنَّه رسول وليس عليه إصلاح القلوب، إنَّما صلاحها بيد الله إن أراد هداها، وإلا فهي حقيقة بما حلَّ بها فلا يحزن عليها.

وعاضد الدَّلالة على هوانهم بالغيبة تعريفهم بالموصولية بـ:﴿ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ ففيه دلالة على اشتهار ذلك فيهم ومعرفته عنهم فليس لهم حال يعرفون به غير هذا الحال ، كما أنَّه أشار إليهم بـ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾الدالة على بعدهم، وهذا البعد ملائم لما عُرِفوا به واشتهر عنهم من المسارعة في الكفر، وتعريفهم بهذا أدخل في تسليته – ﷺ – فمن هذه صفته يؤخذ بمقتضى الرحمة وهو صفاء الإقبال عليه، ومن هنا تأتّى العدول في الإقبال فكل ثم لهم هو إنباء عن علوّ وصفه هو – ﷺ – بأنّه رحمهم، وهذه حالهم فهذا أعظم الثناء والمدح بعلوّ صفة الرحمة والنبل فيه– ﷺ –.

كما أنَّ في تعريف الكتاب بالإشارة إليه بـ:(هذا) في قوله –تعالى–:﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾[الكهف: ٦] دلالة على القرب، عاضد هذه الدلالة تصدير الإشارة بهاء التنبيه الدالة على حضوره في أذهانهم[2]. فكيف يكفرون به وقد علموه يقينًا؟

وعضد ذلك أنْ عرَّفه بـ: (ال) الدالة على كمال وصفه، وهذا ملائم لسياق سورة الكهف الذي يدور حول القرآن وأثره في دفع الشدائد، والقرآن هو الجُنَّة والحفظ فكيف يعرضون عنه؟

في حين عرفه في سورة الشعراء بـ:﴿ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ ملاءمة للسياق الوارد فيه حيث صفة الإبانة وأثرها عليهم متناسبة مع سياق القصص في العناية فيه بمعجزات الأنبياء وبيانها لصدقهم، وهذا ملائم لدرجة حزنه – ﷺ – في الموضعين: ﴿ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ فتعظيم شأن القرآن وكونه بهذه المنزلة والظهور في الحق يستلزم إيمانهم لا تكذيبهم، فإذا كذبوا فلا يحزن عليهم.

---

(١) ينظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ٣/٣٠٤.

(٢) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة: ٥١.

وهذه المبالغة في الوصف تسلية له - ﷺ - وطمأنة لقلبه أنّهم لا يرجى إيمانهم، فأتى الإقبال عدولًا بهذا التعريف فليس القصد إلى وصف الكتاب بهذه الصفات مجردًا، إنّما المراد تسليته من وجه، ومن وجه آخر ذمهم على كفرهم بكتاب هذه صفته،

المعلم السادس: دقة الكلمة وأثرها في العدول:

تلاءمت الألفاظ الرئيسة الدّالة على العدول في الثناء عليه مع سياقها، فكانت أول المواضع نهيًا له عن الحزن أن أثر:(حزن): ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾[آل عمران: ١٧٦]، ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ [لقمان: ٢٣] فعبّر عن رحمته - ﷺ - بحزنه عليهم ابتداءً، والحزن: تكاثف الغم وغلظته ولكنه لا يرى[1] فهو أقل من بخع النفس وذهابها حسرات لظهور أثرهما ومن ثم ثنّي به، وهذا ملائم لسياقه - كما تقدم- ولاءم بخع النفس سياق سورة الكهف وسورة الشعراء - كما تقدم-.

فهو أقوى دلالة على شدة الحزن، فالبخع: من بخع الشاة ، أي: بلغ بذبحها القفا، وبخعه الوجد: إذا بلغ فيه المجهود، وبخعت نفسي: له جهدتها له[2]. وبخع نفسه: قتلها غيظًا وغمًا[3].

فالبخع: قتل النفس غمًا كما أنّه حزن مع غضب[4] وهذا ملائم للسياق الذي وصف الكتاب فيه مانع لكفرهم، ومع ذلك كفروا فيحق له الغضب، ويعاضده في موضع سورة الكهف التقييد بـ:﴿ أَسَفًا ﴾ "والأسف: حسرة معها غضب أو غيظ[5] ؛ لأنه أعلى في بيان حزنه.

ولما علا حزنه - ﷺ - عبر عنه بـ: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾[فاطر: ٨].

وإذهاب النفس: إهلاكها، "والحسرة غم يتجدد لفوت فائدة" [6]، ومن ثم ثلّث به، فرتب الحزن على درج المصحف ترتيبًا تصاعديًا فبدأ بالأقل: (الحزن) ثم ثنى بالأقوى منه: وهو بخع النفس، ثم ثلث بأقواها : وهو إذهاب النفس .

---

(١) ينظر : الفروق اللغوية :الفرق بين الحزن والكرب: ٢٩٧.

(٢) ينظر : أساس البلاغة: باب الباء: الباء مع الخاء : ٣١/١

(٣) ينظر : لسان العرب: باب الباء: ٢٢٢/١.

(٤) نفسه.

(٥) الفروق اللغوية:الفرق بين الغم والحسرة والأسف: ٢٩٨.

(٦) نفسه.

وكما دلت هذه الكلمات على الإقبال بمعانيها دلت عليه بمبانيها، فعبر عن الحزن بالمضارعة: ﴿ يَحْزُنكَ ﴾ لأنّ حزنه - ﷺ - متجدد مستمر مع كل بادرة كفر لهم.

وعبر عن بخعه لنفسه بالاسمية: ﴿ بَٰخِعٌ ﴾ الدّالة على الثبات، وباسم الفاعل الدال على أنّ هذا وصف لذاته، وهذا أدخل في بيان رحمته - ﷺ - وأتى بالأسف بالمصدرية: ﴿ أَسَفًا ﴾ وهي أيضاً أدل على الثبات فقصد بذلك الثبات في الاسمية.

وأتى بالحسرات مجموعة ولم يفردها، وهذا دال على كثرة تتابعها من جهة وتنوعها على أي نوع أو بادرة كفر منهم، وهو يتناسق بناء مع ماسبق مادة في الترقي في شدة الحزن المتناسب مع درج المصحف.

وكل هذا -كما نص الحرالّيّ- أعظم المدح والثناء له: "فيكون له في خطاب التشديد عليه في أخذه أعظم مدح، وأبلغ ثناء من الله، ضد ما يتوهمه الجاهلون"[1].

وقد ورد عدولًا فعدل -كمايرى الحرالّيّ- بنهيه عن هذه الصفات عن التصريح بمدحه بصفة حرصه - ﷺ - لكون الآيات مسوقة في وصفهم هم، فتأتى الإقبال من جانبين:

أولهما: تكريمه - ﷺ - بهذه الصفات والثناء عليه.

آخرهما: تسليته - ﷺ - بذمهم وبيان عدم استحقاقهم لحزنه وقتل نفسه غمًا من أجل ذلك، وهذا أصفى الإقبال وأعلاه؛ ولذا علقه بـ: ﴿ نَّفْسَكَ ﴾ والنفس أدخل في سياق التأثر وعمق الحزن؛ إذ هي الجوهر اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية[2]، وما في إضافتها إليه من معنى التكريم: ﴿ نَّفْسَكَ ﴾، ومقابلة هذه النفس الكريمة بضمائرهم يعلي من جانب النهي، ومن ثم التكريم والتسلية .

ووصفهم بـ: ﴿ يُسَٰرِعُونَ ﴾ والمسارعة إلى الشيء: المبادرة إليه [3] تهوين منهم، وورودها بالمضارعة -الدّالة على تجدد ذلك منهم واستمراره- أدخل في ذمهم وبيان عدم استحقاقهم، فمقتضى الظاهر الرجوع إلى العذل معهم لا رحمتهم، ومن هنا تولد العدول في الإقبال عليهم.

---

(١) التوشية والتوفية: ١٢٢.

(٢) ينظر: التعريفات: ١٩٢.

(٣) ينظر: لسان العرب: باب السين: ٣/١٩٩٤.

كما أنّ النظم سيق لبيان حقيقتهم -أيضًا- بأنهم انتكسوا: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر: ٨]

والتزين: تحسين ما ليس بحسن: بعضه أو كله[1]، وصرح -أيضًا- بضده في قوله: ﴿ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ أي صورت لهم أعمالهم السيئة بصورة حسنة ليقدموا عليها بشره[2] وهذا أدعى إلى تركهم.

وأتى هذا الوصف لهم ملائم لشدة حزنه عليهم في موضع سورة فاطر: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ فكيف يأخذهم بالرحمة من دون العدل؟

وحين تكلم عن ظهور سبب الهداية التي يعرضون عنها في سورة الكهف وصفه بالحديث؛ والحديث يكون عن سلف وعن حضر، ويكون طويلًا وقصيرًا، كما أنّ الحديث ما يكون عن النفس فكأنه معروفٌ لهم وهو منتشر متواصل[3]، ومع هذا يكذبون، فكان ورود التعبير عن الحزن بـ: ﴿ بَٰخِعٌ ﴾ أدعى أن يخالط الحزن غضب عليهم؛ لأنّ هذا الظهور للحق أدعى أن يخالط الحزن غضب عليهم.

ومما جاء فيه الإقبال على طريق العدول -على رأي الحرالّيّ- في سياق الثناء عليه ببيان حرصه على هداية قومه، قوله سبحانه: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ [الأنعام: ٥٣].

ذلك أنّ ظاهر الشرط والنهي يخالف صفاء الإقبال، فالشرط في قوله: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٥] على تقدير جواب: (فافعل) أمرًا منه، ففيه على ما ذهب إليه

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٢/١٢٢.
(٢) نفسه.
(٣) ينظر: الفروق اللغوية: الفرق بين القصص والحديث: ٥٤.

الشهاب[1] نوع توبيخ، ذلك أنّه إذا وبخه على طلب ما اقترحوه تعريضًا كان توبيخهم أجدر وأنسب بقوله: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ بصراحته في التعريض.

ومن ثم كان فيه شيء من اللوم والتوبيخ على طريق التعريض في خطابه – ﷺ – ولهذا تناسق عنده – على حسب مقتضى الظاهر – مع النهي في قوله في نهاية الآية: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ على وجهين:

١) إما أن يكون على تحقيق مناط النهي الذي هو الوصف الجامع فيه – ﷺ – بصفتهم وهذا هو الذي ذهب إليه الشهاب[2].

٢) أو أن يكون على وجه من الشوب في الإقبال كخطاب الله لنوح – عليه السلام – ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[هود: ٤٦] وهو ما ذهب إليه ابن عطية[3]، حيث عدّ الوجه القوي في الآية –عنده– أن يكون قد جاء – بحسب الأمرين اللذين وقع النهي عنهما والعتاب فيهما – متشابهًا مع قوله –تعالى–: ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود: ٤٦]، بل إنّه ذكر أنّ الأمر الذي نهي عنه محمد – ﷺ – أكبر قدرًا، وأخطر مواقعةً من الأمر الذي وقع لنوح – عليه السلام –.

وكلا الوجهين غير وجيه، فلا هو على التوبيخ تعريضًا كما ذهب إليه الشهاب، ولا على الشوب تصريحًا كما ذهب إليه ابن عطيه، بل هو على المدح صفاء في الإقبال؛ ذلك أنّ سياق الآيات من قوله –تعالى–: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٣] إلى قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٧] إنما جاء لتأنيسه – ﷺ – وتسكين قلبه وللإشارة إلى ظهوره عليهم في قوله: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٤] أي وأنت

---

(١) ينظر: "حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي": الشهاب الخفاجي، ط من دون، دار صادر، بيروت: ٤/٥٣.

(٢) نفسه.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، ط٢، ت: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، السيد عبدالعال إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م: ٦/٤٤.

كذلك، فهذا السياق الحاني الذي يربت على كتفه – ﷺ – لا يعقل أن يتأتى فيه تأويل النهي على حقيقته؛ لأنّ ذلك خروج عن الغرض المسوق له الكلام، بالإضافة إلى نبوه عن السياق[1].

ومن ثم صرفه الحرالّيُ إلى خلاف مقتضى الظاهر عدولاً في التركيب إلى الثناء عليه – ﷺ – بشدة حرصه على هداية قومه رأفة بهم ورحمة وفق الجبِلّة والطبع الذي طبع عليه من الشفقة مع المخالفين، وفهم الكلام على الاستعارة التمثيلية [2]، وتفسيرها هنا :لا تكن في طلبك الآيات لهم تعجلًا لإيمانهم مع استلزام ثباتهم على الكفر لانتفاء النفع بها، كحال طالب الشيء لغير أهله زيادة في الحرص عليهم، بجامع شدة التعلق في كل، ومن ثم عدل عن صريح اللفظ في الثناء عليه بشدة حرصه على إيمانهم إلى هذا الأسلوب لإفادة أمرين:

١) أنّه كالدليل على شدة الحرص؛ فهو كدعوى الشيء ببينة، ولا شك أنّه آكد في النفس وأبلغ بخلاف صريح اللفظ، كأنّه قال أنت بالغ الحرص على هدايتهم، ولا أدلّ على ذلك من أنّك لو استطعت فعل هذا لفعلت طلبًا لإيمانهم، فهو أكثر مبالغة من صريح اللفظ.

٢) أنّه أفاد خصوصية فيه – ﷺ – عن غيره من الأنبياء؛ إذ إنّه قد ذكر في السياق صبر الأنبياء على التكذيب فقط: ﴿ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ ﴾ أما هو – ﷺ – فهو مع الصبر يأسى لكفرهم ويحزن حتى إنّه لو استطاع أن يطلب لهم ما به يؤمنون ولو كان على خلاف الأصل لفعل.

ومن ثم كان الأسلوب على صفاء الإقبال فالوجه الصحيح هو ما ذهب إليه الشيخ الطاهر في تقدير جواب الشرط للعلم به، أي :"لا يؤمنون"[3] للدلالة على حرصه – ﷺ – على هدايتهم وإيمانهم، دلالة على أنه – ﷺ – قد بلغ في شدة حرصه فوق ما تقصر عنه الاستطاعة؛ رغبةً في جلب الخير لهم، وهو كما ذهب إليه الشيخ استعمال شائع.

فالنهي إذن أتى لتأنيسه وتسكين قلبه، وليس على أصل وضعه، ويدل على ذلك أمور في الأسلوب:

---

(١) ينظر : اعتراضات الشيخ محمد الطاهر بن عاشور البلاغية في التحرير والتنوير :عرض وتأصيل ودراسة (علم المعاني): ٨٦٧.

(٢) ينظر : التوشية والتوفية: ١٢٣.

(٣) ينظر : التحرير والتنوير : ٦/ ٧٩.

أولاً: تركيب الشرط وأثره في بيان العدول:

تصدَّر نظم الآية الشرط بـ:(إنْ) ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[الأنعام: ٣٥] من دون: (إذا) للإيماء إلى أن ذلك من قبيل الفرض والتقدير وليس للتحقيق[1] حتى يتأتى عليه توبيخ، فضلاً عن أن مقتضى الشرط لايدل على وقوع ولاعدم وقوع.

كما أنّ التعبير بالاستطاعة دون القدرة فيه دلالة على تأتي الفعل؛ لأنها وجود ما يصير به الفعل متأتياً من البنية والتصور والمادة والآلة [2]، ويعضد ذلك قوله:﴿ تَبْتَغِيَ ﴾ التي تومئ إلى أن ذلك تجاوز الحد وما يليق بك، كل هذا يدل على إرادة الفرض والتقدير من الشرط برمته وليس فيه لوم أو توبيخ [3].

ولذا حذف جواب الشرط ودل عليه فعل الشرط وهو: (استطعت) وقدره ابن عاشور بـ: (فإنهم لايؤمنون)[4]، فالشرط وجوابه مستعملان في التأييس من إيمانهم وإقناعهم؛ لأنّ الله جعل على قلوبهم أكنّة، ومن هنا تأتي العدول بالثناء عليه - ﷺ - بعظيم رحمته وشفقته عليهم.

ومن ثم جاءت الاستعارة في قوله: ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٦] من قوله: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٦] للدلالة على استحكام العيب فيهم مهما بالغ- ﷺ - في الحرص على إيمانهم، وهذه الاستعارة تقوي ما ذهب إليه الشيخ من تقدير الجواب (لايؤمنون) حتى تتناسب معه، فالكلام ليس في تحديه وإنما في إعذاره.

ثانيا: أسلوب النهي وأثره في بيان العدول:

جاء النهي في:﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ معطوفًا بـ: (الفاء)؛ للإيماء إلى ترتب النهي على سابقه: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ فالنبي - ﷺ - لا يمكن أن يجهل أنّ هذا الأمر تابع لمشيئة الله - ﷻ - فهذا صارف عن أن يكون النهي على حقيقته، بل إنّه -كما ذكر

(١) ينظر: مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح: ٢/٣٦.

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الطاء، مادة طوع: ٣١٢.

(٣) ينظر: اعتراضات الشيخ محمد الطاهر بن عاشور البلاغية في التحرير والتنوير: عرض وتأصيل ودراسة (علم المعاني): ١٦٤، ١٦٥.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٦/٧٩.

الحرالّيّ- على سبيل الاستعارة التمثيلية، أي : فلا تكن في طلبك هذا كالجاهل، وهذا من شدة رحمته، بدلالة بناء النظم: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ على حذف مفعول المشيئة : (أن يجمعهم على الهدى) وهو لا يكون إلا إذا كان المعنى معلومًا غير غريب عن المخاطب لدلالة الحال عليه[1]، فكيف لا يعلمه الرسول - ﷺ - حتى ينهى عن حقيقته ؟! يعضد هذا القصر بـ(إنما) بعده: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[الأنعام: ٣٦] وهو للشيء المعلوم[2] .

ومثله في صرف الإقبال عن ظاهره عند الحرالّيّ قوله - تعالى-: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[يونس: ٩٤-١٠٠] .

فالغرض من النظم بيان حرصه - ﷺ - على هدايتهم، ونظم الكلام في ظاهره لا يتناسب مع هذا؛ فقد أسند الخطاب إليه - ﷺ - مما يؤدي في ظاهر الكلام إلى نسبة الشك إليه - ﷺ - وحاشاه أن يكون كذلك؛ لذا وجب صرف الكلام بما يتناسب مع مقام الآية وحال المخاطب وسياقها.

وذهب فيها العلماء مذاهب متعددة:

أ - أن يكون الخطاب شاملاً للخلق، أي: إن كنتم في شك فاسألوا، على تأول المفرد بالجمع[3].

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز : ١٥٥.

(٢) ينظر : السابق: ٣٣٠.

(٣) ينظر : تفسير البيضاوي ٥/٦٠، والتفسير الكبير ١٦، ٤٤٣، ٤٤٤، والمحرر الوجيز : ٩/٩١.

ب – جريان النظم على الإلهاب والتهييج، وليس من الشك والعموم كما تقول العرب: إن كنت أبي فتعطف علي[1].

ج – أن النظم على ظاهره، أي: يامحمد إن كنت في شك من القرآن، فاسأل من أسلم من اليهود فإنّهم أعلم به، من أجل أنّهم أصحاب كتاب[2].

د – أن تكون: (إنْ) في معنى: (ما) [3] فيكون المعنى: "ما كنت في شك مما أنزل إليك فأسأل الذين يقرأون" أي لسنا نأمرك لأنك شاك، ولكن لتزداد، كما قال إبراهيم – عليه السلام –: ﴿ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وعليه فالزيادة في التثبت ليست مما يبطل صحة القصد[4].

هـ – وذهب الطاهر ابن عاشور إلى تجويز مسلكين في نظم الآية:

١) أن تبقى الظرفية التي دلت عليها: (في) على حقيقتها، ويكون الشك قد أطلق وأريد به أصحابه، أي : "فإن كنت في قوم أهل شك لما أنزلنا إليك" أي: يشكون في وقوع هذه القصص، كما يقال : دخل في الفتنة، أي في أهلها.

ويكون معنى: ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [يونس: ٩٤] سؤال تقرير وإشهاد عن صفة تلك الأخبار، فيزول الشك من نفوس أهل الشك .

٢) أن تكون:(في) للظرفية المجازية، كالتي في قوله: ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾[هود: ١٠٩] "ويكون سوق هذه المحاورة إلى النبي – ﷺ – عن طريق التعريض لقصد أن يسمع ذلك المشركون، فيكون استقرار حاصل المحاورة في نفوسهم أمكن مما لو ألقي إليهم مواجهة"[5] .

و – وذهب الحرالّيّ إلى أنّه ثناء عليه – ﷺ – على وجه الاستعارة[6]؛ ومن ثم كان امتداد السياق والاستفهام في قوله – تعالى–: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]

---

(١) ينظر : معاني القرآن وإعرابه: ٣/٣٣.

(٢) ينظر : التفسير الكبير : ١٦/ ٤٤٣، ٤٤٤.

(٣) ينظر : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ٤٥. وفيه رد على من منع أن تأتي (إن) نافية إلا بعد (إلا، بقوله تعالى: ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ﴾[يونس: ٦٨] وبتخريج جماعة على إن النافية في قوله تعالى: ﴿ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾[الأنبياء: ١٧] و ﴿ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ ﴾[الزخرف: ٨١].

(٤) ينظر : معاني القرآن وإعرابه: ٣/٣٣.

(٥) ينظر : التحرير والتنوير : ١١/١٧٦، ١٧٧.

(٦) ينظر : التوشية والتوفية: ١٢٢.

مسوقًا مساق الثناء عليه – ﷺ – بدلالة أنَّ التقديم هنا لبيان شدة حرصه – ﷺ – عن طريق اللزوم، وهذا هو العدول.

ويدلُّ الأسلوب على صفاء الإقبال عليه – ﷺ – في هذا الموضع عدولًا –على مافهم الحرالّيّ– في معلم رئيس هو : **أسلوب الشرط وجوابه، حيث** ورد الشرط في الآية بـ: (إنْ) ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس: ٩٤] وورود النظم بالشرط لا إشعار فيه البتة بوقوع الشرط ولا عدم وقوعه، بل المراد استلزام الأول على تقدير وقوع الثاني.

وعلى هذا فقد ذكر اليعقوبي[1] أنَّ أهل العربية ما استعملوا – قط – قضية حكموا فيها باللزوم بالقصد الذاتي، فإن كان ثَمَّ لزوم بين الشرط والجزاء فهو اتفاقي غير مقصود، فمتى ثبت اللزوم بين الجزاء والشرط صدقت القضية ولو لم يقع واحد منهما.

وإذا ثبت أن القضية الشرطية لا تقتضي البتة وقوع الشرط انتفى الحرج من نسبته إلى الرسول– ﷺ – من وجه، ومن وجه آخر فإنَّ هذا يؤيد القول بأنّه عدول في الثناء عليه – ﷺ – مناسبة لسياق التأنيس للرسول – ﷺ – والتسلية له بأن يتأسى بسابقيه، وهذا فيه ثناء على شدة شفقته ورحمته – ﷺ –.

ثم إن ترتيب السؤال: ﴿ فَسْـَٔلِ ﴾ بـ:(الفاء) على كونه في شك= مانع من وقوعه؛ إذ إنّ الفاء تقتضي التسبب، ولم يقع سؤال لأهل الكتاب، فلم يقع منه شك – ﷺ – إنما هي شدة رحمته– ﷺ– وشفقته على أمته أوردت له هذا الخطاب، كما ذكر الحرالّيّ على الاستعارة التمثيلية[2] أي: فلا تكن من شدة حرصك ورحمتك كالشاك في تأثير ما أنزل عليهم وإنه الحق لكن إيمانهم مستعصٍ، فالبلاء كامن فيهم هم فلا تأس عليهم، ومن ثم كان الأسلوب مفعمًا بالإنعام بدءًا بالإسناد إلى ضميره – ﷺ – في: ﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ وما تستلزمه الربوبية من الإنعام، وما يوحي به الإسناد من اختصاصه بهذا الشرف وتلك النعمة، وما في: (ٱلْحَقُّ) من دلالة تحقق صفاء الإقبال بما يتنافى مع حمل الكلام على ظاهره وهذا يستلزم العدول.

فكيف يتأتى اللوم أو العتب في هذا الإنعام وهذا التركيب والسياق دالٌّ يقينًا على أنّه لم يقع فيه شك البتة؟ ولكن لشدة حزنه وحرصه ظهر كأنّه كذلك، ومن ثم رتَّب على هذا بيان حرصه– ﷺ –

(١) ينظر : مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح: ٢/٣٦.

(٢) ينظر : التوشية والتوفية: ١٢٣.

على هدايتهم في صورة أعلى حيث جعله كالمكره لهم على الإيمان في قوله:﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ بأسلوب التقديم.

وقد اتفق العلماء أنّ تقديم المسند إليه في قوله -تعالى-: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ يفيد شدة حرصه -ﷺ- على هداية قومه على وجه الكناية[1].

ومن مستلزمات التقديم في الكناية تولد العدول، فسياق الآية ومناطها يحمل الكلام على التأكيد والتقوية[2]، وهذا تعريض بالثناء على النبي - ﷺ - ومعذرة له على عدم استجابتهم إياه وهذا هو العدول، كما أنّ مقامها غير صالح لاعتبار القصر؛ إذ مجرد تنزل النبي - ﷺ - منزلة من يستطيع إكراه الناس على الإيمان كاف في الإشارة إلى تشبيه حرصه على إيمانه بحرص من يستطيع إكراههم عليه، فالتقوية إذن أكثر ملاءمة لمقام النبي - ﷺ - وأكثر ملاءمة من الاستفهام، في حين أنّ دلالة الاختصاص تتنافى مع ذلك من وجوه:

أ - أنّ مقام الآية هو تسليته - ﷺ - ودفع لما يضيق به صدره، فضلاً عما ذكره الشيخ الطاهر من إعذاره في عدم إيمانهم، وثناء عليه - ﷺ- بأنّه قد أدّى ما عليه، وهذا يتعارض مع توجيه الإنكار إليه أن يكون هو الفاعل مع تقرر أصل الفعل على اعتبار إرادة الاختصاص من التقديم؛ لأنّ هذا كالإيحاش بعد الإيناس، وكالجفوة بعد القرب[3].

ب - سياق الآية يدل على أنّ القصد إلى عدم وقوع الإيمان منهم، فضلاً عن عدم الإكراه عليه، وليس على أن ذلك من غيره - ﷺ- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾[يونس: ٩٦-٩٧].

ج - كما أنّ الخطاب في الآية مع النبي - ﷺ - وهو لم يعتقد اشتراكه في ذلك، ولا انفراده حتى يكون من قبيل الاختصاص[4].

فالتقوية إذن أدخل في الثناء والصفاء عنها في الاختصاص؛ لذا هي أقوى -عندي- من الاختصاص لملاءمتها للسياق والمقام.

---

(١) ينظر : الكشاف: ٣/١٧٦، التفسير الكبير : ٦/ ٣٠٥، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ٣/٤٩٩.

(٢) ينظر : اعتراضات الشيخ محمد الطاهر بن عاشور البلاغية في التحرير والتنوير : عرض وتأصيل ودراسة (علم المعاني): ٣٧٢، ٣٧٣.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

ب- العدول في بيان صفة شفقته – ﷺ –:

كما ورد العدول في صفاء الإقبال في بيان صفة رحمته وحرصه على إيمان قومه الذي ترتب عليه حزنه الشديد ورد أيضا -كما يفهم الحرالّيّ- في بيان شفقته – ﷺ – على أهله في سورة التحريم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧ ﴾[التحريم: ١-٧].

وفي شأن **شفقته على أصحابه** كما في أمر عبدالله بن أم مكتوم: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ ﴾[عبس: ١-١٠].

ومغرس صفاء الإقبال في سورة التحريم متولد من آخر سورة الطلاق المتقدمة: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ۝١٢ ﴾ فعلم الله – ﷻ – برحمة الرسول – ﷺ – وعظيم مروءته هي سبب الثناء عليه وتكريمه، وعليه ناداه في مفتتح السورة بـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ وهذا هو مغرس العدول في الإقبال عليه – ﷺ – إذ مقتضى هذه الكرامة وعلوّ الشأن أن يكون هو من يُحرص على رضاه لا أن يجاهد هو لإرضاء أهل بيته، ولكن عظيم شفقته – ﷺ – ورحمته لأهل بيته جعلته هو – ﷺ – من يبتغي رضاهن، وإن كان مقتضى الظاهر أن يكون هو من يُخطب وده فكيف بالتظاهر عليه؟

وسياق السورة كله مبنيٌّ على تكريمه – ﷺ – فكيف يتناسب هذا التكريم مع فهم العتب من الاستفهام؟! فهذا ما يعبر عنه بفساد الوضع وهو لايكون في بلاغة القرآن، فالنظم الحكيم متناسب

من مفتتحه إلى مختتمه، فحين يفتتح السورة بنداء التكريم ويختم السياق بوعده بالبديل الأفضل والأكمل لايتأتى هذا مع محض العتاب، بل يتناسب مع خالص المدح وصفوه.

ونص على ذلك الرازي حين قال:" ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ يوهم أنّ هذا الخطاب بطريق العتاب، وخطاب الوصف -وهو النبي- ينافي ذلك؛ لما فيه من التشريف والتعظيم"[1].

كما يفهم من كلام البقاعي - أيضًا- أنّ الكلام هنا مبنيٌّ على العدول، وإن كان توجيهه له على خلاف ما ذكرت؛ حيث قال: " إن من خطابه - سبحانه - عتابًا لأزواج نبيه في صورة عتابه؛ لأنّه أبلغ رفقًا به؛ لأنّه يكاد من شفقته أن يبخع نفسه الشريفة رحمة لأمته تارة لطلب رضاهم وأخرى رغبة في هداهم "[2] فهذا نصٌّ منه على العدول؛ حيث جعل الخطاب لعينه والمراد غيره، فالغرض الرئيس هو عتابهن على هذا ولكن جاء في سورة خطاب النبي - ﷺ -.

والأولى ما ذكره الرازي، فليس في الكلام صرف -على ما ذكره البقاعي- لسببين:

١) أنّ عدّ صورة العتاب له - ﷺ - على إرادة عتاب أزواجه يتأكد افتتاح الخطاب بالنبوة أول السورة؛ لما في النبوة من دلالة العلوّ ورفعة الشأن[3].

٢) أنّه وجه لهن خطاب العتاب مباشرة بعد ذلك في صورة أشد، فليس ثمّ ما يستدعي صرف الخطاب عنهن مباشرة في أول السورة.

والعدول في هذا الموضع -عند الحرالّيّ- منبئ عن شفقته - ﷺ - في معاملته لأهل بيته عن طريق الكناية؛ لأنّ ابتغاء مرضات الأزواج مع هذا الوصف المتقدم: (النبي) تؤدي يقينًا إلى مروءته، ومن ثم كان مقتضى الأساليب التقابل بين علوّ رتبته - ﷺ - وبين مبادرته هو بابتغاء مرضات أزواجه وحرصه على ذلك، ومقتضى الظاهر أن يكن هنّ من يبادرن بذلك، ويتجلى ذلك في أسلوبين:

١- بنية الاستفهام وأثرها في بيان العدول:

ورد الاستفهام بـ:﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾[التحريم: ١] بعد نداء التشريف:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ وفهم منه أنّه عتاب للرسول - ﷺ -لا يتأتى العتاب بعد التشريف؛ لأنه لا بد من تساوق الكلام في النظم، فما دام أنّه بدأ بالتشريف والتكريم، فالتناسب في النظم يستلزم الثناء عليه، وهذا الاستفهام داخل في الثناء، ولكي يفهم منه هذا الثناء لا يقطع الاستفهام عن متمماته وهي علته هنا :

---

(١) التفسير الكبير : ١٠/٥٦٩.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ٨/٤٣.

(٣) ينظر : معجم مقاييس اللغة: كتاب النون، باب النون والباء ومايثلثهما: ٢/٥٣٩.

﴿ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ ﴾[التحريم: ٢] ومن هنا يتولد العدول في صفاء الإقبال عليه، فمقتضى الظاهر أنّ من علت مكانته يكون هو من تبتغى مرضاته، لكن رحمة الرسول – ﷺ – جعلته هو من يحرص على إرضاء أهل بيته، وليس أي حرص بل حرص تكلف وطلب له؛ لذا وردت بـ:

﴿ تَبۡتَغِي ﴾ من دون تبغي أو تريد. فأتت على بنية تدل على الإلحاح في الطلب فـ(تفتعل) هنا زيادة في المبنى يدل على زيادة في المعنى، فهذا الافتعال دالٌّ على شدة الطلب والحرص، وعاضد هذه البنية دلالة مادة الفعل "تبتغي" فالابتغاء اجتهاد في الطلب[1] فكون هذه العلة لما استفهم عنه فهذا ثناء عليه – ﷺ – برحمته وعظيم شفقته على أزواجه مع علوّ مكانته وشريف وصفه.

٢– التقابل بين علوّ رتبته – ﷺ – وعظيم حرصه على مرضاة أزواجه:

في التقابل الوارد بين علوّ رتبته – ﷺ – مع عظيم حرصه إنباء عن طريق العدول عن شفقته، إذ إنّ ذكر هذا العلوّ مع هذا الحرص الغرض منه–على ما يرى الحرالّيّ– الثناء عليه –ﷺ– وبيان كريم شمائله التي جبل عليها، ويتجلى ذلك التقابل في أمرين:

أولهما: التصريح بتشريفه وتكريمه بالبدء بوصفه بالنبوة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ سواء كانت من الإنباء عن الله – ﷻ – أو من النبوة والرفعة [2]. فكلتاهما دلالتان على شريف مكانته وعلوّها. وكونه بهذه الرفعة هو من يبتغي مرضاتهن هذا منبئ عن عظيم رحمته وشفقته على أهل بيته.

وإيثار:(لِمَ) في الاستفهام:﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ أيضًا يتناسب مع التكريم، فلم يرد النظم بـ: (مالك) الدالة على العتب حيث اطّرد نظم القرآن أن تأتي: (مالك) للعتب خاصة: ﴿ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾[التوبة: ٣٨] وهذا في كل موضع وردت فيه؛ إذ إنّها صريحة في أنّ الأمر المستفهم عنه لحال يرجع إليه، ولكن:(لِمَ) لا تدل على ذلك، بل هي أعم، فقد يرجع الأمر إلى غيره[3] وهو كذلك هنا؛ فالأمر راجع إلى أزوجه – ﷺ – لا إليه، رحمة وشفقة بهن. وهذا دليل على أنّ النظم تكريم له – ﷺ –.

ويمضي النظم في تكريمه، حيث تتابع الخطاب له – ﷺ – (تحرم ، تبتغي..) وأسندت الأفعال إليه مباشرة بضمير الخطاب، فهذا فيه تكريم له – ﷺ – يعضده التعليق بضميره وتعديته بـ:

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن: كتاب الباء، مادة بغى: ٦٥.

(٢) السابق: كتاب النون، مادة نبأ: ٤٨٢.

(٣) الفروق اللغوية: الفرق بين قولك مالك لاتفعل كذا وقولك : لم لاتفعل ٣٤٧.

(اللام) الدالة على النفع: ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ (لَكَ) في حين أنّه حلٌ له ولغيره، لكن لما أراد جانب الخصوصية التي هي مناط التكريم علّقها به وحده فعدّاها بـ: (اللام).

ومجيء الجمع موضع المفرد تكريم له :﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾[التحريم: ٢] فالمخاطب المتقدم النبي – ﷺ – وورود الخطاب –هنا– بالجمع مع المخاطب المفرد تكريم له وتعظيم لشأنه .

كما تكررت: الموالاة له: ﴿ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ﴾. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ ﴾ وهذا فيه تكريم، لما في الموالاة من دلالات الموازرة والمحالفة وأنّه أولى به [١].

والتكريم ممتد إلى اليوم الآخر:﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾[التحريم: ٨] بما ذكر من هذا التآلف والاجتماع تحت لوائه هو خاصة – ﷺ – في ذلك الوقت دليل على مكانته، والتي يتناسب معها التآلف معه لا التظاهر عليه، فكل ما تقدم من أساليب هي في تكريمه– ﷺ – فلا يتأتى أن يفهم من الاستفهام فيها العتب، حتى ما ذكر في آخر السورة من قصص:﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التحريم: ١٠-١٢] فضرب المثل فيها عتاب لأزواجه لا له – ﷺ –.

آخرها: مقابلة الأسباب الداعية لعقاب أزواجه بعظيم حلمه وشفقته، حيث ذكر من حال أزواجه إفشاء السر، ثم صرح بالتظاهر عليه، وميل القلوب: ﴿ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾وقابل كل ذلك بإرضائهن:﴿ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾. وهذا من شفقته – ﷺ – يتجلى ذلك من دلالة الألفاظ المستعملة في حقه من الابتغاء ودلالته على طلب الشيء أكثر مما يجب – كما تقدم – وبلوغ الغاية في طلب الرضا التي عبر عنها بـ :﴿ مَرْضَاتَ ﴾ بالمصدرية والجمع فلم يطلب الرضا العادي

(١) المفردات في غريب القرآن: كتاب الواو: ٥٤٧.

بل طلب المرضاة العالية[1]، ثم إنّه عبّر عنهن في خطابه هو – ﷺ – :(أزواج) فمعاني الزوجية كلها في نفسه من: مودة ورحمة وسكن، بينما لم يصرح بوصفهن حين كان الخطاب معهن، وهذا علوٌ في شفقته كما أنّه أضافهن إليه: ﴿ مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ ﴾ ﴿ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ ﴾.

كما أنّ وسائل العون له من ربه والملائكة الصالحين فيها تكريم آخر منبئ عن مكانته فحين يكون هذا عونه ويقابل فعلهم بابتغاء المرضاة، فلما وقر في جبلته من رحمة، ومن هنا يتأتى العدول في الثناء عليه–عندالحرالّيّ– إذ أثنى عليه بالرحمة من خـــلال ذكر إيثارهن على نــفسه – ﷺ – مع أنّه هو المقدم بوصفه وبعونه وبما وعد به من بديل خير منهن إن أراد – ﷺ – .

أما شفقته ورحمته فيما ورد في شأن ابن أم مكتوم: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ ﴾[عبس: ١–١٠]فتتجلى في شفقته– ﷺ – على أفراد أمته من الكفر؛ لذا يتصدى لهم ويحرص عليهم: أما من دخل في حياض الإيمان كابن أم مكتوم فقد نُجّي من النار بإيمانه فيكله – ﷺ – إلى إيمانه ويحرص –شفقة– على من لا يزال في ظلمة الكفر ويخشى عليه الهلاك، قـــال ابن عاشور: " فمحض – ﷺ – توجيه كـلامه إليـه – المشرك– لأنّ هدي الناس إلى الإيمان أعظم غرض بعث النبي – ﷺ – لأجله فالاشتغال به يبدو أهم وأرجح من الاشتغال بمن هو مؤمن خالص، وتلك ما فعله النبي – ﷺ – "[2]، وعلى هذا تدور قاعدة الحرالّيّ[3].

وبالتأمل في الأسلوب الذي وردت به الآيات يتجلى لكل متأمل أنّ جانب الثناء فيها هو الغالب وإن كان على خلاف الظاهر ومن ذلك:

أ– أسلوب الغيبة وما فيها من تكريم:

فلم يخاطب بوصفي العبوس والتولي: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ ﴾ [عبس: ١] بل وردا بالغيبة، وهذا فيه دليل على كرامته – ﷺ – وعلوّ مكانته فلم يخاطبه بهذين الفعلين، ولم ينسبهما له صراحة لما فـي الخطـاب بهمـا مـن تقريـع ومواجهـة لا يقبلهـا المقـام، فلـيس المــقام مقـام تــوبيخ ولا عــــتب–عندالحرالّيّ– ولا حال النبي محمد – ﷺ – وفعله يتناسب مع ذلك.

---

(١) لأنه لم يقل "رضى" بل قال "مرضاة" ووزن مفعلة يأتي للدلالة على سبب كثرة الفعل. ينظر : معاني الأبنية في العربية : ٣٥.

(٢) التحرير والتنوير : ٣٠/٩٧.

(٣) ينظر : التوشية والتوفية: ١٢٢.

كما أنّ العدول عن الخطاب إلى الغيبة يحيل الكلام من العتب إلى البسط، وهذا هو صفاء الإقبال، يؤكد ذلك أنّه التفت بعد ذلك فيما ليس فيه مواجهة بما يكره إليه وخاطبه ولم يمحض النظم على الغيبة فقط: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ ﴾ [عبس: ٣-٧]، وهذا ما يطرد مع نظم المفصل من الذكر الحكيم، لاسيما ماكان في أول أمر الدعوة، حيث يشيع البسط معه شدًا لأزره وتقويه لساعده في الدعوة.

ب- الوصف ودلالته على العدول:

اختص ذكر ابن أم مكتوم - ﷺ - هنا بوصفه: ﴿ الْأَعْمَىٰ ﴾ لا باسمه، وهذا فيه إعذار للطرفين: لابن أم مكتوم؛ حيث ألح بالطلب على الرغم من شغل النبي - ﷺ - فهو لم يرَ من معه-ﷺ- ومن ثمّ لم يرَ انشغاله، وإعذار النبي - ﷺ - وثناء عليه بشفقته، فالعبوس: هو قطوب بالوجه[1] لا يجرح إلا رائيه، أما من لم يره فلا أثر له.

والتعبير بهذا الفعل خاصة مع هذا الوصف هو دليل على شفقته - ﷺ - العظيمة، فلم يفعل ما يؤذي ابن أم مكتوم ويصله أذاه، بل إنّ هذا الفعل إنّما هو نتاج شغله، ولو أنّه من إعراض منه-ﷺ- لكان القول أو الصوت أو الدفع هو الأولى، فورود هذا الوصف مع الفعلين: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ هما ثناء عليه- ﷺ - عن طريق اللزوم؛ إذ لازمهما أنّه لم يحرجه صراحة، ولا عمد إلى ذلك.

ج- تقابل الأحوال ودلالة أساليب التعبير عنها على العدول :

تناسب حاله - ﷺ - مع أحوال المخاطبين جليّ في هذا النظم، وهو دائر -ولا شك لكل متأمل- في بيان شدة حرصه وشفقته على أمته - ﷺ - فلما كان ابن أم مكتوم- ﷺ - مؤمنًا قد ثبت إيمانه ولا يحتاج إلا الترقي بدلالة النظم على ذلك: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ ﴾ [عبس: ٣-٤] فهو بين التزكية والرقي بالنفس والتذكر ، لذا وكله - ﷺ - إلى إيمانه- وهو عطاء لا كالعطاء ثناء عليه لا كالثناء وبر به لا كالبر لم يصل إليه إلا الأنصار خاصة - فهو في الحقيقة إعلاء من قدره، ثم حرص على من لا يزال يخشى هلاكه بتصميمه على كفره .

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن: كتاب العين: ٣٢٣.

وقد صرح النظم الحكيم بأحوال تعذر النبي – ﷺ – على ما فعل، وتنبئ بالثناء عليه بشفقته وشدة حرصه،

فكان منه التصدي لمن ظهر منه الاستغناء: ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ ﴾[عبس: ٥-٦] فالاستغناء: هو عزوف أشد من الرفض عن الحق؛ إذ في الغنى دلالتا الاكتفاء، والترفع[1] وهما مانعان من قبول الحق؛ لاعتقاد أنّ ما لديه هو كاف له عن أي اعتقاد جديد، كما أنّ الغنى من لوازمه الترفع، فهذا أدل على شدة إباء الدعوة فقابل حاله بحال النبي: ﴿ تَصَدَّىٰ ﴾ والتصدي فيه مقابلة الشيء، كما أنّ فيه دلالة ترجيع الصوت وتكراره [2]؛ لذا آثره النظم من دون: (تحرص)أو (تلاحق) مثلا؛ لأنّه أنسب لحال المخاطب الذي وصف بالاستغناء، كما أنّه أدلّ على شدة الحرص والإلحاح الدّال على شفقته – ﷺ– فالمواجهة أدعى لقبول الدعوة.

يعاضد هذه الدلالة على الاهتمام تقديم المتعلق: ﴿ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴾ تأكيدا على العناية والاهتمام به، وإيثار التعدية بـ:(اللام) على :(على) لأنّ فيها دلالة على الحرص على نفعه خاصة؛ لدلالة :(اللام) على النفع.

ثم ترقى النظم في إظهار شفقته–عند الحرالّيّ– بأن استفهم بـ: ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ ﴾[عبس: ٧] ففي الاستفهام رفق بالرسول – ﷺ – وحضّ له على الرفق بنفسه، وعدم المشقة عليها بالحرص على من لا يهتدي؛ إذ فيه نفي لأن يكون هذا من مقتضيات رسالته، ولكن لأنّ هذه الشفقة جبلّة فيه – ﷺ – غلبت عليه حتى مع أشدّ المعاندين، وهذا مناط الثناء عليه؛ لذا ورد معه حرف الجر: (على) الدّالة –هنا– على المشقة وتحميل النفس فوق طاقتها ، ومثل هذا – في شدة الحرص مع تغاير في الأسلوب– قوله –تعالى–: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾ [الكهف: ٦]، وإن اختلف الأسلوب بين نفي صريح واستفهام بمعنى النفي إلا أن فيه دلالة على شدة رحمته، حيث يكلّف نفسه ما لم يكلّف به في التبليغ حرصًا عليهم، وهذا مما جبل عليه من الرحمة والشفقة .

فكل هذا الاستغناء يقابله بكل ذلك الحرص والشفقة، ولكن لما كانت بوادر الإيمان ومستلزماته ظاهرة في ابن أم مكتوم انشغل عنه بغيره: ﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن: كتاب العين: ٣٦٨

(٢) نفسه.

تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [عبس: ٨-١٠] فعبَّر عن إتيان ابن أم مكتوم بالمجيء بما فيه من دلالة المشقة[١] مع كونه أعمى، فالصبر على تحمل هذه المشقة للقدوم للنبي – ﷺ – دليل على رسوخ إيمانه، ولهذا وكله الرسول – ﷺ –إلى إيمانه وأشفق على غيره من كفره ... ثم إنه :(يسعى) والسعي: فيه دلالة الخطى السريعة الحثيثة[٢] فلم يرد النظم يمشي، وهذه السرعة في المشي دليل رغبته الثابتة في الهداية لا يمكن أن يغيرها تلهي الرسول بدعوة غيره، ثم وصف بالاسمية: ﴿ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ ﴾[عبس: ٩] والخشية: مرتبة عالية من الخوف من الله، ففيها استشعار لجلال الله وعظمته[٣] تؤكِّد –ليس فقط ثبات الإيمان– الارتقاء به إلى مراتب عالية لا يكون للخوف من رجوعه عن الإيمان أن تلهّى عنه الرسول – ﷺ – مدخلا، ومن هذا ما نصّ عليه الرسول– ﷺ– مع الأنصار في توزيع الغنائم: " أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ"[٤] ثم إنه لم يصرح بأنه أعرض عنه إعراضًا يقتضي اللوم أو العتاب، فلم يقابل مثلاً: (تصدّى) بـ: (تصدّ عنه) بل تخيّر النظم: ﴿ تَلَهَّىٰ ﴾ الدّالة بنية ومادة على إعذاره – ﷺ – وإبراز شفقته حتى على ابن أم مكتوم في انصرافه لغيره؛ فبناء :(تلهّى) على: (تفعّل) فيه مبالغة وتكلف في التلهي عن ابن أم مكتوم، فكأن الرسول –ﷺ– يكلّف نفسه ويرغمها على هذا التلهّي لمصلحة الدعوة والأمة، وإلا فهو حريص على ابن أم مكتوم منتبه له.

والتلهي ليس فيه دلالة صريحة البتة على الإعراض أو الإساءة، إنما هو دلالة على الاشتغال عما يعنيه ويهمه[٥] فأمر ابن أم مكتوم –إذن– مما يعني الرسول – ﷺ – ويهمه ولكنه وكله إلى إيمانه وشغل نفسه بمن يأمل إيمانه .

فالنظم –عند الحرالّيّ– مبني على العدول في بيان عظيم شفقته – ﷺ – وليس فيه عتب البتة له، إنما يمكن القول بأنّ فيه زيادة إكرام للرسول – ﷺ – بأنْ يزيده علمًا على علمه، حيث كشف له بواطن قوم كان الرسول – ﷺ – يتعامل مع ظواهرهم ويحرص عليهم، فكأنّ النظم يدل –هذا–

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن: كتاب الجيم:٩١.

(٢) السابق: كتاب السين: ٢٣٨.

(٣) السابق: كتاب الخاء: ١٥٥ .

(٤) مسند الإمام أحمد' أحمد بن حنبل، ط٢، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م: رقم الحديث ١١٧٣٠: ١٨/٢٥٥.

(٥) ينظر : المفردات في غريب القرآن: كتاب اللام: ٤٥٨.

على جمع دواعي العلم للتعامل مع من يدعوهم تبعًا لظواهرهم وبواطنهم، وهذا هو عظيم التكريم والمنّ.

وكذلك ورد صفاء الإقبال في ثوب العدول-عندالحرالّيّ- في سياق شفقته - ﷺ - على نفسه في قوله-تعالى-: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

حيث إنّ ظاهر التركيب يدل على إرادة العتب بما يتنافى مع صفاء الإقبال، ومبنى العتاب واللوم متولد من أمرين :

الأول : ما ذكره الزمخشري ومن تبعه من أنّ الواو في قوله: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] واو الحال؛ أي: تقول لزيد أمسك عليك زوجك مخفياً في نفسك ألا يمسكها، وتخفي خاشيًا مقالة الناس حقيقاً في ذلك أن تخشى الله[1] .

ومن ثم كان في هذا اختلاف بين الظاهر والباطن؛ حيث إنّ ذلك جار عندهم على ما يتحفظ عنه الإنسان ويستحيي أن يطلع عليه الناس مع كونه مباحًا في نفسه .

الثاني: هو أنّ: (ما) في قوله سبحانه: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ مبهمة وتفسيرها بإرادة تعلق قلبه بزينب - رضي الله عنها - أو مودة مفارقة زيد إياها؛ بناء على ما ذكره الزمخشري من أنّ طموح قلب الإنسان إلى مشتهياته غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع؛ لأنّه ليس من فعل الإنسان، ومن ثم جرى الكلام في ظاهره عندهم على إرادة العتاب أو اللوم.

والذي يمنع منه السياق سورة الأحزاب المبني على تكريم النبي - ﷺ - وخصوصيته في الإقبال خصوصية جعلت لطراد الإقبال فيها عليه أعلى من غيرها .

---

(١) ينظر : الكشاف: ٥/٧٤.

ثم سياق المدح وصفاء الخطاب ومدافعة الله عنه والثناء عليه بتفرده بجوانب التكريم - كما تقدم في صريح الإقبال- [1] كل هذا يمنع من إجراء الكلام على ظاهره، ويستلزم سلكه في العدول-عند الحرالّي- إقبالاً عليه.

ومن ثم يكون تأويل الخبر في قوله: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ على الحث والتشجيع للنبي - ﷺ - وليس على العتاب واللوم .

وهذا ما ذهب إليه الشيخ ابن عاشور في قوله: " وليست جملة: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ﴾ حالًا من الضمير في: ﴿ تَقُولُ ﴾ كما جعله في الكشاف؛ لأنّ ذلك مبني على توهم أن الكلام مسوق مساق العتاب على أن يقول كلامًا يخالف ما هو مخفي في نفسه.

ولا يستقيم له معنى؛ إذ يفضي إلى أن يكون اللائق به أن يقول له غير ذلك، وهو ينافي مقتضى الاستشارة، ويفضي إلى الطعن في صلاحية زينب للبقاء في عصمة زيد ... وجملة:﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾. عطف على جملة:﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ ﴾ أي تخفي ما سيبديه الله، وتخشى الناس من إبدائه... وليس في قوله : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ عتاب ولا لوم، ولكنه تذكير بما حصل له من توقيه قالة المنافقين، وحمله كثير من المفسرين على معنى العتاب، وليس من سياق الكلام ما يقتضيه فأحسبهم مخطئين فيه .." [2].

وما ذهب إليه الشيخ هو الصواب، فلا مدخل للعتب واللوم البتة في الآية؛ فسياق السورة عمومًا كان في تكريمه - ﷺ - [3].

وقد دل نظم الآيات على هذا الصفاء في الإقبال سواء كان ذلك في مدحه - ﷺ - أو في بيان حرصه وشفقته، وذلك من وجهين:

أ- جعله من جملة الذين يبلغون رسالات الله ... فقوله: ﴿ الَّذِينَ ﴾ تستلزم أن يكون- ﷺ- داخلًا في هذا الحكم؛ بل إنه في موضع الصدارة: ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ فهو خاتم، والخاتم يدل على مدح له بالخصوص بعد العموم، بما في دلالة خاتم من أفضلية، فختام كل شيء: أشرفه وأكمله.

---

(١) ينظر البحث:٢٨٥وما بعدها.

(٢) التحرير والتنوير: ٢١/٢٦٤.

(٣) اعتراضات الشيخ محمد الطاهر بن عاشور البلاغية في التحرير والتنوير : عرض وتأصيل ودراسة (علم المعاني): ٣٩، ٤١.

وهذا يتنافى مع صرف: ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ إلى العتب، فالخشية ليست مجرد خوف، بل فيها تعظيم المخشي منه، لأنها تتعلق بمنزلته[1]، وهذا لا يليق بالنبي – ﷺ – البتة، فخشيته إشفاق منه – ﷺ – على عرضه من قالة المنافقين كما قال ابن عاشور: " والخشية هنا كراهية ما يرجف به المنافقون ، والكراهة من ضروب الخشية... فليست هي خشية خوف "[2] فكل ذلك على اللزوم، ومن هنا تولد العدول.

ب- الترقي في الثناء على النبي – ﷺ – في الآيات بشفقته؛ إذ تقدم -أولاً- الأمر منه -ﷺ- ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ فهذا الحرص منه – ﷺ – على إمساك زيد لأهله دليل على هذه الشفقة؛ لذا عبر بـ﴿ زَوْجَكَ ﴾ وكأنّ في ذلك تذكيرًا من الرسول – ﷺ – لمعاني المودة والسكن والرحمة في الزوجة، مما يحض على إمساكها، وهذا من الشفقة والرحمة، وإلا كان من فساد الوضع الذي ينبو عنه القرآن...

ثم إنَّ امتـــــداد السياق في الترقي ثناء وتكـــــريم بالأمر بالصلاة عـــليه -ﷺ-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٣] وذكر تشريعات خاصة به – ﷺ -تكريمًا له ولأهله كل ذلك مدنٍ عن التكريم الذي لا يتأتى البتة معه العتب.

---

(١) السابق: ٢٧٠.

(٢) التحرير والتنوير: ٢١/٢٦٣.

ومن العدول في صفاء الإقبال الثناء عليه بشفقته مع المخالفين -عند الحرالّيّ-ما ورد في المواضع التالية في سورة التوبة:

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة: ٤٣].

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[التوبة: ٨٤].

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ [التوبة: ١١٣].

والثناء في هذه المواضع-عند الحرالّيّ- بشفقته - ﷺ - ورحمته التي جبل عليها تعاملًا مع من ليس بأهل لها حتى رُدَّ إلى العدل، وهذا ما صرح به الحرالّيّ في قوله: "ومن القرآن ما أنزل على حكم العدل والحق المتقدم فضله في سنن الأولين ... وذلك خلاف ما جبل الله عليه نبيه، وما وصى به حبيبه فكان -ﷺ -إذا أنزل عليه أي من الكتاب على مقتضى الحق وإمضاء العدل، ترقَّب تخفيفه، وترجّى تيسيره، حتى يعلن عليه بالإكراه في أخذه والتزام حكمه، فحينئذ يقوم لله به، ويظهر عذره في إمضائه، فيكون له في خطاب التشديد عليه في أخذه أعظم مدح، وأبلغ ثناء من الله، ضد ما يتوهمه الجاهلون"[1].

وللشفقة هنا وجهان :

أولهما : شفقته عليهم بعدم فضحهم واستقصاء حالهم شفقة جعلته يأذن لهم من دون أن يتبين ما هم عليه، ليس غفلة بل ستراً لهم، وجاء هذا في سياق الحديث عن تخلف المنافقين واعتذارهم بكذب الأعاذير، ووجه العدول في هذا الموضع أنَّ حالهم من المخادعة والكذب يناسبه افتضاح أمرهم ليتجنبوا، فنزّله - ﷺ - ما يستلزم حالهم إلى غيره -مما لا يناسب أمرهم- هو ما وطأ لهذا الاستفهام الذي يدل في ظاهره على العتب: ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ في حين أنه ثناء عليه - ﷺ - بعظيم رحمته وشفقته وذلك ملائم لحاله - ﷺ - إذ كان هذا الفعل ليس باعتبار المخاطب، بل باعتبار الفاعل، فعلوُّ شرفه ومكانته وكريم خلقه هو ما استلزم هذا الإذن، وإلا فحالهم لا يستلزم هذه المعاملة الحسنة، لكنه حاله وما جبل عليه من الرحمة.

(١) التوشية والتوفية: ١٢٢.

وكما لاءم العدول حاله لاءم -أيضًا- السياق الوارد فيه؛ إذ إنّ سياق سورة التوبة العام هو في التضاد بين حالتين: حالة كريمة عالية الشأن هي حالته - ﷺ - وحالة خسيسة هي حالة المتخاذلين عن الحق، ومن ثم افتتحت السورة بالمباينة بين الفريقين: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ ﴾[التوبة: ١] وختمت ببيان صفاته - ﷺ - تأكيدًا على مباينة صفاته وصفاتهم.

لذا ورد صفاء الإقبال مبينًا لهذا التفاوت، وهذا -يقينًا- يمنع إرادة العتاب في الموضع ، كما يعضد ذلك السياق الخاص الذي هو نصرة وتأييد له - ﷺ - وإنعام محض، فكيف يتأتى اللوم والعتب بعد ذلك؟

وقد دلت الأساليب على الصفاء والإقبال، ويتجلى ذلك في أساليب ثلاثة:

١) الاستفهام :

فالاستفهام على فهم الحرالّيّ في قوله تعالى: ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ مصروفٌ عن العتب والإنكار إلى الثناء عليه - ﷺ - ومثله مثل: ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ المتقدم في سورة التحريم، وقد اطرد النظم الحكيم أن الاستفهام بـ(لم) لا يتأتى فيه العتب - كما تقدم - بل إنّ العتب في النظم الحكيم اطرد في : (مالك).

فالاستفهام هنا إنّما هو ثناء على جبلته وشفقته عليهم ؛ لذا استلزم عدم فصله عن علته ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ﴾ والتبيين: درجة عالية من الوضوح والإدراك، وهذا البيان هو لنفع الرسول-ﷺ- ومن أجله؛ لذا عداه بـ(اللام): ﴿ لَكَ ﴾ الدّالة على النفع، والكاف في خطابه له مدخل لإكرام الرسول - ﷺ - ونفعه، فكيف يتأتى العتب هنا واللوم؟

وكون المستفهم عنه الإذن خاصة: ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ هذا دليل على الثناء عليه لما في الإذن من معنى العلم[1] فكأنّه - ﷺ - ليس غافلًا عنهم، ومع ذلك رفيع خلقه يجعله يأذن لهم؛ لأنّه لم يتقدم نهي له عن ذلك.

٢) أسلوب التقديم: حيث تقدم الدعاء:"عفا الله عنك"، فمعروف لدى العرب أنّه لا يخاطب بمثل ذلك إلا الكبراء الأجلاء[2] فيقدم الدعاء لهم تكريمًا وتشريفًا، فالتناسب في النظم يستلزم -ما دام الكلام بدأ بالإكرام- تناسقه كله؛ تكريمًا فلا يتأتى العتب .

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن: كتاب الألف: ٢٤

(٢) ينظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ٣٢٣/٣.

٣) **تغير الدعاء مادة وبنية:** فجاء تركيب جملة الدعاء دال على الإكرام؛ حيث تغير: (عفا) بنية ومادة، فالبنية أتت بالمضي الدَّالة على تحقق هذا العفو للرسول -ﷺ- ودلالة الزيادة في العفو دليل تكريم وتشريف.

والخطاب في هذا الدعاء صادر عن صفاء إقبال وإنعام، فهذا تكريم مباشر له ، ومن ثم اطراد الخطاب بعد ذلك في السياق منبئ عن تكريمه يقينًا.

أما الوجه الثاني في الشفقة: فكان في الموضعين التاليين، في قوله -تعالى-: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[التوبة: ٨٤].

وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾[التوبة: ١١٣].

فوجه الشفقة رحمته لهم وإشفاقه عليهم من النار، فتارة يصلي على قبورهم - ﷺ - وتارة أخرى يستغفر لهم إشفاقًا عليهم ورغبة في إنقاذهم من النار .

والعدول -كما تقدم في الموضع السابق- متولد من تعامله - ﷺ - معهم بحسب حاله هو في حين أنّ حالهم تستلزم غير الرحمة؛ لما صرح من وصفهم بالثبات على الفسق في الموضع الأول فهو لازم لهم، ولكن رحمته - ﷺ - التي جبل عليها جعلته يصلي على قبورهم ويقوم عليها.

ووصفهم بالشرك - صراحة- في الموضع الثاني، وبأنّهم أصحاب الجحيم، لما في الصحبة من دلالة الملازمة للجحيم، فمقتضى الظاهر لمن هذا حاله تركه وعدم الاستغفار له، لكنه عدل- ﷺ- في تعاملهم إلى ما جبل عليه من الشفقة والرحمة حتى نهي عن ذلك تشديدًا عليهم.

ومن ثمّ فالعدول في النهي في الموضع الأول-على فهم الحراليّ- يتلاءم مع عظيم الشفقة في استغفاره وصلاته مع من حاله نفاق ومضاد لذلك، لكن جبلّة الرحمة فيه هي الداعي لذلك، فأثنى عليه بها .

وكذلك يتأتى العدول في نفي الكون في الموضع الثاني في بيان عظيم مرتبته، وعلوها علوًّا يتناقض مع دنوّ منزلتهم وتسفلها، فمقتضى الظاهر ألا يستغفر لهم، فالتلازم في الموضعين على سبيل التضاد بين مرتبته وحالهم.

وسبب العدول هنا -كما هو في الموضع السابق- تأليف قلوبهم؛ إذ لو ورد النهي عن الاستغفار لهم صراحة لكان فيه تنفيرٌ لهم، فتوجيه الخطاب له - ﷺ - لا لهم فيه تأليف لقلوبهم

ومن هنا تأتّى العدول، وإلا فلا السياق ولا المقام يتأتّى منه اللوم والعتب إنّما هو أعظم الثناء وأبلغ المدح.

والأساليب دالّة على العدول بسمت رئيس فيها –هو بيان التفاوت بين الحالتين حال كرامته وعلوّ منزلته ودنوّ منزلتهم، فمقتضى الظاهر أن يعاملهم بالعدل لا بالرحمة– على وجهين:

أ- **النهي هنا صريح للرسول – ﷺ** –وليس لومًا إنّما هو إنباء عن معاملة –ﷺ– غيره تبعًا لحاله هو –ﷺ– وعظيم رحمته وسجيته ومن هنا تأتي الثناء؛ ولذا أتى التعليل مؤكداً بـ:

(إنّ) ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ وهذا التأكيد فيه رد لاستشراف الرسول –ﷺ– للسؤال عن علة النهي المتقدم دلالة على رحمته مع أنّه يعلم حالهم لكنه يريد تعليل الأمر، وعضد هذا التأكيد على استحقاقهم النار وتأبيدها لهم، حيث ذكر أنّهم ماتوا على الكفر، وعبر عن فسقهم بالاسمية الدالة على ثبات ذلك فيهم﴿ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ فلا رجاء البتة منهم.

ولذا لم يصلِ عليهم ولم يستغفر لهم بعد تصريح الوحي بذلك البتة، فالرسول – ﷺ – هنا تصرف بجبلته قبل صريح النهي، فلما تجلى له وتبيّن له عاد إلى العدل ولم يخالف.

ب- **نفي الكون ودلالته على العدول :**

في نفي الكون دلالة على أن الكلام صفاء إقبال ؛ إذ إنّ هناك فرقاً بين أن يرد النظم: (مالك استغفرت لهم) و ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ ﴾ فنفي الكون منبئ صراحة أنّ منزلة ورفعة النبي – ﷺ – وعلوّ حالته مانعة من الاستغفار لهم، فهو دالٌ على الفرق بين المنزلتين، ومن هنا تأتى العدول في الثناء عليه – ﷺ – فكريم مكانته لا ينبغي له معها أن يستغفر لمن أشرك، ولكن ما جبل عليه من الرحمة جعلته يتعامل معهم بخلقه هو لا بحالهم، وهذا أبلغ الثناء عليه – ﷺ –

ويدل على هذه المباينة التقابل بين دلالة العلوّ والتشريف في تسميته بـ(النبي) والتسفل والدنوّ في تسميتهم بـ(المشركين) وهذا دال على زيادة رحمته التي تجعله يستغفر لهم .

ويقوي دلالة الثناء عليه برحمته شدة ظهور الدلالات على خلودهم في النار خلودًا أبديًا من تصريح بشركهم: ﴿ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ والتأكيد على كفرهم: ﴿ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ ﴾ وبيان ثباتهم على الفسق: ﴿ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ ووصفهم بصحبة الجحيم وملازمتها: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وكل ذلك بيّن فيهم أعلى البيان وأشد الوضوح، ومع ذلك فنبيّ الرحمة لم ينته عن الاستغفار لهم؟

لأنّه لم يرد نهي صريح فيه إنما وردت التسوية [١] ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾[التوبة: ٨٠].

(١) فالنبي حمل التسوية في قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة: ٨٠] على التخيير فاختار جانب الاستغفار بأكثر من السبعين: عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال لمّا مات عبد الله بن أُبيّ ابن سلول دُعِي له رسول الله -ﷺ- ليصلّي عليه فلمّا قام رسول الله -ﷺ- وثبت إليه فقلت يا رسول الله أتصلّي على ابن أُبيّ وقد قال يوم كذا كذا وكذا قال أعدّد عليه قوله فتبسّم رسول الله -ﷺ- وقال أخّر عنّي يا عمر فلمّا أكثرت عليه قال إنّي خُيّرت فاخترت لو أعلم أنّي إن زدت على السّبعين يُغفر له لزدت عليها قال فصلّى عليه رسول الله -ﷺ- ثمّ انصرف فلم يمكث إلّا يسيرًا حتّى نزلت الآيتان من براءة: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[التوبة: ٨٤] وهذا دليل جبلة الرحمة فيه. ينظر: صحيح البخاري، كتاب: الجنائز، باب مايكره من الصلاة على المنافقين والاستغفار للمشركين، رقم الحديث ١٣٦٦: ٢/٩٧.

المطلب الثاني: العدول في سياق الإرشاد والتوجيه:

ومما ورد فيه العدول ثناء عليه برحمته -عند الحرالّيّ- في سياق الإرشاد والتوجيه قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) ﴾[النساء: ١٠٥-١٠٦].

فالأصل في النهي أن يكون المنهي متلبسًا بالمنهي عنه، والأصل في الأمر أنّ المأمور غير متلبس بالأمر، فليس النهي عن أن يكون خصيمًا للخائنين أنّه كذلك، ولا الأمر بالاستغفارمن ذنب، فهذا لا يتلاءم مع حقه - ﷺ - ولا مع سياق التكريم والإقبال عليه - ﷺ - في السورة سواء في سياقها العام أو الخاص.

فالسياق العام لسورة النساء يدور على بيان العلاقات الاجتماعية في أعلى صورها، وكانت العلاقة به فيها - ﷺ - أعلاها منزلة؛ فرتب على طاعته الإيمان والفلاح وعلى مخالفته الخسران، وجعل له طاعة خاصة قرنها بطاعته - ﷻ -، وجعل له مرتبة ومكانة خاصة حتى في الآخرة، ومن ثمّ كانت السورة كلها صفاءً، فكيف يأتي هذا الوضع عنًا؟

والسياق الخاص هنا -أيضًا- إنعام عليه - ﷺ - في أعلى صورها من إنزال الكتاب:

﴿ أَنزَلْنَآ ﴾ وتخير الإنزال؛ لما فيه من تشريف وتكريم، وما ورد عليه بنية الكتاب معرفًا بـ (أل) الدّالة على كمال الوصف كل ذلك تكريم لا يتأتى أن يكون ختام الآية فيه مخالفاً لصدرها، كما أنّ ختام الآيات ورد بالفضل الصريح والتكريم:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣) ﴾[النساء: ١١٣] .

فإذا كان الهمّ بإضلاله ممتنعًا بفضل من الله - ﷻ - فكيف يقع في المخالفة؟..فهذا بعيد بل هو ممتنع من باب الأولى هذا من وجه...

ومن وجه آخر: يقتضي تناسب المعاني أن يكون ما بين البدء بالتكريم والختم به تكريمًا وتشريفًا، ومن ثم كان هذا النهي وتلك الأمر مندرجًا فيه ولا شك، وهذا يستلزم صرف النهي والأمر عن أصل وضعه، وهذا هو العدول في صفاء الإقبال.

وورود الثناء في النظم بالعدول أبلغ في هذا الوضع؛ إذ إنّ الثناء عليه برحمته وشفقته وخوفه عليهم أدعى لتأليف قلوبهم للإيمان، وهذا ما ذكره العلماء سببًا في نزول الآيات[1].

وقد دل على هذا العدول أسلوبان رئيسان هما: الأمر والنهي، والتناسب بين المعاني، ويتجلى ذلك فيما يلي:

أولًا: الأمر والنهي وأثرهما في بيان العدول في صفاء الإقبال:

لم يُنه النبي – ﷺ – عن أن يكون خصيمًا للخائنين وهو متلبس به؛ فهذا – كما تقدم – لا يليق به عليه – ﷺ – بل هو ثناء عليه بطريق العدول؛ إذ فيه إشارة إلى صفة الرحمة والشفقة المركوزة في جبلته – ﷺ – كما أنّه – ﷺ – حكم بمقتضى الظاهر، وكان لديه من الأدلة ما يلائم حكمه، فهو لم يخطئ – ﷺ – ولم يفعل خلاف الأكمل والأتم، بل إنّه – ﷺ – حكم بالظاهر وبناء على الأدلة[2].

وما ورد النهي هنا إلا ارتقاء به في تعليمه البواطن وكشفها لها كما كشفت له ظواهرهم، كما أنّ فيه إنباء عن رحمته – ﷺ – في المسارعة إلى تبرئة من دلت القرائن على براءته.

كما أنّ الظاهر في الحكم موافق للعدل، وجاء عدولًا في صورة النهي عن المجادلة عنهم إنباء عن مكانته ورفعتها؛ فخصه بالعلم، وهذا أبلغ الثناء، والعدول في النهي عن طريق الاستعارة التمثيلية، كما ذكر الحرالّيّ في صرفه عن النهي في: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ إلى ذلك أي: فلا تكن في معاملتك لهم وحالك معهم والتلطف معهم كحال المجادل عنهم .

وأما إنباء الأمر – بالاستغفار لهم – على الثناء عليه عدولًا، عن طريق لازم هذا الاستغفار من رحمة هي مركوزة في جبلته لا يعدل عنها إلا إذا ورد النهي الصريح عنها، وهذا –كما نص الحرالّيّ– أبلغ الثناء وأعظم المديح وإن ظنه الجاهلون خلاف ذلك[3].

وأما صرف الأمر بالاستغفار له – ﷺ – فهو من باب ترقيه في الكمالات ومثل هذا الاستغفار ما يكون في تمام النعم والارتقاء إلى الأعلى، ومثله ما ورد به الأمر به بعد تمام فتح مكة: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢

(١) ينظر: أسباب النزول: ١٤٧.

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢/٣١٢.

(٣) ينظر: التوشية والتوفية: ١٢٢.

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر: ١-٣] وما ورد بعد الأمر بالعلم والتوحيد لله ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾[محمد: ١٩].

وهذا ما ذكره ابن القيم في مدارج السالكين بقوله: "وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات ... فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها" [1].

ثانيًا : تناسب المعاني والأساليب بدءًا وختامًا ودلالة ذلك على العدول :

بدأ نظم الآية بتكريمه بإنزال الكتاب عليه، وورد بأعلى صورة التركيب بتقديم المسند إليه الاسمي على المسند الفعلي: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا ﴾ وهذا فيه تأكيد للإكرام؛ إذ أسند الفعل إليه – تعالى– مرتين، وهذه تقوية للاهتمام والعناية .

كما ورد الإسناد بنون العظمة، وهذا علوٌّ آخر في التكريم يعضده تخير الإنزال بما فيه من معنى كونه نازلًا من علوّ ودفعة واحدة[2] وهذا فيه مبالغة في الإكرام.

وفي تعريف الكتاب بـ (أل) الدالة على كمال الوصف، وتعليل هذه الهبة بـ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ وما فيها من عموم ، وجعل هذا مما أراه الله له بما تحوي الرؤية من إدراك المرئي [3] والعلم اليقين به –علوٌّ في التكريم .

ثم إن السياق هنا ختم بتكريم آخر: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء: ١١٣] فذكر ابن عاشور أن الذين يختانون أنفسهم بأن يضلوا الرسول غير واقع أصله، فضلاً عن أن يضلوه بالفعل، فهذا واقع في جواب لولا الدالة على الامتناع للامتناع ، فكان ما حاولوه من تضليل الرسول طمعًا لا همًّا؛ لأنّ الهم هو العزم على الفعل ، ولمّا كان انتفاء همهم تضليله، فضلًا ورحمة من الله لدلالته على وقاره في نفوس الناس، وذلك فضل عظيم [4].

(١) "مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين" ابن قيم الجوزية، ت: محمد الفقي، دار الفكر :١/ ١٧٦.

(٢) ينظر : المفردات في غريب القرآن: كتاب النون: ٤٩١.

(٣) ينظر : السابق: كتاب الراء : ١٩٠.

(٤) ينظر : التحرير والتنوير : ٤/ ٢٥٠.

فإذا كان همُّ الإضلال لا يليق به ولا يكون معه، فكيف بأن تقع المخالفة منه؟ هذا من وجه.

ومن وجه آخر فالتناسب من البدء بالتكرم والختم به يستلزم – كما تقدم – أن يكون ما بينهما تكريمًا ولا بد، وإلا كان النظم فاسدًا، خاصة أنّه لم يصرح بوجود مجادلة ولا ذنب حيث لم يكونا أصلاً .

الفصل الثاني

الفصل الثاني : مرتبة شوب الإقبال

شوب الإقبال: هو اختلاط الإقبال بشيء من الإعراض عن المخاطب لعارض اتصل به في نفسه، أو حاله، أو لتغير مساق الكلام من بسط إلى قبض ومن إنعام إلى قهر، أو لتغير غرض المتكلم في خبره ...

ودلَّ الحرالِّيُّ على الاختلاف بين مرتبتي صفاء الإقبال وشوبه بأمرين:

أولهما: تنزل المرتبة حيث إنّه "دون صفاء الإقبال الأول"

آخرهما: التبعيض في مقتضيات الإقبال ومستلزماته، فمن ثمّ يتناسب الأسلوب مع قلة مستلزمات الإقبال، ويفهم ذلك من قوله:" وربما كان له إباء عن بعض ذلك".

والشوب عند الحرالِّيُّ قد يأتي ابتداءً، وقد يكون عارضًا بعد صفاء، وذلك في قوله:" وربما تلاقته الرحمة فعاد الإقبال إليه بوجه ما... وربما تراجع لفف البيان فيها بعضها على بعض[1] ويكون الثاني بعد داع من دواعي الإعراض: من إباء للمخاطب عن مقتضى الإقبال" فيقع عنه الإعراض بحسب بادئ ذلك الإباء".

والشوب يأتي على صور متعددة واعتبارات مختلفة، فهو إما: باعتبار حال المخاطب، أو باعتبار حال غير المخاطب، ولكل سياقاته التي يرد فيها.

ومن ثم جاء هذا الفصل على مبحثين فيهما مطالب على النحو التالي:

المبحث الأول: شوب الإقبال باعتبار حال المخاطب، وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: شوب الإقبال في سياق الحديث عن موسى -عليه السلام- بين الإنعام عليه وتصوير أبعاد شخصيته.
- المطلب الثاني: شوب الإقبال في سياق الحديث عن إبراهيم - عليه السلام- بين البشرى والإهلاك:
- المطلب الثالث: شوب الإقبال في سياق الحديث عن نوح -عليه السلام- بين الرجاء والخوف.

المبحث الثاني: شوب الإقبال باعتبار حال غير المخاطب، وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: شوب الإقبال بين سياقي طلاقة القدرة والإنعام.
- المطلب الثاني: شوب الإقبال في سياق دعوى ألوهية المسيح عيسى - عليه السلام-.

---

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

المبحث الأول: شوب الإقبال باعتبار حال المخاطب

سبق القول بأنّ للمخاطب أثرًا رئيسًا في تفاوت الإقبال بين صفاء وشوب، باعتبارات متعددة، إمّا باعتبارات أحواله في نفسه، أو في ذاته، أو باعتبار أفعاله أو صفاته ...

ومن ثم تنزلت مرتبة الإقبال إلى الشوب واختلطت بلوم وعتاب – وهي دون المرتبة الأولى– حيث بدر من المخاطب ما لا يتناسب مع مكانته ورتبته.

المطلب الأول: شوب الإقبال في سياق الحديث عن موسى –عليه السلام– بين الإنعام عليه وتصوير أبعاد شخصيته:

تقدم القول بأنّ مثير صفاء الإقبال على موسى – عليه السلام – تمحض النظم للإنعام عليه بما يتناسب مع السياق العام للسورة ومقصدها الرئيس.

وقد يختلط الإنعام– للتناسب مع السياق ومقصد السورة– مع أحوال أخرى تخلط الإقبال بشيء من الإعراض فتنزل درجته من الصفاء إلى الشوب، كما إذا أريد تصوير أبعاد شخصيته بما يتناسب مع حاله التي كان عليها، وكثر ذلك في سورة الأعرف؛ لخصوصية سياقها الدائر حول اللوم والمخالفة فجاء في موضعين منها، بينما جاء في موضع واحد في سورة القصص؛ لما بنيت عليه من إنباء عن أحوال القصة في جو الشدة والمعاناة، وموضع رابع في سورة الكهف.

فأولها: في سياق الإنعام عليه بالتكليم، وذلك في قوله – تعالى – في سورة الأعراف: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾[الأعراف: ١٤٣].

ومغرس شوب الإقبال من قوله – تعالى –: ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ إذ إنّ فيه جانبي الصفاء والشوب، فقوله: ﴿ وَكَلَّمَهُ ﴾ فيه إشارة إلى أنّ المسموح له به الكلام فقط، فتعديه إلى طلب الرؤية تعدٍّ إلى ما ليس مسموحًا له به، وهذا يتناسب مع الإعراض، وقوله :﴿ رَبُّهُ ﴾ وما تقتضيه الربوبية من تكريم وإنعام وعناية– يتناسب مع الصفاء، فمن ثمّ اختلطا معًا؛ ولذا جاء النظم الآتي فيه جانبا الإعذار والدلالة على أدبه من وجه والمخالفة من وجه آخر، ففي ذات الوقت فيه إلماح إلى تعديه لما سُمح له به:﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾[الأعراف: ١٤٤]؛لأنّ لكل

نبي مرتبة لا يجاوزها، ورب موسى ربه ورباه لما أبداه وجوده من التكليم من دون الرؤية، فهذه مرتبته، فالتطلع إلى أعلى من ذلك هو الذي اقتضى شوب للإقبال .

السياق وأثره في شوب الإقبال :

والسياق الذي ورد فيه شوب الإقبال سياق منّ وإنعام، فكأنّ اتصال المنّ والإنعام – من العموم إلى الخصوص من نجاة لبني إسرائيل وموسى -عليه السلام- على رأسهم، ثم اختصه بإتمام الوعد أربعين ليلة، ثم بالكلام وتوالي المنّ= معززٌ لموسى في طلب الرؤية؛ حيث استحلى الكلام مع ربه، وشعر بآثار الربوبية من عناية و رعاية واختصاص بهذا الكلام ، فلما تعدى الكلام إلى طلب الرؤية تأتّى شوب الإقبال.

كما أنّ في الشوب تلاؤمًا مع سياق الأعراف العام في العتاب واللوم، ومن ثمّ كان شوب الإقبال فيها أكثر مناسبة لذكر التطلع إلى أبعد مما وكل به، وهذا يتلاءم مع جانب آخر في سمت سورة الأعراف العام من بيان أثر الهوى على النفس .

البناء التركيبي الدّال على شوب الإقبال:

دل البناء التركيبي لهذه المواضع على اشتجار الإقبال بالإعراض بخصائص عدة في اللفظ والأسلوب تتجلى في خمسة معالم هي :

المعلم الأول : الطيّ والذكر – الإفصاح والإبهام – وأثرهما في شوب الإقبال :

يشتجر الإقبال بالإعراض في الطيّ والذكر في هذا الموضع في أساليب ستة :

١- طي التوطئة بذكر النعم قبل مواعدة موسى – عليه السلام – فلم يتقدم في السياق إلا نعمة إنجاء بني إسرائيل من فرعون، قال – تعالى – : ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾[البقرة: ١٤١] وبمقارنتها بتمحض النّعم وصفاتها المذكور في سورة البقرة يتضح الشوب؛ إذ وردت النعم مبسوطة في سورة البقرة ومتعددة قال – تعالى –: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾[البقرة: ٤٩] وقال ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[البقرة: ٥٠]وقال ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ

ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [البقرة: ٥١] فهذا البسط في سورة البقرة ملائم لسياقها العام؛ لأنها في الإنعام، وهذا أدخل في الصفاء، بينما تجد سورة الأعراف وقد بُني سمتها العام على العتاب وتعجيل عقوبات، وهذا يتناسب مع الشوب الذي يستلزم طي النعم وتقليلها، ومن الإيجاز تولد الشوب .

٢ – ذكر مدة المواعدة –في السياق– على مرحلتين: ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾[الأعراف: ١٤٢]= منبئ عن شوب الإقبال على موسى– عليه السلام–، حيث ذكر العدد مرتين: ﴿ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً ﴾ ﴿ وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾في حين ذكره مرة واحدة في موضع البقرة ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ وفي زيادة تطويل المدة إعذارًا لسيدنا موسى– عليه السلام– في طلبه؛ لما فيه من التشويق الذي أدى إلى طلبه الرؤية فقد تقدم له الكلام من الله في أول الرسالة ومع ذلك لم يطلب الرؤية، ولكن حين واعده مرة ثانية وذكر تطويل المدة طمح إلى الأعلى والأفضل فطلب الرؤية .

٣ – ذكر الطلب صريحًا –هنا– منبئ عن شوب الإقبال، لأن فيه بيانًا لطلب موسى–عليه السلام–ما لم يؤته، وبمقارنته بتمحض الإنعام في سورة البقرة في لحظة المواعدة، يلحظ أنَّه لم يذكر الطلب البتة هنالك، بل طواه لمراعاة صفاء الإنعام هنالك بخلاف الشوب هنا .

٤– طي المفعول به في الطلب: ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ يشتجر فيه صفاء الإقبال بالإعراض، ففي طلب موسى الرؤية شوب إقبال لما فيه من طلب لأمر لم يمنحه، وليست رتبته، فرتبته الكلام فقط: ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ فالرؤية وما فيها من إحاطة بالمرئي تتأتى مع الربوبية وفق مقتضيات تتعلق بالمخاطب وحاله ورتبته[1].

---

(١) ويرى أستاذي المشرف أن قوله: " أرني" متعدٍّ لمفعول واحد، على معنى: اجعلني قادرًا على الرؤية، أي: امنحني هذه القدرة ، فبهذه القدرة أتمكن من النظر إليك.

ويعكر على هذا أنه قال: "لن تراني" ولم يقل لن تنظرني، فهل يوجه إلى أنه نفى الرؤية؛ لأنها بمدلولها الذي يفهم من الفرق الدلالي بين (نظر – أبصر – رأى) لاتكون، فالله متجلٍّ بألوهيته –لا بربوبيته– وليست محلًا للرؤية بمدلولها الخاص.

ومن ثم وقعت في سياق تحققها في القرآن على: (الرب) خاصة: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة القيامة: ٢٣] وفي الحديث: "إنكم ترون ربكم"[(١)] دون الألوهية؛ لما في اسم الله – تعالى – من الغيب الذي لايذكر لأجله إلا مع ماهو فوت، لا مع ماهو في المعنى نيل[(٢)].

ويتأتى صفاء الإقبال من بيان أدب موسى في هذا الطلب في أسلوبين:

أ– التدرج في الطلب: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ فابتدأ مغرس التدرج من النداء، وهو يطرد وقوع الطلب بعده في القرآن، فـ: (رب) منادى بحرف نداء محذوف، وقد استلزم مقام القرب الذي استشعره موسى – عليه السلام – حذفه، وهو الذي مهد بعد ذلك لـ: (أرني)، ثم إنَّ استشعار الربوبية في: (ربِّ) بما فيها من الإنعام والرعاية وكون ما بعدها داخلًا في الإنعام صفاء إقبال على سيدنا موسى – عليه السلام – بأدبه في الطلب.

كما أنّه تدرج في طلب الرؤية فلم يقل مباشرة :(أرنيك) بل قال: ﴿ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ ففي التدرج أدب وحفظ لتفاوت الرتبة بين العبد والرب، وإن كان فيه طلب ما لم يؤته ولكن كيفية الطلب تدل على أدبه – عليه السلام – كما أنّه – عليه السلام – قال: (أنظر إليك) وهذا يخفف من طلب الرؤية، فهو يعلم أنه لا يحيط بالمرئي فحدد الطلب بالنظر فقط، كالخصوص بعد العموم.

وفي تعليقه بـ:(إليك) من دون:(اللام)[(٣)] تدرج –أيضًا– فـ: (إلى) تدل على الوصول إلى الغاية[(٤)] فارتقى بالتعليق بـ:(إليك) إلى أعلى الطلب فمنتهى غاية طلب الرؤية هو النظر إلى الله – جل جلاله – وهذا منتهى آماله وغاياته ولذلك فضلها موسى – عليه السلام – على الكلام .

أما اللام ففيها دلالة التعليل، وهذا لم يرده موسى – عليه السلام – فطلبه لبيان غاية أمله وقتها، وليس تعليلاً لطلب الرؤية، وهذا أعلى وأرقى في الكلام وأدلُّ على صفاء الإقبال.

---

(١) ينظر: السنن الكبرى، للنسائي، ت: شعيب الأرنؤوط، ط من دون، مؤسسة الرسالة، بيروت: رقم الحديث٧٧١٣: ٤/٤١٩.

(٢) تفسير الحرالّيّ ضمن تراث أبي الحسن الحرالّيّ المراكشي في التفسير: ٢٢٠.

(٣) لأن الأصل في :(اللام) معنى التعليل. ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ٩٧ .

(٤) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ٣٨٥ .

ووجه ثانٍ: أنّ: "إليك" فيها دلالة بُعد تتناسب مع عظمة المرئي؛ لأنّها لانتهاء الغاية، وليس ذلك في: (اللام) التي تدل على قرب [1]؛ فرؤية الله شيء عالٍ بعيد المنال، وليست هذه الدلالة في اللام.

ب – حذف المفعول به وطيّه: فلم يصرح موسى – عليه السلام – بالمفعول بل طواه، وهذا من طيّ المفعول به مع إرادته لغرض –كما نص البلاغيون– الاختصار[2]– وقال السبكي: إنّه للتعظيم[3]، ويتلاقى الاختصار مع دلالة التعظيم في التعبير عن نفس موسى –عليه السلام– الحييّة من طلب الرؤية، فلما عرف مقدار طلبه وعظمة من طلبه منه اختصر، فكأنّ نفسه انقبضت عن ذكره حياءً من الله، فتردد في التصريح به، وذلك لعدم تناسب الفعل مع المفعول– كما تقدم– فالرؤية –كما سبق– تقتضي الإحاطة بالمرئي والألوهية تعلو على ذلك.

ولذلك يلاحظ صلف بني إسرائيل في طلبهم رؤية الله – عز وجل – ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ﴾ حيث صرحوا بالمفعول به ولم يطووا ذكره ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ﴾ كما أنّهم جعلوا المفعول الاسم الجامع للجلال والجمال (الله) وهذه جرأة على الله في حين أنّ موسى – عليه السلام– ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ بحذف المفعول، والدخول إلى الطلب بالنعمة فغلبة الشوق وسياق المنّ الذي ورد فيه الطلب كان دافعاً لطلبه، وحين شعر بالتجاوز أوجز بحذف المفعول به .

د– طي الجواب في طلب موسى – عليه السلام – التوبة:

صرح موسى – عليه السلام – بطلب التوبة : ﴿ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ ﴾ وفي طلب التوبة دليل على استشعار الذنب، بينما لم يصرح بقبولها ومن هنا يأتي الشوب، الإجابة؛ فلم يأت الجواب بأنّه غفر له أو أنه أجاب توبته ، كما وردت الإجابة في مواضع أخر معه–عليه السلام– كما في موضعي سورة النمل: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١١) ﴾ [النمل: ١١]

---

(١) ينظر : رصف المباني في شرح حروف المعاني: ٢٢٢.

(٢) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة: ١١٢.

(٣) ينظر : عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص: ٢/١٤٢ – ١٤٣.

وسورة القصص: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) ﴾[القصص: ١٦]، أو إجابة سؤله مباشرة في طه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) ﴾ [طه: ١٦] إذ كان السياق فيها صفاء في الإقبال.

أو مع غيره من الأنبياء من أولي العزم كآدم – عليه السلام – في موضع سورة البقرة حين طلب التوبة فأجابه الله: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) ﴾ [البقرة: ٣٧] في حين توازنت القصتان في ذكر طلب التوبة من غير إجابة في سورة الأعراف سواء في قصة موسى– عليه السلام – في هذا الموضع، أو فيما ورد بعدها في السياق البعيد من طلب الرحمة والهداية وعدم التصريح بالإجابة: ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

أو ما تقدم الموضع من قصة آدم حيث ذكر الذنب ولم يصرح بالإجابة: ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) ﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٥] وهذا راجع إلى السمت العام لسورة الأعراف وما فيها من الشوب والعتاب .

أو مع الأنبياء من غير أولي العزم كما ورد في شأن يوسف –عليه السلام– مع إخوته حين صفا الأمر معه فذكرت الإجابة: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾[يوسف: ٩١-٩٢]، بينما لم تذكر مع يعقوب –عليه السلام– لأنه لم يصف لبنيه صفاء يوسف –عليه السلام– لهم لشدة الأمر عليه أعلى من يوسف– عليهما السلام–.

وهذا أسلوب كالمطرد في الذكر الحكيم، حيث يرد البسط مع المتلقي في مقام صفاء الإقبال، بينما يرد القبض في خلاف هذا، بحسب بادئ إعراضه أو حاله .

وكما حوى التركيب شوب إقبال فقد حوى صفاءً محضًا أيضًا ؛ فالمسارعة إلى الإياب إلى الله:﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ هذا جانب صفاء في الإقبال عليه بالثناء إفهامًا؛ لذا وردت التوبة بالمضي ﴿ تُبْتُ ﴾ولم ترد: (أتوب)، وهذا فيه إنباء بأنّها واقعة سلفاً منه -عليه السلام-.

٦- حذف المقابل (الاحتباك):

بُني أسلوب الشوب على التقابل بين الإثبات والنفي ذكرًا وحذفًا، فذكر ماأثبته له وحذف مانفاه عنه، حيث قال - تعالى - موطئاً للرد على طلب موسى - عليه السلام -الرؤية: ﴿ ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤] فتقييد الاصطفاء بـ: ﴿ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ فيه حذف أي: هما من دون غيرهما مما اختص به باقي الأنبياء مع الرسالة، فلكل منهم خصوصية تلائم رتبته، فعيسى - عليه السلام - مثلًا خُص بجانب رسالته بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى والكلام في المهد، والرسول - ﷺ - اختص بخصائص كُثُر تلائم رتبته؛ فلكل مـــقامه في هذه الخصوصيات بجانب الرسالة، ولكل منهم رسالة يختص بها فكان الأعلى لأولي العزم عن غيرهم من سائر الأنبياء، وأعلاهم خاتمهم - ﷺ - فكما قال الحرالّي[1]: "اعلم أن الربوبية إقامة المربوب بما خلق له، فرب كل شيء مقيمه بحسب ما أبداه وجوده ".

وإذا قوبل الاصطفاء هنا بالاصطفاء المطلق لآدم مع ذريته في موضع سورة آل عمران اتضح الشوب هنا والصفاء هناك، قال - تعالى - :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣].

وورد قوله - تعالى - ردًا على طلب موسى - عليه السلام - ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ مثبتًا ماله من خصوصية الكلام: (مَآ ءَاتَيْتُكَ) وحاذفًا لمقابله وتقديره: (ولاتطلب مالم نؤته) وهذا الحذف فيه شوب الإقبال، لأنَّ فيه تذكيرًا لموسى - عليه السلام - بما هو له فقط ونهيًا له عن تجاوزه إلى غيره .

ويلاحظ أنّ النظم ذكر: ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ من دون: (ولا تطلب ما لم نؤته) مع أنّ السياق الرئيس سياق منع وليس سياق عطاء؛ لأنّه منع الرؤية ، فكان مقتضى الظاهر أنْ يكون الذكر لـ: (ولا تطلب ما لم نؤته) ويكون المقدر المحذوف: ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ لكنه ذكر العكس؛ لأنّه لو

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤١. أي رباه إلا بما علم من صفاته وأحواله، قال - تعالى -: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد: ١٠].

قال: (ولا تطلب ما لم نؤته) لكان أقرب إلى الإعراض؛ أما البدء بالعطاء ففيه زيادة تلطف مع موسى – عليه السلام – وهذا ملائم لحاله – عليه السلام – فهو نبي من أولي العزم .

ويلاحظ التناسب بين التوطئة والرد في المعنى والأسلوب؛ فالمعنى متناسب بينهما حيث ذكر ما أعطيه وسكت عن ما لم يعطه، فكذلك ذكر الشيء الذي اصطفي له ولم يذكر ما لم يصطفَ له، فكان الأسلوب متناسبًا على وجه التقابل، فالمعنى المذكور على وجه الاصطفاء والإيتاء والمعنى المحذوف على وجه المنع والرد.

كما يلاحظ أنّ النظم حذف :(بقوة) في الأخذ هناك فلم يقل :(فخذ ما آتيتك بقوة) بينما ذكر القيد: (بقوة) هنا في الأخذ الوارد في السياق البعدي في قوله – تعالى –: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٥] حيث قال: ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ ؛ ذلك لأنّ شوب الإقبال هناك يمنع منها، فلما انتهى عند قوله – تعالى –: ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ لانتهاء أسبابه الداعية له = ذكر ما يدل على الصفاء في قوله: ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، فبدأ معنى جديدًا لا تعلق له بالعتاب السابق: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٥] فهاهنا عظّم النعمة: ﴿ وَكَتَبْنَا ﴾ ولم يعظمها في السابق فلم يقل: (آتيناك) مناسبة للشوب هناك، وللصفاء هنا، فلذا قيد الأخذ هنا بالقوة من دون الأول ؛ فليس القصد الرئيس فيه إلى الأخذ بقوة، وإنما الغرض الرئيس هو المقابل: (خذ ودع) (خذ ما آتيتك ودع ما لم أوتك) ومن هنا تولد الشوب في الإقبال على سيدنا موسى – عليه السلام – .

ويكمن شوب الإقبال في: ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾ في دلالات تركيبه، ففي إبهام:(ما) دليل على عظيم النعم التي أوتيها موسى – عليه السلام – ومن ثم فهي كفيلة بأنْ يكتفي بها ولا ينظر إلى غيرها، ففيها تصريح وتعريض: تصريح بعظيم النعمة، وتعريض بخطأ التطلع إلى غيرها.

كما أنّ في دلالة السهولة واليسر في:(الإيتاء) دليلَ صفاء إقبال من وجه، وشوب إقبال من وجه آخر؛ أما الإقبال فمتولد من المنّ عليه بهذه النّعم العظام من غير عناء طلب؛ لأنّ الكلام كان له من الله مبادرة، فبادره – ﷻ – بكلامه من دون أن يطلبه.

أما الشوب فيتأتى من إيحاء هذا المنّ أنّه أوتي الكلام بسهولة من غير طلب، بينما منع الرؤية على الرغم من طلبه لها، فكونه يطلبها ولا يجاب إليها فهذا شوب في الإقبال.

المعلم الثاني : أسلوب شوب الإقبال بين الخبر والإنشاء :

يتجلى أسلوب الشوب بين الخبر والإنشاء في مجيء الأمر بالشكر لموسى- عليه السلام - على أسلوب الإنشاء، بينما جاء الشكر مع نوح وإبراهيم -عليهما السلام-على الأسلوب الخبري، ففي قوله – تعالى – : ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ أمره بأن يكون من الشاكرين -وحي – في هذا السياق خاصة بعد أن تقدم عدم إجابته إلى سؤله في طلب الرؤية – أنّه قد تطلع إلى ما ليس له، ومن ثمّ يمكن أن يتوهم أنّه بَعُد شيئًا ما عن الشكر، فلم يكتف بما أنعم الله عليه من الكلام وطلب ما هو أعلى فطلب رؤيته – ﷻ – فبناء الجملة على الأمر منبئ عن شوب الإقبال، لما فيه من دلالة العتب على طلب الزيادة.

و يتأتى شوب الإقبال من القيد، حيث قال :﴿ مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ولم يقل :(كن شاكرًا) فجعله من جملة الشاكرين، وضمه لهم هذا فيه إقبال عليه -ولا شك – بأنّه بحاجة إلى السلك في جماعتهم.

يعضد هذا ورود :(الشاكرين) بالاسمية الدالة على الثبات وبالتعريف بـ:(ال) الدالة على كمال الوصف فلم يرد: (من الذين يشكرون) -مثلًا- بل ورد بالصيغة التي تؤدي إلى تمام الشكر وثباته وبلوغ الغاية فيه، وهذا ملائم لحال موسى – عليه السلام – في عتابه على التجاوز بطلب الرؤية فهو شاكرٌ ولما يصل إلى الكمال فيه فوجه إليه.

وبمقارنة هذا الموضع مع قوله – تعالى – واصفاً سيدنا إبراهيم – عليه السلام – ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل: ١٢١] ولسيدنا نوح ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣] بالخبر من دون الإنشاء يتجلى الصفاء في وصفهما، والشوب في وصفه – عليه السلام – ففرق ما بين الإنشاء والخبر، وفرق بين الجملة الفعلية التي ورد بها وصفه – عليه السلام – والجملة الاسمية التي ورد بها وصفهما– عليهما السلام– ينبئ عن نوعي الإقبال في الموضعين؛ فاجتماع الخبر مع الاسمية يدلُّ على أنّ هذا الوصف سمتٌ ثابت لهما من قبل ومن بعد.

أما الإنشاء والفعلية فيدلان على أنّ الوصف حادث متجدد، ومن ثم فهو قابل للزيادة إلى الكمال فأرشد إليه ؛ ولذا كان أقل -ولا شك- في الوصف من الثبوت والسمت الدائم، ومن هنا تأتى الشوب في الإقبال .

ب- مناداته بعلمه - عليه السلام - مع تقدم ضمير الخطاب، وذلك في قـــوله- تـــعالى-:
﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٤] فلم يرد الكلام متتابعًا مع سابقه على نسق واحد من دون نداء؛ إذ في النداء دليل إيناس له - عليه السلام - وقرب منه، كما لم يأت على تتابع ضمائر الخطاب في الآيات المتقدمة، بل صرح بعلمه الذي فيه دلالة تعينه بذاته وتخصيصه بهذا النداء، فاشتجر هنا صفاء الإقبال عليه بهذا النداء مع الشوب.

وفي الجملة المفسرة للنداء اشتجار بين صفاء الإقبال وشوبه يتجلى في ثلاثة أمور:

١) الاصطفاء له بتفضيله على من سواه:

فتعميم هذا التفضيل بالتعليق بـ:(عَلَى ٱلنَّاسِ) صفاء إقبال، بما يوحي به لفظ:(ٱلنَّاسِ) من استغراق العموم وتأكيد الشمول، فهذا الخصوص له من كل هذا العموم حظوة له وتفضيل يدل على صفاء الإقبال عليه .

٢) الجمع في (بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي):

فالجمع فيه تعدد وتعظيم للنعم وهو أدخل في صفاء الإقبال على سيدنا موسى- عليه السلام- فموسى - عليه السلام - أرسل لبني إسرائيل ﴿ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١٧] وكذلك كان لرسالته اتصال بالإرسال إلى فرعون، فهو قد عانى ممن الفريقين -بني إسرائيل وفرعون وملئه- معًا، لذلك جمع له الرسالات، وكذلك جمع له الكلام فلم يكلمه الله مرة واحدة، بل تكرر كلامه في أثناء رسالاته وهذا أدخل في الإقبال .

٣) التغاير بالعطف بين (بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي):

وذلك يقتضي تعدد النعم بفصل كل نعمة واستقلالها عن الأخرى، فكأن الرسالة كانت نعمة مستقلة بذاتها، والكلام نعمة أخرى، وهذا إقبال -ولا شك- لأنّ فيه زيادة تقرير لاستقلال كل منهما، وهذا أدخل في التسلية له بعد أن منع الرؤية.

٤) تكرار حرف الجر: (الباء):

ففي إعادة الباء: (وَبِكَلَٰمِي) بما فيها من معنى الاستصحاب دلالة على الصفاء، بمعنى أنّ تكليم الله له ظل مصاحبًا له وقت رسالته ما انقطع البتة في أي وقت احتاج إليه، ولو حذفت الباء لدلّ على أنّ الكلام وقع مرة واحدة ، لكن في تكرارها تقريرًا للنعمة من هذا الوجه،

واستصحابًا الكلام لفترة الرسالة كلها فيه علوٌ وسموٌ في النعمة والتسرية عن نفسه – ﷺ – ومن هنا يتأتى صفاء الإقبال .

المعلم الثالث : شوب الإقبال بين النفي والتعليل:

ورد نفي إجابة سؤل موسى – عليه السلام – الرؤية بـ(لن) ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ معللة عن طريق الاستطراد إلى بيان حال من هو أعظم منه:﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ ﴾[الأعراف: ١٤٣].

وبهذا يشتجر الشوب بالصفاء هنا، فيتأتى الشوب من النفي بـ(لن) التي فيها توكيد للنفي وتخليصه للاستقبال، كما أنّ فيها تأبيدًا مؤقتًا للنفي؛ فإعلاء النفي فيه إيهام لتأبيد انعدام الرؤية يعلي من الإعراض وقبض النفس؛ فجاء التعليل بـ:﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ ﴾ صفاءً يخرج النظم من الإعراض إلى الشوب من وجهين :

أ – أنّ هذا المنع من الرؤية ليس أبدًا ومطلقًا في الزمن في الدنيا والآخرة، بل إنّه سيكون هناك رؤيا في الدار الآخرة، وإنّما المنع هنا في الدنيا .

ب– تسرية عن نفسه وتسلية له بأن المنع ليس لنزول في درجته – عليه السلام – ولا قلة في الاعتناء به، إنما ذلك لأنّه لم يُعَد ولم يربّ للرؤية في الدنيا كما أن الجبل لم يربّ لذلك في الدنيا فلم يحتملها فأصبح دكًا، وفي هذا إيحاء أن منع الرؤية عنه للعناية به والخوف عليه أن يخر كما خر الجبل؛ ولذلك وردت التسرية ممتدة بعد ذلك في السياق :﴿ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ ﴾ ﴿ فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ ﴾ ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ وهذا البسط دليل صفاء إقبال عليه – عليه السلام –.

في حين لم يرد التعليل البتة في رد طلب بني إسرائيل الرؤية: ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥ ﴾ [البقرة: ٥٥] ﴿ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ١٥٣ ﴾ [النساء: ١٥٣] وما ذلك إلا لاختلاف الحالين، فحال طلب موسى –عليه السلام– طلب شوق وإجلال بأدب، أما طلبهم فكان تحديًا وصلفًا، فظهر البون بين الحالين في نظم طلب كل منهما على .

المعلم الرابع: العطف وأثره في بيان شوب الإقبال:

شوب الإقبال ظاهر في غلبة العطف بالفاء في عامة نظم السياق: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ ، ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ ﴾، لما فيه من دلالة التعجيل والسرعة سواء كان في العتب أو في الإنعام .

أما في مواضع الصفاء كما في الإنعام عليه في سورة طه فاطرد العطف بالواو لدلالة الاستقلال، وإباحة شيوع الزمن للمخاطب؛ لما فيه من سعة في الاختيار يناسب جانب الرضى والبسط .

المعلم الخامس : مادة الكلمة وأثرها في بيان شوب الإقبال :

أثر الربوبية من دون غيرها، وكررها في النظم؛ للدّلالة على معنى الإنعام بوجه عام، ومن هنا اشتجر الشوب بالصفاء، فعلى الرغم من أنّ السياق منع إلا أنّ تكرار الربوبية فيه صفاء إقبال عليه– عليه السلام –: ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾، ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾، ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ ﴾ فحال موسى– عليه السلام – وإن عوتب لا يتأتى معه الإعراض عنه؛ لذا ورد العتاب بالربوبية المذكرة بالرعاية والإنعام، ويلاحظ أنّها أضيفت إلى ضميره – عليه السلام – وهذا صفاء –ولا شك – لما في الإضافة من معنى القرب والملازمة والاختصاص، كل هذا يمنع من الإعراض.

وكما دل إيثار الربوبية على الصفاء فقد دل اصطفاء:﴿ ٱصْطَفَيْتُكَ ﴾على الصفاء –أيضًا– لما في الاصطفاء من دلالة أخذ ما يصفو عن الشيء ويخلص[1]، والصفو: خيار الشيء وخلاصته التي لا كدر فيها [2]، فهذه الحظوة والمنزلة دالّة على الصفاء .

وبالمقابل دلّ النفي في: ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ على الشوب في الإقبال، فلم يرد الرد بـ: (تنظر إلي) بل قال :﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ فنفى الأعلى من النظر وهو الرؤية –بما فيها من إحاطة وإدراك– متلائم مع الطلب في تصريحه بالرؤيا: (أرني) فكأن النفي رد للطلب صراحة.

وفي قول موسى – عليه السلام – ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ اشتجار للصفاء مع الشوب؛ ذلك لأنّ في التوبة اعترافًا بالذنب. وهذا شوب، وفيها –أيضًا– دلالة سرعة الإياب إلى الله وهذا صفاء.

---

(١) ينظر : الفروق اللغوية: الفرق بين الصفوة والصفو: ٣١٩ .

(٢) ينظر : لسان العرب : باب الصاد: ٤/٢٤٦٨

ويلاحظ -عمومًا- أنَّ الشوب في مادة الكلمات يكون من إبهامها، والصفاء من إفصاحها، لاسيما إذا كان الشوب مع خواص الناس كأولي العزم - عليهم الصلاة والسلام - مراعاة لمقامهم.

<u>ثانيها: في سياق الرجوع من التكليم</u>، حيث تغير حال موسى- عليه السلام -: بعد رجوعه من كلام ربه حين رأى قومه على حال عبادة العجل، فحركه الغضب لله تحريكا عظيما صوّره القرآن في قوله - تعالى- : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (١٥١) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (١٥٥) ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ﴾[الأعراف: ١٥٠-١٥٦].

وللشوب في هذه الآيات صور ثلاث:

أ- بيان أبعاد شخصية سيدنا موسى- عليه السلام -

ب- الأخذ لقومه بالرجفة وهو فيهم .

ج - الالتفات عنه إلى النبي - ﷺ - في إجابة دعائه في هذا السياق .

ويجمع هذه الوجوه سياق عام واحد، هو اتخاذ قوم موسى عجلاً إلهًا من دون الله وما ترتب عليه ظلمهم وضلالهم من غضب موسى- عليه السلام - وعقابهم.

فهذا السياق وطأ لشدة تأثر موسى - عليه السلام - بهذا الفعل؛ إذ ورود النظم بـ:(قومه) ولم يرد: (اتخذ بنو إسرائيل) بل أضافهم إليه: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ

خُوَارٌ ﴾ [الأعراف: ١٤٨] وهذه الإضافة ترشح لحدوث الغضب من موسى - عليه السلام -: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ وما ترتب عليه من أفعال وأقوال في لحظة رجوعه .

ومغرس شوب الإقبال في تصوير أبعاد شخصية سيدنا موسى - عليه السلام - من قوله - تعالى- ﴿ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ فهذان الحالان هما اللذان استدعيا كل ما ورد بعدهما من أفعال وأقوال.

وقد تولد من هذا المغرس معانٍ دالّةً على شوب الإقبال، كما ترتب عليه أساليب معينة تتلاءم مع سمت سورة الأعراف القائم على تعجيل العقوبات، ومع السياق القريب الذي فيه بيان مخالفة اليهود واتخاذ آلهة من دون الله ، ويتجلى ذلك في تعاضد اللفظ والمعنى لبيان هذا الشوب.

دلّ البناء التركيبي **في تصوير أبعاد شخصية سيدنا موسى** - عليه السلام - على شوب الإقبال بمعالم ستة هي :

أولًا- دقة الكلمة معنى ومبنى وأثرها في بيان شوب الإقبال :

قام الشوب في قوله - تعالى -: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ على الحالين ﴿ غَضْبَٰنَ ﴾ و ﴿ أَسِفًا ﴾ وهما اللذان انسل منهما كل الأفعال والأقوال التي كانت خلاف الأولى، فبالنظر إلى دلالة هذين اللفظين وبنيتهما تتجلى قوة هذه الحال في تلك اللحظة ؛ فالغضب: ثوران دم القلب إرادة الانتقام" [(١)]، وكما قال العسكري: "الغضب إرادة الضرر للمغضوب عليه"[(٢)] وهذه الثورة والغليان ملائمة لوزن:(فعلان) الدّالة على شدة الاضطراب والحركة، وعاضد هذا الحال حال آخر: ﴿ أَسِفًا ﴾ والأسف "حسرة فيها غضب أو غيظ"[(٣)] وورودها مصدرًا مجردًا من الزمن دلالة على بلوغ هذا الأسف غايته لدى موسى - عليه السلام - .

ويتولد الشوب هنا من التركيز على نتاج هذين الوصفين، حيث ورد الوصفان بذاتهما في موضع سورة طه: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ [طه: ٨٦] غير أنّه لم يرد ذكر أي وصف لأبعاد شخصيته كما ورد هنا في سورة الأعراف، إذ ذكر فيها الوجه الآخر المقابل لهذا الوجه من أبعاد شخصيته - عليه السلام - فموضع سورة الأعراف ركز على بيان آثار الغضب والأسف ورتب كل الأفعال والأقوال عليهما ومن جنسهما: ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ في حين أنّه ذكر جانب الهدوء والمحاورة وامتلاك النفس في موضع سورة طه: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ

(١) المفردات في غريب القرآن: كتاب الغين: ٣٦٣.
(٢) الفروق اللغوية: الفرق الغضب والغيظ: ١٤٨.
(٣) السابق: الفرق بين الغم والحسرة والأسف: ٢٩٨.

قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه: ٨٦] وهذا لتناسب كل من الوصفين مع مقصد كل سورة منهما وسياقهما العام.

فالمقصد الرئيس في سورة طه نفي الشقاء، والسياق فيها كله بسط وإنعام بنفي عوامل الشقاء، فجانب الرضى والبسط غالبٌ فيها؛ لذا لم يذكر أفعالًا ولا أقوالًا مترتبة على هذا الغضب بل طواها، في حين كان تركيز النظم في موضع سورة الأعراف على جانب الغضب والأسف ورتب كل ما بعدهما عليهما، ومن هنا يتأتى الشوب، وهذا مندرج في المقصد الرئيس لسورة الأعراف؛ إذ يغلب عليه القبض لا البسط ؛ لأنها دارت في فلك تعجيل العقوبات .

وكما تجلى الشوب من دقة اللفظ في الحالين الرئيسين تراه متجليًا مما ترتب عليهما من أقوال وأفعال فهنا صرح بقوله :﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ﴾ وبئس صريحة في الذم، وهي نتاج شدة الغضب التي صدر عنها كل أقوال وأفعال موسى– عليه السلام – بعد ذلك .

في حين أنّ اللطف في المحاورة والخطاب كان جليًا في كلام موسى– عليه السلام – في موضع سورة طه:﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه: ٨٦] بالاستفهام الذي فيه فسحة من سماع للعذر وملاينة في طلب معرفة السبب وعرض الصواب على المخالف عن طريق إقناعه بالاستفهام الذي يتولد منه إقراره هو بالصواب، ومن ثم تناسب هذا مع ذكر ندائه بـ:(يَٰقَوْمِ) في سورة طه وحذفه في سورة الأعراف فلم يقل فيها (ياقومي بئسما خلفتموني) بينما قال في طه ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ حين تلطف بهم واستمالهم بالإقناع، ثم طوى النظم كل فعل له مع قومه، بل وقف على المحاورة، حتى في شأن أخيه هارون لم يصرح بفعله معه كما صرح به هنا :﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾؛ لما في الأخذ من غلظة وشدة فيها معاقبة على الخطأ تناسب معها :﴿ يَجُرُّهُۥٓ ﴾ بما في الجر من شدة الجذب[1]، ووروده بالمضارعة معاضد لذلك؛ لدلالتها على تجدد اعتمال وثوران غضبه، ومن ثم تكرر الفعل، فكأن موسى – عليه السلام – قد استغلق عليه من شدة الغضب فلم يذكر أواصر القربى حينئذ، فكان في لفظ الأخوة نوع عتاب من جانب وإعذار من جانب آخر، وهذا مثير الشوب.

(١) ينظر : لسان العرب: كتاب الجيم: ١/ ٥٩١

وتخير: ﴿ أَخِيهِ ﴾ هنا منبئ عن الشوب -أيضًا- في غضب موسى - عليه السلام - إذ لم يرد النظم بـ:(رأس هارون) بل قال: ﴿ أَخِيهِ ﴾ والأخوة يستلزمها الرحمة؛ لذا اختار التعريف بالإضافة ، لتضمن المضاف إليه معنى التذكير بصلة الرحم ؛ لأنّ الأخوة أشد أواصر القرابة؛ لاشتراك الأخوين في الألف من وقت الصبا والرضاع[1].

وفي تخير فعل: ﴿ وَأَلْقَى ﴾ مع الألواح شوب ظاهر في الإقبال هنا، وبيان لتحكم الغضب في سيدنا موسى - عليه السلام - لما في الإلقاء من دلالة الاستغناء عن الملقى أو عدم معرفة قيمته[2]- ولم يكن كذلك موسى ولكنه الغضب - في حين أنّه تقدم في السياق :﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾ فكان إلقاؤها هنا خلاف ما ورد من توصية بها، ثم إنّه جمعها:﴿ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ وهذا الجمع فيه تعظيم لشأنها، وقد تقدم وصفها بأن فيها تفصيلًا لكل شيء:﴿ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾؛ لذلك عرفها بـ:(أل) وهي للعهد هنا؛ حيث تقدم وصفها فهي معهودة له... وكل ذلك مرشح للشوب فما كان هذا وصفه فحقه الرعاية لا الإلقاء.

ثانيًا- الشرط وأثره في بيان شوب الإقبال:

بُني التركيب في موضع سورة الأعراف على الشرط: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾[الأعراف: ١٥٠] في حين بني في سورة طه على الخبر المباشر: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ [طه: ٨٦] والشرط هنا ملائم لتصوير بُعد الغضب والثورة؛ لأنّه يدُلّ على المفاجأة، ففيه تهويل لما كانوا عليه، فيجعل المتلقي ينتظر نتيجة هذا الحدث بما يتلاءم مع وصفه، فالجواب يتلاءم مع مثير الشرط والأحوال المحيطة به وهي بلا ريب تنبئ عن هوله، لكن حين يأتي خبرًا مباشرًا لا تكون فيه هذه الدلالة، بل بالعكس يدل على هدوء ناتج عن عدم استلزامه العلم لحظة الرجوع، بل قد يسبقه بما يفسح المجال للمحاورة بعده.

والمتأمل يجد أنّ السياق المتقدم في كلا الموضعين قد دلّ على ماذكرت؛ إذ لم يتقدم في موضع سورة الأعراف أية توطئة لفعلهم بما يدل على هول المفاجأة وصدمته- عليه السلام - حين بغتهم وهم على هذا الحال، بينما صرّح في سورة طه بالتمهيد له وإعلامه بذلك: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا

(١) السابق: كتاب الهمزة:١/ ٤٠، ٤١.

(٢) السابق: كتاب اللام: ٥/٤٠٦٦.

قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾[طه: ٨٥]؛ فلاءم هول الصدمة التعبير بالشرط، وهذا يعطي للعقل فسحة للتفكير، فلاءم التمهيد هدوء الخبر؛ لأنّ التدرج في معرفة الأمر يقلّل من مقدار غضبه – عليه السلام – وهذا دائر في رحم نفي الشقاء الذي هو المقصد العام لسورة طه .

ثالثاً– الترقي من الأقوال إلى الأفعال وأثره في بيان شوب الإقبال :

لما بني شوب الإقبال على تصوير ثورة الغضب في شخصيته – عليه السلام – بصيغة فعلان والمصدر المجرد بما فيهما من تصوير قوة الحدث= لاءمه الترقي في مستلزمات هذا الغضب، حيث بدأ بالأقوال :﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ﴾ ثم ترقى إلى أفعال:﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ وهذا الترقي منبئ عن تصاعد اعتمال شدة غضبه – عليه السلام – حتى سيطرته عليه، ومن هنا يتأتى الشوب في تصوير أبعاد شخصيته؛ إذ أورد من الأفعال ما يدلّ على القبض في وصفه وبيان جانب الغضب، وهذا ملائم لسياق سورة الأعراف – كما تقدم – وملائم للسياق القريب الذي نبع منه الشوب: من مخالفة لليهود واتخاذهم العجل إلها من دون الله، في حين ركز النظم في سورة طه على تصوير الأفعال الحسنة والأبعاد المشرقة من شخصيته– عليه السلام– وكل أبعاد شخصيته مشرقة ولكنها أقوال وأحوال، فذكر في سورة طه: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾ [طه: ٣٩] ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾[طه: ٤١] مركزًا على أبعاد قربه وعلوّ منزلته لا ثورة غضبه، وهذا مطرد في القرآن الكريم، فحينما يكون السياق سياق بسط وصفاء إقبال يصور من جوانب شخصيته ما يلائم هذا الصفاء، كحرصه وصبره على الدعوة كما في سورة البقرة: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ٦٧] وهكذا ...

بينما اطرد في القرآن الكريم في سياق البعد والإهلاك تصوير الجانب الآخر من الشخصية من تصوير الغضب والانفعال؛ لتتناسب الصورة مع السياق الدائر في السورة، فتصوير الغضب هنا متولد من الشوب السائر في سورة الأعراف، وهو شوب لا إعراض؛ لأنّه لا يتأتى الإعراض مع نبي من أولي العزم من وجه، كما أنّ ما تقدم من ذكر أفعال لليهود ومخالفاتهم فيه إعذار لموسى– عليه السلام – في هذا الغضب، فإنما غضب لله لا لنفسه .

رابعًا- الاستعارة وأثرها في بيان شوب الإقبال :

صور النظم زوال غضب موسى- عليه السلام -بما يلائم الشوب في الإقبال، حيث ورد النظم على الاستعارة المكنية: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ فجعل السكوت للغضب، فكأنّ الغضب هو الفاعل والمحرك لموسى- عليه السلام - فكل ما حدث بين الشرطين: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ ﴾ إلى ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ ﴾ نتاج الغضب. وجَعْل الغضب هو الفاعل فيه قوة تصوير لمدى تحكمه في سيدنا موسى- عليه السلام - حيث صدرت كل فعاله عنه؛ لذا كانت خلاف الأولى.

وإيرادها هنا بالشرط فيه تهويل لشأن هذا السكوت؛ لما سيرد من جواب بعده؛ حيث تنبه لعظمة الألواح فرفعها .

وجَعْل الشوب هنا بين الشرطين فيه إيحاء بامتداد زمني لشدة الغضب هو أدخل في الشوب لدلالته على طول سيطرة الغضب على سيدنا موسى - عليه السلام -.

خامسًا- الطيّ والذكر وأثرهما في شوب الإقبال:

غلب الطيّ في موضع سورة الأعراف غلبةً ملائمةً لسياقها العام من تعجيل العقوبة والشوب السائد فيها؛ حيث طوى -أولاً- كل الأحداث ما بين الذهاب إلى الرجوع، وركز- فقط- على أحداث لحظة الرجوع وما فيها من غضب وثورة، في حين ذكر موضع سورة طه طرفًا مما كان في الرحلة: ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۝٨٤ ﴾ [طه: ٨٣-٨٤] وهذا الطيّ ملائم لقبض الشوب هنا، بينما لاءم البسط صفاء الإقبال هناك.

كما طوى الجواب عن سؤال موسى - عليه السلام - المغفرة: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٥١ ﴾[الأعراف: ١٥١] في حين صرح به في موضع سورة طه: ﴿ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦ ﴾[طه: ٣٦] بل إنه زاده في المنّ والإنعام بأن ذكّره بالنعم المتقدمة عليه منذ صغره قبل وجود ما يستلزم الرعاية من نبوة ورسالة: ﴿ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ۝٣٧ ﴾ [طه: ٣٧] وهذا ملائم لسياق المنّ والإنعام ونفي الشقاء في سورة طه .

ويلاحظ المتأمل أنّ الجواب ورد -أيضًا- في موضع سورة القصص: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[القصص: ١٦] على الرغم من أنّ التصوير كان لبُعد الغضب فيها، ولكن لأنّ الشوب فيها أقل رتبة - كما سيتضح - ورد الجواب ولم يطوَ،

ويرشح للشوب طيٌّ التمهيد لفعلهم – كما تقدم – فالتوطئة فيها تهيئة للنفس تعين على التصرف بحكمة، فاستلزم طيها هنا ثورة الغضب المذكورة في هذا الموضع .

سادسًا– الفصل والوصل وأثرهما في بيان شوب الإقبال :

يظهر أثر الفصل في بيان شوب الإقبال في فصل الحالين من دون عطفهما: ﴿ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ ففي تراكبها بهذه الصورة بيان لاستلزام أحدهما الآخر، وهذا أقوى في التعبير عن شدة الغضب شدة استلزمت الفصل بين الحال والفعل والقول الصادر عنه، حيث ورد قول موسى :﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ﴾ بالفصل من دون الوصل، وفي هذا دلالة على وقوع الغضب والقول في وقت واحد من دون أدنى فسحة زمنية لا قليلة ولا كثيرة، فهي مفسرة لما قبلها ومبينة لها، وهذا أدلُّ على شدة تحكم الغضب في سيدنا موسى – عليه السلام – ومن هنا يتأتى الشوب.

وكما لاءم الفصل هنا الشوب لاءمه الوصل في عطف الأفعال على الأقوال وعطف الأفعال بعضها على بعض:﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ﴾ ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ فالعطف مصور لكل فعل مستقل بذاته، وهذا فيه تركيز على كلٍّ منها على حدة تركيزًا يلفت الانتباه إلى الأولى في كل منها من وجه، ومن وجه آخر فيه علوّ لنبرة العتب على هذه الفعال، فعدها هكذا أدخل في العتب من إيرادها بالفصل .

ب – أخذ قومه بالرجفة وهو فيهم:

ومغرس شوب الإقبال فيها في قوله – تعالى–:﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[الأعراف: ١٥٥] يظهر في خلط العذاب بالرحمة، ثم الالتفات في جواب طلب سيدنا موسى– عليه السلام– المغفرة إلى النبي محمد – ﷺ – فهو وإن كان متحققًا، إلا أنّ عدم التصريح به والالتفات به إلى غيره شوب في الإقبال، وهذا مغرس للشوب ملائم للسياق القريب الذي فيه مخالفة بني إسرائيل باتخاذهم العجل إلهًا من دون الله، وما ترتب عليه من ضلال يرشح للشوب كما أنّه ملائم لسياق تعجيل العقوبة الذي كان سمتًا عامًا لسورة الأعراف .

ولو يممنا النظر إلى قوله – تعالى – في شأن النبي محمد – ﷺ – في سورة الأنفال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾[الأنفال: ٣٣] لوجدنا أن هنالك تقاربًا بين السياقين اللذين ورد فيهما الموضعان، فقد تقدم في كليهما ذنب عظيم يستلزم عظيم العقوبة، فلا أكبر من استحلال دم النبي ثم الإصرار على التكذيب وطلب العذاب، قال – تعالى –: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[الأنفال: ٣٠-٣٢].

وهنا – أيضًا – كان الذنب عظيمًا بأن اتخذوا العجل إلهًا من دون الله، كما أنّ التكذيب فيه ظاهر، فالسياقان مستلزمان للعقوبة؛ لتقدم جسيم المخالفة، وعظيم الذنب مع الإصرار عليه .

ولكن اختلاف رتبة المخاطب في كل منهما اقتضت أن يكون موضع سورة الأنفال صفاء إقبال محض مع الرسول – ﷺ – فلعلو رتبته – ﷺ – امتنع أصل العذاب عنهم، بل إنّه ما كان ينبغي أصلًا، أما في موضع سورة الأعراف، فقد أخذتهم الرجفة وفيهم نبيهم.

وينتظم هذا الصفاء وذلك الشوب في سلك السياق العام، ففي سورة الأنفال منٌّ وإنعام به وتأييد له – ﷺ – وهذا مانع للعذاب، في حين أنّ سياق سورة الأعراف تعجيل عقوبات، وهذا مرشح لوقوع العذاب على المكذبين.

ج – **العدول في الإجابة:** حيث انسل من هذا السمت الذي تقدم فيه العذاب الشوب في الجزء الثالث من الآية: ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]إذعدل بالإجابة إلى النبي محمد – ﷺ – فجعل الرحمة مستلزمة عن اتباعه – ﷺ – على الرغم من أنّ الطلب المتقدم كان من موسى – عليه السلام – والحديث كان عن التوراة وذكر بني إسرائيل واتخاذهم العجل، فكان مقتضى الظاهر أن يكون الإيمان بموسى – عليه السلام – وأن يكون الحديث عن التوراة، ولكن المقام مقام شوب في الإقبال فالتفت عنه إلى الحديث عن النبي – ﷺ – .

وقد دلّ التركيب على هذا الشوب فعاضد بذلك معاني السياق والمغرس، ويتجلى ذلك في خمسة معالم :

أ- دقة الكلمة وأثرها في شوب الإقبال:

تخير النظم:(الأخذ والرجفة) أولًا، وعليهما قام شوب الإقبال في قوله – تعالى – : ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (١٥٥) ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ﴾ [الأعراف: ١٥٥-١٥٦] وذلك أنّ الأخذ يدل على القهر والغلبة في التناول[1]، ولا تستعمل في القرآن إلا في معنى العذاب: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ [هود: ١٠٢].

وكما دلّ معناها على الشوب دلّ مبناها عليه أيضًا؛ إذ وردت بالمصدرية، وفي ذلك تجريد للحدث ذاته يدل على المبالغة في قوة هذا الأخذ، ودلّ على منع الإعراض عن سيدنا موسى-عليه السلام- أيضًا، حيث أضيف هذا المصدر لضميرهم هم من دونه – عليه السلام – وهذا يصرف أن يكون مقصودًا بهذه النبرة من الخطاب ولكن كونه يحدث لهم بحضرته – عليه السلام – هو ما أنبأ عن الشوب، فحضور النبي – ﷺ – في قومه منع عنهم العذاب: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾[الأنفال: ٣٣] في حين أخذت الرجفة خيار بني إسرائيل في حضرة موسى – عليه السلام –.

وهذا – كما تقدم – ملائم لسياق كلّ من السورتين، فسورة الأنفال دارت حول الإنعام بالنبي– ﷺ – وله، وهذا يناسب صفاء الإقبال، فكان منع العقوبة ملائمًا لسياق الإنعام، في حين لامم أخذ الرجفة لهم سياق تعجيل العقوبة.

وإسناد الفعل إلى الرجفة فيه شوب إقبال –أيضًا– لأنّ فيه تشديدًا في وقوعه، بينما راعى التخفيف حين خاطب الرسول بضرب المثل بالأمم السابقة، فورد النظم بـ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن: كتاب الألف: ٢٢.

رَبِّكَ ﴾ مسندًا الأخذ للربوبية ليصرف أي قوة أخذ إليه في مباشرته - ﷺ - بالخطاب، في حين أسنده هنا للرجفة- وهي: شدة الزلزلة والاضطراب- [1]وقد اطرد استعمالها في القرآن لشدة العذاب، ولهول الأمر الشديد، ومن ذلك سمي يوم القيامة: "بالراجفة ": ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴾[النازعات:٦] وعبر عن المنافقين الذين يحدثون الاضطراب بالمرجفين: ﴿ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾[الأحزاب:٦٠] فكون الأخذ والأخذ شديدين علوٌ في شوب الإقبال، ولكنه لا يصل إلى الإعراض .

ويتجلى الشوب في أمور أخر، فإيثار النظم: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾ يدل على أن الرجفة أخذت طائفة لم تذنب فأهلكوا بما فعل السفهاء منهم، في حين أنه في شأن النبي- ﷺ- منع العذاب عن أشد الناس مخالفة وهم الذين صرحوا بإرادة قتله - ﷺ - وطلبوا العذاب صراحة .

والملاحظ أن المواضع التي ذكر فيها أخذ الرجفة للمذنبين سواء المواضع المتقدمة في سورة الأعراف: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[الأعراف: ٧٧]، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾[الأعراف: ٩١] أو موضع سورة العنكبوت: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾[العنكبوت: ٣٧] لم يكن نبيهم بينهم، بل إنه يصرح قبلاً بتنجية الأنبياء ومن معهم من الصالحين، فلما أخذتهم الرجفة وموسى - عليه السلام - بينهم أكد هذا شوب الإقبال هنا؛ لتساوقه مع سياق السورة وسمتها العام .

والتصريح بجانب الإنعام في دعاء موسى - عليه السلام - ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ مخلِّص للموضع من محض الإعراض إلى الشوب؛ لأنَّ الشوب -كما ذكر الحرالّيّ- فيه امتزاج جانب الإنعام وجانب اللوم معنى وتركيبًا[2] ؛ لذا كان الدعاء بالربوبية منبئًا عن ذلك، فلم يرد الدعاء بـ: (يا الله) لتساوقه ظاهرًا مع موقف غلبة وقهر؛ لأنَّه راعى جانب الإنعام عليه لخصوصية فيه وقرب منه، ولكنه ليس كالصفاء الوارد في شأن النبي - ﷺ - في قوله - تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾، إذ كانت الربوبية مذكورة من الله- ﷻ -

---

(١) ينظر : الفروق اللغوية: الفرق بين الزلزلة والرجفة: ٣٣٧.

(٢) ينظر : قوله: "وربما تلافته الرحمة فعاد إليه الإقبال بوجه ما دون صفاء الإقبال الأول" مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

ومضافة إلى ضميره - ﷻ - ﴿ رَبِّكَ ﴾ في حين كانت هنا من موسى - عليه السلام - بضمير المتكلم (رب) لا المخاطب .

ومن الدقة في الكلمة التي تنبئ عن الشوب: (اختار) فالاختيار: إرادة الشيء بدلاً من غيره، وأصله من الخير[1]، وهذا دليل على علوّ خيرية من اختارهم؛ يعضد ذلك حذف حرف الجر، كأن موسى- عليه السلام - استقصى قومه رجلاً رجلاً، وهذا فيه جانب ثناء أنه اختار أفاضلهم لميقات الله تناسبًا معه، وجانب لوم وعتاب لقومه بأنّ مافيهم إلا هؤلاء من بين العدد الكثير، ويعضد هذا المعنى تسميتهم بـ: (قومه) من دون بني إسرائيل، فهذا فيه تشريف لهم بإضافتهم إليه وجعلهم قومه، وفيه لوم أن يكون قومه مضافين إليه ومع هذا ترد من أكثرهم المخالفة، وهذا لا يكون إلا إذا كان الكلام سيق على أساس اللوم والعتاب وتعجيل العقوبة .

وفي تخير موسى- عليه السلام - المغفرة ، والهود ﴿ اغْفِرْ لَنَا ﴾، ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ ملاءمة لشوب الإقبال؛ لما فيهما من اعتراف بالذنب يستلزم المغفرة وهي -كما تقدم- إسقاط العقاب ، وكذلك فيه إيجاب الثواب -أيضًا- بعد إسقاط الذنب[2] .

يعضد هذا قوله - عليه السلام - : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ لأنّ الهود: الرجوع إلى الحق[3] وإسناده إلى ضميرهم فيه شوب إقبال، فهم الذين خالفوا ويستلزم عليهم العودة ولم يكن موسى - عليه السلام - معهم؛ ولذا كانت الغلبة في الألفاظ في دعاء موسى - عليه السلام - للمغفرة لا الرحمة، وهذا ملائم للشوب؛ إذ لم يرد النظم: ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾[المؤمنون: ١٠٩] بل ورد بـ: ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[الأعراف: ١٥٥] لأنّ مستلزمات المغفرة أقوى من مستلزمات الرحمة لوجود الذنب المستلزم للغفران .

ب- الشرط وأثره في بيان شوب الإقبال :

بدى قوله - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[الأعراف: ١٥٥] على الشرط، والبناء عليه يدل على تأخير

---

(١) ينظر : الفروق اللغوية: الفروق بين الإرادة والاختيار : ١٤٢.

(٢) السابق: الفرق بين العفو والغفران: ٢٦٤.

(٣) ينظر : لسان العرب: كتاب الهاء:٦/٤٧١٨ .

الضراعة إلى وقت الرجفة والأصل أن تكون عقب عبادة بني إسرائيل العجل ، وهنا جانب اللوم في الشوب، وفيه جانب إنعام لما فيه من الرجوع إلى المولى والاعتراف بالتقصير وذلك مطلوب الشدة.

كما أنّ الشرط هنا يمنع استغراق العذاب وتمحضه، وجَعْل الجواب مرتبًا على دعاء موسى- عليه السلام - إظهارٌ لرتبته فعلى الرغم من أنّ في الشرط مؤاخذة إلا أنّ فيه إظهارًا لعلوّ الرتبة، ومن هنا يتأتى الشوب؛ لأنّه امتزج فيه جانبا الرحمة والعذاب.

ج- التقديم والتأخير وأثره في شوب الإقبال :

يلحظ في هذه الآيات تقديم الضلال على الهدى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ﴾ وتقديم المغفرة على الرحمة: ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ﴾ وتقديم العذاب على الرحمة ﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾.

وهذا التقديم -لكل من الضلال، أو المغفرة ، أو العذاب على ما يقابلها- ملائم لشوب الإقبال؛ إذ قدَّم ما فيه الشدة لا ما فيه الرحمة والهدى، وهذا متلائم مع حال اليهود من وجه، ومن وجه آخر ملائم لقيام الشوب على الأخذ الشديد، وكون الأخذ الشديد هو المقدم يخرج الموضع من صفاء الإقبال إلى شوبه، ويصرفه عن الإعراض الصريح عمومه وعدم تخصيصه؛ ففي هذا تخفيف وإنباء عن الشوب؛ إذ لم يسند إليهم العذاب صراحة، وما ذلك إلا لحضرة موسى- عليه السلام- وكونه من أولي العزم من الرسل لا يباشر بمثل هذا العذاب .

كما يصرفه عن محض الإعراض بناء الجملة ذاته؛ حيث بسط الكلام في جانب الرحمة في حين قبض في جانب العذاب: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أما العذاب فقال فقط: ﴿ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ﴾ فهنا حتى وإن تأخرت الرحمة إلا أنّ بسط الكلام فيها يجعلها كأنّها هي المقصودة ولذلك رتب الكلام بعدها عليها .

كما أنّه وإن قدم المغفرة إلا أنّ عدم الوقوف عليها والتعدي إلى ذكر الرحمة فيه ترقٍ في الإنعام، فلم يقل:(فاغفر لنا) فقط في الدعاء بل ذكر الرحمة . ومن هنا يلحظ تقابل جانبي اللوم والإنعام فيتأتى الشوب .

د- الطي والذكر وأثرهما في بيان شوب الإقبال :

طويت إجابة سؤل موسى -عليه السلام- فلم ترد الإجابة صريحة كما وردت في موضع سورة طه: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾[طه: ٣٦] بل صرف الجواب إلى العموم في الجواب أسلوبا حكيمًا أولًا، ثم بالالتفات إلى غيره ثانيًا .

فكل دعاء سيدنا موسى -عليه السلام- بصريح الطلب، فطلب المغفرة " اغفرلنا " والرحمة "وارحمنا " وأن يكتب لهم حسنة: ﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾[الأعراف: ١٥٦] فدعاؤه كان على وجه الترقي ومقتضى الظاهر أن تأتي الإجابة عن سؤله تفصيلًا، لكنها أتت ضمنية مرة واحدة .

ودلَّ الذكر على الشوب من التصريح بالتهديد بالعذاب لهم، على الرغم من عدم دعاء موسى-عليه السلام- عليهم هنا، وهذا أدخل في الشوب؛ لأنه أدعى للخوف؛ حيث ذكره على وجه الإصابة :" أُصِيبُ بِهِۦ " وأتى به على العموم :" مَنْ أَشَآءُ "

هـ- الالتفات وأثره في بيان شوب الإقبال:

الالتفات هنا ليس كما ذكر البلاغيون في الانتقال في الضمائر، بل في صرف الكلام إلى غير المخاطب، كما فهم الأصمعي التفاتات جرير، قال في ما ذكره أبو هلال عنه :" أتعرف التفاتات جرير؟ قال : لا، فما هي؟ قال:

أتنسى ، إذ تُوَدِّعُنا سُلَيْمى *** بفرعِ بشامة؟ سقي البشامُ[1]

ألا تراه مقبلًا على شعره ثم التفت إلى البشام فدعا له؟"[2]

وهنا التفت من جعل الرحمة لأتباع موسى -عليه السلام- إلى جعلها لأتباع النبي -ﷺ- بالرغم أنَّ السياق كله دائر على قصص سيدنا موسى -عليه السلام- وهو الطالب لها، فمقتضى الظاهر أن توجه الرحمة والمغفرة لأتباعه-عليه السلام- لكن لأنَّ النظم مبني على شوب الإقبال التفت إلى غيره، فبدأ -أولًا- بأن ذكر أنه سيكتبها للذين يتقون: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فصرف الخصوص إلى العموم، ثم ترقى في الالتفات بأن جعل هؤلاء المتقين هم الذين يتبعون النبي-ﷺ -﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ

---

(١) ديوان جرير" ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥: ٣٧٧.

(٢) ينظر : كتاب الصناعتين" أبو هلال العسكري، ط١، صيدا - بيروت، ١٩٨٦: ٣٩٢.

ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فجعل أساس التقوى المستلزمة للرحمة والمغفرة اتباع هدي النبي – ﷺ –.

ثم ترقى في ذلك بأن أجمل وأكمل الوصف بشرف النبي –ﷺ– وتمام رسالته، وهذا تعظيم له– ﷺ– وتفضيل له ولشرعه .

ويأتي الشوب في موضع سورة القصص أقل رتبة من الشوب في موضع سورة الأعراف، وإن اتفقا في بيانهما لأبعاد شخصية سيدنا موسى – عليه السلام – وهذا التفاوت بين الموضعين استلزمهما السمت العام لكلٍّ منهما، والسياق الخاص في كل سورة، ثم عاضدته الألفاظ .

فلما كان السياق في موضع سورة الأعراف – كما تقدم – سياق عقوبات ومؤاخذة كان ملائمًا لعلوّ الشوب .

ثالثها: سياق تصوير المسارعة إلى قتل القبطي في قوله– تعالى–: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾[القصص: ١٥-١٦] فالسياق العام إنعام ومنٌّ على سيدنا موسى– عليه السلام – منذ ولادته حتى بلوغ أشده على خلاف الظاهر، ومنٌّ على قومه كرامة له: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾[القصص: ٥].

كما أنّ السمت العام لسورة القصص كان في اختيار الأفضل وتزكيته، وهذا ملائم لأن يكون الشوب – هنا– أقل من الشوب الوارد في سورة الأعراف التي سمتها تعجيل العقوبات .

ومن ثم نجد أن التراكيب والألفاظ منبئةً عن هذه الرتبة في الشوب حتى كاد يقترب من الصفاء، لاستلزام سياق الإنعام والسمت العام له .

ويتجلى ذلك في خمسة معالم هي :

أ- التقييد وأثره في بيان شوب الإقبال .

قيّد الوقت الذي دخل فيه موسى – عليه السلام – بـ:﴿ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ ﴾ وهذا منبئ عن شوب الإقبال؛ فالأنبياء لا يدخلون في وقت غفلات الناس فهذا من الشوب.

وهو يحوي إعذارًا له – عليه السلام – إذ إنّ هذه الغفلة كانت مرشحًا لقتل القبطي فلم يجد من يرده أو يعينه على نفسه، لاسيمالأنه قيد الغفلة بـ :" أهلها " ﴿ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ فحين يكون هناك حضور من أهل البلد يكون أدعى للمراجعة والتريث .

كما أنّ في التقييد بـ:﴿ مِن شِيعَتِهِۦ ﴾، ﴿ مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ وصفًا للرجلين إنباء عن الشوب؛ فشيعة الرجل: هم من اجتمعوا على أمر، وكل قوم أمرهم واحد فهم شيع[1]، فكون موسى– عليه السلام – يدافع عنه شيعته دون نظر ظالم أم مظلوم = هذا من شوب الإقبال عليه – عليه السلام – إذ ليس ذلك الأولى في شأن الرسل والأنبياء وإن لم يوح إليه إلا أنّه كان من الأخيار الصالحين، فكأن الحمية هنا هي التي حركته لا الحق. وفيه إعذار من وجه آخر لموسى عليه السلام لأنه ليس على الرجل في نصرة أهله من بأس، لاسيما وقد أشار إلى الآخر بقوله: ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾

ويعضد هذا تقييد العمل بـ:(الشيطان) لما في دلالة " الشيطان ": من الشيط والتسرع والغضب[2] الذي أدى إلى فعله المتقدم ، وهذا خلاف الأولى في خلقه – عليه السلام – .

وكما أنّ في هذا التقييد عتبًا ففيه من وجه آخر إعذار، ومن هنا يتأتى الشوب إذ يستقي من نبعي الإعذار والعتب، فالتصريح في مقابلة الذي: ﴿ مِن شِيعَتِهِۦ ﴾ بالتقييد بـ: ﴿ مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ بالتصريح بالعداوة بينهما، وكونه عدوه هنا فيه إعذار لموسى –عليه السلام – كما أنّ جعل العمل من الشيطان فيه إعذار. فليس هذا عمدًا من موسى – عليه السلام– بل هو على غير قصد منه.

ب- العطف وأثره في بيان شوب الإقبال:

غلب العطف في هذا الموضع بالفاء الدّالة على السرعة، وفي هذه السرعة جانبا الإعذار والإنذار ومن هنا يتأتى الشوب، أما: الإنذار ففي دلالته على تعجل سيدنا موسى– عليه السلام – وعدم أخذه بالأولى في شأن الرسل من تريث وتبيّن للأسباب قبل التصرف ومن ثم عطف بالفاء: ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ ﴾،﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أما الإعذار ففي دلالته على السرعة هنا فينبئ عنه من ثلاثة وجوه:

(١) ينظر: لسان العرب: باب الشين: ٤/٢٣٧٧.

(٢) السابق: باب الشين: ٤/٢٣٧٦.

١) تسارع الأحداث في القصة تسارعًا لا يجعل للعقل فسحة من تفكير، ويعضد هذا نسبة العمل إلى الشيطان.

٢) مسارعة استغفاره – عليه السلام – ومبادرته إلى ذلك: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ وهذا منبئ عن إعذاره كما أنَّ فيه ثناء عليه .

٣) مسارعة الإجابة وتوكيدها: ﴿ فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ واجتماع هذين الجانبين من الإعذار والإنذار هو شوب الإقبال على سيدنا موسى – عليه السلام –.

ج- الذكر والطيّ وأثرهما في بيان رتب شوب الإقبال :

لم تطوَ إجابة سؤل موسى – عليه السلام – في هذا الموضع كما طويت في موضع سورة الأعراف، حيث ذكرت هنا ولم تطو، قال – تعالى – : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [القصص: ١٦].

أما سورة الأعراف فقد طويت –كما تقدم– بل والتفت إلى غيره حين صرح بها – عليه السلام – قال –تعالى–: ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾[الأعراف: ١٥٥-١٥٦].

وهذا منبئ عن تفاوت رتبة الشوب في الإقبال في الموضعين ؛ فلما علا الشوب في موضع سورة الأعراف طويت الإجابة، وحين خفَّ الشوب وأتى تاليًا لعلوِّ الأول صرح بالإجابة، وهذا ملائم لسياق الإنعام و لسمت السورة في اختيار الأصلح، في حين لاءم العلوُّ في الشوب هناك المؤاخذة وتعجيل العقوبات .

كما أنَّ طيَّ موسى – عليه السلام – حرف النداء في دعائه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [القصص: ١٦] فيه إنباء عن استشعار موسى – عليه السلام – القرب من ربه قربًا يجعله آملًا في عفوه ورضاه وعدم استبطاء أو استبعاد الإجابة حال الذنب، وفيه إنباء على أنَّ المقام ليس مقام إعراض، بل هو للصفاء أقرب ولكن خالطه بعض الشوب، ودلَّ على ذلك تخيُّر هذا البعد خاصة في شخص موسى – عليه السلام – من دون غيره، في حين صرح في الصفاء المحض بصفات محبته، وغير ذلك مما هو ممحض في الصفاء.

وفي طيّ مراحل الأفعال التي كانت خلاف الأولى، وعدم تفصيلها دليل على أنّ الشوب هنا تالٍ للشوب في موضع سورة الأعراف: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾[القصص: ١٥] إذ ذكر هنا مباشرة:(فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ) بالعطف بالفاء دون تفصيل لكيفية قتله هكذا دون ترقٍّ في بيان الأقوال ثم الأفعال، كما هو في موضع سورة الأعراف:﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأعراف: ١٥٠] فهذا الطيّ لأحداث القصة هنا وذلك التفصيل للقصة والغضب هناك يبين رتبة شوب في كلٍ.

د- بناء الشرط وأثره في بيان مرتبة الشوب:

ورد الشرط في قوله – تعالى- : ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [القصص: ١٩] بزيادة :(أَنْ) هنا للإنباء بتمهله في التصرف النابع عن الغضب، وهذا التمهل يخفف من شوب الإقبال ويجعل لموسى-عليه السلام- فسحة في التصرف، فليس كالوكز المباشر للقبطي في السياق السابق، أو غضبه الشديد ومبادرته بالأقوال والأفعال في موضع سورة الأعراف، فمن ثم كان الشوب هنا أقرب للصفاء من البُعدين السابقين.

هـ- دقة اللفظ وأثرها في بيان شوب الإقبال :

ويظهر الشوب في إيثار: " فَوَكَزَهُۥ " فلم يعبر النظم بفعل أشدّ وأقوى دلالة على تعمد الفعل، بل عبّر بالوكز وهو:"الطعن والدفع والضرب بجميع الكف"[1]، والعادة أنّه لا يقتل فهو ضرب خفيف لا يؤدي إلى القتل، ولا يُعمد به إلى الإهلاك، وهذا فيه إعذار لموسى – عليه السلام – بأنه لم يقصد القتل بل التأديب، ولكن العتب يأتي من تسرعه بهذا الفعل، ويدل على ذلك الفاء المقترنة به: ﴿ فَوَكَزَهُۥ ﴾ كما أنّه قال:﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ فلم يصرح بالفعل مباشرة فلم يقل: (فقتله) وهذا إنباء

(١) المفردات في غريب القرآن: كتاب الواو، مادة وكز :٥٤٦.

عن أنّه كان سببًا في انقضاء أجله، ولكنه لم يعمد ولم ينو شرًّا من وكزه، ولذا ورد الدعاء منه– عليه السلام – بالربوبية الدّالة على الإحسان إليه وطلب المغفرة.

واستحقاق الثواب في الغفران ملائم لسياق المنّ في سورة القصص، ومخفف من رتبة الشوب في موضع سورة الأعراف؛ إذ غلب الإنعام والإعذار –هنا– حتى قرب الشوب إلى الصفاء، في حين غلب هناك العتب وعدم التصريح بالإجابة مما أعلى من رتبة الشوب هناك وذلك – كما ذكرت – ملائم للسياق في كلٍّ من الموضعين .

وبرد موضع سورة النمل أخف شوبًا من الموضعين السابقين – وإن شاركهما في بيان هذا البعد من أبعاد شخصيته– في قوله – تعالى –: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١ ﴾[النمل: ١١].

فذكر بُعد الغضب ورد إلماحاً فقط ولم يصرح به، بل ذكر لازمه: ﴿ مَن ظَلَمَ ﴾، فكأنه ورد موطئاً للشوب الذي سيرد في سورة القصص.

وهذه الرتبة من الشوب ملائمة لسياق سورة النمل؛ إذ سياقها دائر في البشرى والهدى؛ ولذلك ورد الشوب أقرب للصفاء، إلا أنّه ليس صفاءً ممحضاً؛ إذ لو كان كذلك لذكر بعْداً غير هذا البُعد مما خلص فيه الثناء .

ويؤيد هذا تتابع المنن في السورة بعد ذلك على النبيين: داوود وسليمان – عليهما السلام – على وجه محض الإنعام، فلم يكن السياق البعدي أيضًا مرشحا لعلوّ الشوب.

والمغرس: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ﴾ – باختصاص هذا الوصف بالذكر – منبئٌ عن الشوب وإن نزلت رتبته، ويعضد هذا السياق وهذا المغرس في الشوب تراكيبه وألفاظه، ويتجلى ذلك في أربعة معالم هي :

١– الاستثناء وأثره في بيان رتب شوب الإقبال :

ورد الاستثناء: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا ﴾ في شأن موسى – عليه السلام – وهذا الاستثناء حاوٍ جانبي الإعذار والعتب؛ إذ في كونه ظلمًا وتجاوزًا للحد فيه عتب، ولكن استثناءه من جنس الظالمين هنا فيه إقبال وإعذار؛ إذ فيه طمأنة له وتسكين قلبه بخروجه من دائرة الظلم، وهنا يلتقي المنبعان: الإعذار والإنذار فيتأتى شوب الإقبال .

٢– العطف وأثره في بيان رتب شوب الإقبال :

ورد العطف في شأن موسى – عليه السلام – بـ: (ثم) ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا ﴾ ويظهر لي أنّ الأولى فيه أن يكون للتراخي الرتبي لا الزمني؛ إذ فيه ترق في الإحسان، ويؤيد ذلك أنّ النظم لم

يرد :(ثم أحسن) فيكون الحسن مساويًا في البنية والمقدار للظلم، بل ورد النظم بـ :﴿ بَدَّلَ ﴾ أي غيره تمامًا فلم يبق منه أثر، وأتى بالإحسان مصدراً: ﴿ حُسْنًا ﴾ والمصدر فيه مبالغة في إظهار الحدث لتجريده من الزمن، وهذا يجعل الشوب أقرب شيء إلى الصفاء ومنبئًا بالتالي عن نزول رتبته عن في الموضعين السابقين .

كما أنّ في هذا الاستثناء إنباءً عن البشرى له قبل أن يرد التصريح بالمغفرة والرحمة، فيأتي التصريح بهما بعد ذلك: ﴿ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[النمل: ١١] ترقيًا في الإحسان إليه، وهذه معالم لعلوّ البشرى في سياق سورة النمل، ومن ثم فقد ورد العطف بالفاء الدالة على الترتيب والمسارعة؛ إذ في ترتيب المغفرة على إحسانه إعلاء لشأنه – عليه السلام – من وجه، ومن وجه آخر في المسارعة بالمغفرة له تبشيرٌ يتناسب مع السياق .

٣- التعريف بالموصولية وأثره في بيان رتب الإقبال:

عُرِّف سيدنا موسى – عليه السلام – بـ:(من) الموصولة، وفي تخيرها –من دون غيرها– ملاءمة لشوب الإقبال، فيتجلى جانب الإعذار من عمومها وعدم تحديدها لشخصه ونصها عليه، فلم تسند إليه بذاته الظلم مباشرة، بل عرضت تعريضًا بما كان منه – عليه السلام – وليس هذا في اسم الموصول :(الذي) ؛ إذ فيه نص وتصريح بالعلم بالمعرَّف به.

ويتأتى العتب من صلتها: (ظَلَم) فكون الظلم هو صلة هذا الموصول فيه إنباء عن العتب وشوب الإقبال؛ فهو من المرسلين والأولى أن لا يكون هذا الظلم منه البتة . و يتأتى العتب من عموم الظلم وعدم النص على الفعل ذاته، كما نص عليه في موضعي سورة الأعراف والقصص وهذا ملائم للعموم في: (من)، وملائم لخفة الشوب هنا عنه في الموضعين السابقين، ولسياق البشرى في السورة، فكل هذا الستر والعموم إنما هو منٌّ بإكرامه عليه – عليه السلام – .

٤ – التكلم والغيبة وأثرهما في شوب الإقبال :

يلحظ أن المغفرة هنا وردت تصريحًا من الله – عز وجل – بضمير المتكلم: ﴿ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[النمل: ١١] فهذه المباشرة أقرب إلى الصفاء من التعبير بالضمير، وإن دلّ على العظمة في موضع سورة القصص: ﴿ فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾[القصص: ١٦] ولكن دلالة القرب في التكلم تقربها من الصفاء أكثر، وهذا ملائم لسياق البشرى في سورة النمل، وتقليل الشوب عنه في موضع سورة القصص .

ويعضده التوكيد الوارد بـ(إنّ) الوارد فيه (فَإِنِّي) ففيه دلالة على عظمة هذه النعمة في ذاتها؛ لأنّ موسى -عليه السلام- ليس شاكًّا ولا منكراً ولا ينزل منزلتهما البتة، ولكن لعظيم النعمة في ذاتها أكدها وهذا من الإنعام على سيدنا موسى -عليه السلام-.

رابعها: في سياق الإنعام على سيدنا موسى -عليه السلام- بالتعليم، وذلك في قوله - تعالى-:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الكهف: ٦٠-٧٨] .

فكما صور في سورة الأعراف بُعدَ غضبه الشديد، صور هنا عجلته في الإنكار، وقد تجانب هذا الموضع الثناء عليه وإعذاره في العجلة؛ إذ كانت بداعي الحرص على العلم من وجه، ومن وجه آخر لومه على عجلته مع أنّ الأولى أن يصبر لاسيما أنّه مأمور من الله بهذا .

وقد عرضت قصة موسى - عليه السلام - من وجه الامتنان بالعلم، ومن ثم صور بصورة المتعلم، ولكن الشوب تولد من التركيز على سمت العجلة، فكأنها كانت دأبيًا له - عليه السلام- وردًّا له إلى

الكهف الصحيح ، وهذا يندرج تحت المقصد الرئيس لسورة الكهف من الحفظ من الفتن الكبرى التي منها فتنة الإعجاب بالعلم .

ويعضد دلالة الشوب في هذا الموضع السياق المقامي الوارد في الحديث الصحيح عند البخاري: " بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَى: لَا، فَأَوْحَى اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- إِلَى مُوسَى بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ ..."[1].

ومغرس الشوب في الإقبال هنا نابع من أمرين :

أولهما : العجلة من غير مستلزم لها، فالعجلة غير مرضي عنها حتى مع المخالفين قال – تعالى – :﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ فمقتضى الظاهر تعجيل العذاب لهم، ولكنها لم تكن، فإذا كانت العجلة مع هؤلاء غير مرضية، فالنصُّ إذن على عجلة سيدنا موسى– عليه السلام – مع الخضر فيه شوب إقبال من هذا الجانب.

ثانيهما : مدخل القصة كان بذكر الإهلاك: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾[الكهف: ٥٩] وذلك منبئ عن أن القصة معروضة معرض الضيق والعتب لا معرض البسط والثناء .

ولذا تعاورت الأساليب بين ثناء ولوم؛ لبيان شوب الإقبال فيها، ويتجلى ذلك في أسلوبين رئيسين هما:

أ . العطف وأثره في بيان رتبة شوب الإقبال :

غلب العطف بـ(الفاء) في هذا الموضع وتنازعه جانبا الإقبال والشوب على حد سواء.

أما جانب الثناء أو الإقبال في العطف فيظهر في سرعته – عليه السلام – في المبادرة إلى مكان العلم: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ [الكهف: ٦١] ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ﴾ [الكهف: ٦٢] ﴿ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا ﴾ [الكهف: ٦٤]﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ﴾ [الكهف: ٦٥] كل ذلك منبئ عن مسارعته للقاء الخضر حرصًا على امتثال الأمر، وتلقي العلم منه، وهذا فيه ثناء عليه .

---

(١) صحيح البخاري: كتاب: العلم ، باب: ماذكر في ذهاب موسى– عليه السلام – في البحر إلى الخضر وقوله– تعالى–: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ رقم الحديث ٧٤: ١/٢٦.

وجانب اللوم متولد من تكرار العطف بالفاء في الأحداث مع الخضر:﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ ﴾ ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا ﴾ ﴿ فَقَتَلَهُۥ ﴾ ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا ﴾ ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ التي تستلزم- بعد وعده واتفاقه مع الخضر- عدم ابتداء السؤال فلا يتعجل بالاعتراض، فحين فعل تولد من تلك الشوب في الإقبال؛ فالأحداث تباعًا لا امتداد للزمن فيها لينسى موسى – عليه السلام – وعده للخضر . فتصوير بُعد العجلة هنا شوب في الإقبال؛ لأنّ فيه جانب اللوم ، وفيه –أيضًا– جانب إعذار؛ لأنّ هذه العجلة في الإنكار كانت مبادرة منه – عليه السلام – للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ب . ترقي الأساليب في بيان غضبه – عليه السلام – :

١– **ترقي أساليب الاستفهام في الإنكار على فعل الخضر:** فعبّر –أولًا– عن عجلته– عليه السلام – في غضبه من فعل الخضر بالاستفهام الإنكاري؛ ﴿ أَخَرَقْتَهَا ﴾[الكهف: ٧١] ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ [الكهف: ٧٤] حيث عاجل الخضر باستفهامه المنكر لفعله على الرغم من أنّه عهد له ألا يسأله، ثم إنّه أكد هذا الإنكار بالتعليل أولاً: ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ ثم ترقى في إنكاره بالتصريح بوصف يمنع ما فعله في قتل الغلام ﴿ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ وهذا فيه تشنيع أعظم من الأول؛ لذا ورد معه وصف الفعل بـ: ﴿ نُّكْرًا ﴾ " والمنكر كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه"[1]، وهذا أشد إنكاراً، وورد: ﴿ إِمْرًا ﴾ مع خرق السفينة والهلاك فيها غير متحقق، فمن ثمّ كان الثاني أعلى؛ لذلك علا الغضب منه والإنكار له؛ لأنّ قتل الصبي هلاك متحقق، في حين أنّ إغراق من في السفينة متوقع.

ومن وجه الكثرة الأول أعلى؛ لأنّ ضرره أعم، حيث يعم هلاكه كل من في السفينة، في حين أنّ قتل الصبي كان له منفرداً .

وكما دل الاستفهام على جانب العجلة من الوجه السابق دلّ –من وجه آخر– على جانب الحرص، وذلك قوله: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ فهذا يظهر مبالغة في التواضع والتأدب للعلم؛ لذلك قال: ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: كتاب النون: ٥٠٧.

ثم ترقى بالإنكار أن جعله بالعرض والتأكيد على صوابه: ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾
وهذه شدة في الإنكار؛ إذ عرض عليه الأولى بطريق التوكيد: ﴿ لَتَّخَذْتَ ﴾ والتركيز على هذا البعد خاصة مولد للشوب في الإقبال؛ لأنه يظهر من جانب آخر التأدب مع الخضر في التعريض بجعل ذلك له من نفسه من دون الأمر، فلم يقل:(خذ عليه أجرا).

٢- ترقي الأساليب في نفي الصبر عنه – عليه السلام – وأثره في بيان رتب شوب الإقبال:

ويظهر ذلك في أسلوب التكرار اللفظي لنفي الصبر صراحة: ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾
وهذا يتجاذبه طرفا الثناء واللوم على حد سواء، ومن هنا يتولد الشوب.

فالثناء والإعذار متولد من تصريح الخضر في أنه أمر غير مألوف ولا معتاد ولم يحط به موسى علما :﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا (٦٨) ﴾ .

كما أنَّ الإعذار متولد من تقييد الخضر أمر انتفاء الصبر معه خاصة: ﴿ مَعِيَ ﴾ حيث إنَّ الأمر معه مخالف للمعهود وفوق مستوى الصبر المعتاد .

أما جانب اللوم فمتولد من عدم الصبر مع أن الرحلة لطلب العلم كانت بإرشاد من الله وفي معرض المنّ منه – ﷻ – وهذا يجعل الأمر –أيًا كان– مستلزمًا للصبر مهما بلغ من خروج عن المألوف، أو شدة خارجة عن الصبر المعتاد .

كما دلّ التوكيد المطرد في نفي الصبر على شوب الإقبال: ﴿ إِنَّكَ ﴾ حيث تكرر في كل المواضع ابتداءً أو انتهاءً، وترقى في النفي حتى حذف التاء في الاستطاعة بعد تأويل الأخبار:
﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ وكأنّ في هذا الحذف بيانًا لانتفاء الصبر تمامًا، وسرعة هذا الانتفاء حتى عن أقل المحاولة في الاستطاعة أو أي امتداد زمني لها .

وللبقاعي في توجيه حذف التاء دلالة أخرى تتناسب مع شوب الإقبال مـــن حيث عـــجلة مـوسى–عليه السلام – في إنكاره وعدم تحمله الصبر بعد كشف الغطاء عن الأحداث، فصار في حيّز ما يحمل فكان منكره غير صابر أصلًا لو كان عنده مكشوفًا من أول الأمر[1].

ودلّ تعاور الخبر والإنشاء على نفي الصبر على الشوب، إذ نفى عنه الصبر بالاستفهام:
﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا (٦٨) ﴾ ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) ﴾
ونفاه عنه بالإخبار الصريح ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ، ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ٤/٤٩٨.

صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾، ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ وكلها كانت أساليب قاطعة في نفي الصبر سواء كانت إنشاء أو إخباراً، ومن هنا تولد شوب الإقبال؛ إذ اللوم فيها ظاهر، أما الإعذار فمتولد مما تقدم من تصريح بأنّه ليس أمرًا مألوفًا، كما أنّ انتفاء الصبر كان مع الخضر خاصة وليس وصفًا عامًّا لسيدنا موسى - عليه السلام - .

والتركيز على عدم الصبر -هنا- بتصوير أبعاد شخصيته = شوب -ولا شك- لاسيما إذا قورن بصفات أخر من صبر في الدعوة ومثابرة منه - عليه السلام - في المواضع الأخرى التي ذكرت فيها قصته.

ودل الشرط الذي افتتحت به القصة على انتفاء الصبر -أيضًا- حيث يظهر جليًا التشديد في الشرط؛ ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ بأن أورد الشرط بـ(إنْ) التي فيها دلالة على أن أمر المتابعة التامة غير مقطوع بتحقيقه، مما جعل جواب هذا الشرط النهي مطلقًا عن المبادرة بالسؤال؛ لذا علقها بـ﴿ عَن شَىْءٍ ﴾ أي شيء سواء كان عظيمًا أو حقيرًا حتى يحدث له منه ذكرا، وهذا التشديد يتولد منه الشوب؛ إذ في هذا التشديد إيحاء بلوم موسى -عليه السلام- من جانب، وفيه إعذار من جانب آخر، فأيّ نفس تطيق الصبر على أمور خارجة من المألوف حتى يتكلم فاعلها؟

المطلب الثاني: شوب الإقبال في سياق الحديث عن إبراهيم - عليه السلام - بين البشرى والإهلاك:

ورد شوب الإقبال في سياق الإنعام في شأن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - عند تبشيره بنعمة الولد وإعلامه بإهلاك قوم لوط - عليه السلام - في سورتي الحجر والذاريات، قال - تعالى -:﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾[الحجر: ٦٩-٧٦]،

﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾[الذاريات: ٢٤-٣٠].

ومغرس الشوب في موضع سورة الحجر تعاور المغفرة والعذاب، قال - تعالى -:﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾[الحجر: ٤٩-٥٠] .

ومن ثم اختلطت أحوال كلٍ من الفريقين - مع أن المخاطبين هم عباد: "**عِبَادِيٓ**" فتولد الشوب من التضاد بين وصف الرحمة في :﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ مع العذاب في: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠] والبشرى في: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الحجر: ٥٣] مع الخوف في: ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[الحجر: ٥٢] والتعجب في: ﴿ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[الحجر: ٥٤] مع التحقق في: ﴿ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الحجر: ٥٥] فصفو الإقبال لا يصير شوبًا إلا إذا تجاذبه طرفان كما نصّ الحرالّيّ: "وربما كان له إباء عن بعض ذلك فيقع عنه الإعراض بحسب بادئ تلك الإباء، وربما تلافته الرحمة فعاد إليه الإقبال بوجه ما دون صفاء الإقبال الأول"[1].

---

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

وتناسب هذا المغرس مع سياق الإهلاك الذي ورد فيه في سورة الحجر؛ فسياقها العام تهديد بالإهلاك من أولها: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الحجر: ٣].

أما مغرس الشوب في موضع سورة الذاريات فمتولد مما يلاحظ من زيادة التوكيد في تحقيق الوعد نظرًا لاستشراف المخاطب، فتولد الشوب من طرفي التوكيد في تحقيق الوعد الذي قابله التعجب الشديد سواء كان ذلك من حال زوجه: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[الذاريات: ٢٩] ورد الملائكة عليها بالتوكيد وتحقيق الوعد: ﴿ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾[الذاريات: ٣٠] أو من حاله عليه السلام مع الملائكة: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[الذاريات: ٣١] فهذه دهشة وتعجب من حالهم ؛ لأنّ الخطب لا يكون إلا من شيء جلل وعظيم، فردت عليه الملائكة بالتوكيد والتحقيق:﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[الذاريات: ٣٢].

وسياق موضع الذاريات سياق إهلاك -أيضًا- فاتفق بذلك الموضعان في سياقهما العام المرشح للشوب.

وكما كان للسياق والمغرس مدخل في الشوب ، فإنّ لنمط عرض القصة مدخلًا -أيضًا- ومن ثم تجد أنّ القصة عرضت في موضع الحجر معرض الخوف والضيق: ﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ بدلالة الوجل على شدة الخوف؛ إذ هو: قلق لا اطمئنان فيه[1]. فكان رد الفعل من زوجه ومنه- عليه السلام - متلائمًا مع الضيق والشدة.

وكذلك ركزت في موضع سورة الذاريات على جانب الضيق في عرضها لأواخر الأحداث في القصة، حيث ركزت على جانب الانتقام مما يناسب الضيق.

وهذا مغاير تمامًا -لنمط- عرض القصة في سورة هود على الرغم من أنّها في الموقف نفسه والبشارة ذاتها، ولكن لما كان سياق سورة هود تفصيلًا وبسطًا لحالي الإنذار والتبشير ورد موضع البشرى مُفصلاً لحال الفرح والبشارة والسرور ؛ لذا تقدمت البشرى في موضع سورة هود:﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود: ٦٩]

(١) ينظر: الفروق اللغوية:الفرق بين الخوف والوجل: ٢٧٣.

فكل ما ورد من عرض القصة تابعٌ من البشرى؛ لذا بسط الكلام فيها وعرضه معرض السرور، فزوجه في موضع هود ضحكت من البشرى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا ﴾ [هود: ٧١] بينما طواه في سورة الحجر، وصورها بصورة الضيق في موضع سورة الذاريات: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[الذاريات: ٢٩] فهنالك ضحكت، وذكرت حال زوجها، وتبسطت الملائكة في الردّ عليها، بينما أقبلت في صرة هنا، وصكت وجهها، وقالت عجوز عقيم، بأن قدمت فعل الإنكار ثم قوله، وكل هذا له مدخل في شوب الإقبال الذي اقتضاه سياق الإهلاك.

ولم يرد لإبراهيم -عليه السلام- في موضع سورة هود أي تعجب أو دهشة من البشرى؛ لأنّ البشرى كانت ظاهرة ومقدمة هنالك، أما هنا في سورة الحجر فورد التعجب منها والدهشة: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحجر: ٥٤] وتلك رشحه سياق الضيق-هنا- وعدم تقدم البشرى بين يدي الملائكة، كما هو في موضع سورة هود؛ لذا لم تذكر شفاعته - عليه السلام - في قوم لوط كما ذكرت في موضع سورة هود؛ لمقام الضيق هنا ومقام البسط هناك.

والمتأمل يلحظ أن سبب شوب الإقبال في كل موضع يختلف عن الموضع الآخر، ففي موضع سورة الحجر كانت أبعادُ شخصيته في تلك اللحظة -من وجل شديد وتعجب من البشرى لاقتضاء سياق الضيق والإهلاك الذي وردت فيه القصة، ولتعاورها بين المغفرة والعذاب- مرشحة للشوب مقوية له، في حين كان في سورة الذاريات من السياق فقط؛ ولذا لم يرد أي بعد شخصي لسيدنا إبراهيم بل إنّ كل ما ذكر وحكي كان من حال زوجه؛ للإيجاز والتركيز في السمت العام للقصص في سورة الذاريات .

وعاضدت الأساليب اللفظية السياق المعنوي والمغرس في بيان هذا الشوب، ويتجلى ذلك في معلمين هما:

١- الطي والذكر وأثرهما في بيان شوب الإقبال:

يتجلى الشوب في الطي في أساليب ثلاثة:

أ. **طيّ رد السلام** : طُوي رد السلام في موضع سورة الحجر: ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[الحجر: ٥٢] بينما ذُكر على أبلغ وجه في موضع سورة هود: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود: ٦٩]

وذلك لملابسة البشرى للمجيء: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ بدلالة: (الباء) على الإلصاق، فكأنّهم أتوا يحملونها معهم حملاً بين أيديهم ظاهرة لعيانه – عليه السلام – أما في الحجر فلم يتقدم ذكر البشرى، بل إنّ الدخول والسلام تقدم عليها، وهذا مرشح للخوف والضيق، فلذا لم يرد السلام، ومن هنا تولد جانبا اللوم والإعذار. فاللوم: لأنهم ضيفه – ضيف إبراهيم – بالإضافة إليه فرد السلام من مستلزمات الإكرام، والإعذار لأنهم دخلوا وتكلموا من دون أن تتقدم منهم البشرى استئناسًا كما تقدمت في موضع سورة هود، وهذان هما طرفا الشوب في النظم ؛ إذ ذكر من الأبعاد الشخصية بُعْدَ الخوف، ولم يذكر بُعْدَ الإكرام الذي ذكره في سورة هود، وذكر الردَّ في الذاريات لا يخرج الموضع إلى صفاء موضع سورة هود؛ ذلك لأنه أتبعه بوصفهم بـ :﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ وهو وصف لا يناسب الضيافة، ففيه دلالة على حالة الخوف والضيق، وهذا مرشح للشوب في عرض القصة لا الصفاء .

ب . **طيُّ الإكرام الحسي مع وجود مستلزماته:** ذكر في موضع سورة الحجر كل ما يستلزم التصريح بالإكرام، حيث وصفهم بـ:﴿ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ضيف، والضيف حقه الإكرام أيًا كان ثم إنّه أضافهم إليه هو – عليه السلام – فهم ضيفه خاصة وأتوا لأجله، فالحال يستلزم إكرامهم، ثم إنّهم –كما تقدم– بدأوه بالسلام، فالحال يقتضي أن يرد عليهم السلام، ولكن سياق الضيق الذي عرضت فيه القصة رشح لطيِّ كل هذا، بينما صرح به في موضع سورة هود؛ لمقام البسط والتفصيل هنالك .

وذكرَ الإكرام في موضع سورة الذاريات بما يدل على أنّه أقل رتبة في الشوب من موضع الحجر لكنه ليس بصفاء موضع سورة هود؛ إذ لم يورده بالوصف الذي ذكره في سورة هود فهنالك: ﴿ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ والحنيذ –كما هو معلوم– من أجود الطعام وأعلاه إكرامًا لدلالته على العناية به في إعداده فوق سمنه، ووصفه هنالك بالسمين فقط:﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾[الذاريات: ٢٦] وهي صفة لا تدل على عظيم الإكرام كما في الحنيذ.

كما أنّ التكريم في سورة هود كان فيه تعجيل للإكرام: ﴿ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾[هود: ٦٩] بالمسارعة بالإكرام، فعطف بـ(الفاء) ولعدم الفاصل في مراحل الإكرام ، بينما وردت في الذاريات خطوات مفصلة، فيها دلالة على امتداد زمني وفسحة وبطء في الوقت ليس في سورة هود، حيث راغ –أولاً– إلى أهله ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾[الذاريات: ٢٦] فجاء به: ﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾[الذاريات: ٢٦] فقربه إليهم: ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ ﴾[الذاريات: ٢٧] ثم طلب منهم

الأكل: ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾[الذاريات: ٢٧] كل ذلك يوحي بامتداد زمني ليس في قوله :﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ۝٦٩ ﴾[هود: ٦٩] وهذا أدلُّ على الكرم، فيناسب مقام الصفاء في سورة هود .

ج .طي الثناء والمدح على إبراهيم – عليه السلام – وأهل بيته :

ركز النظم في موضعي الحجر والذاريات على بيان جوانب الخوف والضيق وطيِّ جانب صفات الإكرام، بينما أتى به صراحة في موضع سورة هود لاقتضاء مقام البسط له، قال– تعالى: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ۝٧٥ ﴾ [هود: ٧٥] مدحاً وثناء على إبراهيم– عليه السلام – بينما ورد رد الملائكة في سورة الحجر على سيدنا إبراهيم– عليه السلام – بـ:﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴾ [الحجر: ٥٥]، كما طوى فيها صفات الثناء عليه وعلى أهل بيته الذي ذكر في سورة هود: ﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ۝٧٣ ﴾[هود: ٧٣] بينما لم يصرح به في موضع سورة الحجر والذاريات، وقد رشح مقام البسط للذكر، ورشح مقام القبض للطي، ومن هنا تولد الشوب فيهما والصفاء وفي موضع سورة هود، ولما كان المقام ضيقًا في سورتي الحجر والذاريات طويت شفاعته – عليه السلام – في قوم لوط، وهذا من الشوب، بينما اقتضى مقام البسط التصرح بها، على الرغم من أن مثل قوم لوط لا يشفع فيهم، ولكن مقام البسط اقتضى الشفاعة، وهذا دليل صفاء الإقبال على إبراهيم هنا.

٢- قوة أسلوب الخطاب وأثره في بيان شوب الإقبال :

ويتجلى ذلك في أسلوبين :

أ- إيثاره الخطاب في رده – عليه السلام – سلامهم بقوله:﴿ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴾ دلالة على الشدة؛ حيث جاءت في معرض القول مفصولة، فكأنه جعل دخولهم الأول منهم سببًا لهذه الشدة في الخطاب، وهذا ما ذكره العلماء من أنَّ اتصال الجمل من غير عاطف فيه دلالة على أن الجمل شيء واحد في ذهن المخاطب حتى أغنت عن ذكر العاطف[1] فلم ترد الحاجة إلى شيء محسوس للربط بينهما، فكانت الأولى سببًا في الثانية على سبيل الاستئناف البياني، كأن المخاطب استشرف ماذا فعل إبراهيم– عليه السلام – فأتى الجواب: أنه قال: ﴿ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴾، ومن هنا تولد الشوب؛ لأنَّ السلام أمن يستلزم رده بمثله،

---

(١) ينظر : "دلالات التراكيب" محمد محمد أبو موسى، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨- ١٩٨٧: ٢٩٣، ٢٩٤.

لكنّ لما كانت الحالة هنا تشي بالخوف صرح بوصف الوجل ابتداءً، فالوجل: قلق لا اطمئنان فيه [1]. بينما ذكر الخوف في سورة هود داخليًا: ﴿ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [هود: ٧٠] دون أن يواجههم به، لأنهم بدأوه هناك بالأمن فلم يواجههم بالخوف علانية، فلا يتناسب الأمن مع شدة الخوف. كذلك لم يصرح به في سورة هود مع وجود مستلزماته، لأنّ المقام مقام بسط وبشرى متقدمة، وبالتالي كان الإقبال فيها صفاء، فلم تصور هذا البعد من شخصيته، بخلاف موضع سورة الحجر، وجعل هذا الوجل عامًا :

﴿ إِنَّا ﴾ و ﴿ وَجِلُونَ ﴾ فجمع الضمير –هنا– ليس تعظيمًا لنفسه، ولكن للدلالة على أنّ الخوف شمله وأهل بيته، كذلك لم يرد النظم: (وجل) بالإفراد بل جاء بالجمع تناسبًا مع استغراق الخوف لكلّ أهل البيت، وهذا أدخل في شوب الإقبال، ثم إنّه جاء به مؤكدًا:

﴿ إِنَّا ﴾ ومقيدًا بالملائكة: ﴿ مِنكُمْ ﴾ للنص على أنّهم سبب للخوف، وهذا لا يتناسب مع تصريحهم بالسلام ووصفهم بضيوفه: ﴿ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ولكن لأنّ نمط القصة شوبٌ في الإقبال ذكر هذا البعد من الشخصية الذي ترتب فيه الرد على استيحاشٍ في المقابلة .

ب- الاستفهامات المتتابعة، حيث ورد: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي ﴾ و :﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ ترقيًا من إبراهيم – عليه السلام – في تعجبه، حيث تعجب –أولاً– من ذات البشارة فكأنه عجب من وقوعها وقد بلغ هذا العمر، ثم عجب من نوعها: ﴿ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ لما في الغلام من صفات الصحة والقوة، فكيف يولد لهذا الشيخ ابنٌ هذا وصفه؟ وهذا التعجب مشيرٌ عن الشوب لاسيما أنّ البشرى وردت منهم مؤكدة: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ فمقتضى هذا التوكيد التسليم لا العجب وعلى الرغم من ذلك فالتصريح بسن إبراهيم – عليه السلام – إعذارٌ له في هذا التعجب لغرابة القصة وهذا هو الشوب؛ إذ يتجاذبه طرفا اللوم والإعذار. ثم ورد الاستفهام منه – عليه السلام – في الرد على الملائكة: ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ [الحجر: ٥٥] بـ: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝ ﴾[الحجر: ٥٦] ومقتضى الظاهر أن يرد النظم بـ: (لست من القانطين) ولكن شدة الردّ منبئة عن شوب الإقبال؛لأنه نفى عن نفسه القنوط بطريق الأولى، فالقنوط من رحمة الله حال، وقد نفى حتى حصولها، فكيف بكونها حالاً له! ثم أتبعه باستفهامه عن أمرهم بإيثار الخطب: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝ ﴾ [الحجر: ٥٧]

(١) ينظر: الفروق اللغوية:الفرق بين الخوف والوجل: ٢٧٣

والخطب فيه دلالة على الأمر العظيم الجلل، ويكون في الشيء المخالف للمألوف الذي لا يتوقع حدوثه[1] وعدم ورودها في موضع سورة الذاريات مشعر: أنّ الشوب فيها أقل رتبة من شوب موضع سورة الحجر.

(1) ينظر: المفردات في غريب القرآن: كتاب الخاء:157.

المطلب الثالث: شوب الإقبال في سياق الحديث عن نوح -عليه السلام- بين الرجاء والخوف:

ورد شوب الإقبال في سياق خوف نوح - عليه السلام - على ولده ورجاء نجاته في سورة: (هود) و:(المؤمنون) و:(نوح):﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (٣٦) وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٢) قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) ﴾ [هود: ٣٦-٤٨].

و﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) ﴾[المؤمنون: ٢٧-٢٩].

و ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [نوح: ٢٦].

ويجمع هذه المواضع الثلاثة أنّ الشوب فيها لبيان بُعد شخصي واحد -وإن اختلفت وجهته- هو ثوران عاطفته - عليه السلام - عاطفة الحنو والأبوة في موضعي سورتي هود والمؤمنون ، وعاطفة الغضب في موضع سورة نوح ، والأصل فيها أن تكون منضبطة، فتولد الشوب من زيادتها وثورتها.

فالسياق العام للقصة في موضع سورة هود مبني على التحذير: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[هود: ٣٧] وهذا هو مغرس شوب الإقبال؛ لأنّه موطئ لما يأتي بعد ذلك من الشوب في مخاطبة نوح - عليه السلام - ربه في شأن ولده، ومن ثم نجد تناسبًا بين المغرس هنا: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود: ٣٧] الذي هو موطئ للشوب وبين نتيجة الشوب وخاتمته التعقيبية: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [هود: ٤٦] فما بينهما كأنّه تفصيل وبيان له .

ثم إنّ الشوب متولد -أيضًا- من الاستثناء في قوله: ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾[هود: ٤٠] فالذين ظلموا هم الذين سبق عليهم القول، ومن ثم دخل ولده في جملة استثنائهم.

فالسياق مبني على تنامي العاطفة من نوح لولده، وعلى طلاقة القدرة من الله على إهلاك الكافرين ؛ ولذا يلاحظ أنّ الشوب في موضع سورة هود ممتد على وجوه متعددة، فمرة في شأن قومه: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود: ٣٧] ومرة في شأن ولده: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾[هود: ٤٦].

ولكن الشوب في شأن ولده ورد أشد تصريحًا ؛ لأنّ طلبه نجاة قومه لم يكن صريحًا، بل كان من دلالة استشراف فقط ؛ لأنّ النهي أتى معللاً ومؤكدًا: ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ وإذا علّل النهي وأتى هذا التعليل مؤكداً فهذا دليل استشراف من المخاطب، ومن ثم أكدّ الخبر مع أن المخاطب غير منكر[1]. فكان توطئة لما يأتي بعده للترقي والتدرج في بيان موقف نوح - عليه السلام - من هلاك قومه -على الرغم من أنه دعا عليهم- فتداركته الرحمة الفطرية وترتبت على هذا النحو التصاعدي؛ ولذا كان الطلب تعريضًا في شأن قومه وصريحاً في شأن ولده ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة : ٣١.

مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [هود: ٤٥] ومن ثمّ أتى الرد عليه أشد والشوب أعلى وأكثر صراحة: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾[هود: ٤٦].

وصوَر شوبَ الإقبال أمران :

أولهما : غلبة عاطفة الأبوة لديه، وتصوير هذا البعد حوى الإعذار والعتب ، فالإعذار تجلى في تركيز النظم على ذكر البنوة: ﴿ ٱبْنِى ﴾، ﴿ ٱبْنَهُۥ ﴾ واختصاص البنوة -بما فيها من عاطفة فطرية بالذكر في وقت الشدة والكرب -إعذار لسيدنا نوح - عليه السلام - كما أنّ فيها شوبًا؛ لأنّها زادت عنده حتى جعلته يصمم على ركوبه، والأصل أن يطلب إيمانه قبلًا، ولكن لما كان طلب الإيمان أدلّ على الصفاء في الإقبال طُوي هذا بينما ذكر ما هو أدخل في الشوب .

آخرهما: إيثار التعبير الأخير بـ (الجاهلين) ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[هود: ٤٦] حيث صور عجلته في الأمر عجلة جعلته يطلب إنجاء ابنه وهو من الكافرين.

أما في سورة: (المؤمنون) فالمغرس متولد من النفي والاستثناء -أيضاً- :﴿ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود: ٢٧] غير أنّ النظم لم يفصّل فيها من الأحوال ما فصله في سورة هود؛ لأنّ سياقها العام متعلق بالفلاح فقط ، فمع اتفاق الموضعين في ذكر جانب التحذير في الخطاب إلا أنّ السياق العام في سورة: (المؤمنون) استلزم ألا يذكر العتاب واللوم والمخالفة؛ لتعلقه بالفلاح- كما تقدم - ولأنّ القصص مذكور فيها على وجه الصفاء، ولذا طوى فيها ذكر ما فصله في سورة هود من أحوال نوح - عليه السلام - مع قومه.

وقد دلت الأساليب والتراكيب في موضع سورة هود على شوب الإقبال، ويتجلى ذلك في ثلاثة معالم :

١- النداء وأثره في بيان شوب الإقبال :

ورد نداء نوح - عليه السلام - بتركيب منبئ عن قوة عاطفته، وفورانها سواء في نداء ابنه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [هود: ٤٢] أو في نداء ربه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[هود: ٤٥] حيث صرح أولاً بلفظ النداء: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ﴾ ثم ثنى بذكر جملة

النداء ذاته ﴿ ٱرْكَب مَّعَنَا ﴾ ﴿ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ وهذا فيه تكرار لذكر النداء فقد كان ممكناً أن يرد النظم: **(قال نوح يا بني اركب معنا)** أو **(قال نوح رب إنَّ ابني من أهلي)** لكن تقديم التصريح بلفظ النداء أدخل في بيان الحال التي كان عليها؛ فالمشاعر عالية جدًا، كأنَّ المنادي لا يريد أن يفوت أية فرصة للإجابة، فهو يستجمع دواعي الإجابة ويستشعر ضيق الوقت؛ ولذا ورد النداء في نداء ابنه بـ:(ياء) التي للبعيد، وهذا دليل على الاهتمام؛ ففيها دلالة على تطويل الصوت في النداء رغبة في الإجابة، بينما حذف حرف النداء مع ربه: ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾[هود: ٤٥] استشعاراً للقرب والخضوع والخشوع، ليكون ذلك أرجى لإجابته.

وفي فرط العاطفة شوب في الإقبال متولد من تصميمه وهو يعلم كفر ابنه، ويخرج هذا الشوب من الإعراض الممحض رتبة نوح – عليه السلام – أولاً، ثم ما صرح به النظم من سرعة الإياب عن الطلب: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[هود: ٤٧]، ويعذره استشعاره للربوبية والإنعام؛ لذا دعا بـ: (رب) فالإنجاء–إن حصل– إنعام من الله ومنّه وعطف، وليس لاستحقاق ولده له، فهذا فيه جانب تحنن وتعطف في الدعاء؛ لذا كان صريح لفظ الدعاء من صريح وعد الله له بالإنجاء، حيث آثار الأهل ﴿ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ متناسبًا مع وعد الله : ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾.

وقد ذكر العلماء أنَّ النداء الثاني الذي وجهه نوح لربه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [هود: ٤٥] كان بعد إغراق القوم واستواء السفينة على الجودي، وعللوا لوجود الفاء العاطفة في الجملة المفسرة للنداء: ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾[هود: ٤٥] أنها أتت على مقتضى خلاف الظاهر؛ لأنَّ الجملة المفسرة للنداء الأصل فيها أن ترد مفصولة، فورودها إشارة إلى تردده في الإقدام كما عُلم من قوله – تعالى –:﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ [هود: ٤٠] ولكن غلبته العاطفة فدعا ربه.

وموقع الآية يقتضي أنَّ نداء نوح – عليه السلام – كان بعد استواء السفينة على الجودي؛ إذ دعاه إليه داعي الشفقة فأراد نفع ابنه في الآخرة بعد اليأس من نجاته في الدنيا [1].

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦٨/١١.

ويظهر لي أنّ النداء الثاني معطوف على النداء الأول، وهذا مما ذكر الإمام عبدالقاهر الجرجاني في عطف الجملة على الجملة الأولى وليست على الجملة التي قبلها[1] ؛ وذلك لتتابع أحواله – عليه السلام – في الموقف، فبعد أن يأس من استجابة ابنه لجأ إلى دعاء ربه، أي أنّه حين فقد السبب الحسي للإنجاء لجأ إلى المعنوي بدعاء الله – عز وجل – وهذا أقرب – فيما يظهر لي – نظراً لتقارب أسلوبي النداء، ولأنّه لا يعقل أن يدعو سيدنا نوح بهذا الدعاء اعتراضاً على إهلاكه.

أما الفاء: في ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾[هود: ٤٥] فهي دالة على غلبة العاطفة عليه، فسارع بالفاء لضيق الوقت وشدة الرغبة في التعجيل والإنجاء .

والشوب في كل ذلك متولد من زيادة الرغبة الفطرية وثورانها.

٢- أسلوب النهي والنفي وأثرهما في بيان شوب الإقبال: حيث تعاقبا في هذا الموضع:﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود: ٤٦] ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[هود: ٤٦]. والشوب يظهر في هذين الأسلوبين من الشدة في الرد إلى المعتقد الصحيح، فالأهلية ليست بالنسب، بل هي بالإيمان، فنهي أن يسأل ما ليس له به علم.

فالشوب متولد من سؤاله إنجاء ابنه ويتجاذب الشوب الثناءُ عليه باستشرافه الإنعام في التنجية له، ووعده بنجاة أهله، فطلب الأعلى وطلبه للأعلى هو الشوب ولذلك رُدَّ إلى الصواب فكأن ثوران العاطفة رجحت لديه أن الأهلية أهلية دم أو قرابة فصحح له لذلك؛ ولذا عقب عليها بما هو شديد في التحذير ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود: ٤٦].

٣- أسلوب الطي وأثره في بيان الشوب :

كما يتجلى العتب في شوب الإقبال في طي الإجابة على دعائه: ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[هود: ٤٧] فلم ترد إجابته صراحة على دعائه بل طويت تناسبًا مع القبض، وهذا أدخل في شوب الإقبال .

كما أنّ ورود القول مبنيًا للمفعول –في قوله – تعالى – :﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾[هود: ٤٨] = طيٌّ للإسناد، فلم يصرح بالمسند إليه، فلم يقل :(قلنا) وهذا أدخل في شوب الإقبال؛ إذ اطّرد في القرآن الكريم عند إرادة التكريم والصفاء في الإقبال أن تسند أفعال الإنعام مباشرة إلى

(١) ينظر : دلائل الإعجاز : ٢٤٤.

الله – ﷻ – ولكن بناء الفعل للمفعول متولد عن شوب الإقبال هنا. وهذا متسق مع الآيات لنظمها على الشوب – كما تقدم – .

أما جانب العاطفة الثاني من ثوران غضبه – عليه السلام – ففي دعائه على قومه بالهلاك في موضع سورة نوح: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾[نوح: ٢٦].

ويكتنف شدة غضبه أمران:

أولهما: استغراقه – عليه السلام – في دعوتهم عمراً مديداً، واستفراغه كل جهدٍ وطريقٍ في الدعوة .

آخرهما: ما يقابل هذا الاستغراق من تصميم على الكفر، ومن هنا تولد إعذاره في الإقبال. أما الشوب فيتولد من أسلوب رئيس في دعائه وهو عموم الدعاء مكانًا وزمناً وذلك في عموم الوصف:﴿ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾[نوح: ٢٦] بدلالته على الإبادة الجماعية لهم ؛ فالعرب تطلق كلمة الدار على كل ما يدور بالشيء ويحيط، فالبيت دار، ومجموعة البيوت دار، والقرية دار، وكذلك ما هو أعم منها[1]، فكل شيء محيط بهم دعا عليه سيدنا نوح – عليه السلام – وهذا فيها دلالة على شدة الغضب.

ويلتقي مع : "ديَّاراً" –في العموم– قوله: "عَلَى ٱلْأَرْضِ" فالأرض دالة –هنا– على عموم المكان، يعضد هذا العموم تصديره دعائه بـ:﴿ لَا تَذَرْ ﴾ من دون لا تدع أو غيرها . وهذا فيه دليل ألا يترك منهم حتى أقل القليل من حقير أو غيره، فالوذر:(وَذْر) فيه معنى القلة حيث يطلق على قطعة اللحم الصغيرة لقلة الاعتداد بها[2]، كما أنَّ فيه معنى التحقير، ومن ثمَّ يطلق على الذنب وزر لتركه تحقيرًا له، فهم مع إهلاكهم متروكون تحقيرًا لهم وهذا فيه من الغضب مافيه.

وبمقارنة هذا الدعاء مع رجاء الرسول – ﷺ – للكافرين: "**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لايشرك به شيئا**"[3] يتجلى لنا الشوب في بيان هذا البعد من شخصية نوح – عليه السلام – في هذا السياق خاصة بما يكشف عن تفاوت المرتبة وما يتبعه من اختلاف في الإقبال، بينما ذكر في مواضع الصفاء صبره وتحمله – عليه السلام – وحلمه في الرد عليهم ؛ لتناسبه مع سياق وروده.

---

(١) ينظر : لسان العرب: باب الدال: ٢/١٤٥٢.

(٢) ينظر : المفردات في غريب القرآن: كتاب الواو : ٥٣٣.

(٣) ينظر : صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم الحديث ٣٢٣١: ٤/١١٥.

أما امتداده زمانياً فمن قوله: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾[نوح: ٢٧] فهذا امتداد زمني في الدعاء بإهلاكهم يشمل حتى ولدهم وكل عقبهم، وهذا جانب اللوم في الشوب.

ويتأتى جانب الإعذار في الشوب في إيثاره الربوبية في الدعاء: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ ﴾ ؛ لأنه رأى أن هذا الدعاء من جانب النعمة؛ لأنَّ تركهم سبب في ضلال غيرهم، لذا شدَّد الدعاء وأورده بالربوبية.

المبحث الثاني: شوب الإقبال باعتبار غير المخاطب:

للشوب جوانب متعددة، فليس بالضرورة أن يكون سبب الشوب حال المخاطب أو تصوير شخصيته – كما تقدم – في المواضع السابقة، بل إنه يكون لأسباب أخر قد تتعلق بالمتكلم أو بسياق السورة التي ورد فيها الشوب ، وطريقة ورود القصص فيها، وربما كان لسلطان الألوهية في النظم مدخل في الشوب، ومن ثم يتولد الشوب من اعتبارات مختلفة.

ويمكن فهم ذلك من قول الحرالّيّ:" اعلم أن كل مربوب يخاطب بحسب ما في وسعه تلقيه، وينفى عنه ما ليس في وسعه تلقيه ... وربما كان له إباء عن بعض ذلك، فيقع عنه الإعراض بحسب بادي ذلك الإباء وربما تلاقته الرحمة فعاد الإقبال إليه بوجه ما، دون الصفاء الأول"[1].

فيفهم من قوله : " وربما تلاقته الرحمة ... " اعتبار حال المتكلم سبباً للصفاء بصريح نصه، ويفهم من مفهومه كونه أساسا في الشوب؛ لأنّ القاعدة في الصفاء والشوب واحدة فهذا القول يؤسس لهما، فرحمة المتكلم هنا كانت سببًا لصفاء الإقبال، فليس الأمر إذن هنا بسبب المخاطب وإنما لأمر يتصل بالمتكلم لذلك قال:" بوجه ما"، وهو شاملٌ لكل الأحوال والمقامات.

كما يفهم من هذا أنّ منازع شوب الإقبال ليست جميعها بسبب المخاطب، بل لاعتبارات متعددة صرح هنا بالمتكلم منها، ويمكن أن يندرج معها اعتبارات أخر، كالسياق أو سلطان الألوهية أو طريقة عرض القصص وتكون أسبابًا لشوب الإقبال .

ويترتب على تغاير الأسباب تغيُّر في الأسلوب والتركيب المبني عن هذا الشوب تبعًا لتغير سببه ، ويغلب عليها الطي وعدم البسط في التراكيب؛ لعدم تعلقها المباشر بالمخاطب ، ولذلك جعل البلاغيون ضيق المقام عن التصريح بالمسند إليه أو المسند من أسباب حذفهما [2].

وضيق الحال في الشوب يرجع إلى حال المتكلم أو المخاطب أو الأحوال الخارجية المحيطة بهما، وهي شاملة لكل منازع شوب الإقبال، فمن ثمّ كان الأسلوب الرئيس لمنازع الشوب الطي وكان البسط أسلوبًا رئيسًا لصفاء الإقبال، سواء كان حديثًا مع المخاطب، أو سعة في أحوال المتكلم،ولذا جعل البلاغيون البسط والتلذذ من دواعي ذكر المسند إليه أو المسند أو غيرهما [3].

---

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل: ٤٣.

(٢) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة: ٤٥.

(٣) السابق: ٤٧.

المطلب الأول: شوب الإقبال بين سياقي طلاقة القدرة والإنعام:

ويتجلى ذلك في سياقين:

أولهما: في تأييد سيدنا موسى – عليه السلام – في موضع سورة الأعراف: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) ﴾[الأعراف: ١١٥–١٢٢] وسورة يونس﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) ﴾[يونس: ٨٠–٨١].

آخرهما: في الإنعام على سيدنا عيسى – عليه السلام – في موضعي سورة المائدة –في سياق إظهار مقتضى الألوهية من طلاقة قدرته وعموم ملكه–: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) ﴾ [المائدة: ١٠٩–١١٠] ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾[المائدة: ١٠٩-١١٩].

فالملاحظ في موضع سورة الأعراف الأول: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا ... ﴾ وموضع سورة يونس ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ... ﴾ أن السبب الرئيس للشوب متولد من السياق العام للقصة فيهما، ومن نمط عرض القصة في كل موضع من وجه آخر.

فالسياق فيهما سياق إهلاك وعذاب وعتاب ولوم، فاختلفت رتبة الشوب بينهما باختلاف نمط عرض القصة، وما ينبئ به تغاير الأسلوب في كل منهما .

فالقصة عرضت في الأعراف معرض الضيق والحرج، حيث عرضت في سياق ألوان من إهلاك القرى من أخذهم بالبأس وهم نائمون: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٧] أو إهلاك بالضحى وهم يلعبون: ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٨] أوطبع على قلوبهم: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾[الأعراف: ١٠٠-١٠١].

ثم ذكر بعدها مباشرة قصة سيدنا موسى - عليه السلام - وجعل إجمالها بدءاً بذكر ظلمهم: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[الأعراف: ١٠٣] بالعطف بالفاء مع أنّ مقتضى الظاهر أن يعطف بـ(ثم) (ثم ظلموا بها) لأنّ ظلمهم حدث بعد زمن، ولكن معرض الضيق والحرج اقتضى العطف بالفاء ابتداءً، ثم توالى عرض القصة في الضيق والحرج، سواء كان هذا الضيق في أمر موسى وقومه وتعامل فرعون معهم، أو في مواجهة موسى - عليه السلام - مع فرعون، أوفي تعامله مع بني إسرائيل وشدة إعراضهم وتكذيبهم .

كل تلك السياق رشح لشوب الإقبال في جانب الإنعام بالتأييد، حيث عرض -أيضًا- من جانب الضيق والقبض، فالقصة عرضت من جانب تكذيب قومه له وبيان مواقفهم من الرسالة

ابتداءً، وتكذيب بني إسرائيل وشدة إعراضهم ثم إهلاكهم انتهاءً، وهذا يتلاءم مع مطلع السورة: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾[الأعراف: ٢]، بما فيها من نهيه عن شدة الضيق...

أما موضع سورة يونس: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[يونس: ٨٠-٨١] فنمط عرض القصة كان له مدخلٌ في تنزل مرتبة الشوب في هذا الموضع عنها في موضع سورة الأعراف؛ إذ كان عرض القصة معنيًا بعرض الأجزاء الأخيرة في القصص ومافيها من إهلاك ؛ لذا كان سمتها طيُّ التأييد تمامًا، فليست العناية به، بل بذكر الأجزاء الأخيرة من القصص التي تتعلق بإهلاك المكذبين.

ومن ثم كانت النتيجة: ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [يونس: ٧٤] نفيًا لإيمانهم والحكم عليهم بالطبع بسبب اعتدائهم؛ ولذا حين عرض قصة سيدنا موسى – عليه السلام – عرض المراحل الأخيرة الدالة على الاستكبار والإجرام ﴿ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾[يونس: ٧٥] وهذا مضاد لدواعي الإيمان المذكورة في آيات تستلزم الإيمان بها والخشوع لها لا مقابلتها بالضد من الكفر والاستكبار: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾[يونس: ٧٥].

كما أنهم : ﴿ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾[يونس: ٧٦] فكان حالهم مضادًا لقبول الحق، فقالوا: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[يونس: ٧٦].

وكل ذلك منبئ بالشوب في الإقبال في هذا الموضع الذي يتجلى بالمقارنة بينه وبين صفاء الإقبال في ذات الموقف حين ذكر في موضع سورة طه: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾[طه: ٦٥-٧٠] إذ عرض فيه جانب المنّ والإنعام الخالص من دون أي شوب بذكر

ضيق أو حرج أو إهلاك، بل ورد الإنعام محضًا من أي كدر، وقد اقتضى هذا الصفاء سياقُ نفي الشقاء في سورة طه.

كما أنّ القصة عرضت حديثاً عن موسى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ ﴾ [طه: ٩] فكان مفتتح القصة مناسبًا للحديث، والحديث فيه بسط لشأنه، فالقصة في هذا الموضع عرضت لأجله هو – عليه السلام – وذكر الإنعام عليه، فالقصة له هو خاصة ، لذلك ذكر من جانب العناية به والاهتمام ما لم يذكر في غيره ، فعرضت المواجهة مع فرعون بتأييده على وجه إعانته – عليه السلام – دفعًا للشقاء ، فكان إعلام النبي – ﷺ – بحديث موسى على وجه الإنعام على الرسل تأييدًا بالإنعام عليه؛ لأنّ الاستفهام الموجه للنبي:﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ ﴾[طه: ٩]فيه إعلاء من أمر ذكر القصة على وجه الإنعام بتلك النعم ، وهذا صفاء ممحضٌ في ذكر التأييد.

وعرضت المواجهة مع فرعون في موضع سورة الأعراف من وجه ظلم فرعون وتعديه عليه، ومن هنا تولّد الشوب؛ إذ تولد من السياق لا من المخاطب.

وقد عضد الأسلوب دلالة الشوب في معالم ثلاثة هي:

١- الطيّ والذكر وأثرهما في شوب الإقبال :

يُعد الطيّ السمت الرئيس للشوب في هذه المواضع ؛ لأنّ سبب الشوب ليس متعلقًا بالمخاطب ليفصّل في صفاته وأبعاد شخصيته أو أفعاله، بل إنّ الشوب هنا متولد من سياق السورة التي ورد فيها قصة موسى – عليه السلام – ويلاحظ أن الطيّ هنا يتجلى في مواضع ثلاثة اقتضاها السياق العام للسورة ونمط القصة الوارد فيها :

أ) بداية الإرسال:

يلاحظ أنّه في موضع سورتي الأعراف ويونس طوى تكريمه – عليه السلام – واصطفاءه بلحظة الإرسال، فبدأ مباشرة بالإرسال إلى فرعون وذكر ظلمه والمواجهة معه، وطوى جانب مرحلة المنّ والبسط حين تلقي الرسالة الوارد في سورة طه ؛ ذلك أنّ السياق اقتضى هناك الطمأنة والتأييد فأول السورة في نفي الشقاء، والقصة سيقت حديثًا عن موسى ذاته؛ فالعناية به هو – عليه السلام – ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ ﴾[طه: ٩]، فمن ثم استلزم ذكر لحظة التلقي من دون موضعي الأعراف ويونس.

ب) مواضع التأييد:

ترتب على الطيّ في القصة طيُّ كل مراحل التأييد والطمأنة في موضع سورتي الأعراف ويونس، والتي بسطت في موضع سورة طه، مما يدل على الصفاء هناك والشوب هنا .

فلما توارى التركيز على ذكره والاهتمام به في الموضعين توارى تأييده تبعًا لذلك، فلم يُدخل سيدنا موسى – عليه السلام – في خوفهم: ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٦] ولم يذكر خوفه كما ذكر في سورة طه: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾[طه: ٦٧] وترتب عليه أن لم يذكر طمأنته وتأييده من الله – عز وجل –: ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾[طه: ٦٨].

ج) أثره في التنجية :

راعى في سورة طه أثر موسى – عليه السلام – وكونه فيهم في تنجيتهم فذكر دعاءه وفعله بما يعلي من الإقبال عليه، وهذا كله طواه في الأعراف في قوله تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٦] فليس في ذلك عناية البتة بأثره في التنجية، بل الغرض ذكر سبب الإهلاك، وهذا من الشوب الذي اقتضاه سياق السورة ونمط ورود القصة فيها– كما تقدم –

وكان الطيُّ أكثر في موضع سورة يونس؛ لأنها حكت النهايات لا ماتقدمها، فركزت على انتهاء الأمر ولم تورد أي حدث سوى إبطال الله لسحرهم .

٢– دقة اللفظ وأثره في بيان شوب الإقبال :

أثر النظم : (الوحي) في موضع سورة الأعراف، و:(القول) في موضع سورة طه، والوحي أقلُّ –ولا شك– من التأييد بالقول؛ لما في القول من مباشرة وعناية وصريح تأييد ليس في الوحي؛ لما فيه من الخفاء.

أما موضع سورة يونس فهو لم يذكره أصلاً لتركيز النص فيها على الخواتيم، وهذا ما أدخله في الشوب بالمقارنة مع الصفاء والبسط في النظم في موضع سورة طه .

وفي تخير النظم في موضع سورة طه تسمية سحرهم صنعا: ﴿ صَنَعُوٓاْ ﴾ بينما سماه في سورة الأعراف إفكا:﴿ يَأْفِكُونَ ﴾ دلالة على الصفاء هناك والشوب هنا؛ إذ الصناعة بما فيها من الإتقان

تدل صراحة على شدة الكيد والكذب والخديعة، وكشف هذا أدخل في الطمأنة والتأييد؛ وذلك لأنّ السياق في تأييد موسى وطمأنته في السورة ، وهذا يتناسب مع صفو الإقبال، ولما كان السياق في الإخبار عن كذبهم في سورة الأعراف آثر: ﴿ يَأْفِكُونَ ﴾ التي تخلو من دلالة علوّ الكيد، لظهور كذبهم؛ لأنّ الأفك: "هو الكذب الفاحش"[1]، ومن ثمّ حاجته إلى التأييد، وهذا يتناسب مع شوب الإقبال الذي انسل من الحديث عنهم هم.

٣- العطف وأثره في بيان شوب الإقبال:

ورد التأييد في سورة الأعراف بالعطف وهي أدخل في الخوف وقوعًا وزوالًا؛ للانتقال إلى الأحوال المختلفة، بينما لم ترد البتة في موضع سورة طه، فكأن القول والحدث والنصر حدثًا في آن واحد ولحظة واحدة:﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه: ٦٩] في حين قال في سورة الأعراف:﴿ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[الأعراف: ١١٧] مما يوحي بالمفاجأة.

(١) الفروق اللغوية: الفرق بين الكذب والإفك: ٥٧.

ومما ورد من شوب الإقبال في سياق الإنعام تعداد النعم على سيدنا عيسى – عليه السلام – في سياق الألوهية في موضعي سورة المائدة: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾[المائدة: ١٠٩-١١٠].

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾[المائدة: ١١٦-١١٩].

ومغرس الشوب هنا جواب الرسل – عليهم السلام – بـ: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ على سؤال الله لهم ﴿ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ بما فيه من نفي للأسباب والبراءة من العلم مطلقًا، وهذا ملائم لسياق سورة المائدة؛ إذ ورد فيها الإنعام في سياق طلاقة القدرة وسلطان الألوهية، ومن ثم فقد روعي نفي الحول عن أعلى الناس في سياق الآخرة؛ للإبانة عن الفرق بين البشرية في أعلى صورها والألوهية ردًا على أي توهم سابق للخلط بين المرتبتين، فكأنه فصل فصلًا تامًا بين الطبقتين البشرية والألوهية، ومن هنا تولد شوب الإقبال في تعداد النعم ، لأنه في معرض إظهار القدرة والقهر حتى على أعلى الناس.

واختصاص عيسى في هذا المشهد بالكلام وحده مع أن السؤال للرسل جميعاً؛ لأن السياق المتقدم متعلق به – عليه السلام – فهو في رد من ادعى ألوهيته – عليه السلام – ولذا وردت الأساليب في تعداد هذه النعم معاضدة ذلك الشوب ودالة عليه .

ويلاحظ أنّ شوب الإقبال يتنازعه أمران:

أولهما: الإكرام في تعداد النعم عليه، ويتجلى هذا الإكرام في اطراد أسلوب الخطاب في الموضع، ومعلوم ما في الخطاب من اهتمام وحفاوة بالمخاطب لمباشرته بالخطاب.

كما يتجلى في إضافة النعم إليه – ﷺ –:﴿ نِعْمَتِي ﴾ ﴿ كَفَفْتُ ﴾ و﴿ بِإِذْنِي ﴾ فإضافة النعم إلى ضمير المتكلم فيه زيادة منٍّ وإكرام وإنعام، وهذا مطرد في القرآن الكريم إذا أريد الإكرام بالنعم أضافها إليه – ﷺ – وكل هذا دائر في مدحه – عليه السلام – وإكرامه بهذه النعم.

يقابله الجانب الآخر: الذي فيه تقليل النعم، ويتجلى تقليل الإكرام في اطراد إسناد الفعل المعجز هنا لله – ﷻ – وذلك في ثلاثة أساليب رئيسة ؛

أ- ﴿ أَيَّدتُّكَ ﴾ نسبة التأييد لله – ﷻ – وتعليقه بروح القدس فيه دلالة على أن الأثر والقوة لم تكن من ذات عيسى – عليه السلام – بل هي بتأييده بروح القدس؛ ولذا حين كان الإقبال صفاء كما ورد في مواضع سورة آل عمران ومريم [1]طوي هذا التأييد من روح القدس، وجعل القدرة له – عليه السلام – كما أنّ إيمان الحواريين كان بوحي من الله:

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[المائدة: ١١١] وهذا فيه نزع لأثره – عليه السلام – في حين أنه في موضع صفاء سورة آل عمران كان إيمانهم استجابة لقوله – عليه السلام – مباشرة: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٢] كما أنّ دعوة عيسى – عليه السلام – بإنزال المائدة كان من نزع الأثر عنه – أيضًا – إذ لم ينزلها هو بل دعا بذلك ولم ترد الإجابة محضة للإنعام بل شابه التهديد.

---

(١) ينظر البحث: ٤٦ ومابعدها.

ب- تكرار: ﴿ بِإِذْنِي ﴾ لما في الإذن من دلالة العلم[1]، ودلالة الباء: ﴿ بِإِذْنِي ﴾ على الملابسة، فكل فعل لا ينفك عن هذا الإذن، بل إنّ الإذن ملابس له وهو صادر عنه، في حين أنّه لم يذكرها في صفاء الإقبال إلا مرة واحدة، وكانت تكرارها أدلّ على نزع الأثر من سيدنا عيسى - ﵇ - ومن هذا يتأتى الشوب.

ج- تكرار: ﴿ إِذْ ﴾ التي فيها جلاء لإظهار وقت المنّة للإدانة والخضوع للمنعم -ﷻ- فكأنّه يجعله مستحضرًا لها عالمًا أنّها ليست منه بل من الله .

وكل ذلك -من نزع للأثر واستحضار للنعم- مشيرٌ بشوب الإقبال، ولم يكن لعيسى - ﵇ - مدخل أو سبب في ذلك، بل هو سلطان الألوهية المسيطرة في سياق سورة المائدة واقتضاء الرد على من غالى فيه وادّعى له الإلوهية، فكان التقليل من هذه النعم عليه ونزع أثره دالًا على خطائهم في التجاوز به - ﵇ - حد البشرية.

ويمتد شوب الإقبال إلى قوله - تعالى - :﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾[المائدة: ١١٦] ومغرس الشوب في هذا الموضع متولد من آخر الموضع الأول: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾[المائدة: ١١٥] إذ كان هذا التهديد مع الإنعام متولدًا منه الشوب: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾[المائدة: ١١٥] وتناسب رد عيسى - ﵇ - مفتتحًا بالتنزيه: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ -ودلالة هذا الرد على أدب الخطاب وتفويض الأمر لله - مع شوب الإقبال؛ لأن مقام الرهبة والخشوع ما نعان أن يكون له فعل أو أمر البتة، ومن جاء تصديق الله له في آخر السورة : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة: ١١٩] دالًا على الجانب الثاني من جوانب الشوب وهو المدح والتكريم .

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن: كتاب الألف:٢٣.

وللشوب في هذا الموضع أسلوب رئيس أتيأ عنه، وهو العدول في الاستفهام، حيث عدل في الاستفهام هنا بمقتضى الظاهر أنّ الاستفهام موجه للنصارى المغالين في تأليه عيسى – عليه السلام – أو تشريكه مع الله في ألوهيته.

وأتى العدول في الاستفهام من منطلق الألوهية؛ لذا ختمت السورة بـ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾[المائدة: ١١٦] للدلالة على استغراق الملك وطلاقة القدرة: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [المائدة: ١٢٠] وهذا يتلاءم السياق البعدي مع السياق القبلي، فكلها دائرة في فلك الألوهية والقهر والغلبة ردًا وتبكيتًا للمغالين المكذبين، ومن هنا تولّد شوب الإقبال في الخطاب ؛ إذ لم يوجه له خطاب ولا استفهام بهذه الشدة في مواضع صفاء الإقبال عليه [1].

وكما تجلى الشوب في العدول في الاستفهام تجلى –أيضًا – في تركيب الاستفهام ذاته من وجوه خمسة تلك:

أ . تخير الهمزة في الاستفهام وإيحاؤها بالشدة في المعنى المراد مع همزة أنت: ﴿ ءَأَنتَ ﴾ وما في تتابع الهمزات مع همزة أنت من قوة يناسب الشوب، فجرسها الصوتي أوقع وأقوى في التبكيت لهم، فيها إيحاء بالنفور من هذا الأمر.

ب . تقديم المسند إليه :﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ ﴾ ومجيئه بضمير الخطاب فيه مواجهة أشد، فالتقديم يدل على إسناد الفعل له مرتين وهذا أشد تأكيدًا للوم.

ج . تخير القول مستفهما عنه من دون: (اعبدوني) مثلاً؛ لما في الاتخاذ من دلالة القهر [2] ما ليس في: "اعبدوني"، وهذا أدخل في شوب الإقبال.

د . التقييد بـ :﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فليس تشريكًا فقط ؛ بل تأليهًا له من دون الله، يزيده شوبًا ما في لفظة :(دون) من الدونية الدّالة على التسفل .

---

(١) ينظر : البحث: ٤٦ ومابعدها.

(٢) ينظر : المفردات في غريب القرآن: كتاب الخاء: ٢٢.

هـ . العموم في: (الناس) ﴿ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ فكأنَّ الدعوة إلى هذا كانت عامة، وليست لقومه فقط وهذا العموم أوقع في التوبيخ الدَّال على شوب الإقبال . وكل هذا البناء في الاستفهام قائم على تفظيع هذا القول وتشنيعه، والأصل أن يكون لهم، فكونه عُدِل به إليه دالٌ على الشوب في الإقبال الذي اقتضاه سياق سلطان الألوهية ولم يكن للمخاطب مدخل فيه .

المطلب الثاني: شوب الإقبال في سياق دعوى ألوهية المسيح عيسى – عليه السلام– :

وذلك في قوله – تعالى – في سورة النساء: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ [النساء: ١٧٢] وقوله – تعالى – في سورة المائدة ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾[المائدة: ٧٥].

وقد اقتضى السياق العام في كلا الموضعين شوب الإقبال؛ إذ كان السياق فيهما نفي الألوهية عن سيدنا عيسى – عليه السلام– ردًا على دعوى تأليهه أو تشريكه لله – عز وجل – في ملكه: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة: ٧٢] ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾[النساء: ١٧١].

ومغرس الشوب في موضع سورة النساء: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾[النساء: ١٧٢] متولد من آخر الآية السابقة: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾[النساء: ١٧١] فالملكية في : (له) تدل على نفي استنكاف عبادة الله– عز وجل – والتعبير بـ :(ما) من دون: (من) فيه دلالة على أنّ كل من في السماوات والأرض عاقلًا وغير عاقلٍ حكمهم في الملكية واحد، وهذا وطأ لنوع الخطاب: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ﴾ فإذا كان الجميع متساوين في ملك الله لهم، فالأرفع والأقل سواء في العبودية له .

فشوب الإقبال أتى في نطاق دلائل الألوهية من الملك والقدرة وسعة التصرف واستواء الجميع في هذا، فكأن شمول هذا الملك للعاقل وغير العاقل من دون اختصاص أو تمييز أو رتبة لسيدنا عيسى- عليه السلام - هو ما رشح للشوب هنا.

ومن ثمّ لم يكن هناك تبسط في الخطاب، ولا بيان لعلوّ مرتبة، ولا خصوصية بنعم كالتي تقدمت في صفاء الإقبال في مواضع سورة آل عمران وسورة مريم؛ ذلك أنّ سلطان الألوهية اقتضى هذا الشوب.

ويدل على هذا الشوب خمسة أساليب:

١) الترقي: وهو الأسلوب الرئيس الدّال على الشوب في هذا الموضع، حيث ترقى النظم الحكيم في نفي الاستنكاف عن عبادة الله ترقيًا ينبئ عن شوب الإقبال، إذ بدأ بنفيه عن سيدنا عيسى - عليه السلام - ثم ترقى إلى نفيه عن الملائكة المقربين، قال الزمخشري: "ولا الملائكة المقربون" أي: ولا من هو أعلى منه قدرًا وأعظم منه خطرًا" [١].

وعلق ابن المنير بقوله: "ومما لا شك أن سياق الآية يقتضي تقديم الأدنى وتأخير الأعلى"[٢]. و ذلك لِمَا كان لعيسى - عليه السلام - بدعواهم السابقة- من التألُّه، فجعله أقرب إلى نفي الاستنكاف، ثم رقّى الحال إلى الملائكة، ومن ثم خلّاه عن الوصف بما يدل على التكريم، ووصف به الملائكة: ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ ولهذا مدخل في شوب الإقبال الذي اقتضاه سياق سلطان الألوهية المسيطرة في السورة لتبكيت من ادعى ألوهية عيسى - عليه السلام -.

٢) التنكير وأثره في بيان شوب الإقبال:

يلاحظ أنه نكّر: (عبداً) في قوله - تعالى -: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾[النساء: ١٧٢] فجعله بهذا التنكير عبداً من جملة العبيد دون تمييز أو خصوصية على

---

(١) الكشاف: ٢/١٨٣.

(٢) حاشية ابن المنير على الكشاف: ٢/١٨٣، ١٨٤.

وهذا لا يعني أني أرجح ما ذكره المعتزلة من فضل الملائكة على الأنبياء، لا فجمهور أهل السنة يقولون بخلاف ذلك وهو الصحيح، وإنما القصد إلى ما صرح به البقاعي:" هم أفضل في الخلق لا المخلوق " فكونه ذكر ميزتهم هنا عليه له مدخل في شوب الإقبال ، أعني أن التفضيل ليس في صفات المخلوق بل في ذات الخلق فليسوا أفضل منه في رتبهم ولا في صفاتهم.

الرغم من أنّه ميزه واختصه بعلو المنزلة في مواضع أخر، ولكن السياق اقتضى أن يكون فقط عبداً من جملة العبيد للرد على من توهم ألوهيته وجعله خارجاً عن عبودية الله ، فالعبودية في القرآن حينما يريد منها التكريم تضاف إما إلى ضمير عائد على اسم الجلالة: (عبدنا) ، (عبدي) أو إلى اسم الجلالة صراحة :(عبدالله) وينكر حين لا يقصد إلى التكريم؛ لذلك نكر هنا لاقتضاء سياق الألوهية، بينما عرّفه بالإضافة في الآية السابقة: ﴿ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ ﴾[النساء: ١٧١].

٣) التقييد والإطلاق وأثرهما في بيان شوب الإقبال :

ومن ذلك وصفه بالمسيح من دون عيسى ابن مريم: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ فذكره بالوصف ولم يذكره بالعلمية له دلالة على الشوب؛ لأنّ الغالب في القرآن حين يذكر الاسم يقصد إلى التكريم، وحين يعدل إلى الوصف -وقد اطرد تسميته في بقية المواضع باسمه العلم- يدلُّ على شوب الإقبال، أما جانب التكريم فمتولد من جانب نفي الاستنكاف عن عبادة الله عنه .

ومن الشوب أن ورد وصف التكريم والعلـوّ مع الملائكـة فقط :﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾، في حين لم يذكر مع المسيح أي وصف غيره من إنعام أو معجزات منه إبداء عن شوب الإقبال، وشوب الإقبال لم يتولد - كما تقدم - من بعد شخصي في عيسى - عليه السلام - بل إنّه من سياق سلطان الألوهية هنا .

٤) النفي والإثبات وأثرهما في بيان شوب الإقبال:

ورد النظم هنا بنفي الاستنكاف عنه:﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ [النساء: ١٧٢] مـن دون إثبات العبودية له، وهذا له مدخل في شوب الإقبال؛ إذ إن هناك فرقًا بين نفي الاستنكاف وإثبات العبودية؛ لأنّه لو كان القصد إلى تكريمه لأثبت العبودية ابتداءً ؛ وذلك لأنّ في السياق منازعات في هذا الشأن، فجاء هذا الأسلوب على النفي لا على الإثبات. فالإله معبود وليس عابدًا، فهذا كالدليل على نفي ألوهية عيسى - عليه السلام -.

٥) علوّ النبرة في التهديد الصريح :

ورد التهديد بـ: ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾[النساء: ١٧٢]وهذا فيه علو نبرة التهديد وشدة الخطاب على الرغم من أنّ المذكور من أولي العزم إلا أن شدة الخطاب اقتضاها سياق سلطان الألوهية، في حين لما كان المقام بسطاً وتكريماً نبسط الخطاب .

أما مغزى ذكر المائدة فمتولد من التهديد الصريح المتقدم في قوله - تعالى-: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾[المائدة: ١١٥].
والسياق دائر في نفي دعوى ألوهية عيسى - عليه السلام - وتشريكه مع الله ومن ثم كان امتداد الخطاب في إظهار ألوهية الله - عز وجل - وتفرده بها وبيان علوها في أعلى صورها.

وقد اختلف أساس التركيب هنا عنه في سورة النساء؛ إذ كان أساس الشوب هنالك الترقي في المعاني أما هنا فأساسه الوصف؛ حيث ركز النظم على وصف عيسى - عليه السلام - بصفات لا تجـــاوزه مكانـــــة البشـــرية :﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾[المائدة: ٧٥] فأتى بالقصر هنا وهو قصر قلب؛ لأنّه رد على دعوى النصارى بألوهية عيسى - عليه السلام - ومن ثم جاء القصر بالنفي والاستثناء؛ لأنّ المخاطب منكر ومتوهم خلاف ذلك[1].

ويدل هذا القصر على رده إلى حقيقته من دون علوّ شأنه، ومن هنا يظهر الشوب؛ لذا لم يذكر جانب إكرامه، بل إنّه قصر على الرسالة دون ما اتصل بها من أفعال ومعجزات؛ لأنّ المراد بيان أصل الحقيقة من دون بيان علوها، ومن ثم تساوق معنى القصر مع طريقته بالنفي والاستثناء، وأتت جملة: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ من متممات القصر للدلالة على استوائه مع غيره، فالتنكير في: (رسول) ليس للتعظيم، بل للفردية لبيان الاستواء فهو فرد من أفراد الرسل .

ومن ذلك لما توهم الصحابة خلود الرسول - صلى الله عليه وسلم - ورد النظم بما يشابه ذلك: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [آل عمـــران: ١٤٤] رداً لهم مهما علا شأنه إلى بشريته باعتبارات مختلفة، وكذلك هنا في شأن عيسى- عليه السلام -.

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٣٣٢.

ثم ورد عطف والدته عليه بوصفها :﴿ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥] من دون ذكر خصائصها والتقدير: (وما أمه إلا صديقة) بدلالة ما عطف عليه، وهذا متناسق مع ذكر شأنه – عليه السلام – فذكر أمه بما لا يخرجها عن البشرية؛ لإرادة الحقيقة من حيث هي من دون علوّ فيها.

ثم إنه اختص بالذكر صفة الأكل من صفات البشرية :﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾[المائدة: ٧٥] وهذا اقتضاه شوب الإقبال مع أنّ هناك صفات كثر تظهر البشرية فلم اختص منها أكل الطعام؟ قال البقاعي : " ولمّا كان المقام مقام البيان عن نزولهما عن رتبة الإلهية ذكر أبعد الأوصاف منها فقال : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ وخص الأكل؛ لأنه – مع كونه ضعفًا لازمًا ظاهرًا– هو أصل الحاجات المعترية للإنسان فهو تنبيه على غيره ، ومن الأمر الجليّ أن الإله لا ينبغي أن يدنو إلى جنابه عجز أصلاً. وقد اشتمل قوله – تعالى –: ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ ﴾[المائدة: ٧٢] وقوله: ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ على أشرف أحوال الإنسان وأخسها فأشرفها عبادة الله ، وأخسها الاشتغال عنها بالأكل الذي هو مبدأ الحاجة "[1].

وفي كلا المعنيين دليل حاجة والرب منزه عنها، ومن هنا تولّد شوب الإقبال؛ إذ صوره بالحاجة والافتقار، وهذه لا تكون صفات إله البتة، ثم إنه وصف به:﴿ لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾[المائدة: ٧٦] بتقديم النفي، ونفي أي أثر له في النفع أو الضر –مع أنّه أثبت له ذلك بإذن الله في مواضع الصفاء: ﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) ﴾حيث أسندت إليه أفعالاً دالة على كرامته وإن كان ليس على وجه ملكها صراحة بل على وجه السببية فيها، وهذا فيه زيادة تكريم له يقتضيه الصفاء، لكن هنا نفى عنه ملكها صراحة، ومن هنا تولد شوب الإقبال مرشح لشوب الإقبال.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٢/٥١٦.

خَاتِمة

خَاتِمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات والصلاة على سيد المرسلين وخاتمهم سيدنا محمد -ﷺ- وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد،

فبعد انتهاء مرحلة البحث حول:"مراتبُ إقبال الذِّكر الحكيم على أولي العزم ومقاماتُها عند الحرالِّيِّ بين الاقتضاء وطرائق التعبير" يمكن رصد أهم النتائج التي أراها جديرة بذلك على النحو التالي:

<u>أولها: التناسب بين الفكر البلاغي الكلِّي للحرالِّيِّ ومنازع فكره ويظهر ذلك في وجوه أربعة:</u>

١- التلازم بين النشأة التاريخية للحرالِّيِّ ومنازع فكره في نظريته الكلية لأسلوب القرآن.

٢- تأثير ثقافته بالعربية وإيحاءاتها، ومعرفته بالمنطق في فهمه لضوابط بلاغة القرآن .

٣- تأثير النظرة العقلية التي عرف بها شيوخه في نظرته لبلاغة القرآن.

٤- تجلي تأثير ثقافة الحرالِّيِّ وشيوخه في اعتماده على التناسب، ومن ذلك تناسب فصول رسالته: (مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل) مع فهمه للترقي في الإقبال إذ ترتيبت فصول الرسالة ترقيًا من الأدنى إلى الأعلى تناسبًا مع ترقي الإقبال مع أصناف المخاطبين.

<u>ثانيها: الفروق المعنوية والأسلوبية بين مرتبتي صفاء الإقبال: صريحه وعدوله وشوب الإقبال:</u>

ظهر الفارق بين الصريح والعدول في الصفاء في معالم ثلاث رئيسة:

١- إفصاح صفات المدح في صريح الإقبال في الدلالة عليه عن طريق تتابع الأساليب مسندة إلى المقبل عليه إما باسمه أو بضمير خطابه؛ لاستلزام تعين المقبل عليه من دون لبس، بينما تأتي عن طريق التعريض في العدول.

٢- امتداد جذور التكريم في صريح الإقبال، مما يعين على ظهور الإقبال في الخطاب، وهذا الظهور فيه علوٌ وبروز؛ لذا فهو جزء من صفاء الإقبال، الذي هو أعلى رتبة من شوب الإقبال .

٣- بناء صريح صفاء الإقبال على الحقيقة ؛ لذا لا يتأتى فيه خلط الصفات؛ لأنَّ هذا يتعارض مع خلوص التصريح، ولا تتأتي فيه الكناية؛ فالصريح ضد الكناية، وهذا

عكس أسلوب العدول في الإقبال الذي يبنى على غير الحقيقة، سواء بالكناية أو التجوز.

الفرق بين الصفاء والشوب في الإقبال:

ظهر الفرق بين الصفاء والشوب في الإقبال في أساليب ثلاثة:

١- ندرة وقوع شوب الإقبال على المقبل عليهم في الذكر الحكيم عامة- يفهم هذا من قول الحرالّي: "وربما كان له إياء عن بعض ذلك" ويرجع -عندي- إلى أمرين:

أ- أمر يتصل بالمخاطب، فالأصل أنّ كل من يقع عليه الإقبال عالي الرتبة ، فيندر الشوب في الإقبال عليه.

ب- أمر يتصل بالمتكلم، فصفات الجمال بعيدة عن الإعراض عمن هو في مرتبة الإقبال فإذا رضي قلّ أن يعرض، ومن ثم فلا يكون إلا قليلًا- وعلى أولي العزم خاصة؛ لأنّ مرتبتهم أعلى من غيرهم ، ولأنّ الرضى عليهم أشمل زمانًا وحالًا من غيرهم، فمن ثم فهو أندر في الذكر الحكيم.

٢- اختلافهما في جذرهما: فشوب الإقبال يمده أسلوبان: أسلوب فيه صفاء إقبال، وأسلوب فيه إعراض، ويغلب أحدهما تبعًا للرتبة والسياق، بينما يمد صفاء الإقبال لون واحد من الأساليب وهو محض الإقبال وصفوه بالتكريم والثناء.

٣- بناء صفاء الإقبال على أحد أسلوبين: إما الحقيقة في صريح الإقبال، أو مخالفة مقتضى الظاهر في العدول، بينما يبنى شوب الإقبال على أسلوب واحد هو مخالفة مقتضى الظاهر، إلا أنّ بينهما فرقًا رئيسًا هو أنّ مخالفة مقتضى الظاهر في العدول إنما هي لمراعاة حال الغير، أما في الشوب فتكون مسببّة عن حال المخاطب.

<u>**ثالثها: بناء تفاوت رتب الإقبال أسسًا وأسلوبًا على ثمانية محاور رئيسة:**</u>

١- اختلاف المخاطب ذاتًا وحالًا، فاختلاف الذات أساس رئيس لاختلاف مراتب الإقبال، كذلك اختلاف حال كل واحد على حدة يتبعه حتما اختلاف مرتبته في الإقبال.

٢- تفاوت الرتب تبعًا لتنوع أسماء الله وصفاته والإضافة إليها، تبعًا للتعاور بين أسماء الجمال والجلال باعتبار رتبة كل مقبل عليه.

٣- تفاوت الرتب تبعًا لذكر المقبل عليهم في درج الذكر الحكيم بأحد اعتبارين:

- إما بالترتيب المصحفي، فيغلب عليه اعتبار زمن الأحداث.

- وإما باعتبار النزول حيث يغلب شوب الإقبال باعتبار المتكلم أو سلطان الألوهية في آخر المواضع نزولًا.

٤- اختلاف إطار الرعاية بين الأنبياء من أولي العزم، فالإقبال على عيسى -ﷺ- كان تشريفًا لنسبه، وعلى موسى -ﷺ- تأمينًا له للدلالة على قربه من الله -ﷻ- وعلى الرسول -ﷺ- عنايةً به وإعلاء لشأنه -ﷺ- مطلقًا، وهذا دليل على علوّ مرتبة الإقبال عليه عن سائر الأنبياء من أولي العزم؛ فإطلاق إعلاء الشأن أعلى من تقييد الإقبال بوصف أو وقت.

٥- تمحض المنّ على النبي -ﷺ- في الإنعام زيادة في التشريف والتكريم لذاته ومن ثم كثر؛ (لك) معه، بينما سيقت مع غيره لأغراض اتصلت بالدعوة؛ كالتثبيت على الدعوة أو التسلية.

٦- تفرد الإقبال على النبي -ﷺ- بسور مكتملة قد سيقت كلها -في مقصدها الرئيس- لتشريفه وبيان خصائصه، كسورة الأحزاب والضحى والشرح.

٧- خصوصية وجه الإقبال مع نوح -ﷺ- في بيان نهج الدعوة في أسلوبه الرئيس، فإن ورد وصف له فاستطراد، بخلاف غيره من أولي العزم فيأتي الوصف أحد الأساليب الرئيسة للإقبال .

٨- اختصاص النبي -ﷺ- بأساليب في الإقبال من دون غيره منها:

أ- التزام أسلوب الخطاب المباشر له -ﷺ- في الإقبال.

ب- تنوع وجوه التعظيم في الأسلوب الواحد علوًا في الإقبال عليه -ﷺ- بخلاف غيره من أولي العزم فيختص كل وجه في الإقبال بأسلوبه.

ج- خلوّ الإقبال عليه من مادتي: "اذكر" و"إذ" في التذكير بالنّعم، ومجيء التذكير بأسلوب التقرير وهو أعلى أيضا؛ لأنّ التقرير فيه دلالة على حضورها في نفسه ووقوعها حسًا بخلاف التذكير ففيه معنى مضي النّعمة وانقضائها وربما توحي بنسيانها.

د- غلبة الإفهام في الإقبال على النبي -ﷺ- على الإفصاح؛ اتساعًا لدلالات الإقبال عليه؛ لأنّ النّعم المذكورة معه- ﷺ- معنوية متنامية فهي معتمدة على أمور نفسية لا تتعلق بصريح اللفظ، بل بما يحيط باللفظ، ومن ثم يكون اتساع المعاني في الإفهام لا الإفصاح.

هـ - تجانبُ التقييد والإطلاقِ دلالتي الإقبال؛ للدلالة على العناية وعلوّ الشأن في الإقبال عليه خاصة، فحين يكون المقصد الأول بيان علوّ شأنه -ﷺ- تتعلق النعم بضميره وتطلق من ضمير الفاعل، وحين يكون المقصد الأول الامتنان بعظمة الرعاية تتعلق بضميري الفاعل والمفعول.

<u>رابعها: تنوع البناء الأسلوبي في الإقبال القرآني بين الاطراد والكثرة والتفرد وفقًا لسياقه ومقامه الخاص على النحو التالي:</u>

١- اطراد تناسب رتب الإقبال مع تعريف المخاطب بالضمير، فينفرد تعريفه بضمير الخطاب في الرتبة الأولى، ثم يتنوع تعريفه بالخطاب والغيبة في الرتبة الثانية، إلى أن يعرّف بالغيبة رتبة ثالثة تبعًا لمقامه والسياق الوارد فيه الإقبال.

٢- اطراد تقديم ذكر المخاطب تبعًا لعلوّ مرتبته وإن تأخر زمنًا.

٣- اطراد صفات الجمال والإنعام مع علوّ المرتبة في الصفاء كاطراد الربوبية في موضع سورة الضحى، وكاطراد الإضافة إليها في مقام الشدة ترفقًا وتطمينًا وتقريبًا ، بينما اطرد ورود الأسماء الدّالة على القهر والغلبة في شوب الإقبال.

٤- اطراد الاستقبال في سياق تلقين الحجة مع النبي-ﷺ- إما تصريحًا -كما في موضعي سورة البقرة والعلق- أو تعريضًا بظهور بوادره -كما في موضعي سورة آل عمران والأنعام- لما فيه من البناء النفسي له -ﷺ- والإعداد له لحوادث المستقبل، وهو أدل على العناية، وعلوّ الإقبال عليه بالتأييد والتهيئة.

٥- كثرة أساليب الوعد والضمان في صفاء الإقبال كثرة تابعةً لمرتبة المخاطب؛ وتنوعها تبعًا لتنوع المقبل عليه؛ لذا يرد التوكيد بـ (إنّ) كثيرًا في أعلى مراتب الإقبال.

٦- غلبة أسلوب الخطاب على صفاء الإقبال؛ لما في المواجهة من حفاوة وتكريم .

٧- غلبة بناء الإقبال على النبي -ﷺ- في سياق بيان وصفه على حذف الموصوف؛ لدلالته على أنّ الذات مكونة من تلك الصفات؛ مبالغة في المدح، وأنّ الموصوف متعين حقيقة أي: أنّ هذه الصفات لا تكون إلا له ولا تنطبق إلا عليه، بما يعلي من تكريمه والإقبال عليه.

٨- تعاور أسلوبي الذكر والحذف في مرتبتي صفاء الإقبال وشوبه، فيطرد البسط في ذكر النعم في الصفاء؛ لذا يتسم بظهور المعنى ووضوح القصد، ومن ثم تتعدد وجوه التكريم في

أساليب صفاء الإقبال وتكثر تبعًا لمرتبة المقبَل عليه، بينما يطرد الطيُّ في ثوب الإقبال، لاسيما حين يكون مثير الثوب غير المخاطب .

٩- تعاور الإنشاء الطلبي وغير الطلبي في العدول في الإقبال على النبي -ﷺ- تلازمًا مع التعبير عن الترقي في شدة الحزن، فكلما كان الحزن أعلى وردت المواضع بالإنشاء غير الطلبي، لأنّ فيه دلالة على مرحلة أبعد في المعنى؛ لذا ورد النهي عن الحزن -إنشاءً طلبيًا- في الحزن الطبيعي، بينما لم يرد النهي عنه في اشتداده عليه وبلوغه درجة أعلى منه ، صراحة فهي مرحلة قد طويت واستفرغ منها، فمن ثمّ جاء الإنشاء غير طلبي في قوله:﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفۡسَكَ ﴾ بأسلوب الترجي.

فترتبت مراتب الحزن تبعًا لهذين الأسلوبين، فكان أعلاها تعبيراً عن الحزن ما ورد بالإنشاء غير الطلبي، وأخفها ما ورد بالإنشاء الطلبي وبالنهي خاصة. وكلا الأسلوبين يقصدان إلى رده -ﷺ- عـما جُبل عليه من الرحمة إلى العدل إقبـالاً عليه، فهـؤلاء لا يستحقون ابتداءً الحزن عليهم، فكيف ببخع النفس وإذهابها عليهم حسرات؟

١٠- تفرّد النبي-ﷺ- بورود العبودية مضافةً لضمير المفرد (عبده) وصفاً له من دون سواه بينما وردت مع غيره مضافة إلى ضمير الجمع :(نا) أو الاسم الظاهر.

١١- تفرد مواضع الإقبال على عيسى -عليه السلام-: " اذكر" في التذكير بالنعمة من بين أولي العزم، واشتراك مواضع الإقبال على موسى -عليه السلام- معها في: "إذ " وإن كانت أقل، وخلو مواضع الإقبال على النبي - ﷺ- من " اذكر" و"إذ" في التذكير بالنعم، ومجيء التذكير فيها بأسلوب التقرير -كما تقدم-

<u>**خامسها: تفرد البحث بالإشارة إلى بعض الإيحاءات والدلالات المرتبطة بألفاظ وتراكيب الإقبال ومن ذلك :**</u>

١- الربط بين إيثار تسمية: (القرآن) من دون غيرها والإعجاز الصوتي من وجه، وارتباطها بالتعبد من وجه آخر، ومن ثُمّ يكثر ذكر القرآن مع ذكر الصلاة سواء بلفظها أو بمعناها، واطّراد ورود هذه التسمية عند علوّ الإقبال في مقامات البسط والرضى، تنويهًا بعلوّ شـأنه -ﷺ-.

٢- التناسب بين تسمية كتاب عيسى -عليه السلام- بـ: (الإنجيل) والدلالة على كرم طبعه وأصله، ومن ثم الإقبال عليه من هذا الوجه خاصة؛ فهو مشتق من النّجل وهو كرم الأصل والطبع، فمن ثم تناسب في أصالته في ذاته مع أصالة طبيعة من أرسل به وطبيعة

رسالته، حيث اختص برسالة ترتقي بالنفوس، وتحض على محاسن الأخلاق بما فيها من الآداب، وهذا ملائم لحال بني إسرائيل حينئذ؛ لأنهم قد أوغلوا في الماديات.

٣- التناسب بين الإقبال على سيدنا موسى -عليه السلام- في مرحلة الصغر بإضافته إلى الضمير العائد على المولى -سبحانه- مع الإعجاز في انعدام البعد الخارجي، والاجتماعي له؛ فسبب محبة كل من رأى موسى له هو من الله؛ لأنّ ما عرف عن شكل موسى -عليه السلام- أنّه كان أدمًا، ولكن الله جعل له قبولًا، كما أنّه -عليه السلام- كان شديدًا في تعامله، ومع ذلك له محبة في قلوب الناس، كما كانت كل عوامل تنجيته صغيرًا على خلاف مقتضى الظاهر.

٤- التناسب بين إيثار (الجعل) وبالغ بر عيسى -عليه السلام- لوالدته في قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾ [مريم: ٣٢]؛ لأنّ الجعل مرحلة تالية للخلق في حين أنّ النظم دل على أنّه برٌّ في أصل خلقته، لا أنّه لم يكن ثم كان.وهذا أدل على تشريفه لدوام بره بمن ولدته، ولا يكون من دنس نسبه كذلك ولا من ولدته حقيقةً بأدنى ما وصفت به من دنس من اليهود لعنهم الله. ويلاحظ في صفاته - هنا- اختصاص البر بأمه، وجعل النهي عن التجبر عامًا، فكلما كانت العلاقة أقرب كان العطف أقوى، فعلاقته بأمه أسمى وأعلى؛ لذلك جعل اللفظ الخاص لها؛ لما يستلزمه من الحنو والعطف، ولا يشترط هذا العطف مع العامة، بل يكفي فقط العدل وعدم الظلم.

٥- ارتباط دلالة القيد في شأن عيسى -عليه السلام- في قوله- تعالى-: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾ [مريم: ٣١] وقوله: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم: ٣٣] بهذا الوقت في الإقبال عليه؛ لأنّ التشاجر ابتدأ بيوم مولده، بين متهم لأجل المولد، ومبالغ لأجله، فنبه بسلامته ابتداء من ذلك اليوم؛ لتعلق سياق الإقبال به، وإلا فالمراد الإطلاق لكل وقت ومكان، فهذه القيود لا تراد للاحتراز عن غيرها من الأوقات، بل المراد منها العموم والشمول، لكن حُددت هذه الأوقات للخلاف والجدل فيها، وهذا ملائم للسياق الدقيق في سورة مريم، فلم يكن جانب تكليف الرسالة هو المسيطر عليها، بقدر ما كانت رحمته بوالدته وتبرئته لها أساسًا لرفعته.

لم تقف الباحثة أمام نصوص العلماء موقف النقل من غير إعمال عقل بل نظرت فيها بين التوفيق بينها والترجيح لأحدها ورد بعضها وفقًا لأسس التحليل البلاغي للنظم العلي من اعتبار السياق والمقام ومرتبة المخاطب ومنها:

<u>فمن التوفيق بين الآراء</u>: النظر في تعدد آراء العلماء في دلالة العطف بين الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، في قوله -تعالى-:﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾[آل عمران]، على وجوه مختلفة:

أولها: الخصوص بعد العموم كما فهمه الزمخشري.

ثانيها: الترقي كما فهمه الرازي.

ثالثها: التعظيم كما فهمه البقاعي.

والذي يظهر لي أنّ العطف حاوٍ لكل هذه المعاني السابقة ولا تعارض بينها، وتعدد دلالتها له أثر في علوّ الإقبال عليه بالتأييد بالكتاب بوجوه متعددة: الترقي والخصوص والشمول...والله أعلم.

<u>ومن الترجيح النظر</u> فيما وجه به العلماء إفراد:(آية) في سورة الأنبياء ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾في شأن عيسى– عليه السلام – إلى أحد أمرين:

أ . إما أن القصد أنّها في ذاتها مشتملة لأجزاء متعددة بداية برعاية أمه صغيرة، ثم حملها من غير سبب، وانتهاء بحفظها بعد مولد عيسى – عليه السلام – وتبرئتها على لسان ابنها ثم حفظه هو – عليه السلام – صغيراً أو كبيراً . فكل جزء من حياتهما كان آية منفردة بذاتها،

ب . أو أن في الإفراد دلالة رجوع كل المعجزات إلى ولادته من غير زوج .

والأول عندي أرجح؛ لأنّه لو كان القصد إلى أنّ المعجزات كلها راجعة لولادته من غير أب لكان تُخيّر اللفظ الدال على الولادة ولورد النظم: (ووالدته) ولكنه ورد بـ: (أمه) فالأم هي الأصل، فكأن الأصل في حياتها وحياته الآية والمعجزة، فكل مرحلة من حياتهما هي آية في ذاتها المولد والنشأة حتى الكبر.

وكذلك ماوجه به الزمخشري دلالة: (ما) في قوله تعالى:﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ بإرادة تعلق قلب النبي– ﷺ – بزينب -رضي الله عنها- أو مودة مفارقة زيد إياها؛ بناء على أنّ طموح قلب الإنسان إلى مشتهياته غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع؛ لأنّه ليس من فعل الإنسان، ومن ثم جرى الكلام في ظاهره عندهم على إرادة العتاب أو اللوم.

وذهب الطاهر ابن عاشور إلى: " أنّه ليس في الآية عتاب ولا لوم، ولكنه تذكير بما حصل له من توقيه فالة المنافقين، وحمله كثير من المفسرين على معنى العتاب،، وليس من سياق الكلام ما يقتضيه فأحسبهم مخطئين فيه".

ورأي ابن عاشور الراجح –عندي– إذ يمنع من توجيه الزمخشري سياق سورة الأحزاب المبني على تكريم النبي –ﷺ– وخصوصيته في الإقبال خصوصية جعلت اطراد الإقبال فيها عليه أعلى من غيرها.

ثم سياق المدح وصفاء الخطاب ومدافعة الله عنه والثناء عليه بتفرده بجوانب التكريم – كما تقدم في صريح الإقبال– كل هذا يمنع من إجراء الكلام على ظاهره، ويستلزم سلكه في العدول إقبالاً عليه،، ومن ثم يكون تأويل الخبر في قوله: ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ على الحث والتشجيع للنبي –ﷺ– وليس على العتاب واللوم.

<u>ومن الرد استبعاد آراء العلماء</u> **في تعيين المتعلق**:﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ فظهر لي أنّه لا داعي لتعينها؛ إذ إنّ إطلاق المتعلق أدلّ على علوّ الإقبال للتنبيه على كمال عناية الله –ﷻ– به في كل أمره، إذ إنّه ما من وجه يحتمل الإضلال بأي معنى، وعلى أي متعلق إلا تدخل عناية القدرة لهدايته.

وكذلك رد توجيه ابن عاشور التوكيد بـ: (إنّ) في قوله –تعالى–: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر : ٨] إلى أنّه تمثيل لحال الرسول –ﷺ– بحال من أغفله التحسر عليهم من التأمل في إمهال الله إياهم فأكدّ له الخبر.

والذي يظهر لي أنّ هذا لا يتلاءم مع جانب الإقبال عليه –ﷺ– لأنّ التنزيل يكون لمراعاة أمر يتناسب مع أمر المخاطب وهو بعيد عنه –ﷺ–.

ورد توجيه العلماء نداء نوح لربه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [هود: ٤٥] بأنّه كان بعد إغراق القوم واستواء السفينة على الجودي، وعللوا لوجود الفاء العاطفة في الجملة المفسرة للنداء: ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾[هود: ٤٥] أنها أتت على مقتضى خلاف الظاهر؛ لأنّ الجملة المفسرة للنداء الأصل فيها أن ترد مفصولة، فورودها إشارة إلى تردده في الإقدام كما عُلم من قوله – تعالى–: ﴿ إِلَّا

﴿ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ [هود: ٤٠] ولكن غلبته العاطفة فدعا ربه، وموقع الآية يقتضي أنّ نداء نـــوح – عليه السلام – كان بعد استواء السفينة على الجودي؛ إذ دعاه إليه داعي الشفقة فأراد نفع ابنه في الآخرة بعد اليأس من نجاته في الدنيا.

ويظهر لي أنّ النداء الثاني معطوف على النداء الأول، وهذا مما ذكر الإمام عبدالقاهر الجرجاني في عطف الجملة على الجملة الأولى وليست على الجملة التي قبلها؛ وذلك لتتابع أحواله – عليه السلام – في الموقف، فبعد أن يأس من استجابة ابنه لجأ إلى دعاء ربه، أي أنّه حين فقد السبب الحسي للإنجاء لجأ إلى المعنوي بدعاء الله –عز وجل– وهذا أقرب – فيما يظهر لي – نظراً لتقارب أسلوبي النداء ، ولأنه لا يعقل أن يدعو سيدنا نوح بهذا الدعاء اعتراضًا على إهلاكه.

وكذلك رد توجيه الشهاب للشرط في قوله تعالى: ﴿ وَإِن ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ بأنّ فيه نوع توبيخ، ذلك أنّه إذا وبخه على طلب ما اقترحوه تعريضًا كان توبيخهم أجدر وأنسب بقوله: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ بصراحته في التعريض.

ومن ثم كان فيه شيء من اللوم والتوبيخ على طريق التعريض في خطابه – صلى الله عليه وسلم – ولهذا تناسق عنده – على حسب مقتضى الظاهر – مع النهي في قوله في نهاية الآية: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ على وجهين:

٣) إما أن يكون على تحقيق مناط النهي الذي هو الوصف الجامع فيه – صلى الله عليه وسلم – بصفتهم وهذا هو الذي ذهب إليه الشهاب.

٤) أو أن يكون على وجه من الشوب في الإقبال كخطاب الله لنوح – عليه السلام – ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[هود: ٤٦] وهو ما ذهب إليه ابن عطية (حيث عدّ الوجه القوي في الآية –عنده– أن يكون قد جاء – بحسب الأمرين اللذين وقع النهي عنهما والعتاب فيهما– متشابهًا مع قوله –تعالى–: ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[هود: ٤٦] ، بل إنّه ذكر أنّ الأمر الذي نهي عنه محمد –صلى الله عليه وسلم– أكبر قدرًا، وأخطر مواقعةً من الأمر الذي وقع لنوح –عليه السلام–.

وكلا الوجهين عندي غير وجيه، فلاهو على التوبيخ تعريضًا كما ذهب إليه الشهاب، ولا على الشوب تصريحًا كما ذهب إليه ابن عطيه، بل هو عندي على المدح صفاء في

الإقبال؛ ذلك أنّ سياق الآيات من قوله -تعالى-: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٣] إلى قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[الأنعام: ٣٧] إنما جاء لتأنيسه - ﷺ - وتسكين قلبه وللإشارة إلى ظهوره عليهم في قوله: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[الأنعام: ٣٤] أي وأنت كذلك، فهذا السياق الحاني الذي بربت على كتفه-ﷺ- لا يعقل أن يتأتى فيه تأويل النهي على حقيقته؛ لأنّ ذلك خروج عن الغرض المسوق له الكلام، بالإضافة إلى نبوه عن السياق.

ومن ثم صرفه الحرالّيُّ إلى خلاف مقتضى الظاهر عدولاً في التركيب إلى الثناء عليه -ﷺ- بشدة حرصه على هداية قومه رأفة بهم ورحمة وفق الجبلّة والطبع الذي طبع عليه من الشفقة مع المخالفين، وفهم الكلام على الاستعارة التمثيلية.

توصيات البحث:

من خلال تتبع خصائص نظم القرآن في الإقبال على أولي العزم من الرسل عند الحرالّيّ يوصي البحث بما يلي:

١- تتبع أساليب القرآن وفقًا لمقاييس الحرالّيّ للاهتداء إلى بلاغة تطبيقية تختص بإعجاز القرآن الكريم، وفق ضوابط وأسس أشبه بقواعد الخطيب التعقيدية؛ ذلك أنّ البلاغة التقعيدية قاصرة في كثير من جوانبها عن استكشاف جوانب الإعجاز القرآني، إما لقيامها بغرضها التعليمي، وإما لسمو الأسلوب القرآني عن التنظير بغيره من أساليب البشر، ومن ثمّ جرت الحاجة ماسّة إلى تتابع مثل تلك الدراسات لاستنباط أسس الأسلوب القرآني وقواعده وفق ضوابط كلية.

٢- كما يوصي البحث بقيام مشاريع بحثية تخدم مجالات الدراسات البلاغية المتنوعة، وفق رؤية موحدة ومنهج متكامل، تبدأ من حيث انتهت الباحثة وتتكامل للوصول إلى تصحيح الضوابط البلاغية، أو تكميلها، أو تجديدها.

والله ولي التوفيق.

الباحثة:

سهير بنت عيسى مرعي القحطاني

الرقم الجامعي

٤٣٠٧٠٠٧٥

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية*

* ماقبل الفاصلة وتحته خط رقم الآية وما بعدها موضعها في البحث.

فهرس الأحاديث النبوية

الحديث	الصفحة
• "أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ ..."	٣٤٣
• "أقربُ ما يكونُ العبدُ مِن اللهِ وهو ساجدٌ"	٢٢٧
• "أَمْسِكْ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ..."	١٠١
• "أنا سيدُ ولدِ آدم..."	٢٦٧
• "إنكم ترون ربَّكم..."	٣٥٣
• "بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَى: لَا، فَأَوْحَى اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- إِلَى مُوسَى بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ..."	٣٨٢
• "أن يُرى الهلالُ قبلا..."	٢٠
• "أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ..."	٣٣٥
• "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعبدُ اللهَ وحدَه لايُشركُ به شيئًا..."	٣٩٨
• حديث الاسراء والمعراج	٢٩٩
• "سماه الله -تعالى- باسمين من أسمائه..."	٢٨١
• قُمْ أبا تُرابٍ، قُمْ أبا تُرابٍ..."	٢٢٤
• "ما أرى ربك إلا يسارعُ في هواك..."	١٦٩
• "ما أرى شيطانك إلا قد تركك."	٢٢٩
• "مَا فَرَضَ اللَّهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ ؟..."	٩٧
• "وصلوا عليّ فإنّ صلاتكم تبلغني حيثُ كنتم ..."	٢٩٢
• "واللهِ لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا..."	٧٦

فهرس الأشعـار

القافية	البيت	الصفحة
ولا ببار	وما أنت إن غضبت عامرٌ لها في قبال ولا في دبار	١٩
كليم	وأنتِ التي قطّعتِ قلبي حزازةً وقرّفت قرح القلب فهو كليمُ	٩٢
جثوم	وأنتِ التي كلفتني دَلَجَ السرى وجُون القطا بالجلهتين جثومُ	٩٣
البشام	أتنسى ، إذ تودّعنا سليمى بفرعِ بشامةٍ؟ سقي البشامُ	٣٧٤

فهرس القواعد البلاغية في أساليب الإقبال على أولي العزم:

قائمة المصادر
و المراجع

مصادر البحث ومراجعه

المصادر:

- أبو الحسن الحرالّيّ المراكشي آثاره ومنهجه في التفسير، محمادي الخياطي، ط١، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
- أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمر جار الزمخشري، ط من دون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ت: محمد الفاضلي، ط١، صيدا، المكتبة العصرية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، ت: عادل عبد الجواد، علي معوض، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ط١، بيروت، مؤسسة التاريخ، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- تعبير الحق عن ذاته، عز الدين علي السيد، ط١، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- التعبير القرآني، فاضل السامرائي، ط ١، دار عمار، عمان، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.
- التفسير الكبير، الفخر الرازي، ط٤، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- التوشية والتوفية ضمن كتاب " تراث أبي الحسن الحرالّيّ المراكشي في التفسير"، علي بن أحمد الحرالّيّ ت: محماديّ الخياطيّ، ط١، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ت: محمود شاكر، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين الألوسي، ط١ بيروت، دار الكتب العلمية ، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١ م.

- العروة للمفتاح الفاتح للباب المقفل المفهم للقرآن المنزل ضمن كتاب :"تراث أبي الحسن الحرالّيّ المراكشي في التفسير" أبو الحسن علي بن أحمد الحرالّيّ، ت: محماديّ الخياطيّ، ط1، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٣، ٢٠٠٥م – ١٤٢٦هـ.
- لسان العرب، ابن منظور، ت: عبد الله علي الكبير، محمد الشاذلي، ط من دون، دار المعارف، بيروت.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، ط٢، ت: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، السيد عبدالعال إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٣هـ- ١-٩٩٢م.
- مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني، بيروت، دار الإرشاد الإسلامي ضمن شروح التلخيص.
- مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل "ضمن كتاب " تراث أبي الحسن الحرالّيّ المراكشي في التفسير، علي بن أحمد الحرالّيّ، ط١، مطبعة النجاح، الدار البيضاء ١٤١٨هـ -١٩٩٧م.
- المفردات في غريب القرآن" الراغب الأصفهاني، ط ٣، بيروت، دار المعرفة، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم البقاعي، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

المراجع:

- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي، ت: أنس مهرة ، ط١، دار الكتب العلمية – لبنان – ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م
- أسباب النزول" علي بن أحمد الواحدي، ط٦، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ت: محمود شاكر، ط٥، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٤م.

- "أسرار ترتيب القرآن" جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦م.
- أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة" نخبة من العلماء، ط١، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ١٤٢١هـ
- الأعلام، خير الدين الزركلي، ط٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤ م.
- البرهان في علوم القرآن؛ بدر الدين الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار الفكر، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، ت: محمد علي النجار، ط من دون، المكتبة العلمية، بيروت.
- بيان إعجاز القرآن ضمن(ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، ت: ط٤، دار المعارف، القاهرة.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسيني، ط من دون، دار الهداية، بيروت،
- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل علم البيان، د.محمد محمد أبو موسى، ط٥، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، ط من دون، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة بنت عبدالرحمن، ط من دون، دار المعارف، مصر.
- الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، ت: فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ، الشهاب الخفاجي، ط من دون، دار صادر، بيروت.
- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، د. محمد محمد أبو موسى، ط٥، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٢هـ - ٢٠٠م.
- دلالات التراكيب، د.محمد محمد أبو موسى، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨- ١٩٨٧م.

- دلالة القرآن المبين على أن النبي أفضل العالمين، أبو الفضل عبدالله بن الصديق الغماري، ط من دون، جمعية آل البيت للتراث والعلوم الشرعية، فلسطين.
- ديوان جرير، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
- ديوان الحماسة، أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، ت: عبدالله عبدالحليم عسيلان، ط من دون، المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض،١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبد النور المالقي، ت:أحمد الخراط، ط من دون، مجمع اللغة العربية ، دمشق.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم الجوزية، ط٢٧، دار الرسالة، بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.
- السنن الكبرى، للنسائي ،ت: شعيب الأرنؤوط، ط من دون، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، ط من دون، دار الكتب، دمشق.
- سيرة ابن هشام؛ عبد الملك بن هشام،ط من دون، مصطفى السقا وآخرون، تراث الإسلام، القاهرة.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبدالحي بن أحمد الدمشقي "ابن العماد الحنبلي" ط من دون، دار الكتب العلمية، بيروت.
- شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول، د.محمد محمد أبوموسى، ط٢، ١٤٣٢هـ-٢٠١٠م، مكتبة وهبة، القاهرة.
- شرح الرضي على الكافية، محمد بن الحسن الأستراباذي، ت: يوسف حسن عمر، ط من دون، جامعة بني غازي، بني غازي.
- شرح العقيدة الطحاوية" علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي،ط١، مؤسسة الرسالة،بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- شرح مشكل الآثار، أحمد بن محمد الطحاوي، ت: شعيب الأرنؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة، لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

- شعب الإيمان للبيقهي، ت: محمد السعيد بسيوني زغلول، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤١٠هـ.
- الصارم المسلول على شاتم الرسول، محمد بن عبدالحليم ابن تيمية، ت محمد عبدالله عمر الحلواني، محمد كبير شودري، ط١، ، دار ابن حزم، بيروت،١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، ت: محمد زهير الناصر، ط١، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبدالباقي، ط من دون، دار إحياء التراث، بيروت.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي، ط من دون ، دار الإرشاد الإسلامي، بيروت.
- على طريق التفسير البياني، فاضل صالح السامرائي، ط من دون، جامعة الشارقة، الشارقة، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، أحمد بن أحمد الغبريني، ط٢، ت: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٩م.
- القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدّرة، راجعه: محمد كريم راجح، ومحمد فهد خاروف، ط من دون، مكتبة كنوز المعرفة، جدة.
- الكتاب، سيبويه، ت: عبدالسلام هارون، ط من دون، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م.
- الكليات: أبو البقاء الكفوي، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي، ت: بكري حياني، وصفوت السقا، ط٥، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م .
- المبني للمجهول تراكيبه ودلالته في القرآن الكريم، شرف الدين الراجحي، ط من دون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين ابن الأثير، ط من دون، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهر.

- المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده، ت:خليل إبراهيم جفال، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤١٧هـ -١٩٩٦م.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين؛ ابن قيم الجوزية، ت: محمد الفقي، ط من دون، دار الفكر.
- مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط٢، موسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
- معاني الأبنية في العربية، فاضل صالح السامرائي، ط١، دار عمار للنشر، عمّان،١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- معاني القرآن وإعرابه ، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، ط١،عالم الكتب بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .
- معاني النحو: د. فاضل صالح السامرائي، ط ٢، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٣م – ١٤٢٤هـ.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم؛ محمد فؤاد عبدالباقي، القاهرة، دار الحديث، ط ٣، ١٤١١هـ – ١٩٩١م.
- المُغْرِب في ترتيب المعرب، أبو الفتح ناصر الدين بن عبدالسيد بن علي المطرزي ت: محمود فاخوري وعبدالحميد مختار، ط١، نشر مكتبه أسامه بن زيد، حلب، ١٩٧٩.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، أبو محمد عبد الله بن هشام،ط من دون، ت: محمد محي الدين، القاهرة، دار الطلائع.
- مفتاح العلوم، يوسف بن محمد السكاكي، ت: عبد الحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.
- مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي ، ط ١، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.
- مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ابن يعقوب المغربي، بيروت، دار الإرشاد الإسلامي..

- وفيات الأعيان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، ت:إحسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م.

الرسائل الجامعية والبحوث المنشورة:

- **الرسائل الجامعية:**

- اعتراضات الشيخ محمد الطاهر بن عاشور البلاغية في التحرير والتنوير: عرض وتأصيل ودراسة (علم المعاني) علي عبد الحميد أحمد عيسى، أطروحة دكتوراه، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، بأسيوط، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
- صيغ المبالغة وطرائقها في القرآن الكريم دراسة إحصائية صرفية دلالية، كمال حسين صالح، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٥م.

- **الأبحاث المنشورة:**

- أبو الحسن عليّ بن محمد الحرالّيّ الأندلسي شخصية اخترقت المكان إلى المكان والزمان إلى الزمان" محمّد رضوان الداية، مجلة "الأندلس" مجلة رقمية، مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات، العدد الأول.
- رسائل أبي الحسن الحرالي في قوانين فهم القرآن: د عبدالرحمن الشهري، موقع ملتقى أهل الحديث الإلكتروني.
- المنهج الدلالي: الأسس والمكونات قراءة في تفسير الحرالّيّ المراكشي، د. عبد الرحيم مرزوق، مجلة الإحياء، ع٢٨، إصدار الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب،٢٠٠٨م.

فهرس الموضوعات